الأب الياس زحلاوي

من أجل فلسطين

تقديم

أنطون مقدسي

الأب الياس زحلاوي

من أجل فلسطين

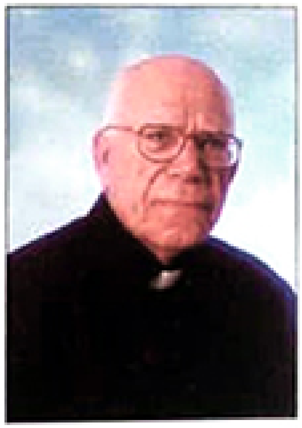

... أما في أرض إسرائيل، فغير اليهودي لا وجود له. وإسرائيل ليست بحاجة إلى السلم، بل إلى المال، والتربية فيها نازية، والإعلام لا يخشى التزوير وقلب الحقائق رأساً على عقب.

هذه مبادىء يلتقي على صعيدها اليسار مع اليمين.

الأب الياس زحلاوي

من أجل فلسطين

تقديم

أنطون مقدسي

* من أجل فلسطين
* الأب الياس زحلاوي
* الطبعة الأولى ٢٠٠٤
* جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر
* الناشر: دار عطية للطباعة والنشر والتوزيع
* الضبية: تلفون: ٠٣/٦٢٠٣٩٩
بيروت - لبنان

المقدمــــــة

بقلم أنطون مقدسي

الأب الياس زحلاوي

أنت كاهن إلى الأبد

على رتبة ملك الصدق

مزمور (١١٠)

كان في السادسة والعشرين من عمره عندما نذر نفسه خادماً لأبناء يسوع مريم. "ما جاء ابن الإنسان ليُخدَم بل ليَخدُم". (متى ٢٠/٢٨)

والكاهن خادم.

منذ ذلك الحين لم تعد له حياة خاصة، لم يعد ملك ذاته. صار لأبناء يسوع ومريم. كل إنسان ابن يسوع ومريم. لا فرق عنده بين طائفة وأخرى، بين دين ودين، بين غني وفقير، بين كبير وصغير، بين مؤمن وملحد...

إنه لكل إنسان بحاجة إليه.

قال: مَن هو قريبي؟

أجاب: الذي رآني ملقىً على قارعة الطريق، جريحاً، فحملني وأخذني إلى حيث تُضمَد جراحي (لوقا ١١/٣٠ وما يلي).

والأب زحلاوي صلى ليسوع كي يجعل منه سامرياً يواسي جراح أبنائه.

كثيراً ما يضرب لي موعداً ويخلف بوعده. صرت أعرف أنه لقي أمامه على الطريق جريحاً ينزف، فحمله إلى حيث تُضمّد جراحه، فتعود إليه الثقة بذاته وبالذي خلقه.

كلنا بمعنى ما جرحى يا أبتِ، فصلِّ يا أبتِ كي يلتفت إلينا الذي يضمِّد الجراح.

"أسكب أمام الرب تضرعي.

"وعن أحزاني لديه أُخبِر". (مزمور ١٤١/٣).

توثقت العلاقة بيني وبين الأب زحلاوي خريف عام ١٩٦٧ بمناسبة استيلاء السلطة على المدارس الخاصة، المسيحية منها والإسلامية. عبثاً كنت قد بذلت أقصى جهد ممكن، بتكليف من وزير التربية آن ذاك، صديقي المرحوم سليمان الخش، لإقناع السلطة الكنسية بقبول المدير الإضافي الذي رأى حزب البعث أن يسهر على الإدارة القائمة كي تكون المدارس كلها، الرسمية منها والخاصة، موحدة البرامج والآيديولوجيا.

قلت يومها: جَهل متبادَل.

فالسلطة الكنسية لا تعرف– وتصرّ على ألاّ تعرف – حقيقة أجيال تكوّنها منذ أوساط الأربعينيات عدوى النظام السوفييتي، فترى من واجبها القومي إخضاع المرافق الاجتماعية كلها، ومنها بالدرجة الأولى الثقافة والتربية، لسلطة القيادة السياسية.

كما أن السلطة السياسية من جهتها أتت إلى الحكم إثر انقلاب عسكري عادي، أعلن ذاته ثورة، وأخذ يعمل كل ما يمكن عمله ليقنع ذاته بأنه قام حقاً بثورة. وما نزال حتى اليوم أسرى هذا الوهم.

قلت وأقول: إن إحدى سمات الإنسان المتخلف هي أنه يخشى أكثر ما يخشى مواجهة ذاته، فهو دوماً يجهل حدوده، سيان في ذلك الحاكم والرعية.

ويطلب مني يومها الأب زحلاوي أن أحاضر في الاجتماعات التي يعقدها المسيحيون للم شملهم المبعثر، فتنشأ بيني وبين الشبان والشابات الذين يستمعون إلى محاضرتي، صداقة أخوية أحفظ لها أطيب الذكريات، وتتوسّع حلقات الشباب، فيسعدني أن أسهم في تكوينهم ثقافياً مع الأب زحلاوي.

هذه كانت النواة الأولى لمؤسسة أنشأها بُعيد عام ١٩٦٨ بإلهام رباني الأب زحلاوي، وأطلق عليها اسم رعية جامعة. وتعجبني كلمة (رعية) لأن الكاهن راعٍ، يسير، يجب أن يسير على درب الذي قال عن نفسه: "أنا الراعي الصالح، أعرف خرافي وخرافي تعرفني" (يوحنا ١٠/١٤).

وتنتقل بسرعة عدوى (الرعية الجامعية) إلى العديد من كنائس دمشق وحلب، فثمة رعية للأرثوذكس وغيرها للأرمن.... ومع الزمن صار لكل كاهن نشيط رعية ضمن حدود "كنيسته".

هذه التعددية مفيدة شريطة أن يكون التنافس على الأحسن، لا أن يتحول إلى صراع سرعان ما يأخذ منحىً طائفياً. إذ المطلوب هو "تحصين" الشبان والشابات أخلاقياً وروحياً في مواجهة عالم، كثيراً ما تصير فيه السينما والمجلات المصورة والإعلانات وسائل دعاية لتجاوز القيم الأخلاقية.

كنت وما أزال أفضل رعية الأب زحلاوي لأنها مفتوحة لكل من يرغب في الإسهام بنشاطها، محاضراً كان أم محاوراً أم مستمعاً، سيان في ذلك الانتماء الطائفي أو الالتزام السياسي.

برنامج الرعية محدّد وواضح المعالم يقوم على الأركان التالية:

١- الصلاة، وبالدرجة الأولى الذبيحة الإلهية في كل يوم من أيام لقاءات الرعية. وقد رتبه الأب زحلاوي بشكل يعطي المبادهة للحاضرين، إذ تُقرأ رسائل القديس بولس وغيره، وصفحات قليلة من الإنجيل الطاهر، تلي كل منهما تأملات روحية حرة من قِبل أفراد الرعية شباناً أو شابات.

وتجري اللقاءات السنوية أثناء العطلة الصيفية في الزبداني وصافيتا وفي غيرها من المناطق، حيث تتم الصلاة والقراءات الروحية والمحاضرات قبل وبعد النزهات الترفيهية. وكنت أرافق الأب زحلاوي في العديد من هذه اللقاءات، وأحرص أكثر ما أحرص على تدريب أفراد الرعية كي يتمكنوا من قراءة النصوص الروحية والتأمل فيها، كل منهم وفق حاجته وأوقات فراغه.

٢- التأكيد على الانتماء إلى الرب يسوع الواحد وإلى الأرض العربية.

٣- السلوك المسيحي والعمل المنتج، فمن جهة، زيارة المعوزين والمرضى، ومشاركة كل منهم بمصابه ومساعدته على تجاوزه بالصلاة وبالمساعدة المالية إذا أمكن.

ومن جهة أخرى إيجاد مقر للرعية في قبو كنيسة القصور، وفيها يمارس الأب زحلاوي خدمته الروحية يومياً، عندما يكون في دمشق. كان هذا القبو مهملاً لقرب سطحه من الأرض، فتبرع أفراد الرعية الجامعية بتعميقه وتوسيعه وإعداده ليكون مقراً لهم. وبين الطلاب، المهندس المدني والمهندس المعماري ومهندس الديكور... والعامل. فبادئ ذي بدء تنظيف القبو من تراكم وُحول ومياه جوفية كان من الممكن على المدى البعيد أن تعرّض أساسات الكنيسة للانهيار.

بضعة أشهر من العمل الجاد على مدة سنة كاملة طوال الأسبوع، ولا سيما يوم الجمعة، فإذا بنا أمام فسحة كبيرة نظيفة مبلطة ومدهونة، فيها غرف ومكاتب ومسرح، مُثلت فيه مسرحيتان للأب زحلاوي: "المدينة المصلوبة"، "الطريق إلى كوجو"، وثالثة لم تُمثَّل هي "وجبة الأباطرة". المسرحيات هذه نشرتها وزارة الثقافة واتحاد الكتاب. ويشكل مع الأب زحلاوي المخرج المرحوم سمير سلمون، فرقة مسرحية باسم "هواة المسرح العشرون"، للتمثيل ولنشاطات ترفيهية كثيرة بمناسبة بعض الأعياد، منها على سبيل المثال "عيد البربارة" حيث يُوزَّع القمح المسلوق مع السكر على الحضور وجلهم من الرعية وأصدقاء الرعية.

وثمة نواة للموسيقى والغناء تتحول إلى جوقة الفرح كما سنرى فيما يلي.

٤- المخيمات والرحلات المدرسية طوال أشهر الصيف يقضيها الأب زحلاوي منظماً ومرشداً روحياً في التلال والقرى الريفية. وإني لأتساءل، وأنا أعيد في خيالي نشاط هذه المجموعات الطلابية طوال حوالي ربع قرن من الجهود والعمل الدائب المجاني، ما نسبة الشباب المسيحي والشابات الذين تسهر على أخلاقهم رعية الأب زحلاوي والرعايا الأخرى، بالقياس إلى العدد الهائل من شباب وشابات يتزايدون بسرعة، ونحن نتركهم وشأنهم تبتلعهم مغريات الحضارة الحديثة؟!...

قلت:

صلوا لرب الحصاد كي يرسل حصادين لحقله (لوقا ١٠/٢) (متى ٩/٣٧).

بعد الرعية جوقة الفرح:

لقد حرم الرب الأب زحلاوي مبكراً من صوته الرائع، ليعيده إليه في عشرات أصوات الأطفال والشابات والشبّان الذين تتألف منهم (جوقة الفرح). هذه أسسها عام ١٩٧٧ بعدد ضئيل من الأطفال، درّبهم على الإنشاد الروحي البيزنطي وغيره، ثم القومي والاجتماعي، تنمو مع الأيام فيصير عدد الملتزمين بنشاطاتها ٤٥٠ ونيف موزعين على أربع فرق:

الكبرى: وتضم رجالاً ونساء وشباناً وشابات تجاوزوا الجامعة ويمارسون عملاً ما.

الجامعية: وتضم شبّاناً وشابّات من الجامعة.

الوسطى: وتضم طلاباً وطالبات بمستوى الصفوف الثانوية.

الصغرى: وتضم طلاباً وطالبات الصفوف الابتدائية والإعدادية.

وثمة فرقة خامسة للذين هم في طور الإعداد موسيقيا للانتماء إلى الجوقة. عندما يصيرون أهلاً لذلك، يدربهم الكبار.

لقد نظّم الأب زحلاوي الرعية الجامعية بشكل يجعلها تدبر شؤونها بذاتها بإشرافه. وكذلك جوقة الفرح التي تكاد تكون مستقلة تماماً عنه من حيث التدريب والأداء والنمو الذاتي. فقد كوّنت شعراءها باللغة المحكية وباللغة الفصحى، وملحنيها أيضاً، ومنشديها بالإنشاد الفردي والجماعي، يسعفهم أحياناً بالتلحين وأيضاً بالإنشاد، المنشد الكبير وديع الصافي، كما يحيي معهم بعض الحفلات. ووجوده يرفع مستواهم الغنائي ويزيد من ثقتهم بأنفسهم.

وترافق جوقة الفرح آلات موسيقية قليلة العدد تدعم الإنشاد وتبرزه. هذه كانوا يطلبونها، من المعهد الموسيقي، وها هم اليوم يكوّنون أيضاً عازفيهم. ويبدو أنه في أقل من سنة منذ الآن سيكون استقلالهم كاملاً من تدريب المبتدئين، حتى الحفلات التي سيحيونها للجمهور في دمشق وخارج دمشق وفي لبنان وأوروبا.

لقد شهدت شخصياً منذ البداية ثلاث حفلات للجوقة: الأولى في كنيسة القصور، يرافقهم وديع الصافي بالإنشاد وابنه جورج بالكمان. الحفلة الثانية في الكنيسة البطريركية في حارة الزيتون، حضرها غبطة البطريرك وبعض الأساقفة والكهنة. الحفلة الثالثة في كنيسة أبو رمانة. والحضور ينتخبهم الأب زحلاوي ممن يعتقد أنهم معنيون بالغناء والموسيقى، لا فرق هنا بين كاهن أو راهبة، بين مسلم أو مسيحي... فالكل سواسية أمام خالقهم.

ويسأل صديق متخصص بالموسيقى الشرقية، نشرت له وزارة الثقافة كتابين عن هذا الموضوع، قال: بقيت وزارة الإعلام تراوح سنوات ضمن حدود فرقة أمية للغناء والرقص، مستواها هو هو رغم المبالغ الكبيرة نسبياً التي ترصدها سنويا لهذه الفرقة، في حين أن جوقة الفرح، تقفز بسرعة من مستوى إلى أعلى.

قلت: بأن زبائن الوزارة موظفون مأجورون. أما عناصر جوقة الفرح فهواة، كرّس كل منهم شطراً لا يستهان به من حياته لخدمة الرب. يفرحون ويفرِّحون مستمعيهم، لا لغرض سوى الخدمة:

"مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا". (متى ١٠/٨).

كل شيء مجاني في عالم الأب زحلاوي. فلا تطلب الجوقة أجراً من مستمعيها إلا إذا استأجرت صالة وكرّست الريع لمشروع خيري، وهذا أمر استثنائي.

ولقد رأيت النسوة يتقدمن بعضهن بعد الاحتفال، ترجو كل منهن أن يُضم ابنها الصغير إلى الجوقة. فلا يرفض بل يحوّل الولد إلى لجنة تسبر موهبته الموسيقية. فإذا أنست فيه استعداداً ما حوّلته إلى فرقة المتدربين، تخصص له الوقت اللازم كي يمارس موهبته الإنشادية. فإذا نجح بعد سنة أو أكثر من التدريب ضموه إلى الفرقة التي تناسب سنه وموهبته. ولكل فرقة من الفرق الأربع التي ذكرت قائد، قد يكون شاباً أو شابة يقودها عند الإنشاد، بعد أن كان خصّص الوقت اللازم لتمرينها على الأناشيد المطلوب أداؤها.

قلت للأب زحلاوي بعد أمسية الجوقة الوسطى بكنيسة أبو رمانة: إن الصبية التي تقود هذه الفرقة لا يقل إتقانها، ضمن حدودها طبعاً عن إتقان جوقة سمعتها في أوروبا.

أجاب: وما نزال في أول الطريق.

أردفت: إن ما سمعته في هذه الأمسية إذا ما تكامل في الاتجاه ذاته طوال سنة أو سنتين، فقد يشكل معزوفة لا نخجل منها إذا قارناها مع معزوفة هندل الشهيرة "المسيح".

وتتجاوز جوقة الفرح حدود دمشق لتنشد مراراً في بيروت وفي مدن لبنانية وسورية أخرى. تنتقل بعدها إلى مدن فرنسا وهولندا وألمانيا وبلجيكا ومعهد العالم العربي في باريس عام ١٩٩٥، وحيث تنشد الجوقة في أوروبا، يصير أفرادها ضيوفاً عند أهل البلد. ويغطي نفقات سفرها

متبرعون جلهم كانوا من الأصدقاء المسيحيين والمسلمين، من عرب وأجانب، ومن أبناء الرعية الجامعية وسيدة الصوفانية.

وتشترك الجوقة ثلاث مرات مع جوقة الشيخ حمزة شكور، منشد مسجد بني أمية: مرة في ساحة كنيسة حارة الزيتون، ومرة أخرى في الجامعة الأميركية في بيروت، وصلة من كل جوقة بالتناوب حتى ينتهي الاحتفال بوصلة مشتركة، وفي المرة الثالثة، أقيمت الأمسية في قصر المؤتمرات بالاشتراك مع وديع الصافي مساء ١٤ تشرين الأول ٢٠٠٢.

وأروع ما سمعت للجوقة جنّاز الصليب في كنيسة القصور بفرقها الثلاث، مرة بالتناوب ومرة الثلاثة دفعة واحدة، فالكنيسة لا بل العالم صوت واحد يأسى لوفاة ابن الله ويبشر بقيامته.

في خدمة سيدة الصوفانية:

هذه المرة كانت البداية بتحريض من شبّان وصبايا ألحّوا عليه كي يزوروا بمعيته منزلاً بحي الصوفانية الشعبي، دلت الأم القديسة على أنه خاصتها إذ جعلت زيتاً مقدساً ينسكب فيه من صورة صغيرة لها، وأيضاً من يدي ربة البيت ميرنا أخرس زوجة نقولا نظور، هي كاثوليكية وهو أرثوذكسي.

كان الأب زحلاوي رافضاً لظواهر مثيلة استثارت الجماهير في دمشق حيناً من الزمن، ثم بدا أنها نتيجة تشوش في الرؤية. هذه المرة ردّدت له العذراء ساعة وطئ باب بيتها، ما قاله ابنها الإلهي لتوما: "تعال وانظر،

ولا تكن غير مؤمن" (يوحنا ٢٠/١٦). ويحني الأب زحلاوي رأسه ويقول: يا أم المخلص صلي لأجلنا نحن الخطأة.

ساعتها كان قد نذر نفسه لخدمة عذراء الصوفانية. ويلحق به بعد أيام معدودة الأب يوسف معلولي اللعازري. هذا سيلتصق بسكن العذراء حتى وفاته ويصلي ويسهر كي يبقى البيت نظيفاً أرضاً وروحاً. الأب الياس للخدمة والتبشير في دمشق وفي كل مكان آخر تطلب منه العذراء أن يبشر وحده أو برفقة ميرنا ونقولا.

وكلاهما للصلاة. لم يكونا وحدهما. فثمة كهنة أُخر من كل الطوائف بشكل شبه مستمر يصلون ويطلبون البركة، كل منهما لرعيته. المعلولي والزحلاوي سيكونان شاهدين بامتياز على ظهورات العذراء الخمس وحدها، ثم بالتناوب مع ابنها الإلهي، المستمرة هي والانخطافات الخمس والثلاثين إلى ما شاء الله. بعض هذه الانخطافات مصحوب برسائل، مَرة من العذراء وأخرى من ابنها الإلهي، تحرّض على الصلاة، باستمرار: "صلوا، صلوا، صلوا،..." تحذّر، توجِّه، تؤنِّب، لا تخلو أحياناً من إنذارات، وتؤكد في كل الأحوال العقيدة المسيحية، كما ورثتها الكنيسة عن الرسل والآباء والمجامع المسكونية.

والمعلولي والزحلاوي شاهدان بامتياز أيضاً على حضور العذراء وابنها الإلهي لشفاء المرضى وهداية القلوب. والأخطر شأناً من كل ذلك ظهور جراحات يسوع على جسد ميرنا خمس مرات، أربع منها حتى الآن يوم خميس الأسرار فقط عندما يقع عيد الفصح في يوم واحد عند

الأرثوذكس وعند الكاثوليك. يومها يتجمع المصلون في أرض الديار، وتبدأ الصلاة وتستمر حتى ساعة متأخرة من الليل، ومع نخبة من المصلين حتى الفجر، وتدخل ميرنا في غيبوبة فتُنقَل إلى سريرها. وقد شهدت وزوجتي مرتين ظهور جراحات يسوع في جسد ميرنا بحضور كهنة وأربعة أو خمسة أطباء من عدة اختصاصات ومؤمنون. ميرنا تتألم صامتة تنتظر أن تتحقق إرادة الرب فيها.

وإذا كان ثمة رسالة فهي تمليها على الكهنة.

سكن العذراء مفتوح نهاراً وحتى منتصف الليل للمصلين. وإذا قُرع الباب بعد ذلك يُفتَح فوراً وتُضاء القاعة وتبدأ الصلاة.

يقول يسوع لميرنا أكثر من مرة: "اذهبي وبشري في العالم أجمع" (رسالة ٢٦/١١/٩٨٧). أين؟ كيف؟ يقول أيضاً في رسالة متوجهاً بالكلام إلى ميرنا (٧/١٠/٨٨) "لا تختاري طريقك لأني أنا رسمتها لك". وكان قد وضع لها القواعد التي تجعل صوتها مقبولاً لدى الجميع. قال: "لا تكرهي أحداً فيعمى قلبك عن حبي. احبي الجميع كما أحببتني وخصوصاً الذين يُبغضونك" (رسالة ٢٦/١١/٨٧). أوَ لم يكن يسوع قد قال لتلاميذه الرسل عندما كان بينهم يعلّم: "لم تختاروني أنتم بل أنا اخترتكم" (يوحنا ١٥/١٦).

كانت رحلات ميرنا التبشيرية قد بدأت، أكاد أقول منذ أول بادرة للأم القديسة عندما وجهت الكلام إلينا وإلى ميرنا عبر ميرنا: "بشروا

بابني عمانوئيل. مَن بشّر خلَص، ومَن لم يبشر فإيمانه باطل" (رسالة السبت ١٨/١٢/٩٨٢).

ويصير بيت العذراء منذ ظهوراتها الأولى مكاناً مقدساً يحج إليه البشر، بادئ ذي بدء من دمشق وسوريا، ثم من لبنان والأردن وأوروبا والعالم. وفي ليلة عيد الصوفانية بمناسبة انطلاقتها الأولى ٢٦/١١/٨٢، يصير البيت وبعض كنائس دمشق مزارات للصلاة وطلب البركة لزوار يفدون من البلاد العربية ومن أوروبا والعالم.

وبالمقابل تدعى ميرنا إلى لبنان، إلى الأردن... وإلى العديد من أقطار العالم. وحيث توجد تبدأ الصلاة والذبيحة حيث وُجد كاهن وينجبس الزيت من الصورة ومن يدي ميرنا. فإذا نحن أمام صوفانية أخرى. وتتعدد الصوفانيات أكاد أقول بتعدد رحلات ميرنا التبشيرية.

ويحفظ الأب زحلاوي عن ظهر قلب رسائل الصوفانية يردد شطراً منها حيث تسمح له الظروف. ويبدو لي وأنا أسمع الأب زحلاوي أن الرسائل فقرات من الإنجيل يكتبها يسوع بلغة هذا القرن.

كنت قلت للأب زحلاوي عندما حمل إليّ بشرى ظهور العذراء في الصوفانية، عفوياً وبدون سابق تصميم: "مشوار العذراء يا أبونا عندنا أطول من مشاويرها السابقة"... وتكاد تنفر الدموع من عيني. وكنت أقصد ظهورات لورد وفاطمة... واليوم بعد مرور عشرين عاماً ونيف على الحدث العظيم، يبدو لي أن يسوع يطلب ما صلى من أجله عشية صلبه وردد الصلاة ثلاث مرات:

"ليكونوا واحداً كما نحن واحد" (يوحنا ١١/١٧، ٢١، ٢٢).

قل لي يا أبتِ، ما السبيل لإزاحة ركام عمره (١٥) قرناً ونيف من المشاحنات اللاهوتية على أعلى المستويات الكهنوتية، حول نصوص لاتينية وإغريقية مر عليها الزمن، وتوفى الله الذين يتكلمونها، فلم يعد بإمكاننا، نحن ورثتهم، فهم مقاصدهم على الضبط. ومع ذلك فكل فريق من اللاهوتيين تتملكه العصبية وحرصه المرضي على أبرشيته التي صارت مملكته، فيبذل من التفسيرات ما هو معقول وما هو غير معقول كي يفحم الآخر ويقهره. فكأن التفسير صار غاية بذاته.

قل لي يا أبتِ: أين يسوع، أين صليبه من كل هذا؟

لقد وُجد اللاهوت بالأصل لتسيير الوعظ كي يفهم الناس كلام الرب. فصار غاية بذاته، صار وظيفة اجتماعية لها طقوسها ورتبتها ومراتبها!.

قلت: أهو الصليب بحاجة إلى تفسير؟

للصوفانية هدفان أشرت إليهما: الصلاة والوحدة. عندما قالت سيدة فاطمة للراعي الصغير: يلزمك بعض سبحات الوردية، فلم تسقط المسبحة من يديه حتى ساعة وفاته.

قلت: فليحاسب كل منا نفسه...

ويرضى يسوع اليوم من الوحدة بأقل من القليل، أقصد وحدة عيد الفصح. ولكن الكردينال كذا حدّد، والبطريرك كذا أجّل، والأسقف كذا متردد.

وهذا ما جعل يسوع يقول في رسالة (١٩٨٨/٩/٧): "قولي لأبنائي بأنني أطلب منهم الوحدة، ولا أريدها من الذين يمثّلون عليهم بأنهم يعملون من أجل الوحدة". وينعطف نحونا نحن الذين ليسوا في مركز القرار، ليطلب منا تحقيق ما بوسعنا تحقيقه وهو وحدة القلوب. وهذه تشكل الشرط الأساسي لكل وحدة ممكنة. فيقول: "أبنائي، اجتهدوا أن تروا ذاتكم على حقيقتها ولتروا مدى أمانتكم في تحقيق وحدة القلوب فيما بينكم". ويضيف لتوّه: "تحلّوا بالصبر والحكمة ولا تخافوا إذا فشلتم. اثبتوا على الرجاء، وثقوا بي فأنا لن أتخلى عمن يعمل مشيئتي" (رسالة ٢٠٠١/٤/١٤).

فما يطلبه مني يسوع في هذه الساعة هو أن أرى في كل إنسان أخاً لي من حيث المبدأ، أياً كان انتماؤه الديني أو السياسي. تلك هي بداية وحدة القلوب نحققها، وعليه تعالى ما تبقى. ومن تجليات هذه الوحدة الرعية الجامعية وجوقة الفرح والمخيمات المشتركة والفرق الكشفية التي تنظمها الكنيسة.

إن الذي سيوحّد العيد ويوحد الكنيسة ليس أنا، ليس البطريرك أو الكردينال، ليس الأب الأقدس، بل هو تعالى، شريطة أن نكون أدوات طيّبة بيده إذ نتجاوز انقسامات وانشقاقات وعصبيات نحن استثرناها ونغذيها، كل بنسبة موقعه من السلطة.

نحن الذين نصلي في الصوفانية ونشترك في الذبيحة الإلهية، قلما ننتبه إلى هذه الحقيقة الرهيبة وهي أن هذا البيت المتواضع اختارته أم الله

سكناً لها، وأن الذي يتحدث إلينا في رسائل الصوفانية هو إما أمّ الله وإما ابنها الأقنوم الثاني من الثالوث الأقدس، يعلمنا ويطلب منا بإلحاح متزايد الصلاة ووحدة القلوب.

كلنا مسؤول، يا سيدي، كل بنسبة ما أعطي من وزنات.

إن خير دفاع عن الطائفية يا أصحاب الغبطة، الكردينال والبطاركة والأساقفة، هو تجاوزها. فعند الرب، وفي بيت العذراء لا يوجد أرثوذكسي ولا كاثوليكي، لا يوجد سريان عتيق ولا سريان جديد، لا يوجد مسلم ولا مسيحي.... "إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان" (قرآن كريم).

هذه التصنيفات هي بالتحليل الأخير أُطر نحن البشر وضعناها في ظرف تاريخي محدد لنراعي واقعاً اجتماعياً كان لها ما يسوِّغها تلك الأيام. فعلامَ نجعل منها كيانات قائمة بذاتها كأنها أصنام نعبدها؟

إن كل عقبة يقيمها أي من الفريقين على طريق وحدة العيد وهي الحد الأدنى لما يطلبه اليوم يسوع، هي بمثابة الخطيئة التي لا يغفرها الرب أي التجديف على الروح القدس.

أفلا نخشى أن يقول لنا يسوع ما قاله لليهود بلسان يوحنا المعمدان: "قادر الله أن يخلق من الحجارة أبناء لإبراهيم". (متى ٣/٩).

كاهن عربي في قلب المعركة:

كنيستنا الشرقية بمختلف طوائفها عربية، فلا يمكن إلا أن تكون مع كفاح العرب في فلسطين وخارج فلسطين من أجل حريتهم والحفاظ على أرضهم وتراثهم.

وبالفعل فإن كنيسة فلسطين وجدت ذاتها تلقائياً في خندق واحد مع المقاتلين الفلسطينيين وفي الطليعة بطريرك اللاتين الناصري ميشيل الصباح.

وفي سورية كان قد شق لنا الطريق مطران القدس للكاثوليك، السوري الأصل إيلاريون كبوجي، عندما ضبطته السلطات الصهيونية بالجرم المشهود وهو ينقل بسيارته السلاح للفلسطينيين، وحكمته بالسجن ١٢ سنة.

يقول الزحلاوي بعنوان "عيدك بالأمس، سيدي، لا غداً".

"كان العيد عندي يوم اعتقلت.

وأعظم أعياد المسيحية أليس ذكرى اعتقال يسوع المسيح وتعليقه على الصليب؟.

لا يهمني السبب ولا الاتهامات الموجهة إليك.

قبلك قاوم الصهيونية كهنة وأساقفة قُتِل منهم مَن قُتل وأبعد مَن أبعد.

ولكن باعتقالك دخل الصراع مع الصهيونية مرحلة المحك. ذلك هو إنجازك الأكبر.

مَن يصمت عن اعتقالك... متواطئ.

مَن يتجاهله... شيطان أخرس.

مَن يؤيده.... خائن.

اعتقالك محك للكنيسة العربية والكنيسة الغربية والرومانية.

العيد أن تبقى حيث أنت. ذلك هو إنجازك يا سيدي.

قبل اعتقالك اعتصم العدد الأكبر، وما زالوا، في جدران لاهوت أفيوني يُبرِّر كل غياب عن الأرض" [(١)].

ليس في الأسقفية ما يتنافى والإقامة في السجون دفاعاً عن الحق والأرض والإنسان.

ويسلك درب النضال إياه أسقف دمشق المطران يوسف طويل عندما نُقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية راعياً لكنيسة الروم الكاثوليك فيها، إذ وجد في الخمسين مليون أميركي كاثوليكي وفي أساقفتهم (ويتجاوز عددهم الـــ٣٥٠) –والكاثوليك منتشرون في طول الولايات الأميركية وعرضها– وجد أمامه فسحة ممتازة لمقاومة الإعلام الصهيوني المسيطر بلا منازع هناك. فقام بجهد مستمر ليجمع حوله كبار المثقفين العرب ثم بدأ الاتصال مع الأساقفة الأميركيين الكاثوليك وتمكن بالنتيجة من الاشتراك في مؤتمرهم في واشنطن بين ١١ إلى ١٦ نوفمبر ١٩٧٣، ليشرح القضية الفلسطينية في مراحلها الكبرى. فكان بالنتيجة أن صوّت المؤتمر بإجماع أعضائه على اعتماد القرار ٢٤٢ الصادر عن هيئة الأمم إثر

---

(١)– من كتاب الأب زحلاوي "ومن الكلمات بعضها" نشر عام ١٩٩٧.

حرب حزيران ١٩٦٧، كأساس لمفاوضات تعيد إلى الفلسطينيين أراضيهم المغتصبة [1].

ويتمكن أيضاً من تنظيم تظاهرة سلمية كبيرة على رأسها كاهن عربي وآخر أمريكي وفتاة يهودية أميركية سلّمت قنصل إسرائيل في بوسطن عريضة عليه أن يرفعها إلى غولدامائير رئيسة وزارة إسرائيل إذ ذاك تطالب الدولة العبرية بالاعتراف بحق اللاجئين العرب بالعودة إلى ديارهم. وغولدامائير إياها قالت يوماً في تصريح للإذاعة: لا أعرف مَن هم الفلسطينيون ولا أين هم![2].

والأب زحلاوي بمفرده جبهة متحركة، لا للدفاع عن حق كل الفلسطينيين بكل أرضهم وحسب، فهذا تحصيل حاصل، ولكن لفضح التزوير الإعلامي الصهيوني الذي يغطي الغرب والشرق كليهما بحقائق مزروة، لتعريف العالم بفتيان فلسطين، يواجهون بأجسادهم حفاة عراة أضخم آلة حربية عرفها تاريخ المنطقة.

أقول "جبهة متحركة" لأن الرجل بالمرصاد لكل بادرة تسنح في أي بقعة من بقاع العالم، يعلّق ويشرح، يقيِّم ويقوِّم. فهو يحاضر، يكتب، يشترك في ندوات تلفزيونية، يجيب على أسئلة المذيعين، وقد يأخذ هو المبادهة إذا كان ذلك ممكناً. فقد وجّه حتى اليوم، على ما أعلم، حوالي ٢٥ رسالة إلى سادة هذا العالم ديناً ودنيا، منهم — قداسة

---

(١) "من أجل فلسطين"، صفحة ٤٣٨.

(٢) "من أجل فلسطين"، صفحة ٤٤١.

البابا، هيلدر كامارا، أسقف ولاية رسيفه في البرازيل، الكردينال لوستيجه رئيس أساقفة باريس... – ورجال السياسية – كارتر، ريغن، بوش الابن.. –لا يخشى في الحق لومة لائم. آخر هذه الرسائل لوزير خارجية فرنسا قال فيها "واخجلتاه من فرنسا ديغول تنسى أو تتناسى إرهاب الدولة، يدمر الفلطسينيين لتدين شعباً يأبى أن يُقتلع من أرضه".

يقدم الأب زحلاوي ذاته لأكثر من مناسبة على أنه كاهن عربي مسيحي كاثوليكي، سلاحه الكلمة.

ويكتب: "يوم مُنحت الوجود أصبحت إنساناً ولكن بدون مشيئتي.

ويوم أقول ذاتي "كلمة حرة"، أصبح إنساناً بكامل مشيئتي.

ويوم اخترت الكهنوت شئت للكاهن فيَّ –وهو ذاتي- أن يكون كلمة، أسوة "بالكلمة" المسمى يسوع ابن فلسطين[1].

ويوم يقدم ماري روز أبو حديد بولس، في حفل إحياء ذكراها، هذه الصبية التي اختارت أن تخدم في صفوف الفلسطينيين، فاغتالوها في لبنان، يقول:

"أن تكون أنثى في شرق،

فتأبى ألا أن تصير إنساناً في وطن.

أن تولد فرداً في قطر،

فتأبى إلا أن تحيا مواطنة في أمة...

---

(١) "ومن الكلمات بعضها"، صفحة ٦.

أن توهب المسيحية مذهباً في طائفة،

فتأبى إلا أن تجسدها روحاً في عروبة"[1].

كاهن البرادو والنازية الجديدة:

والأب زحلاوي واحد من كهنة البرادو.

البرادو ليس رهبانية، ليس أي نوع من أنواع المؤسسات الكهنوتية، بل هو تجمع حر لكهنة يوحّد بينهم هدفهم الاسمى والأبعد مدىً، وهو محاولة تحقيق العري الكامل أمام الله والبشر، أسوة بالذي قال عن نفسه: "إن للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكاراً. وأما ابن الإنسان فليس له ما يضع رأسه عليه" (متى ٨/٢٠). يثبتهم في هذا الخط قراءة النصوص المقدسة والتأمل بمضامينها في صمت القلب، أو الخلوة الروحية الفردية والجماعية ومحاسبة الذات. فالكاهن البرادوزي لا يتقاضى أجراً عن خدمة روحية يؤديها للمؤمنين: يعمد، يبارك الزواج، يزور المرضى... أو عن أي خدمة اجتماعية. فهو فقير يعيش مع فقراء، سيان في ذلك الفقر المادي أو الفقر الروحي. "مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا".

يحاسب الأب زحلاوي نفسه قبل أن يحاسب الكنيسة التي قد تنخرها وتنخر أفرادها شهوة المال[2]. يحاسب الحكومات العربية، تدعي نصرة الفلسطينيين وفي الواقع تتركهم وشأنهم يفترسهم الذئب الإسرائيلي. يحاسب الرؤساء على أعلى المستويات. فيكتب إلى الرئيس كارتر: "أنت

(١) "ومن الكلمات بعضها"، صفحة ٥٠٤.

(٢) "ومن الكلمات بعضها..."، صفحة ٩٥-١١١.

مسيحي مؤمن تقرأ الإنجيل... وأخشى أن تكون صنواً لهيرودوس. فهذا لطّخ يديه بدماء أطفال بيت لحم لاعتقاده أن يسوع الطفل بينهم، وأنت تلطخ يديك بدماء الفلسطينيين بتعاونك مع السادات"[1].

ويكرس الأب زحلاوي الشطر الأكبر من مخطوط كتابه الجديد "من أجل فلسطين" للقضية الفلسطينية، فهي في نقطة المحور من اهتمامه، يقرأ لهذا الغرض العديد من أمهات الكتب عن الموضوع ثم يلخص أو يترجم ليخلص إلى الدفاع عن وجهة النظر العربية.

ويجيد الأساليب الثلاثة للكتابة النثرية: التحليلي والشعري والخطابي.

ثمة بادئ ذي بدء جذور المشكلة الثلاثة.

١- عقدة الذنب.

٢- الترابط العضوي بين أميركا وإسرائيل.

٣- تضامن يهود الشتات الكامل مع إسرائيل وسيطرتهم على ثلاثة مراكز القوة في العالم: الإعلام المعمم، المصارف الكبرى التي تسيطر على الاقتصاد العالمي، وأخيراً البحث العلمي.

---

(١) **"من أجل فلسطين"، صفحة ٥٩**

يلي في كتاب الأب زحلاوي دراسة طبيعة دولة إسرائيل العنصرية.

البند الأخير والأهم، تهويد القدس حيث المعركة الحاسمة.

فأوروبا المسيحية هي التي نكّلت باليهود طوال العصر الوسيط تنكيلاً بلغ حد المجازر الجماعية على اعتبار أنهم قتلة المسيح. تلك هي جذور اللاسامية. ثم "جاءت النازية فكانت عصارة الحقد الغربي على اليهود". فكان ما كان من معسكرات الاعتقال الجماعية والإبادة الجماعية أيضاً بالملايين، في حين أن البلاد الإسلامية كانت آنذاك تحتضن اليهود كما تحتضن الأقليات الأخرى، وعلى سبيل المثال فابن ميمون وهو أكبر فيلسوف يهودي في العصر الوسيط، كان باعترافه من مُريدي ابن رشد الفيلسوف المسلم العربي الأندلسي.

المفجع والمخزي هو أن أوروبا، عندما بدأت ترمم ذاتها من آثار الحرب العالمية الثانية، وجدت نفسها غارقة في عقدة ذنب موروثة من العصر الوسيط، رسختها جرائم النازية، فلم تجد سبيلاً للشفاء من مرضها سوى صبّ هذه العقدة على رأس العرب بدعم إسرائيل غير المشروط مالياً (مليارات الماركات من ألمانيا) واقتصادياً وعسكرياً وإعلامياً. وتجيد إسرائيل تحريك عقدة الذنب هذه لابتزاز أوروبا ووضعها، شاءت أم أبت، في خدمة الصهيونية (الصفحات: ١٥١، ١٥٢، ١٥٣).

الأكثر إفجاعاً وخزياً هو أن اليهود، عوضاً عن أن يعتبروا من محاولة النازية إبادهم، أصابتهم عدواها فصاروا نازيين. والفرق بين النازية الألمانية والنازية اليهودية هو أن الأولى انطلقت من شعب مستقر في أرض محددة المعالم "بينما أن النازية الصهيونية تحاول أن تجمع أناساً متناثرين في شتى أرجاء الأرض كي تصوغ منهم أمة تعيش فوق أرض ليست لها".

الفرق الثاني هو أن النازية كانت أيديولوجية سياسية فتتذرع بحجج دينية (أرض الميعاد) لأغراض سياسية، في حين أن أركانها من أمثال هرتزل وحايم وايزمن وبن غوريون وغولدامائير وغيرهم وغيرهم ملحدون. ومع ذلك يرون أن صلتهم بالأرض لا يطالها مرور الزمن. لكأنها أمر قائم بذاته أو مطلق.

أنتم أبناء أبيكم إبليس:

ويهود اليوم ليسوا، ولا يمكن أن يكونوا أبناء إبراهيم. فإبراهيم كان آرامياً، أي سورياً هو وذريته من حيث المبدأ (تثنية الاشتراع ٥/٢٦)، في حين أن يهود الشتات اختلطوا بالمصاهرة مع الأمم التي عاشوا بينها. فهم تركيب هجين. كما أن العهد مع إبراهيم، ارتبط مع موسى بشريعة حُدِدت بنودها بدقة في سفر تثنية الاشتراع، فإذا لم يتقيد بها المتعاقدون، فالرب، كما ورد في خطاب خاتمة التثنية "فسيجد متعة في تدميرك وإبادتك" كما كان يجد متعة في الإحسان إليك وتكثيرك. وسوف تُقتلَعون من الأرض التي تحلّون بها (تثنية ٦٣/٦٢/٢٨).

لنلاحظ بالمناسبة أن تاريخ إسرائيل، كما تسرده الأسفار التاريخية من العهد القديم، هو سيرة شعب مجبول بالخطيئة. فعندما بدأ يستقر في أرض كنعان، سرعان ما تزوج أفراده من كنعانيات وعبد كل زوج إله زوجته. ويغضب الرب فتقع الضربة مرة على الفرد وأخرى على جماعة، ومرة ثالثة على الجماعة كلها. ويبدأ التكفير فيغفر الرب. وتمر الأيام وينسون، فإلى الخطيئة مرة ثانية والعقاب. هذه السيرورة الجهنمية نجدها في تزايد مستمر طوال تاريخ إسرائيل، لم يسلم منها حتى النبي داود وابنه سليمان الحكيم، وتنتهي السيرورة بأن يسلط الرب الدول الكبرى المجاورة لإسرائيل، ومنها بالدرجة الأولى بابل والفرس، على إسرائيل. فثمة الجلاء الأول، والثاني وخراب هيكل سليمان والثاني، إلى أن يغطي المنطقة كلها فتح اسكندر المكدوني وتقسيم المنطقة بين قواده. وأخيراً استعمار روما للمنطقة كلها، وثورة اليهود، فتدمير الرومان للهيكل وبعثرة اليهود في العالم بحيث لم يبقَ يهودي واحد في فلسطين.

السيرورة هذه يستعيدها أنبياء إسرائيل الكتابيون، أي الذين سُجلِت نبوءاتهم، فهي بمثابة وثائق عن المرحلة الممتدة من عهود الملكية الأخيرة وحتى نهاية الكيان الإسرائيلي الموحد والمستقل (القرون ٨ و ٧ و ٦ ق.م.). وقد أخذت عن الكبار منهم (اشعيا، ارميا، حزقيال...) والصغار (عاموس، ميخا، حبقوق...) شكل رؤى تمجد اسم الله العلي العظيم، وتلخص سيرة شعب إسرائيل الذي اصطفاه الله ليجعل منه شعبه المختار. ولكنه صار يخطئ المرة تلو المرة بحياده عن الطريق التي رسمها الله تعالى، فينبهه الله بواسطة أنبياء أو زعماء مخلصين، فيتوب. ولكن سرعان ما "يزني"، فيسلط الله عليه الممالك الكبرى المجاورة. ويكون ما يكون من أمر الجلاء وهدم الهيكل وإعادة بنائه. ومع ذلك فالخلاص آتٍ وسيكون هذه المرة خلاصاً يُدعى إليه البشر أجمعون في كل زمان وكل مكان.

القرون الثلاثة الأخيرة من العهد القديم تروي سيرة ثورات الشعب الإسرائيلي، مرة مع المكابيين للحفاظ على عهد الرب وشريعته، وأكثر من مرة ثورة على الرومانيين الذين ضاقوا ذرعاً باليهود. ففي القرن الأول للميلاد هدم الرومان الهيكل، وأخرجوا يهود العهد القديم مرة ولكل مرة من فلسطين، وشتتوهم في أطراف الأمبراطورية الرومانية البعيدة.

ويبدأ في القرن الأول للميلاد العهد الجديد، عقده يسوع المسيح على الصليب، ومهره بدمه الإلهي. فكل إنسان، كائناً مَن كان، مدعو للانتساب إليه.

لم يُلغِ يسوع شريعة موسى، بل غرس في قلبها شريعته التي تقتصر على وصية واحدة:

"أحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم أنا.

ليس لأحد حب أعظم من أن يبذل نفسه في سبيل أحبائه". (يوحنا ١٥/١٣).

ويقول يوحنا السابق أو المعمدان في بداية بشارة يسوع، يقول لليهود: "قادر الله أن يخلق من الحجارة أبناءً لإبراهيم". (متى ٣/٩).

ويقول يسوع لليهود عندما آنس منهم إرادة صلبه: "أنتم أولاد أبيكم إبليس" (يوحنا٨/١).

ويكتب يوحنا الحبيب في بداية بشارته:

"جاء إلى بيته فما قبله أهل بيته

أما الذين قبلوه وهم الذين يؤمنون باسمه

فقد مكّنهم أن يصيروا أبناء اللّه. فهم الذين لا من دم

ولا من رغبة لحم،

ولا من رغبة رجل

بل من الله وُلدوا (يوحنا ١/١١/١٣)[1].

فدولة إسرائيل وبنتيجة انعزالية شعبها وشتاته طوال حوالي ألفي عام واجترارهم لتاريخهم ومحاولة شرحه وتفسير التفسير، هذه الدولة لا بد أن تكون صارت عنصرية وعدوانية تغذي في نفوس أبنائها الحقد على بقية الشعوب.

الفرق بين دولة إسرائيل الأولى والدولة الثانية هو أن تلك وضعت السياسة في خدمة الدين، في حين أن الثانية تعتبر الدين ورقة من جملة أوراقها الكثيرة تلعبها ما اقتضت مصلحتها ذلك.

يلخص الأب زحلاوي ويعلق على كتاب الدكتور إسرائيل شاحاك مدرّس الكيمياء العضوية في الجامعة العبرية، ورئيس لجنة الدفاع عن حقوق الإنسان في إسرائيل، وهو صهيوني بولوني انتقل إلى إسرائيل على اعتبار أنها أرض الميعاد. فهاله ما رأى، على الخصوص بعد حرب حزيران، من اغتصاب الأرض وتذبيح السكان وتشريدهم. فوضع كتاب "عنصرية دولة إسرائيل" ونشره في باريس، عام١٩٧٥، إخلاصاً للحقيقة. وعنده أن إسرائيل دولة يهودية عنصرية فاشية تيوقراطية إرهابية توسعية، فيها اليهودي وحده إنسان ومواطن، وغير اليهودي عليه أن يخدم اليهودي. وقد بنت الدولة مدناً لا يحق لغير اليهود أن يسكنوا إحداها. ويهود الشتات جزء لا يتجزأ من دولة إسرائيل، فعليهم أن يخدموها قبل أن

---

(١) **"من أجل فلسطين": "دولة إسرائيل، هل هي أرض الميعاد؟" صفحة ١٨٥، ٢٠١**

يخدموا البلاد التي تستضيفهم، ويضعوا ثرواتهم وقدراتهم العقلية والمادية تحت تصرفها. إذ إن الجندي الذي يحارب، فمن أجلهم أيضاً. وكل يهودي يجب أن يكون محارباً قبل أن يكون أي شيء آخر.

والمهمة الأولى التي عليهم كلهم أن ينجزوها هي التهويد، وهذا عميلة كلية تشمل الإنسان والأرض وأماكن العبادة والأشياء والسلوكات وغيرها وغيرها. فالأرض مثلاً لا يتحقق صلاحها إلا إذا تملكها يهودي. وأماكن العبادة غير اليهودية يجب أن تُهدم. الفلسطيني يُطرد أو يصفَّى جسدياً أو يصير يهودياً. فأمريكا الأمبريالية تركت للهنود الحمر مناطق يعيشون فيها، وكذلك في كل دولة تمارس التمييز العنصري. أما في أرض إسرائيل، فغير اليهودي لا وجود له. وإسرائيل ليست بحاجة إلى السلم، بل إلى المال، والتربية فيها نازية، والإعلام لا يخشى التزوير وقلب الحقائق رأساً على عقب.

هذه مبادئ يلتقي على صعيدها اليسار مع اليمين.

الرهان على الفدائي:

عندما ألقى السادات خطبته الشهيرة في الكنيست توجّه إلى نواب الشعب الإسرائيلي قائلاً: أنتم تشكون من أن العالم العربي دولاً وأفراداً لا يعترف بوجودكم، وها أنا الذي أمثل نصف العالم العربي قد أتيت أعلن باسم شعبي أن وجودكم هنا مشروع.

فيجيبه على الفور مناحين بيغن: لسنا بحاجة إلى اعتراف أحد. لقد استعدنا أرض أجدادنا ونحن الآن فيها.

تلك هي مقالة رؤساء إسرائيل وقادها بصريح العبارة من بن غوريون حتى غولدا مائير. أما شارون وأمثاله اليوم فيمدون أرض إسرائيل إلى أبعد من فلسطين ويستندون إلى أن كتابهم المقدس – وهو العهد القديم عند المسيحيين – جاء فيه مرة واحدة أن أرض إسرائيل تمتد من النهر إلى النهر أي من النيل إلى الفرات.

ولهذا فإن دولة إسرائيل لا دستور لها يرسم حدودها ويحدد سلطاتها. والحدود عملياً مرتبطة بقدرة كل فريق على الدفاع عن حدوده. وعلى سبيل المثال فإن حرب حزيران ١٩٦٧ مكّنت إسرائيل من ابتلاع الضفة الغربية باستثناء غزة ومنطقتها، وجعلت بذلك دول الجوار تحت رحمتها، تساوم ولا تتزحزح، لأن الأردن وسورية حتى العراق ومصر صارت على مرمى مدافعها العادية، وأعلنت إذ ذاك القدس عاصمتها الموحدة الأبدية وبدأت بتهويدها.

تلي حرب تشرين ١٩٧٣، وكانت مبادهتها عربية، مما أعاد إلينا بعضاً من كرامتنا المهدورة في الحروب السابقة.

إلا أن الحربين (١٩٦٧ و١٩٧٣) لم تكونا بريئتين بل كانت أمريكا بشكل أو بآخر طرفاً في كليتهما. لنذكر على سبيل المثال أن وزير خارجية أمريكا إذ ذاك اليهودي الألماني الأصل هنري كسنجر تمكن برحلاته المكوكية بين مصر وإسرائيل من عقد صفقة كامب ديفيد وبموجبها تعترف مصر بدولة إسرائيل وتقيم معها علاقات دبلوماسية كاملة مقابل استعادها لشبه جزيرة سيناء.

إلا أن الرصاصة التي اخترقت صدر السادات أدخلت على المعادلة بعداً لم يكن بحسبان أحد، أقصد (الفدائي). فهذا جعل من السادات خائناً، كما أن الفدائيين الفلسطينيين سيدخلون الرعب في قلوب الإسرائيليين ويجبروهم على إعادة النظر في حساباهم التوسعية.

إلا أن إسرائيل ليست وحدها في معركة الشرق الأوسط بل هي شريك مع الولايات المتحدة الأمريكية التي تزودها بالمال والسلاح. ومعلوم أن أمريكا هذه قد احتلت بأساطيلها البحرية والجوية والبرية شبه الجزيرة العربية، أكاد أقول برمتها بحجة حمايتها – بالأحرى حماية البترول – من خطر سوفيتي محتمل. وها هي اليوم، وقد زال الاتحاد السوفييتي من الوجود، تحتل العراق لتسيطر على منطقة الشرق الأوسط برمتها. فرهان العرب عملياً هو على حرب العصابات أي على الفدائي. فهل سيصيب أميركا في العراق ما أصابها في فييتنام؟

قضية شعوب لا قضية ملوك:

يلخص الأب زحلاوي ويترجم الفصل الأخير من كتاب صدر في بريطانيا – كانون الأول ١٩٧٣ أي بعد حوالي شهر ونيف من حرب تشرين – بعنوان (المواجهة)، وقد تُرجم إلى الفرنسية بعنوان (حرب الغفران الحقيقية). والمؤلف ولتر لاكور يهودي مدير معهد التاريخ الحديث في لندن، توثيقه متميز وضعه والكتاب لتسويغ مُسبق للحرب الخامسة التي ستشنها إسرائيل كي تضع حداً نهائياً "لاعتداءات المجانين والمتعصبين" (كذا؟) الذين يتصدون لها. القضية التي دافع عنها الكتاب هي، كما

يلخصه الأب زحلاوي، "صراع بين دولة تتمتع بوجود شرعي ودولي بمقومات اجتماعية وحضارية وعسكرية تستخدمها لتحمي مصالح العالم الغربي كله ليس في منطقة الشرق الأوسط وحسب، وبين دول متخلفة تنكر عليها حقها بالوجود والبقاء"[١].

وفي رأي المؤلف أيضاً أن العالم العربي الذي تحكمه حفنة من الأمراء ومشايخ النفط، تسوده شريعة الغاب، فلا يفهم إلا لغة القوة. ومن الضروري إذاً إطلاق العنان لإسرائيل ودعمها في حربها القادمة[٢].

ما من شك أن الرؤساء والملوك العرب يستحقون صفعة كهذه اليوم، كما منذ ثلاثين عاماً عندما صدر الكتاب.

ولكن المشكلة ليست، يا سيدي، مشكلة ملوك ورؤساء. فالعالم العربي الفسيح تسكنه شعوب تخطط أميركا وإسرائيل لاستعمارها ونهبها، يشاركهما في هذه العملية القذرة حكام عرب يطيب لهم النهب ووضع أرصدتهم في مصارف أميركا. وفي وضع فاجع كهذا لا يبقى أمام الشعب سوى حرب العصابات يشنها في أفغانستان والعراق كما في فلسطين ومناطق أخرى من العالم.

---

(١) "من أجل فلسطين"، الصفحة ٣٥٥.

(٢) المرجع نفسه، صفحة ٣٦٢.

التهويد والهيكل الثالث ومعركة المصير:

ويبلغ الصراع ذروته في معركة التهويد التي بدأت مع تسرب اليهود إلى أرض فلسطين تدفعهم إليها الحركة الصهيونية. ولن تُحسَم في القريب العاجل لأنها معركة وجود أو لا وجود بالنسبة إلينا ولليهود.

وتنشط المعركة بعد حرب الأيام الستة لأنها مكّنت الدولة العبرية من ضم القدس واحتلال الضفة الغربية. ولها في الوضع الراهن خطان، من جهة زرع المستوطنات في طول الضفة الغربية وعرضها وتوسيعها وحمايتها بحيث تُقطِّع أوصال المنطقة العربية.

الخط الثاني هو ضم القدس وتوحيد شطريها، القديم العربي والجديد اليهودي، واعتبارها رسمياً عاصمة دولة إسرائيل الأبدية. وهذا يستلزم إعادة نظر جذرية في بنية المدينة المقدسة بشرياً (ترحيل غير اليهود عنها) وعمرانياً: هدم الآثار الإسلامية والمسيحية، وإنشاء مدينة جديدة ذات وجهين، بحيث تصير عاصمة المال واللهو من جهة، ومن جهة أخرى جعلها يهودية خالصة تكتمل يهوديتها عندما يعيدون بناء الهيكل الثالث، المؤجل في المرحلة الراهنة.

ويستند هذا التعديل إلى ثلاث مسلمات:

الأولى، فلسطين أرض أجداد اليهود، سيان كان ثمة وعد إلهي لإبراهيم أم لم يكن.

الثانية، حدود الدولة العبرية مفتوحة إلى أن يعود اليهود كلهم إليها.

لقد قامت محاولات كثيرة لإيجاد طرق تمكن اليهود والفلسطينيين من التعايش، منها لقاء مدريد، اتفاقات أوسلو... وآخرها خريطة الطريق، وكلها كانت بعلم وموافقة السلطات الإسرائيلية... ولكن هذه ما برحت تسوِّف وتماطل بتأجيل التنفيذ إلى أن يتجاوز الزمن الاتفاق فيسقط تلقائياً.

المسلمة الثالثة، كل الوسائل جائزة بما فيها الغش والتزوير لإلقاء تبعة سقوط الاتفاق المزعوم أمام الرأي العام العالمي على الفلسطينيين.

وبعد فإن أرض فلسطين كأية قطعة أرض من الشرق الأوسط ومصر هي تراكم حضارات الواحدة بعد الأخرى، الواحدة فوق الأخرى، ويبلغ هذا التراكم حده الأقصى الذي لا مثيل له في أية مدينة من مدن العالم كما في القدس.

ولقد تصدّت الآنسة آن ماري غواشون لكشف العمليات التي يقوم بها اليهود لتفكيك هذا التراكم ثم تدمير ما يعود منه إلى الإسلام والمسيحية، وإعادة ترميم ما هو تاريخياً يهودي. الآنسة غواشون في طليعة المتخصصين في ابن سينا كتبت عنه أكثر من دراسة، ولها معجم بمفرداته الفلسفية بالعربية واللاتينية والفرنسية. وهي تجيد العربية والعبرية إلى جانب اللغات القديمة والحديثة. تخصصها هذا دفعها إلى زيارة المناطق التي عاش فيها ابن سينا. وتسترعي انتباهها عمليات التهويد فتكرس ما تبقى من عمرها عندما أحيلت على المعاش، لكشفها أمام الملأ، ولها، بالإضافة إلى كتبها الـ (١٩)، ثلاث دراسات عن التهويد.

١- كتاب في مجلدين كبيرين بعنوان "الأردن الحقيقي" تكشف فيه عن جذور الصراع العربي الإسرائيلي حتى عام ١٩٧٢.

٢- كتاب آخر بعنوان "القدس نهاية المدينة الكونية؟"، عرضت فيه بما أمكن من الدقة وقائع تهويد القدس كما تتم على الأرض وتحت سطح الأرض.

٣- دراسة مستفيضة بعنوان "تدمير القدس".

ومن المؤسف أننا نحن العرب لم نفكر بترجمة هذه الدراسات مع أنها خير دفاع عن حقنا.

يعتقد أركان إسرائيل من الحاخاميين وغيرهم، كما تقول الآنسة غواشون، أن القدس من الأصل ملكهم. هذا ما صرَّح به وزير الديانات في حكومتهم عندما قال: "لا نريد اليوم بناء هيكلنا. سنبنيه فيما بعد. الآن نباشر بجمع الكُنُس المتواجدة في المدينة القديمة، ومن ثم إبراز المنطقة الواقعة قرب حائط المبكى... فقد اشترينا الصخرة في عهد داود واليبوسيّين"(١).

وهو نفسه صرّح لمندوبين عن الطوائف اليهودية في أوروبا وأميركا قائلاً: "إن سلطات الاحتلال تعتبر الصخرة وجميع ملحقاتها ملكاً لها بحكم استملاك حدث في الماضي أو بحكم الاحتلال الراهن"(٢).

---

(١) "من أجل فلسطين"، صفحة ٣٠٧

(١) "من أجل فلسطين"، صفحة ٣٠٦.

ويصرِّح الجنرال دايان: "إن هذين المسجدين (المسجد الأقصى ومسجد الصخرة) الرائعين، يجب أن يُهدما لأنهما يحولان دون التمتع بالمنظر الكامل لجبل الهيكل... لا بل يحولان دون إشادة الهيكل الثالث"(١).

وكان كبير الحاخاميين الجنرال غورين قد صلّى في ١٥ آب عام ١٩٦٧ مدة ساعتين داخل الحرم الشريف ليؤكد ملكية إسرائيل للمكان بكل ما فيه. وقد استجاب شارون لهذا التحدي بتحدٍ آخر بعد أكثر من ثلاثين عاماً عندما وقف عام ٢٠٠٠، هو والف من مسلحيه في باحة المسجد الأقصى على مرأى ومسمع من مسلمي فلسطين والعالم.

ويواجه الفلسطينيون تحدي شارون بآخر هو الانتفاضة الثانية وقد عُرِفت بانتفاضة الأقصى. وهي مستمرة حتى اليوم وإلى ما شاء الله.

وحائط المبكى بالمناسبة ليس من جدران هيكل سليمان كما كان يُظن، بل هو السور الخارجي الذي كان يحيط بجبل الهيكل.

والمطلوب في المباشِر هو تهديم كل ما يحيط بالحائط وبالجبل وتفريغ المكان من السكان بحيث لا يبقى سوى الآثار اليهودية القديمة.

أما الرغبة في إعادة بناء الهيكل، فقد عبّروا عنها منذ بُعيد حرب الأيام الستّة إذ صرَّح أحد قادتهم قائلاً: "لن تكون القدس يهودية إلا ببناء الهيكل".

وتشدِّد الآنسة غواشون على المبادئ المكيافيلية التي تعتمدها سياسة التهويد وهي:

---

(٢) **"من أجل فلسطين"، صفحة ٢٧٨.**

سياسة إسرائيل هي سياسة الأمر الواقع.

إن البناء على أرض ما هو التأكيد الصريح على امتلاكها.

يجب العودة بالقدس إلى طابعها القديم[1].

ويعلن أستاذ الديانات المقارنة في الجامعة العبرية:

"إن بناء الهيكل هو ضرورة قومية لا دينية"[2].

ولا يمكن تلخيص ما تورده الآنسة غواشون، على الخصوص في كتابها الأخير عن القدس، إذ تتبع المسالك التي تحفرها إسرائيل في جوف الأرض تحت الآثار الإسلامية بحيث يزلزل الهدم أركان كنيسة القيامة ويعرِّضها للسقوط.

كل هذا يتحقق على مرأى ومسمع من الرأي العام العالمي، الذي خدَّرته الدعاية الإسرائيلية. فهو يتصرّف وكأن الأمر لا يعنيه. فما بالك بالرأي العام المسيحي الذي ينسى أو يتناسى أن الأرض التي تُهوَّد هي حيث عاش المسيح وعلَّم ومات من أجل خلاص البشر؟!.

وتورد الآنسة غواشون كلاماً لطبيب عربي فلسطيني قال: "لا يبدو أن العالم معني بالأمر، مع أن القيم التي يدّعي الحرص على حمايتها تُنتَهَك .. إن في هذا خطراً على العالم أجمع إذ يُدمر الثقة بأسس الحضارة ذاتها، فنحن لم نعد نسكن عالماً متحضراً بل غاباً"[3].

---

(١) "من أجل فلسطين"، صفحة ٣٠٠

(٢) "من أجل فلسطين"، صفحة ٣٠٧

(١) "من أجل فلسطين" صفحة ٢٨٩.

وتتساءل الآنسة غواشون:

"هل ستبقى القدس مدينة مقدسة يسطع إشعاعها الروحي على أتباع الديانات الثلاث؟ ما من شيء يطاله النسيان أكثر من هذا. فقد انخفضت روحانية السائحين انخفاضاً كبيراً في القدس كما في الناصرة"[1]

وسؤالي الشخصي هو:

لقد تحدى الإسرائيليون المدججون بالسلاح الحرم القدسي الشريف، وكانوا قد صلوا فيه ثم أحرقوه وأعيد ترميمه. فما سيكون موقف المسلمين عندما يفجرونه؟ وموقف المسيحيين عندما تتداعى جدران كنيسة القيامة وتتدمر مع الحرم القدسي... للبدء ببناء الهيكل الثالث؟

أتقوم قيامة ما؟

تلك ستكون المعركة الفاصلة إقليمياً وعالمياً.

---

(٢) "من أجل فلسطين" صفحة ٢٨٧.

القسم الأول
نـــداءات

إلــى عليــاء الصــلح(*)

كمن لسعتها أفعى، هكذا كنت بالأمس.

وكنت تنادين!

فهلا أرحت صدرك يا أختي.

فاتك الركب، فليس من يسمع.

فاتك منذ عشرين سنة... وسنتين!

إن الذين تنادين كانوا في الركب إياه محمولين.

هلا ذكرت أن الذين تنادين...

اغتسلوا بعار الشمبانيا

في أحد مرتفعات لبنان... الأشم

في حزيران الأخرس!...

(*)– تعليقاً على مقال لها نُشِر في "جريدة النهار" بتاريخ ١٩٦٩/٨/٢٩، بعنـوان: "عـرب الإسلام لا عرب الاستسلام". وقد نشر في صحيفة "لسان الحال" البيروتية في ١٩٦٩/٩/٧

وأنهم كفنوا بقرارات الجامعة... والأمم...

وان الموكب، موكبهم،

سار على صوت سيد المنابر والمقرئين!

أو نسيت -سامحك الله-

أو نسيت أن الذين تنادين،

دفنوا هنا... وهناك...

في غرور...

في قصور...

في خدور...

فما تبقى من شعب إلا...

لسان!

لسان تشويه ألسنة نيران

تتطاول من الجنوب ومن المسجد الكريم.

لسان ثرثار! هذا شعبك يا أختي!

وتنادين!؟

ماتوا، أجل ماتوا!

فلا تطرقي الأبواب.

إنها إلى مراقص منتهية!.

ولا تحقني الشرايين تحدياً.

فالقلب يتأكله الهلع.

ولا تمدي اليد.

فالأيدي في الجيوب مشلولة!.

وأما العيون!.

العيون ما عادت ترى أرضا ولا سماء...

ولا إنساناً ولا تاريخاً...

العيون اتخذت لها سيقان (ملكات) وصدورهن...

عروشاً وأنجماً!.

سلام على لبنان!.

سلام على لبنان يقدم رأسه

على طبق من وهم لسليل هيرودس!.

ماتوا! قلت لك إنهم ماتوا!.

ماتوا في لهو!.

ماتوا في سهو!.

ماتوا في عهر!.

وتنادين!؟.

هلا أرحت صدرك، هلا أرحته!.

قليلاً ! قليلاً !

و إلا فقد لا يبقى لك صوت،

قبل أن يأتي الغد!

فغدا،

لا بل اليوم،

لا بل أمس الأول!

ولد في فلسطين طفل جديد!

ولد من خيام...

من تراب...

من سجون...

من غضب...

من يأس!

مهلا أختي مهلا!

من بطون بقرت اغتصابا،

من رؤوس طارت ذلا،

من أرض اكتوت عارا ونارا،

ولد طفل عملاق،

رفض إجهاض والديه له،

فولدهما بدوره!

وكان أبا لأمة عظيمة!...

أسمه؟!

فداء!

أختي،

أريحي صدرك اليوم،

فغدا تزغردين!.

دمشق في ٢٣ /٤/ ١٩٧٣

نيافة الكردينال

فرنسوا مارتي

أسقفية باريس

صاحب السيادة،

دعني أقدم نفسي.

أنا كاهن عربي من سورية. ولدت في دمشق، وقد كلفتني فيها السلطة الكنسية الكاثوليكية، الاهتمام بالشبيبة الجامعية.

رأيت أن أكتب لك، منذ أن قرأت كتابك: "الله عنيد". يؤسفني أني لم أفعل قبل الآن. اليوم قررت أن أفعل، على أثر التصريح الذي أصدره حديثا مجلس الأساقفة الفرنسيين حول اليهود، و إني لأرى في الكتابة واجبا.

ولكن لن أتجاوز حدود كتابك. فإني أودّ، بوصفي كاهناً عربياً ليس إلا، أن أطرح عليك بعض الأسئلة.

صاحب السيادة،

جاء في السطر الأول من المقدمة:

"هذه الصفحات تتحدث عن الله، آب وابن وروح قدس".

إلا أن من يقرأ الكتاب بكامله، يكتشف بوضوح أنه يتناول، كما هو مطلوب، شؤون الله والإنسان معا.

ولكن تبين لي بألم أن كتابك يتحدث عن جميع الناس، باستثناء **الإنسان العربي**. لماذا؟

ثم إنك، طوال الصفحتين (٥٣-٥٤)، تعلن أنك "متضامن مع إخوتك اليهود".

ليس لي أن أعاتبك على ذلك. ولكن لِمَ لا تعلن أيضا أنك متضامن مع **إخوتك العرب**؟.

وفي خطابك الذي أذيع ليلة ميلاد ١٩٧١، تحدثت (ص٦٢) عن "أطفال في خطر، كما كانت الحال بالأمس في بيافرا، وكما هي الحال في باكستان".

لِمَ لا تتكلم عن فلسطين و دول عربية أخرى، تعدّ حتى الآن ثلاثة ملايين لاجئ، منهم مئات ألوف "الأطفال في خطر"؟

مع أن **الطفل** الذي كنت تتحدث عنه في عظتك، كان قد وُلد في فلسطين بالذات!

وفي الصفحتين (٨٠-٨١)، تحدثت عن حجّك إلى الأرض المقدسة، فقلت بالحرف:

"كنت أنظر إلى القدس... وما كان بوسعي إلا أن أفكر بمناخ الحرب، والحقد والانقسام الذي كان قائما هنا..."

أفما كان بوسعك أن تدس بين كلمتَي"مناخ"و"حرب"، هذه الكلمة المرعبة، التي تفسر كل شيء، أجل كل شيء بالمطلق، كلمة "**الظلم**"؟.

وتتابع فتقول:

"وفي ما وراء القدس، فهناك اليوم ايرلندا، وهناك بنغلادش، وهناك تشيكوسلوفاكيا، وهناك... قتلى الطرقات...".

يا لخيبة الأمل، يا سيدي، إذ ختمت هذه القائمة الثقيلة بـــ"قتلى الطرقات"!.

كيف، بأية معجزة، لم يتسن لك أن ترى فلسطين بالذات، و"في ما وراء القدس"، لبنان وسورية والأردن ومصر؟!.

مع أنك كنت فوق أرضها بالذات!.

ثم بعد ذلك، تتحدث في الصفحة (٩٨) عن العماد الذي "يضعنا في حالة تضامن مع جميع الناس"، وتضيف:

"إن المسيح يحيا ويدعو وينشط في إفريقيا وآسيا والبرازيل وتشيكوسلوفاكيا... الخ".

ترى، ما الذي يجعلك تغفل بانتظام الشرق الأوسط، وبتعبير أدق، فلسطين؟.

أن تحتوي آسيا... فلسطين، فهذا أمر لاشك فيه. ولكني لكم كنت أتمنى، أنا الكاهن العربي، أن أراك، بوصفك رئيس أساقفة العاصمة الكونية، تفصح عن رؤيتك، وتنعتق من سحر تشيكوسلوفاكيا، وتفسح مكانا لفلسطين...

صاحب السيادة،

لابد لي من الاعتراف بأن فلسطين هذه ورد ذكرها في كتابك. إلا أن الطريقة التي تتحدث فيها عنها، تحمل على التأمل...

فأنت تقول (صفحة ٧٣) إن يسوع عاش في "إسرائيل"... وأنت تستخدم أيضا، إذ تتحدث عن حجّك إلى الأرض المقدسة، كلمة "إسرائيل"...

هل تراك تقصد بكلمة إسرائيل، هنا وهناك، الشيء نفسه؟! مع أنك، في الصفحة (٧٥) تتحدث بصريح العبارة عن فلسطين. و أنت تقول، من ناحية أخرى، (صفحة ٧٨) إن يسوع كان "يهوديا يحمل رسالة تحرير العالم".

من تراه يخطر بباله أن ينكر أن يسوع كان "يهوديا"؟

ولكن هل من حاجة لإبراز هذا الأمر؟ لاسيما وأن ذلك يبدو آتيا من بعيد، ونابعا من غور بالغ العمق.

فكل شيء يوحي بأن الضمير الغربي قد بلغ من الشعور بالذنب، بحكم ألفي سنة من اللا سامية، حدّا بدا معه وكأنه يريد أن يتشبث يائساً "بدولة إسرائيل"، في محاولة منه لتبرئة ذاته، وكأني بهذه الدولة خلاص جديد له، في حين هو يتعامى عمدا عن عملية إبادة للعرب –قائمة وقادمة–، تأتي بمثابة الثمن لهذا الخلاص المزعوم.

سوف ألوم نفسي إن نسيت أن أذكر أنك تقول في الصفحة (٥٤):

"في نظر يسوع، كما في نظر تلميذه، ليس بعد يهود ولا يونانيون، ولا عرب، ولا فرنسيون، ولا سود ولا بيض...".

ولكن هذه الإشارة النافلة، المقدمة خلسة للعرب، هل تقابل في عقل القارئ الغربي وقلبه، شهادتك الصريحة التي تملأ الكتاب كله، والتي تأتي، خصوصا، من إنسان في مثل مركزك؟

ويسعك، يا صاحب السيادة، بعد ذلك، أن تقول (صفحة ١٠٠):

"أيجوز لنا، بعد ذلك، أن نُسمَّى مسيحيين، إن كانت جماعاتنا لا تضحّي بشيء في سبيل نشر البشرى؟".

ولكن لم الحديث عن مسؤولية جماعية، وإذن غُفل؟ فإني لأجيز لنفسي أن أرد لك السؤال وأقول:

قبل كل شيء، أنت بالذات، أيها الكردينال رئيس أساقفة باريس، ما الذي ضحّيت به، بكل صدق، **لتعلن بشرى العدالة من أجل جميع الناس؟**.

تلك هي، يا صاحب السيادة، الأسئلة التي رأيت من واجبي أن اطرحها عليك، بوصفي كاهناً عربياً.

قد يسعك، بمنتهى السهولة، أن تسقطها أو تهملها. ولكن عليك أن تعرف أن هناك، من خلالها، أسئلة أخرى أكثر جذرية، تنتصب أمام الوجدان العربي، المسيحي والمسلم على السواء.

والحال أن التصريح الأخير لمجلس الأساقفة الفرنسيين، لا يمكنه أن يبعد بعض المسؤولين في الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية، عن طيف واسع من الاتهامات، تنطوي على عواقب بالغة الخطورة.

صاحب السيادة،

كان من واجبي أن أصارحك بهذه الحقيقة.

أرجو، في الختام، أن تتقبل ما أكنّ لكل إنسان من احترام ومحبة.

دمشق في ٤/١/ ١٩٧٥

صاحب السيادة المنسنيور(*)

هلدر كاميرا

ريسيفيه – البرازيل

صاحب السيادة،

من يكتب لك هو كاهن عربي من سورية، يعيش الصراع العربي-الإسرائيلي. ويتابع، في فرح ورجاء، نضالك الطويل والشجاع من أجل العدالة.

لقد واجهتَ معارضة في البرازيل بالذات، بلدك، إلا أنك استطعت، في نهاية المطاف، أن تجعل كنيسة البرازيل تتبنى موقفك. وامتد تأثيرك، بهدوء، حتى شمل أميركا اللاتينية، ثم الكنيسة جمعاء. واليوم، فالجميع يجمعون على اعتبارك رائد نضال الكنيسة من أجل العدالة في العالم.

وهذا هو بالذات ما يدفعني للكتابة لك. ولقد قررت ذلك، بعد أن قرأت المحاضرة التي ألقيتَها في حشد من الشبان في مانشستر، ببريطانيا، والتي نشرتها مجلة "معا-Ensemble"، الصادرة عن مطرانية الرباط في المغرب، بتاريخ ١٠ حزيران (يونيو) عام ١٩٧٤.

(*)- **هذه الرسالة ظلت دون جواب.**

إنك تعدّد في هذه المحاضرة، ما أسميته "خطايا عصرنا السبع الرئيسية"، وأنت تعني بها، "العنصرية، والاستعمار، والحرب، والهيمنة، والفريسية، والهروب والخوف".

أسلوبك فيها هو هو: مباشر، باتر، قاطع. وأنت تشير فيها إلى بعض أشكال العنصرية فتقول: "هي ليست اضطهاد اليهود وحسب، ولكنها أيضا احتقار الهنود الحمر والباكستانيين". وتذكر أيضا "زنوج أفريقيا والولايات المتحدة والبرازيل وهاييتي و أميركا اللاتينية، والهنود الحمر في أميركا الشمالية".

إنه لأمر يحمل على الرجاء أن نسمع أسقفا، مثل هلدر كاميرا، يشير إلى النقاط الحامية في الصراع من أجل العدالة في العالم. وكنت أتوقع منك، خلال محاضرتك، أن تفضي، بصورة أو بأخرى، إلى الصراع العربي الإسرائيلي، طالما أنك تبدي اهتماما باليهود، وتتحمل عبء ذكرهم قبل سواهم في هذه المحاضرة.

لقد خيبت أملي، الذي لم يكن يبرره حتى الآن، سوى شمولية نضالك من أجل العدالة. مع أنك، يومها، كنت في قلب البلد الذي كان في أصل صراع بات يمس كل إنسان، باستثناء أساقفة الكنيسة الغربية كلها أو الأساقفة ذوي الثقافة الغربية، الذين يتمترسون وراء صمت لا يمكن أن يجد له أي تبرير على الإطلاق.

صاحب السيادة،

إن موقفك هذا ذكّرني بموقف محزن جدا لرئيس أساقفة باريس، المطران فرانسوا مارتي. فهو يذكر في كتابه "الله عنيد" (صفحة ٨١) أنه كان في القدس، في فصح عام ١٩٧١، وأنه رأى "في ما وراء القدس، ايرلندا وبنغلادش وتشيكوسلوفاكيا و....... قتلى الطرقات"!.

فهو لم يرَ البتة في فلسطين المسيحَ في الانسان العربي المطرود من بلده، المعتقل تعسفيا، والذي يُعذّب ويُقتل على هوى جلاده، كل يوم، تحت سمع العالم وبصره.

قد يكون للمطران مارتي، كما كتبت له، عذر في عقدة الذنب الرهيبة التي ركبت الغرب حيال اليهود، أما أنت، يا صاحب السيادة، أنت البرازيلي من الشمال الشرقي المسحوق والجائع، ما الذي يمكن أن يبرر صمتك؟.

ذلك بأني أجد في موقفك العام صمتا كليا، جذريا ودائما، حتى في قلب أفدح الأزمات التي أحدثها هذا الصراع، كما حدث خلال حرب تشرين الأول عام ١٩٧٣. وإن مثل هذا الصمت يمارسه إنسان مثلك، ليثير القلق.

إلى ذلك، فإن بعض المجلات، مثل "المعلومات الكاثوليكية العالمية" أو"الشهادة المسيحية"، تترصد باستمرار أعمالك وأقوالك، فأنت لم تنطق يوما بكلمة حول القضية الفلسطينية. لماذا؟.

صاحب السيادة،

هل العدالة قابلة للتجزئة؟ هل هي تخضع للنسبية والتعسف؟ أو لم يحدث لك أن سمعت يوما بالقضية الفلسطينية؟ هل إعلامنا بلغ حدا من السوء، وإعلام اليهود بلغ حدا من النجاح، حتى حالا دون أن يخطر لك ببال أنه قد يكمن وراء هذا الكم الهائل من أعمال العنف في الشرق الأوسط، ومن أعمال اليأس يقدم عليها أخوتي من العرب الفلسطينيين، ظلم ما، ارتكبه بحقهم شعب يهودي ما... على أرض فلسطين ما...؟.

أم تُراك اطلعت على هذه الأعمال التي بات العالم كله يعرفها، على نحو حال دون إطلاعك على مئات القرارات التي اتخذتها الأمم المتحدة ضد إسرائيل، مثلما حال دون إطلاعك على الظلم الهائل الذي ارتكبته إسرائيل، والذي تبدو ملامحه الواضحة من خلال هذه القرارات؟.

صاحب السيادة،

لا يسعني أن أخفي عليك، أنا الكاهن، خيبة أملي أمام صمتك هذا. إن صمت معظم الأساقفة الغربيين، لا أتردد في وصفه بجبانة لا تغتفر. أما صمتك أنت، فإنه يوقعني في حيرة، ويجرحني حتى الصميم.

وإن شعوري هذا ليتفاقم لأن زميلا لك هو، الآن، ومنذ خمسة أشهر، معتقل في سجون إسرائيل. وزميلك هذا ليس سوى أسقف القدس، أجل أسقف القدس.

كان من حقنا أن نتوقع منك أو من أحد الأساقفة في أوربا، وأميركا أو إفريقيا، تساؤلا ما حول واقع اتهام أسقف ما بالتحالف مع المقاومة الفلسطينية. لا شيء، لاشيء على الإطلاق. صمت مطبق. هل يتوجب علينا أن ننتظر استيقاظ البرازيل والعالم على غد عنيف ومفاجئ، كما في صبيحة ٦ تشرين الأول عام ١٩٧٣، ولكن ربما على هدير حرب عالمية، كي تقدموا احتجاجكم لدى محكمة بيلاطس؟.

ذلك، يا سيدي، أن القضية المطروحة في فلسطين إنما هي قضية عدالة فقط!.

فأنت تقاتل في البرازيل ضد حكمٍ جلاد و قمعي، ولكنه برازيلي، وقد رأيت العديد من الكهنة عذبوا واعتقلوا، بل قتلوا، كما حدث لأمين سرك الخاص، الأب بيريرا نيتو، ليلة ٢٦-٢٧ أيار عام ١٩٦٩، وقد تلقيت أنت أيضا تهديدات شخصية بالقتل من قبل "فرقة اقتناص الشيوعيين". وحملت نضالك إلى ما هو أبعد من البرازيل، من أجل مجتمع أوفر عدالة وإنسانية. وها قد بلغت السبعين عاما وتواصل النضال من أجل تقدّم هذا المجتمع العادل والإنساني. فكيف يسعك أن تبرر صمتك إزاء نضال شعب يدفع ثمن ألفي عام من اللاساميّة الغربية، ويجد نفسه مطرودا من بلده، وقد "بيع قانونيا" في السوق العالمية التي تسيطر عليها الصهيونية العالمية، اقتصاديا وسياسيا؟.

أعلم أنه "من الصعب، كما يقول مونتارون، أن نجعل العالم الغارق في المجتمع الاستهلاكي، يفهم ما هو نضال الفقراء من أجل كرامتهم".

ولكني لا أفهم ذلك طالما أن الأمر يعني شخصيات من نمطك، يفترض فيهم أن يكونوا في طليعة النضال من أجل العدالة في العالم.

أفهم إلى حد ما أن يتذرع بعضهم بتهمة الإرهاب، ويتجاهل شعبا صمم على إنقاذ روحه وتراثه مع كرامته.

أما أن يُقابَل بتجاهل منتظم، وطوال خمسة أشهر، أسقف أعلن عن تضامنه مع هذا الشعب، **مع شعبه**، وهو يقبع لهذا السبب، في سجون المحتل، فهذا، في حقيقة الأمر، شئنا أم أبينا، تواطؤ.

ومع ذلك، فإن نضال هذا الأسقف، يا صاحب السيادة، يفضي، بصورة أو بأخرى، حيث ينتهي نضالك ونضال الكثيرين من أساقفة أميركا اللاتينية وكهنتها. بل هو يمضي إلى ما هو أبعد من ذلك، لأنه لا يتعلق فقط بالعدالة في توزيع أفضل للثروات والرواتب داخل البلد الواحد، بل بالعدالة من أجل شعب حرم من أرضه، ويتم العمل على حرمانه حتى من وجوده.

صاحب السيادة،

أَقرَّ بأن الإنجيل معني بالأمر في فلسطين أكثر منه في أي مكان آخر. فإن المسيح لا يزال مصلوبا على الجلجلة، ولكنه، في هذه المرة، اتخذ له جسداً من امرأة عربية. وإني لأحب، أنا الكاهن العربي، أن يقوم بين اليهود و"الرومانيين" الذين يصلبونه، "قائد مئة" واحد على الأقل ليعلن الحقيقة على وجه الدنيا.

فإن كنت أنت هذا "القائد"، يا صاحب السيادة، فسيجد "قادة" آخرون من الكنيسة العامة، شجاعة الاقتداء بك.

وعندها ستشق الحقيقة طريقها إلى الجميع، لتحرّر الكنيسة من صمتها، واليهود من صهيونيتهم، وإخوتي العرب من الحقد الذي يغمرهم.

وعندها تكون تضحية زميلك العربي، أسقف القدس، المطران ايلاريون كبوشي، قد أثمرت، كما تكون أثمرت أيضا التضحية البالغة البطولية، للعديد من الشبان العرب الذين قدموا حياتهم، منذ أكثر من ثلاثين عاما، في سبيل خلق دولة ديمقراطية وعلمانية في فلسطين، يجد فيها الجميع، من يهود ومسيحيين ومسلمين، وطناً مشتركاً يبنونه في السلام والعدالة.

وإني، إذ أرجو أن أراك تتخذ موقفا من الصراع العربي-الإسرائيلي، أقدم لك، يا سيدي، ما أكن من احترام لجميع عشاق العدالة.

١٤ نيسان ١٩٧٩

الرئيس جيمي كارتر

واشنطن

رسالة مفتوحة من كاهن عربي مسيحي
إلى الرئيس المسيحي جيمي كارتر (*)!

السيد الرئيس،

أحببت بوصفي كاهناً عربيّاً مسيحيّاً، أن أخاطبك بوصفك رئيساً مسيحياً لأميركا، فأنت ما فتئت تدعو لإدخال الخلقيّة المسيحيّة في السياسة.

والمسيحية، كما تعرف واعرف، مَحبة وسلام. والسياسة، كما يعرف الجميع، مكيافيلية. لذا فوجئت بأقوالك، كما فوجئ بها الكثيرون.

وقرأتها بترقّب في المجلاّت العالميّة التي أفردت لك فقرات، كثيراً ما كانت تذكرني بلغة الوعظ في الكنائس.

(*)– **نشرت في "مجلة المستقبل" الباريسية في شهر نيسان/ أبريل عام ١٩٧٩.**

وشئت أن تركز جهودك على البؤرة الكبرى التي قد يشتعل فيها فتيل الحرب في العالم: الشرق العربي.

حتى كان لك اليوم -٢٦ آذار ١٩٧٩- ما لم تتردد في اعتباره "أعظم يوم في تاريخ القرن العشرين".

السيد الرئيس،

لست أشك في أن الكثيرين باتوا، منذ الآن، يعتبرونك من أعظم الرؤساء في الولايات المتحدة. وليس لي أن ألومك إن استولت عليك هذه النشوة، فاستبد بك الاقتناع نفسه حيال نفسك.

أوليس هذا معنى الآية الإنجيلية التي استشهدت بها في حفل التوقيع على المعاهدة، حيث اعتبرت نفسك وبيغن والسادات في عداد "أبناء الله صانعي السلام"؟.

ومع ذلك، أرجو أن تسمح لي، أنا المواطن الكاهن العربي، بأن أعكر عليك صفوك هذا، فلا أتوجه إليك بالتهنئة. أريد صادقاً أن أعتقد أنك صادق كل الصدق في ما استطعت أن تفعل.. وأريد أن استبعد ما يتهمك به خصومك من أنك تسعى لاستعادة شعبيتك المنهارة، و لضمان استمرارك في الرئاسة لمرحلة جديدة.

أريد كل ذلك، وأريده بصدق.

ومع ذلك لا أجدني قادراً على تهنئتك. ليس لأني لا أحب السلام، وليس لأني أخشى أجهزة بلدي، ولكن لأني، بصراحة، لا أؤمن بما فعلت وتفعل.

بالطبع، موقفي هذا لا يقدم ولا يؤخر بالنسبة إليك. وهو لا يعكر عليك سيمفونية التهاني العالمية، الصادقة أو المصطنعة، التي تملأ عليك آذانك الآن.

ولكن قد يهمك، ولو قليلاً وقليلاً جداً، رأي مواطن عربي، هو كاهن في آن واحد، يؤمن بالمسيح الذي تؤمن أنت به، ويعنيه بالتأكيد "السـلام" الذي تسعى أنت لتوفيره لأبناء أمته وأرضه...

السيد الرئيس،

أنت تبغي السلام. تقول ذلك وتؤكده. ولكن يؤسفني أن أقول لك إني حاولت أن أرى صادقاً السلام الذي تسعى وراءه، فلم يصادفني إلا سلام واحد: هو السلام الذي تريده إسرائيل.

فهل لديك فكرة واضحة، عفوك من السؤال، عن السلام الذي تريده إسرائيل؟

وهل لديك الاقتناع التام بأن ما تريده إسرائيل هو حقاً السلام؟

هل السلام يقوم على استمرار تحدي إسرائيل لقرارات لا تحصى لمجلس الأمن ولهيئة الأمم المتحدة؟

هل السلام يقوم على استمرار احتلالها للأراضي التي تعتبرها الأسرة الدولية، عربيـــة؟

هل السلام يقوم على استمرار تشريدها وتهجيرها للآلاف من السكان العرب، وعلى استمرار اعتقالها للآلاف من أبناء هذه المناطق؟...

ثم هل لديك الاقتناع التام –أو النسبي– بأن الضغوط التي مارستها شخصياً على السادات، والتي انتهت به إلى التوقيع على "معاهدة السلام" مع إسرائيل، تخدم وستخدم قضية السلام حقاً؟.

السيد الرئيس،

أنت تبغي السلام، وتؤكد ذلك، فماذا عساك أن تقول لو اتضح لك يومًا – وقد يكون قريباً جداً– أنك كنت مجرد ضحية في يد إسرائيل، وأنك استدرجت السادات معك للعبة جلبت للعالم المزيد من ويلات الحروب، حيث أردت "السلام"؟

ماذا عساك أن تقول لو أن الشرق العربي، بدءاً من بلدي سورية، تعرض ذات يوم قريب، لهجوم إسرائيلي "وقائي"، كان من نتائجه مزيد من الدمار والتشريد والقتل والحقد، بالإضافة إلى توسع إسرائيلي جديد؟

أفلا تراه، في ضوء هذه الاحتمالات، أحد أسوأ أيام القرن العشرين؟

هل تراك تستطيع أن تجزم بأن هذين الاحتمالين بعيدا الحدوث؟

ثم ماذا عساك أن تقول لو اتضح لك يوماً، أن مصر السادات تحولت إلى مستعمرة إسرائيلية، وأن شعبها يسحن بأسنانه رمل الصحراء ليشبع من جوع؟

يومها... قد لا يكون هناك سادات، وقد لا تكون أنت في البيت الأبيض.

ولكن، يومها، ماذا تريد للتاريخ ولمحبي السلام أن يقولوا فيك؟

وعندها، ماذا تكون قد صنعت في هذا اليوم السادس والعشرين من آذار ١٩٧٩؟...

هل ستظل تعتبره "أعظم حدث في تاريخ القرن العشرين"؟

ألا تكون قد مكنت إسرائيل بالذات، بعد إخراجك مصر من الساحة مؤقتاً، من ضرب العالم العربي، وربما العالم كله؟

فأين السلام الذي أردت ونريد ويريد العالم؟

ثم ماذا تراك تقول -أو تفعل- لو أن إسرائيل، بعد أن تكون خدرت السادات و مصر لفترة ما، قد عادت وضربت مصر ضربة قاصمة لا تقوم لها بعدها قائمة؟

السيد الرئيس،

أنت مسيحي مؤمن تقرأ الإنجيل، فهلا تذكرت بأن الليلة نفسها التي بشر فيها الملائكة الرعاة بالسلام، لطخ فيها هيرودس يديه بدماء أطفال بيت لحم.

وأنا أرى المأساة تتكرر اليوم، وعلى يدك بالذات، ولكن ليس في نطاق بيت لحم أو فلسطين وحسب، بل في نطاق الشرق العربي كله. فكل شيء يبدو اليوم، وكأن هناك كراسي مهزوزة، يريد أصحابها أن يرسوا قواعدها على أسس ثابتة...

أرجو ألا تكون أنت بالذات -من حيث تعي أو لا تعي- حفيداً آخر لهيرودس.

وأرجو ألا يكون السادات الجلاد المؤقت الذي سيأمر هيرودس بقطع عنقه، بُعيد تنفيذ أوامر سيده.

فالسلام لا يبنى على ملايين الجماجم تتطاير منذ أيام هيرودس إلى اليوم...

السيد الرئيس،

ثمة أمنية أود أن أبديها لك:

أنت مؤمن، وأنا مؤمن، ومن مقومات إيماننا المشترك، يقيننا بالوقفة النهائية والحاسمة أمام الله، اله السلام الحق، وديان الجميع. وكمؤمن،

أضرب لك الموعد الأوحد الذي أستطيع أن أطالك فيه، هناك أمام الرب الديان، وإني إذ أفعل، أتمنى بكل صدق، ألا أسمعه يقول لك:

"كنتُ مشرداً، فزدتني تشريداً،

"وكنتُ مظلوماً، فزدتني ظلماً،

"وكنتُ فقيراً، فزدتني فقراً،

"وكنت مريضاً، فقتلتني...".

أتمنى ذلك، وإلا، عندها، ماذا ينفعك لو ربحت مودة بيغن والسادات واللوبي الصهيوني، وخسرت نفسك؟

السيد الرئيس،

أكتب لك في الوقت الذي يسير فيه مئات الألوف من أبناء أمتي في شوارع دمشق والعواصم والمدن العربية الأخرى، استنكاراً "للحدث العظيم" الذي كنت أنت، أولاً وآخراً، "بطله".

وأكتب لك في الوقت الذي يعرب فيه العرب من سكان الضفة الغربية وقطاع غزة و"إسرائيل" عن استنكارهم أيضاً "للحدث العظيم" نفسه.

أكتب لك بهدوء المؤمن، لأعرب لك ككاهن عربي مسيحي، عما يجول في فكري من مخاوف على السلام نفسه الذي تنشده أنت.

قد يفاجئك ما فعلت. ولا أتصور أن أحداً من المواطنين العاديين مثلي، فكر في الكتابة لك، أنت رئيس الولايات المتحدة الأميركية.

أرجو ألا يمنعك البخور المتصاعد الآن من حولك، من قراءة هذه الرسالة الطويلة، تأتيك من كاهن عربي مسيحي من دمشـــق.

وأرجو أن تفاجئني بدورك بجواب.

السيد الرئيس،

أختم بتوجيه شكر خاص لك، لأنك بهذا "الحدث العظيم"، منحت الزعماء العرب والشعوب العربية، فرصة أخيرة لاتخاذ المواقف المناسبة، قبل فوات الأوان.

مع احترامي.

في ١٢ حزيران ١٩٨٢

الرئيس الأمريكي

رونالد ريغن

واشنطن

رســـالة مفتوحة من كاهن عربي مســـيحي إلى الرئيس الأميركي رونالد ريغن(*)

السيد الرئيس،

دعني في سذاجتي أخاطبك اليوم، باسم ملايين العرب، كما خاطبت بالأمس سلفك السيد جيمي كارتر، إبان التوقيع على اتفاقية كامب ديفيد.

أكتب لك في اللحظة التي تستعد فيها، وفقاً لما تناقلته وكالات الأنباء، لإلقاء كلمة (تاريخية وهامة) أمام جدار برلين...

ليتني كنت بقرب هذا الجدار، بل بقربك...

لا لأسمع ما ستقول عن الحرية والكرامة الإنسانية، بل لأحلل ما تحاول أن تعلمنا في ثوان ما عجزت إسرائيل بكل حقدها وإجرامها، أن تعلمنا إياه في أربعين عاما...

(*)- أرسلت إلى بعض الصحف والمجلات، العربية والأجنبية، ولم تنشر.

السيد الرئيس،

إنك، حقا، تحاول أن تعلمنا شهوة القتل...

أجل، أنا الكاهن، أقول إنك تحاول أن تعلمنا شهوة القتل...

إنك تعلمنا ذلك في اللحظة التي مارست فيه مندوبتك في مجلس الأمن "حق النقض"، ليلة السابع من حزيران، حرصا على "توازن" قرارات هذه المؤسسة الدولية المحترمة...

وما "أروع التوازن" الذي كانت، في هذه الأثناء، تحدثه ربيبة دولتك، إسرائيل، في الشرق العربي كله، بل في العالم، باجتياحها لبنان، بفضل ما أهديتها أنت وسابقوك من "رواد" الحرية والكرامة والحق...

السيد الرئيس،

أنا عربي من سورية،

أشارف الخمسين من العمر،

أعيش ما عاشه ويعيشه كل عربي...

وقد لا تجهل أن ما نعيشه، نحن العرب، ليس أقل من الإحساس الرهيب بالظلم، حلّ ويحلّ بشعوبنا وببلادنا، الواحد تلو الآخر...

بالطبع، لا أبرئ ساحة وطني من الأوبئة المعشّشة فيه، مما هو نتاج الإنسان الذاتي، والمجتمع والتاريخ...

ولكني أستطيع أن أؤكد لك أنّي صنت نفسي من كل حقد وشهوة قتل...

حتى الإسرائيلي، لم أحقد عليه يوماً، بقدر ما أشفقت عليه، يصبّ حقده المتراكم فيه منذ ثلاثة آلاف سنة، يصبّه على شعبي، وهو الشعب الوحيد -أجل الوحيد- الذي وجد لديه عبر التاريخ كله، ميناء وفّر له أكبر قدر من الأمان، بل والازدهار والمكانة والثقة...

و لم أفكر يوما، ككاهن، بقتل إسرائيلي واحد، هكذا لمجرد القتل...

وككاهن، وجدتني مرارا أدعو الناس لقتال الإسرائيلي:

حفاظاً على حق أبناء وطني العربي، في السلام والكرامة والوجود،

وإنقاذا لإنسانية الإسرائيلي بالذات، وقد تحول إلى وحش ليس إلا، بدافع من تاريخه "الغريب"، ومن تأثير الغرب القذر...

وكنت ككاهن، على استعداد لحمل السلاح في وجهه،

لا لأقتله،

وإنما لأقاتله...

وأؤكد لك أني استطعت، ككاهن عربي، أن أحافظ حتى اليوم، على هذا التوازن الصعب،

في المحبة لقريبي وأخي العربي،

ولعدوي الإسرائيلي بالذات...

وفجأة... وجدتني أسقط...

فجأة... وجدتني اشتهي القتل...

فتراجعت... مذعورا...

السيد الرئيس،

هنيئا لك: أنك تعلمني القتل...

بل تعلمني ما هو أسوأ منه:

تعلمني الحقد...

فيما قلبي، كإنسان وككاهن، لا يمكنه أن يتسع إلا للحب...

فهنيئا لك يا رئيس ما يسمّى بأعظم دولة عرفها التاريخ...

ولا تعجب بعد ذلك، إن اجتاحت شهوة القتل هذه، قلوب الملايين من أبناء أمتي...

بل العجب، كل العجب، في بقاء البعض من "كبار" أمتي و عامتها، في أحضانك وأحضان ولاياتك...

فقلب الكاهن المسيحي، الذي يمسك كل يوم القربان، جسد الرب، ويتلفظ على المذبح، بأعظم كلمات حب وتضحية نطقت بها شفاه بشر،

هذا القلب يتسع اليوم –لو أردت– لشهوة القتل والحقد،

بفضلك أنت، داعية الحرية والكرامة والسلام...

السيد الرئيس،

هذا كل ما وددت أن أقول لك...

بالطبع، لا أبلغ من السذاجة ما يجعلني أتصور وصول هذه الكلمات إلى أذنيك، وأنت تجثم على "قمة الأولمب"، مع سائر "الآلهة" في الغرب، تحددون مصائر الشعوب المستضعفة...

ولكنها قد تبلغ آذان بعض "المسؤولين" في بعض مؤسساتك، ممّا قد يحول يوما دون دخولي"جنة" ولاياتك...

وأنا، على كل حال، راضٍ بجنة بلدي ووطني...

كما وأني لا أبلغ من السذاجة ما يجعلني أعتقد أن كلامي هذا قد يقدم أو يؤخر في أي أمر...

ولكم كنت أتمنى أن يأتي التنديد بإجرامك من مستويات كنسية غير الكهنوت، عربيا كان هذا الكهنوت أم أميركيا، يناضل في صفوف الفقراء، في السلفادور ونيكاراغوا والبرازيل والأرجنتين، وسواها من البلدان التي تسحقها آلتك العسكرية والاقتصادية...

السيد الرئيس،

بقي علي أن أبلغك ما أتصوره أشواقا حارة جدا جداً لآلاف الضحايا، التي رسمت دماؤها خارطة الظلم الأميركي في العالم، بدءا من

فلسطين، ومرورا بلبنان وسورية ومصـــر والأردن والســـلفادور وجـــزر المالفيناس والتشيلي ونيكاراغوا، وانتـــهاء بــــــ...!؟ ربمـــا الولايـــات المتحدة...!؟.

كلمة أخيرة أهمسها في أذن المصلوب، يســـوع ابن فلسطين، ليستودعها بدوره قلب اللـــه، "اللـــه الذي يهوي بالمقتدرين عن الكراسي، ويرفع من شأن المستضعفين":

"يـــا رب،

لا تغفـــر لهـــم،

لأنهـــم يـــدرون حقـــا ما يعمـــلون".

دمشق في ١١ كانون الثاني ١٩٩١

سيادة المطران(*)

جان – ماري لوستيجيه

أسقفية باريس

باريس

أبت، صاحب النيافة،

اعذرني لتأخري في تقديم الشكر لك للاستقبال العاجل والمنفتح الذي خصصتني به يوم السبت ٢٤ تشرين الثاني الماضي.

اليوم أكتب لك فيما العالم كله يرقب بقلق —وبعضهم بنهم— تاريخ ١٥ كانون الثاني المحتوم.

دعني أقول لك من جديد ما يعتمل في قلبي، بوصفي كاهنا عربيا في الكنيسة الكاثوليكية.

صاحب السيادة،

ألا ينتابك قلق رهيب إزاء مسار البغض والعنف والظلم الذي، إذ يتخطى أزمة الخليج المرعبة، يكنس ويغمر الشرق الأوسط كله، وبصورة خاصة فلسطين؟

(*) **رسالة شخصية ظلت دون ردّ.**

ألا ينتابك حزن لا يوصف إزاء هذا "السباق الفروسي" من حيث إنقاذ "القانون الدولي" المنتهك في الكويت، الذي يتوافق مع تواطؤ دولي أيضاً، ومقرف حقاً، من أجل الانتهاك المنتظم والدائم لجميع حقوق الإنسان على أرض فلسطين؟

ما هو شعورك، يا صاحب السيادة، إزاء تدفق ملايين اليهود السوفييت إلى فلسطين ؟ فهؤلاء لن يسعهم بالطبع أن يقيموا فيها إلا على حساب ملايين العرب الذين سوف يُرحّلون بدعم أكيد من "أقوياء هذا العالم"، "المدافعين" عن القانون الدولي...

صاحب السيادة،

أن يمارس رجال السياسة الماكيافيلية في أخطر أشكالها، وفي خبث يبلغ من الإتقان ما يُعجز الله نفسه، فهذا أمر ليس بجديد.

ولكن ألا يحق لنا أن نتوقع على الأقل من الكنيسة —وهي عمود الحق، كما وصفها الكتاب المقدس— كلمة حق؟

وكلمة الحق هذه، لن تفاجأ إن قلت لك باسم ملايين العرب أخوتي، إني انتظرها منك أنت شخصيا، كما أنتظرها من قداسة البابا.

صاحب السيادة،

إن الرهان لا يسمح باستخدام كلمات مبهمة، نظراً لما ينطوي عليه من بالغ الخطورة والحسم.

هذه الكلمة، قلها، أرجوك، قلها وساعد الأب الأقدس على قولها، حتى لو بات الوقت متأخراً.

فغداً يكون الوقت قد فات.

صاحب السيادة،

أكرر لك ثقتي واحترامي.

دمشق في ١٩٩١/١/١٢

رسالة مفتوحة من كاهن عربي
إلى قداسة البابا يوحنا بولس الثاني

أبت صاحب القداسة،

خلافاً لجميع الأعراف المتبعة، أجيز لنفسي أن أوجه لك نـــدائي، فيما لا يفصلنا عن تاريخ ١٥ كانون الثاني المشؤوم، سوى ثلاثة ايام أرى من واجبي أن افعل ذلك على الملأ، لأن الفترة القادمة، تنطوي على ما قد يكون خطراً حاسماً على "البقية الباقية" من المســـيحيين العـــرب، الـــذين يعودون بأصولهم في هذه البلاد، إلى ألفي عام.

أبت صاحب القداسة،

ليس من يجهل أن الفاتيكان ينعم بمكانة عالميـــة يحســـده عليهـــا الكثيرون.

والمعروف أيضاً أن بعض أسلافك كان لهم حضور فاعل في العديد من القضايا، التي لم تكن كلها بالضرورة شؤوناً مسيحية، بله ولا دينية.

وليس من ينكر أن حضورك الشخصي فـــاق –كمـــا يبـــدو لي– حضور أسلافك، بما لا يقاس.

وإنه لأمر بديهي ألا يرى الكثيرون مثلي، سوى السطح، كما لو كنا أمام جبل من جليد يخفي العمق الحق.

وفي حضورك هذا، المتعدد الأوجه والفعل، ثمة أمر لفت انتباهي على نحو خاص: إنه التقارب المتعاظم بين "الفاتيكان" و"الكنيس اليهودي" من جهة، وكنيسة الغرب و الجماعات اليهودية من جهة ثانية.

تتبعت هذا التقارب بتفهم كبير، ذلك بأن ما عاناه اليهود من مجمل كنائس الغرب، أشهر وأتعس من أن ينسى.

إلا أن هذا التفهم لم يكن يخلو، في قلبي بوصفي كاهناً عربياً، من قلق كبير.

فهل من يجهل أن عقدة الذنب الرهيبة، حيال اليهود في الغرب، لم تثقل ضمير الغربيين وحسب، بل تغلغلت كمرض عضال إلى أدق أحاسيسهم وعقولهم ووجودهم؟

وهل من يجهل أيضاً أن هذه العقدة باتت فسحة لاستغلال منظم وعنيد، بالغ الدهاء والتفرع، من قبل اليهود، وذلك في شتى الميادين، لا سيما ميدان السياسة، وهو الذي يعنيني بوصفي إنساناً عربياً.

وهل من يجهل أخيراً أن الفاتيكان كان دائماً ولا يزال عرضة لشتى الضغوط، كي ينتزعوا منه اعترافاً عملياً، "بدولتهم" في فلسطين، في انتظار الاعتراف "القانوني"؟

ولنقر للفاتيكان بشرف رفضه العنيد لمثل هذا الاعتراف، في حين أن هذه "الدولة" منذ "اصطناعها" في فلسطين، رأت معظم الدول تسارع، بعضها في صغارة، للاعتراف لها ليس بحقها في الوجود وحسب، بل أيضاً بجميع الحقوق، بما فيها حق انتزاع الحق في الوجود من بعض "الدول" وبعض "الشعوب".

ومنذ أن نشبت الأزمة التي اصطلح في صفاقة على تسميتها بأزمة الخليج، لا أني أتابع، في مزيج من الرجاء والقلق، موقف الفاتيكان من هذه الأزمة المزعومة.

ويؤسفني أن أقول إني لم أسمع وأقرأ سوى كلمات ليس إلا، صدرت عن الفاتيكان، كلمات غامضة تنادي بالسلام وتدعو لتجنب الحرب... وهي، إذن، كلمات لا تعني شيئاً لأحد.

أبت صاحب القداسة،

ألا تعتقد أن من حق البشر، جميع البشر، وعلى رأسهم العرب المسيحيين، أن يتوقعوا من الفاتيكان ومن البابا يوحنا بولس الثاني بالذات، ما هو أكثر من الكلمات؟.

أما أنا، بوصفي كاهناً عربياً كاثوليكياً، فإني أرى من واجبي أن أقول لك إني كنت أنتظر أكثر من ذلك بكثير. وليغفر لي الرب إقدامي على ذلك في مثل هذا الوقت المتأخر.

فالكنيسة، كما يعلمنا الإنجيل هي "عمود الحق".

فإني أنتظر، إذن، من الكنيسة أن تقول، بلسان رئيسها الأعلى، الحق، في حين أن العالم كله يراوغ على نحو بالغ القِحَة، ليخفي الحق ويدوس تحت أقدامه حقوق "أحباء يسوع"، أولئك المنبوذين في الأرض، الذين بلغ حب يسوع لهم أنه تماهى وإياهم.

"كلمة الحق" هذه، انتظرتها عبثاً. وإني لأصرّ مع الملايين من البشر ولا سيما في العالم العربي، على انتظارها من الفاتيكان.

فإنه لمن حقنا أن نتوقع من الفاتيكان أن يقول صراحة وعلى وجه الدنيا، مرة وإلى الأبد، إن القانون الدولي قانون واحد للجميع، شعوباً ودولاً، بما فيها "دولة إسرائيل" في فلسطين.

وإنه لمن حقنا أن نتوقع من الفاتيكان أن يقول صراحة وعلى وجه الدنيا، إن كل احتلال، حيثما كان المحتل، هو في جوهره احتلال، وإنه بالتالي خرق للقانون الدولي، هذا القانون الذي يفترض فيه أن ينظم وينسق العلاقات بين الشعوب والدول.

فإن كان احتلال العراق للكويت خرقاً لهذا القانون الدولي بالذات، فإن احتلال إسرائيل للعديد من البلدان العربية يشكل هو أيضاً خرقاً للقانون الدولي إياه.

فهل من يجهل أن إسرائيل تحتل منذ ٢٤ عاماً مناطق شاسعة من فلسطين وسورية ولبنان؟

وهل من يجهل أن هذه الاحتلالات الكثيرة، كانت موضع عشرات الإدانات من قبل مجلس الأمن بالذات؟

فلم إذا الانقضاض على العراق، فيما إسرائيل تواصل لعبتها السياسية إلى ما لا نهاية، وفق ما يحلو لها؟

ولماذا يتوجب على الفاتيكان أن يثير الانطباع إن لم أقل الاقتناع، بأنه هو أيضاً يسلم في السياسة بوجود هذه القاعدة الماكيافيلية، قاعدة ازدواجية الأوزان والمعايير؟

أبت صاحب القداسة،

إن ملايين العرب —وغير العرب دون أدنى شك- ينتظرون من الفاتيكان أن يرفع الصوت، كي يعلي صوت حق لم يعد قائماً في السياسة، ولكنه يجب أن يكون قائماً في المسيحية.

ألم يحن الوقت كي يدرك الغرب، عبر صوت الفاتيكان، أنه أفرط في التساهل مع هذا "الطفل المدلل" الذي أنجبته السياسة الغربية والذي يدعى "إسرائيل"؟

"كلمة الحق" هذه، أنا لا أتوقعها إلا من الفاتيكان دون سواه.

وقد يكون المسؤولون في الفاتيكان قادرين دون سواهم على إدراك الرهان الفظيع الذي يترتب على هذا التجاهل الخبيث والعام للمساواة أمام القانون الدولي.

ولا يسعني، ككاهن عربي كاثوليكي، إلا أن أعرب عـــن حـــزني وخيبتي، إن لم يرتفع صوت "كلمة الحق" هذه، قبل فوات الأوان.

وإنه ليبدو لي واضحاً أن ثمن هذا الصمت، سيصيب لا مصـــداقية الفاتيكان وحسب، وهي الآن مجروحة، ولكن أيضاً وخصوصاً "حضـــور يسوع بالذات"، سواء في موطنه الأصلي، أو في "مهد انطلاقته".

أبت صاحب القداسة،

إني لأطالبك "بكلمة الحق" هذه!

باسم ملايين العرب وغير العرب عبر العالم، أطالبك "بكلمة الحق" هذه، فيما لا يفصلنا عن تاريخ ١٥ كانون الثاني المشؤوم، ســـوى أيـــام معدودة.

أطالبك بها، حتى لو رفض "متجبرو" هذا العالم الإصغاء لك.

أبت صاحب القداسة،

لقد فات الكثير من الوقت.

والغد قد يحمل المآسي واللعنات.

أبت صاحب القداسة،

أكرر لك ثقتي ورجائي.

في ١٩٩١/٢/١

إلى القسيس بيير مارتان

جنيف

عزيزي بيير،

شكري لك، وللمسؤولين في الصحيفة، لأنكم تتيحون لي أن أُسمِع صوتي، حتى من خلال بريد القراء. فقد يسمعني هذا أو ذاك وسط لغط المعارك والإعلام، الجهنمي.

بعيدا عن كل ما يجري في هذه الحرب التي زعموها "عادلة"، وبعيدا عن "انهيار" أحياء بكاملها على سكانها في بغداد وغيرها، أرى خصوصا "الانهيار" المحتوم للغرب برمته، وعلى رأسه الولايات المتحدة الأميركية، في ما كان يشكل عنوان افتخاره وعزته: "تطوره المتفوق".

كان الغرب، وعلى رأسه الولايات المتحدة الأميركية، يُعتبر في طليعة التطور في العالم. كان ذاك الفردوس المفقود الذي طالما اشتهاه مليارات من البشر المتخلفين. وكان يتبجّح بكونه المدافع عن "عناوين" النبل والكرامة في الإنسان: الديمقراطية، والحرية والعدالة...

يا له من انهيار محزن اليوم، انهيار "هذا" الغرب. أجل، كان لا بد من هذا "الاحتلال" التعيس للكويت، وكان لابد من هذه "الهَبّة الفروسية"

للغرب في مواجهة هذا "الاحتلال"، -كي يتعرى بالكلية- أجل بالكلية - غرب "مُحتَلّ فعلا"، بشياطين النهم البدائية، وبالشيطان الغربي حصرا، شيطان عقدة الذنب حيال اليهود.

مسكين هو بيتهوفن الذي كان يقول إن علامة تفوّق الإنسان إنما هي طيبته وحدها!.

بحق السماء، ذرة من الذكاء!.

إنه ليتوجب على المرء أن يكون غبيا بالكلية كي يصدّق أن الناس، أيا كانوا، يصدقون أن "الدفاع عن القانون" هو الدافع إلى هذه الحرب "العادلة".

لماذا إذن الإسراع بمثل هذا الجنون إلى إبادة العراق، كي يحترم أحد قرارات مجلس الأمن، فيما التحايل بمثل هذه الصفاقة ومنذ أكثر من ثلاث وعشرين سنة، في عدم تطبيق عشرات القرارات التي اتخذها مجلس الأمن ذاته ضد إسرائيل؟.

أفلا يكون هذا الغرب "الفروسي" ذاته، سوى مجموعة من الدمى تحركها سلطة لا يجرؤ أحد على تسميتها باسمها، والتي لابد من تسميتها بالصهيونية؟.

إزاء هذا المشهد البالغ التعاسة لغرب يدّعي أنه "قوي ومتطور"، فيما هو برهن مرات كثيرة أنه أكثر من ضعيف، لابد لنا من الانتهاء إلى

هذا الحكم، الذي بات في نظر الكثيرين، حقيقة صارخة: إن الغرب كان منذ زمان بعيد محتلاً، على نحو مَرَضي وحقيقي، بعقدة ذنب رهيبة ولا يمكن استئصالها، حيال اليهود، عقدة ذنب ليس من مسؤول عنها سواه.

إن الغرب، وعلى رأسه الولايات المتحدة الأميركية، يعتقد أن العالم بلغ من الغباء ما يمنعه من أن يرى في هذه المغامرة الهائلة، التي يقوم بها "رعاة البقر" الحديثون، والتي هي حرب الخليج، سيطرة "أقوياء" هذا العالم على النفط من جهة، وتدمير جار خطير على إسرائيل، هذا الطفل المدلل للغرب، من جهة ثانية.

وأنه لفي منطق "الأطفال المدللين"، أن يمنحوا ذواتهم امتيازات يترتب على الأهل أو العرابين أن يدفعوا ثمنها غاليا.

إن كل ذلك ما كان ليستحقّ ولا كلمة احتقار أو غضب، لولا الثمن الهائل الذي سيدفعه العالم العربي -وربما العالم كله-. فثمة إبادة منتظمة لشعوب برمتها، وثمة تلوث يلف الأرض، وثمة نفقات خرافية كان من شأنها أن تسعد جميع "معدمي" هذه الأرض، وثمة خصوصا إيقاظ لشياطين قديمة، شياطين جميع أنواع الأصوليات.

أيها الآب،

لا تغفر لهم لأنهم يدركون تماماً ما يفعلون.

دمشق ٢٢ شباط ١٩٩٨

قداســـة البابا

يوحنا بولس الثاني

روما

رســـالة مفتوحة من كاهن عربي كاثوليكي إلى قداســـة البابا يوحنا بولس الثاني(*)

أبت صاحب القداســـة،

اليوم هو الثاني والعشرون من شباط، والساعة في دمشق هي الثالثة صباحاً.

النوم يجفوني.

أحببت أن أمضي بضع دقائق معك، أنت بالذات، أسر لك فيها ببعض ما في قلبي.

فأنا لا أعرف "بابا" في تاريخ الكنيسة، له ما لك من تأثير فاعل، ونظرة شمولية، وروح قتالية في التمسك بالحقيقة الصعبة، وقدرة على

(*)- نشرت في صحيفة النهار البيروتية في ١٩٩٨/٥/٢٨.

المصارحة الصادقة، وحرص على الإنسان، أياً كان، وعلى الإنسانية كلها...

قرأت لك الكثير، غالباً في دهشة وشغف، وأحياناً في اعتزاز وفرح...

فما أحوج الإنسان، إذ تشتد العواصف وتعلو، إلى ربّان مؤمن وقوي...

وكنت تبدو لي دائماً ذلك الربّان المؤمن والقوي...

إلا في حالة واحدة...

أجل في حالة واحدة، هي تلك التي تخص فلسطين...

وهنا كنت دائماً أتساءل في حيرة وحزن:

ما الذي يثبط عزيمة البابا، كلما أثيرت قضية تمس قضية فلسطين؟

تتبعت بدأب كلماتك في صحفك، لعلمي بأن الكثير مما كنت تقوله، لم ينشر في وسائل إعلام الغرب، المهيمنة والمنحازة...

ولكم اشتد حزني عندما تبين لي أن الكنيسة نفسها باتت مكبلة، وأنها تتعمد تضييق الخناق على صوتك، كما حدث في الفترة التي سبقت ورافقت وأعقبت ما سمي بحرب الأمم المتحدة على العراق عام ١٩٩١...

إن ما كان يتاح لي الإطلاع عليه من أقوالك، كان، في نظري، أقل من القليل، بالقياس إلى خطورة موضوع فلسطين من جهة، وإلى كثرة المبادرات وتنوعها، التي قمت بها في المجالات الأخرى من جهة ثانية...

بالمقابل، كان القلق يستبد بي كلما رأيتك تسارع إلى اتخاذ مبادرات لبناء "جسور المصالحة مع اليهود"...

وقد ازداد قلقي عندما رأيت الكنيسة الرسمية في فرنسا تحذو حذوك، وتطلب الصفح علناً من اليهود، في بيانات رسمية...

وإنني لأرقب أرتالاً لاحقة من الكنائس تطلع علينا في الأيام القادمة، بمثل هذه المبادرات...

ترى ما الذي يجري على السطح؟.

وما الذي يجري في العمق؟.

أبت صاحب القداسة،

أن يكون اليهود ضحية اللاسامية في دول غربية، فهذا أمر معروف، ولكنه لا علاقة للعرب به...

وليس من يجهل أن اليهود عاشوا في البلاد العربية والإسلامية وسط أجواء أتاحت للكثيرين منهم أن يبرزوا بوصفهم أطباء وعلماء ومفكرين وفلاسفة وموسيقيين وتجاراً...الخ.

أن يستغفر الغرب اليهود عما ارتكبه بحقهم في قرون سابقة، فهذا شأن حسن، ولكن لِمَ لَم يُشَر، في جميع البيانات "الاستغفارية"، من قريب أو بعيد، إلى ما ارتكبه اليهود أنفسهم من أخطاء فادحة، سابقة وثابتة، بحق الشعوب العربية، ولاسيما الشعب الفلسطيني، وإلى ما ارتكبه قادتهم بالذات، أيام النازية، بحقهم؟.

ألا تستحق جرائم الحرب الإدانة أيضاً، أسوةً بالجرائم ضد الإنسانية؟.

ألا تستحق جرائم الحرب التي ارتكبها اليهود بحق العرب والفلسطينيين أن تعتبر جرائم ضد الإنسانية؟.

لِمَ لَم يفطن أحد في الغرب إلى استغفار البقية الباقية من شعوب أبيدت، تعيش اليوم في منعزلات صارت وصمة عار في جبين بعض الدول؟.

صاحب القداســة،

إن هذه "المبادرات الاستغفارية" تنطوي على تبعات ومخاطر على الوجود المسيحي في الشرق العربي، وهذا يجعل الصمت خطيئة، وإن كان مسؤولون كثيرون في كنائس الشرق العربي يصمتون ويتفرجون في لا مبالاة محزنة...

ثمة وجه آخر للمسألة...

إذا كان الغرب المسمى مسيحياً، يعيش عقدة ذنب حيال اليهود، فإن هذا لا يجيز له التعامي عما يفعله هؤلاء، منذ خمسين عاماً، بالشعوب العربية، ولاسيما في فلسطين...

وإذا كان الغرب المسمى مسيحياً يسعى لغسل يديه من خطيئة اللاسامية، تماماً كما فعل بيلاطس يوم سَلّم يسوع لليهود كي يصلبوه، فإنه لا يحق له أن ينسى أو يتناسى مسؤوليته عن نشوء دولة إسرائيل في قلب الشرق العربي، وما سببه قيامها من كوارث ماضية، وعما سيسببه حتماً من كوارث آتية...

أيداوي الغرب عقدة الذنب التي لديه حيال اليهود، بعقدة ذنب أفدح حيال العرب عامة، والعرب المسيحيين منهم خاصة؟.

يا صاحب القداسة،

إن كان قد تبقى من ضمير للغرب، فأنت هو ضميره...

وإن ما يجري في فلسطين والعراق، يجب أن يستصرخ ضميرك قبل أي ضمير آخر...

وما يجري في الشرق العربي، بلغ ذروته اليوم، وهو نذير شر لشعوب المنطقة عامة، وللعرب المسيحيين منهم خاصة...

فالغرب، ومعه الكنيسة الغربية، يستغفران اليهود، واليهود يواصلون تشريد وقتل ما تبقى من سكان فلسطين وجنوب لبنان والجولان السورية

-وكلها أراض عربية محتلة، باعتراف الأمم المتحدة- وتدمير بيوتهم ومزارعهم، تحت سمع العالم وبصره، دون أن يتحرك الغرب لوقف المأساة...

الغرب يستغفر اليهود، ويدفع لهم مليارات الدولارات تلو المليارات، تعويضاً عما حدث في الماضي، بينما إسرائيل تخرق -بالأمس واليوم- جميع قرارات الأمم المتحدة دون استثناء، والغرب لا يحرك ساكنا ولا يرفع صوتاً...

البارحة -عام ١٩٩١- دمر الغرب العراق... واليوم تحشد أميركا وبريطانيا أقوى ما لديهما من طائرات وصواريخ وجيوش، متذرعتين بأنه يرفض تفتيش أراضيه بحثاً عن أسلحة التدمير الشامل، مع أن الأمم المتحدة تفتشه منذ سبع سنوات، فيما الجميع يعلم أن إسرائيل تملك أسلحة دمار شامل، كيماوية وبيولوجية ونووية، وأنها لوحت أكثر من مرة باستخدامها... وليس في الغرب من يحرّك ساكناً أو يرفع صوتاً...

فما الذي يحدث؟

أفهم، يا أبت، أن تكون المكيافيلية قد سكنت عقول وسلوك جميع الساسة في العالم، ولاسيما في الغرب المقتدر، أما أن تسكت الكنيسة وهي "عمود الحق وقاعدته" كما وصفها القديس بولس، فهذا أمر لا سبيل إلى فهمه وتبريره.

إن شرقنا ومؤمنيه، من مسيحيين ومسلمين، مهدد بشر أنواع التمزق وبالغرق في الدماء، إذا ما استمر هذا التمييز في المعاملة، وتواصلت سياسة الكيل بمكيالين.

فهل هذا ما تسعون إليه؟

بالتأكيد: لا...

هذا المصير ينتظرنا، إذا ما واصلت أميركا ضرباتها في الشرق، وإسرائيل ضرباتها في الغرب.

إن تبعة هذه الأحداث تقع أولا وأخيرا، على دول الغرب...

وفي هذه الحال، من تراه سيغفر جريمة قد تقضي نهائياً على ما تبقى من عرب مسيحيين في هذا الشرق، بدءاً من أرض الرب يسوع، فلسطين؟.

صاحب القداسة،

أما آن الأوان لمكاشفة تاريخية تعلن فيها الكنيسة أخطاءها على الملأ، لتتحرر من انحياز أعمى تجاه اليهود، ممن انضووا في حركة صهيونية، هي والنازية توأمان لا ينفصلان، نظرية وغطرسة وممارسة عنصرية، وتحديا للشرعية الدولية؟.

أما آن الأوان لأن تقول الكنيسة، ولاسيما في الولايات المتحدة الأميركية، الحقيقة في وجه من نصّبوا أنفسهم حماة الحق في العالم، بينما هم يدوسون حقوق الإنسان والشعوب؟.

أبت صاحب القداســـة،

إزاء مثل هذه التوقعات والأخطار، أخشى، أنا الكاهن العربي الكاثوليكي، أن تظل الكنيسة صامتة باسم "المصلحة العليا"...

قديماً، باسم المصلحة العليا، قتل اليهود وبيلاطس يسوع...

إذا كانت "المصلحة العليا" هي البديل عن الإنجيل في زماننا، فهل سيبقى عندئذ مكان ليسوع؟.

تُرى، لو عاد يسوع، ماذا كان سيفعل؟ وماذا كان سيقول؟.

أبت صاحب القداســـة،

ربما لم يخاطبك إنسان، يوما، بمثل ما أخاطبك به...

إلا أنك الرأس في كنيسة الرب يسوع...

فإن غاب صوت الكنيسة، هل تراه يبقى مكان لحق ولحقيقة، في عالم بات كل شيء فيه يُصوّر ويُزيّف وفق "مصالح" هذه الدولة أو تلك؟...

وإن غاب صوتك، هل ثمة صوت سيرتفع ليذكّر بالحق والحقيقة؟...

إن غاب صوتك، فلن يبقى سوى الحجارة لتصرخ، كما هدد يســـوع بها اليهود قديماً...

أبت صاحب القداســـة،

أطلت عليك فاعذرني...

يسعدني أن أكتب لك من مدينة دمشق، دمشق الأم الحقيقية للرسول العظيم بولس.

إني لأبتهل إلى الرب يســـوع من أجل كنيسة العرب، وأناشدك بالرب يســـوع الدفاع عنها قبل فوات الأوان.

بذلك تكون قد دافعت عن اليهود والعرب على السواء، فساعدهم على الخروج من دائرة الظلم والحقد والموت الجهنمية، التي تلفنا منذ مائة عام...

ومثلما دخلت التاريخ من بابه العريض بالمساعدة على هدم جدار برلين والشيوعية،

أرجوك،

أنا ابنك الكاهن العربي،

أن تساعد اليهود على التحرر من عنصريتهم الصهيونية، كي ينعم العرب بما يحلمون به من عدل وسلام حقيقيين.

صاحب القداســـة وأبي،

تقبـــل محبتـــي واحتـــرامـــي

دمشق في ٢٠٠٠/١٠/١٣

نيافة الكاردينال

جان – ماري لوستيجه

باريس

صاحب السيادة،

أمام ما يجري منذ أيام في فلسطين المحتلة، أرى من واجبي، بصفتي كاهناً عربياً كاثوليكياً، أن أوجه هذه الرسالة المفتوحة إليك، بوصفك رئيس أساقفة باريس، اليهودي المولد.

لقد سبق لي أن التقيتك مرتين، وكانت المرة الثانية في مكتبك بتاريخ ١٩٩٠/١١/٢٤

كان ذلك قبيل الحرب الشهيرة والمحزنة، التي شنتها الأمم المتحدة على العراق.

في ذلك اليوم، كنت قد سألتك بإلحاح أن تذكّر اليهود في فلسطين المحتلة، بأن القوة لا يمكنها قط أن تكون أساساً لأي حق، وبأن العنف الذي أطلقوا عنانه منذ عشرات السنين في الشرق العربي، سوف يبتلعهم، عاجلاً أو آجلاً، إن ظنوا أنه بوسعهم أن يؤسسوا عليه استمرارهم في البقاء.

وإني لأعتقد بأن ذلك اللقاء لم يُمحَ البتة من ذاكرتك، على الرغم من كثرة من تقابلهم. وذلك لسببين، أولهما أنك أطلت اللقاء من عشرين دقيقة إلى خمس وأربعين، وثانيهما لأنك قلت لي، خلاله، وكأنك تبوح لي بسر:

"لم يكلمني أحد قط على هذا النحو!".

والحقيقة المؤسفة تضطرني للاعتراف بأن لغة رجال الكنيسة، كثيراً ما تتسم بفرط المجاملة.

ولما عدت إلى دمشق، دفعتني الرغبة في تعميق أثر هذه المقابلة، إلى توجيه رسالة إليك بتاريخ ١١/١/١٩٩١، إلا أنها ظلت دون جواب، علماً بأنها لم تُعد إليّ. بالطبع احتفظ بنسخة منها.

ولكم حاولت في ما بعد أن أظفر بلقاء معك، ولكن بابك ظل موصداً في وجهي.

صاحب السيادة،

ليس من يجهل أن روح يسوع إنما هو روح حقيقة وشجاعة، لا روح هروب.

لِمَ إذن هذا الصمت، المعيب والعنيد، الذي تمارسه كنيسة فرنسا كلها، حيال انفلاتِ العنف هذا في فلسطين، على هذا النحو المجنون وغير المتكافئ؟

إن مَكيافيلية "الدول الكبرى"، بدءاً بالولايات المتحدة، التي تتحكم بها علناً الحركة الصهيونية، هل يمكنها أن تبرر هذا الصمت المتواطئ، الذي يلف الغرب كله، بما فيه الكنيسة الغربية كلها؟

صاحب السيادة،

إن العالم العربي ينتظر كلمة حق، منك أنت بالذات، أجل منك قبل سواك.

إن كلمة الحق هذه، المنطلقة من باريس إلى مختلف أنحاء العالم، أنتظرها أنا الكاهن العربي، وأطالب بها بإلحاح، باسم اليهود والعرب على السواء.

أفلا تجد معي أن عقدة الذنب في الغرب حيال اليهود، قد زجّت بالغرب كله، وعلى رأسهم اليهود، في هوة سحيقة من "الإجرام القانوني والدولي"؟.

وحتى مَ ستدع إخوتك اليهود، الذين كانوا مدة مئات السنوات، ضحايا اللاسامية الغربية، يتحوّلون إلى جلاّدين متغطرسين وجبناء، لفلسطين والعالم العربي في الوقت الذي يفرضون فيه انحرافاً مخزياً على الضمير العالمي، من خلال الأمم المتحدة، وقد باتت مجرد دُمى تعيسة تتلاعب بها أيادي اللوبي الصهيوني الذي يتحكم بالولايات المتحدة الأميركية؟

وإن كان الغرب المريض بعقدة الذنب هذه، يغفر لهم جميع مساوئهم، ويدعمهم على نحو دائم، دعماً غير مشروط، هل تعتقد أنه سيكون بوسعه يوماً أن يجنّبهم انتحاراً جماعياً ينتظرهم، إن ظلّوا مكابرين على رفض منطق التاريخ الذي لا يرحم؟

صاحب السيادة،

لقد فات الكثير من الوقت.

إن كلمة الحق هذه، يجب أن تقال من أجل خلاص الجميع، حتى لو لم يسمعها أحد. فلا بد من أن تقال لذاتها، باسم الله وباسم الإنسان معاً.

وإلاّ فقد تحمل يوماً، مع كنيسة الغرب كله، وزر جلجلة جديدة وهائلة، لن يكون ضحيتها يسوع وحده، **بل يسوع الحاضر في جميع من يحمل اسمه في العالم العربي.**

دعني، في الختام، أذكّرك، أنت الفرنسي في موقع مسؤول، وجميع الفرنسيين، اسماً بشعاً جداً، سكن ذاكرة فرنسا منذ الاحتلال النازي لها.

هذا الاسم، قد تكون حدسته... إنه "أورادور سورغلان"(١)

Oradour-sur-GLANE

(١)- اسم قرية فرنسية، تقع في وسط فرنسا، وقد قتل النازيون جميع سكانها البالغ عددهم ٦٤٢ نفساً، في ليلة ١٩٤٤/٦/١٠، في رد على المقاومة الفرنسية. وقد أبقت السلطات الفرنسية، منذ ذلك الحين، ما تبقى من البلدة على حاله، شاهداً على البربرية النازية.

أجل، أروادور سورغلان!

فأخشى ما أخشاه أن تكون فلسطين والعالم العربي في طريقهما إلى التحول إلى "أورادور" ثانية.

ولكنك تعرف تماماً كيف انتهت النازية، على الرغم من جبروتها.
وفي انتظار كلمة الحق هذه، أقدم لك رجائي واحترامي.

في ٢٠٠١/٥/٥

قداسة البابا

يوحنا بولس الثاني

السفارة البابوية

دمشق

أبت صاحب القداسة،

إن سورية وجميع المسيحيين فيها وفي العالم العربي، مـــدينون لـــك بشكر عميق للعناء –والفرح– اللذين تجلبهما لذاتك بالمجيء إلى دمشـــق، المدينة التي اختارها الرب كي يهدي فيها إليه من قيض له أن يصبح رسول الأمم، القديس بولس.

عسى أن يكون مرورك بها، ومبادراتك وكلماتك، مصدر حـــب ونور وسلام لجميع أبناء الله الذي يعيشون في هذه المنطقة من العالم، تلك المنطقة التي نعمت باختيار إلهي، ولكنها تعاني بقسوة بفعل البشر.

أبت صاحب القداسة،

اسمح لي، بوصفي كاهناً كاثوليكياً، أن أوافيك عن طريق الســـفارة البابوية في دمشق، بهذه الكلمة البنوية، أرفقها بثلاث أمانات:

١- صورة لرسالة مفتوحة وجهتها لك عبر الصحافة بتاريخ ١٩٩٨/٢/٢٢، وحاولت أن أوافيك بها شخصياً، بواسطة كاهن صديق من فرنسا. وأضم إليها نسخة منها في ترجمة عربية نشرتها في صحيفة النهار اللبنانية بتاريخ ١٩٩٨/٥/٢١.

٢- صورة لرسالتين وافيت بهما نيافة الكردينال جان ماري لوستيجه، الأولى بتاريخ ١٩٩١/١/١١، والثانية بتاريخ ٢٠٠٠/١٠/١٠.

٣- شريط فيديو كاسيت لأمسية من الترانيم أحيتها في دمشق ٢٠٠٠/١١/٢٩، جوقة أسستها عام ١٩٧٧، في رعية كنيسة سيدة دمشق، حيث أؤدي خدمتي. والجوقة تحمل اسم جوقة الفرح، وهي تضم (٤٥٠) مرنماً ينتمون إلى جميع الكنائس المسيحية في دمشق، كما أنها تضم فرقة موسيقية معظم أفرادها من المسلمين.

واغفر لي إن بحت لك بأن هذه الجوقة كانت تتحرّق للاشتراك في مختلف الاحتفالات التي رافقت زيارتك التاريخية.

ولكننا حرمنا من هذه المشاركة لِسبب نجهله. فعسى أن تسهم هذه التضحية في نجاح رحلتك على الصعيدين الروحي والإنساني.

أبت صاحب القداسة،

أركع في اتضاع كما عند أقدام الرب يسوع، وأسألك البركة للعالم العربي، لكنيسة سورية وكنيسة العالم العربي، ولجوقة الفرح.

أرجو أن تتقبل عربون بنوتي صلاة واحتراماً.

جواب قداسة البابا

أمانة سر الدولة

القسم الأول – الشؤون العامة

الفاتيكان في ١٤/٦/٢٠٠١

يسر أمانة سر الدولة أن تبلغك تأثر صاحب القداسة بالثقة التي أبديتها نحوه، في الرسالة التي وافيته بها، بمناسبة حجه إلى دمشق، على خطى القديس بولس.

وإن البابا ليشكر لك بحرارة هذه المبادرة ويشكر لك موافاته بشريط الفيديو الذي رافق الرسالة. وهو يؤكد لك صلاته من أجل نياتك، ويوافيك ببركته كي يساندك الله في خدمتك الكهنوتية.

المنسنيور

ب.لوبيز كوينتانا

معاون

دمشق في ٢٠٠١/٥/٧

نيافة الكردينال

جان ماري لوستيجيه

السفارة البابوية

دمشق

أبت صاحب السيادة،

اسمح لي بأن أعرب لك عن سعادتي ودهشتي، إذ شاهدتك أمس على شاشة التلفزيون، خلال زيارة قداسة البابا التاريخية للمسجد الأموي.

أن تكون بجوار قداسة البابا، أمر بدا لي ذا دلالة عظيمة. فقد كان بوسع الكثيرين من الكرادلة سواك أن يرافقوه.

لا يسعني إلا أن أشكر للرب أنه ألهم صاحب القداسة هذا الاختيار، أو ربما ألهمك أنت بالذات فكرة مرافقة قداسته في هذه الزيارة التاريخية.

لكم كنت أتمنى أن ألتقيك.

أستعيض عن هذا اللقاء بهذه الكلمة وبصورة أضمها إليها، لرسالتين كنت خصصتك بهما، الأولى بتاريخ ١٩٩١/١/١١، والثانية، وهي رسالة مفتوحة، بتاريخ ٢٠٠٠/١٠/١٠.

أبت صاحب السيادة،

دعني أسألك بإلحاح، بوصفي كاهناً عربياً كاثوليكياً، أن تكسر صمت كنيسة فرنسا حيال هذا الظلم المخزي الذي يرتكب في فلسطين منذ أكثر من خمسين عاماً في تواطؤ مع الغرب برمته.

لقد آن الأوان لتذكير يهود فلسطين والعالم، أن العالم العربي وحده هو الذي احترمهم طوال القرون التي كانت مسيحية الغرب المزعومة، تضطهدهم فيها دون رحمة.

وقد بات أمراً ملحَّاً تذكير يهود فلسطين والعالم، بأنهم لن يبنوا مستقبلاً مشرقاً، إذا ما استمروا يمزقون في انتظام جميع الحقوق، ويدمرون في انتظام كل شيء في فلسطين المحتلة، ويهددون بالدمار، الجزئي أو الشامل، لبنان وسورية وبلداناً أخرى من العالم العربي!.

صاحب السيادة،

أرجوك أن تفعل كل ما بوسعك، كي تساعد كنيسة الغرب كلها، بما فيها كنيسة الولايات المتحدة وكندا، على تحاشي عقدة ذنب، جديدة ورهيبة... بفعل اندثار متوقع لكنائس الشرق والعالم العربي، من جراء سياسة الغرب في دعم إسرائيل، دعماً غير مشروط، ظالماً وقصير النظر، في صراعها مع العرب.

صاحب السيادة،

دعني أتمنى لك، بكل ما يستبد بي من جدية القلق حول مستقبل الكنيسة في العالم العربي، أن تكتشف في دمشق طريقك إلى الهداية، بحيث تساعد كنيسة فرنسا والغرب كله، على الاهتداء بدورها إلى خير يعم البشرية.

أسألك الدعاء، وأكرر لك رجائي واحترامي.

باريس ٢٠٠١/٦/١٣

جواب الكردينال لوستيجيه

أسقفية باريس

أبت،

إن الكردينال لوستيجيه يرجوني تقديم الشكر لك لرسالتك المؤرخة في ٧ أيار.

أجل، لقد كانت زيارة قداسة البابا لسورية لحظة عظيمة وقد تأثر الكردينال لدعوته للمشاركة فيها.

كن واثقاً، أبت، من إخلاصي الروحي، ومن صلاة الكردينال من أجلك ومن أجل السلام.

الأب ماثيو روجيه

أمين السر الخاص

دمشق في ١٦/٩/ ٢٠٠١

رسالة إلى جورج بوش
رئيس الولايات المتحدة الأميركية

السيد الرئيس،

اسمح لي أولا بأن أقدم لك وللشعب الأميركي الطيب، أخلص مشاعر العزاء، سائلا الرب أن يشمل أميركا والعالم كله بسلامه ورجائه.

السيد الرئيس،

أنا كاهن كاثوليكي من سورية. ولدت عام ١٩٣٢ في دمشق، من عائلة عربية مسيحية، وأخدم في إحدى كنائس دمشق، بصورة متواصلة، منذ عام ١٩٦٢.

التقيت منذ يومين كاهناً أميركياً قدم إلى دمشق، و يغادرها بعد غد إلى أميركا.

تحدثنا طويلاً، بألم، عما حدث في نيويورك وواشنطن، وعما يمكن أن ينجم عنه من أحداث أكثر خطورة على نطاق العالم.

رجوت خيراً، إذ أكد لي هذا الكاهن أنه سوف يمكّنني من الاتصال بك شخصياً عن طريق البريد الإلكتروني.

فدفعني شعوري بالمسؤولية، ككاهن عربي إنساني، لأن احمّله هذه الرسالة الشخصية لك، راجياً أن يتاح لك الوقت لقراءتها، على الرغم من مشاغلك الهائلة.

السيد الرئيس،

ماذا عساني أقول لك، وأنا كاهن لا أملك سوى إيماني، بينما أنت المواطن المسيحي الأميركي، تحكم أقوى و أغنى دولة في العالم!.

بكل بساطة، أود أن أذكرك ببديهيات تعرفها جيداً، ولكن قد تكون نسيتها، بحكم المركز الذي تتبوأه، أو بحكم الضغوط، الظاهرة والخفية، التي تمارس على كل من يحتل مثل هذا المركز، أو أيضاً بحكم الأحداث الرهيبة التي ضربت نيويورك وواشنطن، فأصابت أميركا في الصميم من عزتها. فأنت أولاً و أخيراً، إنسان ومواطن أميركي.

السيد الرئيس،

الدنيا كلها تتعاطف اليوم مع أميركا، باستثناء القلة القليلة، لأن ما حدث يفتت الصخر ألماً وحزناً.

إلا أني أرجوك أن تسأل ذاتك، بوصفك رئيس الولايات المتحدة الأميركية، وتتساءل مع سائر المسؤولين الكبار من حولك، لمـــاذا حدث هذا الاعتداء المروّع؟

كما أرجو ألا تتصور بسرعة أن العالم كله في قبضة "شياطين الإرهاب"، وأنك مطالب مع جميع المسؤولين في الغرب باعتبار أنفسكم الملائكة المكلفين بإنقاذ العالم منهم!.

فهل أنتم حقاً ملائكة؟

وهل الآخرون حقاً شياطين؟

ألسنا كلنا بشراً؟

ثم أرجوك أن تتساءل، كيف حدث ما حدث، دون أن يكون تسرب أيّ خبر إلى أجهزة مخابراتكم التي لا يفلت منها شيء ولا إنسان في العالم!...

كما أرجوك أن تتساءل لماذا سارعت أجهزة الإعلام في أميركا والغرب إلى توجيه أصابع الاتهام إلى العرب والمسلمين، فكان أن "اكتشفت" في أيام قليلة أسماء العشرات من "المتآمرين المزعومين"، -دون التأكد حتى من تورط أسامة بن لادن!- فأحدثت بذلك موجة من الكراهية للمسلمين والعرب، قد تكون بداية لفتنة عالمية، لن تفلت منها أميركا بالذات ولا الغرب!.

فهل هذا ما تريدون؟

ومن تراه يريد هذا ويستفيد منه، إن حدث؟

أرجوك أيضاً أن تتساءل لماذا كثرت الاعتداءات على الولايات المتحدة دون سواها تقريباً، منذ السبعينات، بما فيها الاعتداء المروّع في مدينة أوكلاهوما؟

السيد الرئيس،

هل تعتقد ويعتقد المسؤولون معك في أميركا، أن مثل هذا العداء ومثل هذه الاعتداءات، مجانية، لا مبرر لها ولا تفسير؟ أفلا يجوز، والحالة هذه، أن تكونوا، أنتم بالذات، مسؤولين بنصيب، كبير أو صغير، عما تسبّبون لأنفسكم من عداء واعتداءات في العالم كله؟.

ثم هل لي أن أرجوك أن تتساءل أيضاً كيف يتحول من كانوا أبطالاً في نظركم لفترة طويلة –مثل الطالبان و أسامة بن لادن وصدّام حسين نفسه– إلى "شياطين" يجب اجتثاثهم من الأرض، ولو كلف ذلك مئات ألوف الضحايا من أطفال ورجال ونساءٍ مدنيين، كما حصل ويحصل في العراق منذ "عاصفة الصحراء" الشهيرة عام ١٩٩١.

ولو كلف ذلك أيضاً مئات المليارات من الدولارات التي كانت، لو استخدمت في ذكاء وبُعد نظر، أنقذت العالم من مظالم كثيرة وأمراض فتاكة وكوارث طبيعية!

واسمح لي أيضاً أن أتساءل ما الذي يرغم دولة عظمى مثل الولايات المتحدة الأميركية، على التنكر لدستورها ولجميع الشرائع والقرارات الدولية، عندما يحدث ما يمس "إسرائيل"، في هيئة الأمم أو في مجلس الأمن،

أو في مؤتمرات دولية مثل "دوربان"، فتستخدم دون تردد الفيتو، في حين أنها تطالب بإنزال أبشع أنواع العقوبات -من غبيّة وذكيّة!- على شعوب العالم بكاملها، لأنها تورطت، في نظركم، في ما يخالف القانون الدولي؟

فهل النفط يكفي لمثل هذه الازدواجية؟

أم هناك ما هو أخطر من النفط على العالم، وعلى الولايات المتحدة الأميركية بالذات؟

السيد الرئيس،

هل تساءلت ما الذي حدث ويحدث في فلسطين وفي الشرق العربي والإسلامي كله، منذ أقدمت منظمة هيئة الأمم على ما لم تقدم عليه من قبل: تقسيم فلسطين، ومن ثم السماح لإسرائيل بابتلاع فلسطين كلها، والأراضي العربية "المحتلة"، بدعم غربي سافر، وبدعم أميركي فاضح، جعل الولايات المتحدة تظهر لجميع العرب، بما فيهم أنا الكاهن، وكأنها هي إحدى ولايات إسرائيل؟

فما الذي يحدث؟

ألا ترى إرهاباً في ما حدث في فلسطين والشرق العربي منذ أكثر من خمسين عاماً؟

ألا ترى إرهاباً أيضاً وخصوصا في ما يحدث منذ سنة في فلسطين على الأقل، من تقتيل وتدمير واصطياد مقصود للأطفال والنساء والشبان

والرجال، واقتلاع للمزارع وتجويع وتشريد للمدنيين، وبالسلاح الأميركي بالذات، من F16 وطائرات الأباشي، والدبابات؟

إن كان هذا كله ليس بإرهاب، فما عسى يكون الإرهاب؟

وإن كانت إسرائيل تعدّ هكذا مستقبلا من التعايش والتعاون مع العرب والمسلمين، فإنها ترتكب خطأ فادحاً، لاسيما وأن العرب والمسلمين كانوا الشعب الوحيد الذي لم يعرف عداء السامية، والذي عاش اليهود بينهم بأمان.

السيد الرئيس،

اسمح لي أن أختم بكلمتين أخيرتين:

الأولى سـؤال:

لِمَ لا تقوم هيئة الأمم المتحدة بتنظيم مؤتمر دولي يُصار فيه إلى تعريف واضح ودقيق وشامل للإرهاب، بكافة أشكاله، ومن ثم تتخذ القرارات الملائمة والدولية لمكافحته، بدل من أن تنفّذ أنت ما تلّوح به من تهديد بالقيام بعملية خطيرة وشاملة، تصنف فيها نفسك والمسؤولين في أميركا والغرب، في عداد الملائكة الأخيار، فيما معظم البشرية ترى في غطرسة بلدانكم وتسلطها، مواطن الإرهاب الدولي؟

الثانيـــة ابتهال:

ابتهال إلى الله كي يبعث لك من رجال الكنيسة والفكر في أميركا، من يساعدك على فتح قلبك وعينيك، فتقرر في شجاعة وحكمة أن تكون من العظماء الذين يبنون حضارة للبشر جميعاً، فيها من العدالة والكرامة، ما يُنسي البشرية طغيان معظم من سبقوك من حكام، في أميركا وفي العالم.

السيد الرئيس،

لدي كلمة أخيرة أهمس بها في أذنك بمحبة ورجاء.

هل يخفى عليك أنك قد ترحل عن هذه الأرض في رفة عين؟

وإني، ككاهن، لا أحب لك ولا لأي إنسان أن يغمض عينيه ويجد نفسه أمام الله الديان الأوحد الذي لا مفر منه، بيدين تحملان الكرة الأرضية وهي غارقة في بحر من الدماء.

السيد الرئيس،

أشكر لك إصغاءك إليّ، وأرجو المعذرة إن أطلت.

أدعو لك ولأميركا ولكل إنسان فيها، كما أدعو لكل إنسان على وجه الأرض، بالسلام والرجاء والفرح.

تقبل احترامي

دمشق في ١٨/١/ ٢٠٠٢

السيد الرئيس

جاك شيراك

قصر الرئاسة – باريس

السيد الرئيس،

سبق لي أن كتبت لك إبان زيارتك لفلسطين، وقد تلطفت وأجبتني.

اليوم أيضاً أجيز لنفسي الكتابة لك لأطرح عليك سؤالاً، سؤالاً واحداً:

إزاء ما يحدث في فلسطين **المحتلة**، لماذا تفقد فرنسا -فرنسا التي ذاقت جيداً طعم الاحتلال **النازي**- شجاعة المطالبة بتطبيق قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن، ضد **إسرائيل؟**

إنه لمحزن حقاً أن نرى مدى ما وصلت إليه فرنسا، بسبب صمتها وغيابها، من تنكر لذاتها ولتاريخها كله، فيما هي تجر معها أوربا كلها، في هذا الانهيار غير المشرف والمقرف.

ربما كان من غير اللائق التحدث على هذا النحو مع رئيس الجمهورية الفرنسية.

إلا أني أتساءل لو كان شارل دوغول العظيم هنا، أما كان تغيّر شيء أساسي على مستوى السياسة العالمية، لاسيما في ما يخص فلسطين؟

السيد الرئيس

اسمح لي في الختام، بموافاتك بنسخة من الرسالة التي أتيح لي أن أرسلها إلى مكتب السيد جورج بوش.

بالطبع، لست بواهم. ولكنها، على كل حال، صرخة كاهن عربي سوري.

السيد الرئيس

تفضل بقبول احترامي العميق.

باريس في ١ شباط ٢٠٠٢

جواب الرئيس جاك شيراك

رئاسة الجمهورية

رئيسة المكتب

SCP /C_O / R007035

أبت،

إن مراسلتك المتعلقة بالوضع في الشرق الأدنى، قد وصلت إلى السيد رئيس الجمهورية الفرنسية، الذي كلفني مهمة إجابتك.

إن بلدنا، كما تعلم، يبذل كل جهوده كي يتيح البحث عن اتفاق عادل ومتوازن، بين شركاء متساوين، مبني على الحق والتطلع الشرعيين للشعب الفلسطيني بأن تكون له دولة، كما هو مبني على الحق والتطلع الشرعيين لإسرائيل بأن تعيش في أمان، ضمن حدود ثابتة ومعترف بها.

إزاء العنف الذي يجلبب بالحزن الشرق الأدنى، منذ أشهر عديدة، فإن فرنسا والاتحاد الأوربي يحشدان الطاقات مع البلدان صاحبة النية الطيبة، كي يبنوا تحالفاً من أجل السلام، من أولوياته المحتومة الحوار والتفاوض، فهما وحدهما كفيلان بضمان الأمن في المنطقة.

يسعني إذن أن أؤكد لك كل الاهتمام الذي قوبل به كلامك.

ولذلك فإني أضم إلى هذه الرسالة، على سبيل الإطلاع، تصريح المجلس الأوربي في "ليكن" بشأن الوضع الذي تشير إليه.

أرجو، ابت، قبول التعبير عن تقديري واحترامي.

آني ليريتيه

رسالة مفتوحة إلى أصدقاء في الغرب(١)

أصدقائي الأعزاء:

لم أستطيع، قبل اليوم، الانسلاخ من صمتي، لأجيبكم على نسخة الفاكس الذي أرسلتموه، بتاريخ ٢٠٠١/١٢/٢٥ إلى سفير إسرائيل في باريس، و قد جاء فيه:

"السيد السفير،

إن حكومة بلدك تثير الخجل حتى الغثيان، لدى جميع الناس الطيِّبي الإرادة".

أصدقائي،

لا يسعني إلا أن أوجه الشكر لكم.

إن شجاعتكم تستحق أكثر من التقدير. وإني لأعرف ما أملاها عليكم. فهو، من جهة، شرفكم كغربيين أوفياء لبعض من تقاليد الكرامة

---

(١) كتبتها بالفرنسية بتاريخ ٢٠٠١/٨/٣٠ وأرسلتها إلى العديد من الأصدقاء في الغرب. ثم ترجمتها بنفسي، ونشرت في مجلة "المحاور" الدمشقية، في العدد (٧٩)، تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٢.

والحرية والحق لديكم، وهو، من جهة ثانية، ما تكنّون من حب لإخوتكم العرب في سورية ولبنان والأردن وخصوصاً فلسطين، لأنه أتيح لكم أن تعرفوهم عن كثب، إبان رحلاتكم الكثيرة في الشرق الأوسط.

إزاء الغضب الذي يسكنني منذ سنوات، حيال الغرب، والذي كنت قد صارحتكم به مراراً، كان لهذا الفاكس من التأثير علي، ما لقطرات من الندى على أرض تحترق عطشاً.

وإن الصمت الذي قابلت به فاكسكم، من شأنه أن يحدثكم طويلاً عما بي من ألم، ألم هو، على كل حال، ألم العالم العربي وكل عربي، مسيحياً كان أم مسلماً، وإنه لألم يفترض بكل إنسان جدير بهذا الاسم، أن يشعر به.

إلا أنه لا يسعني أن أخفي عليكم أن هذا الفاكس لم يفعل سوى إبراز ما يشكل في نظري ككاهن عربي، شهادة على دناءة، بل على عار هذا الغرب وكنيسته معاً، بسبب تواطئهما التعيس والإجرامي مع إسرائيل.

أسلّم بأن يكون هذا الغرب ومعه، للأسف، كنيسته، قد عانيا، لسنوات طويلة، من عقدة ذنب مَرَضية حيال اليهود،بفعل اللاسامية التي عرفها الغربيون **وحدهم** دون سواهم، طوال قرون، بحيث باتوا يريدون أن يتفهموا -أو يتظاهروا بذلك- بل أن يبرروا **جميع** تجاوزات إسرائيل في فلسطين وفي مختلف أنحاء العالم العربي.

وإني لأسلّم، على صعيد رجال السياسة، بواقع ميكافيلية، فيها من الجبانة والخسة ما قد يفاجئ ميكافيلي بالذات.

إلا أني لا أستطيع أن أسلّم بصمت هذه الكنيسة الغربية، هذا الصمت الجبان والعنيد، الذي تُطلِق، من خلاله، تصريحات صاخبة مؤيدة لإسرائيل، لا تقل عنه جبانة وعنداً إزاء استغلال عقدة الذنب هذه، بصورة إجرامية ومنتظمة من قبل الساسة الغربيين و الصهيونية العالمية، بقصد تحقيق هدفين باتا أكثر من واضحين:

الأول، دعم إسرائيل، دعماً غير مشروط و متعدد الأشكال.

والثاني، تدمير العالم العربي، هذا التدمير الذي بدأ منذ انعقاد المؤتمر اليهودي في بال بسويسرا عام ١٨٩٧، والذي تواصل وتُرجم على نحو متقن في معاهدة سايكس بيكو عام ١٩١٦، وتصريح بلفور عام ١٩١٧.

أنتم لا تجهلون أن هذه السياسة الغربية قد أفضت، بفضل نظام الانتداب الذي فُرِض على الشرق الأوسط، إلى تفكيكه كلياً، خلافاً للوعود التي قطعتها الدول الغربية للشريف حسين، قبيل الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، من أجل دخول العرب في الحرب إلى جانب الحلفاء، ضد ألمانيا وتركيا.

هل تراني أتمادى في السؤال، لو ظننت أن ما يختبئ من تصميم على تدمير العرب، لدى غرب بات متفوق الثراء والقوة، إنما هو إرادة الثأر من العالم العربي والإسلامي، لأنه أرعب الغرب طوال قرون؟

إن مراوغة على مثل هذا القدر من الاتساع والخسة، هل يمكنها أن تمتّ بصلة إلى عالم الأخلاق، حتى الأخلاق الطبيعية؟

فكيف لها أن تدّعي اعتماد أخلاقية مسيحية، بله إنجيلية؟

أهكذا يُبنى عالم جديد، عالم إنساني، يقوم على تخطي ماض مثقل بالدم والأخطاء، ليس بوسع أحد أن يتبرأ منه؟!

أصدقائي في الغرب،

ألم يحن الوقت لكنيسة الغرب كي تتحرر نهائياً من تواطؤ سياسي – لا فرق إن كان مقصوداً أو مفروضاً– بات واضحاً أنه أصابها بمقتل، كي تضع نفسها، في قرار نهائي، على مثال يسوع، في خدمة الحق والعدالة، في عالم يتألم ويبدو مدعواً ليعاني خللاً متفاقماً، لصالح المتجبّرين والمتخمين؟

على كل حال، هل هناك، اليوم، من لا يرى، إزاء ما حدث في فلسطين منذ خمسين عاماً، وخصوصاً إزاء ما يحدث في الأراضي الفلسطينية المحتلة، أن هؤلاء "اليهود" الذين كانوا، في ما مضى، "مطارَدين وتائهين"، قد تحولوا في نهاية المطاف، بفضل الحركة الصهيونية ومختلف اللوبيات المتنفذة التي زرعوها في كل مكان، إلى شعب من القتلة ليس إلا، كان بوسع هتلر نفسه أن يتعلم الكثير منهم؟!

والحال أن مجزرة الفلسطينيين، التي يرتكبها النازيون الصهاينة، تحدث، لا تحت سمع العالم وبصره وحسب، وإنما أيضاً بدعم غير مشروط

من الغرب، وذلك في مخالفة صارخة لجميع القوانين الدولية، ومنها على الأخص معاهدات جنيف لعام ١٩٤٩.

ألا يعني هذا الواقع، بكل وضوح، أن الصهيونية قد انتهى بها الأمر إلى السيطرة على الغرب برمته، وعلى رأسه الولايات المتحدة الأميركية، بحيث وضعت نفسها، ضد إرادة الجميع، فوق جميع المؤسسات والقوانين الدولية؟

وإنه حقاً لإنجاز سياسي استثنائي وفريد في التاريخ!

فلنقرّ لهم بهذا الإنجاز!

ولكن ما كان ثمنه؟

ثمنه الماضي والحالي، وخصوصاً ثمنه الآتي؟

ألا تعتقدون أن هذا الوضع قد يجر العالم كله إلى **فوضى معممة**، لن تقيم وزناً لأي شرعية، لا إقليمية ولا دولية، إلى فوضى ستفتح، عاجلاً أو آجلاً،الأبواب واسعة أمام جميع الاحتمالات؟

وهي ذي الولايات المتحدة الأميركية، زعيمة الإرهاب في العالم دون منازع، تهدد باستخدام قنابل نووية خصوصية "أنتجت حديثا"، ضد البلدان التي تتهمها بالإرهاب، و منها العراق طبعاً، و إيران و كوريا، و حتى الصين و روسيا، و مؤخراً سورية و ليبيا.

أصدقائي الأعزاء في الغرب،

ألا ترون بوضوح أن هذا القرن الحادي والعشرين، الذي قال عنه "مالرو" "إنه سيكون ديّناً أولن يكون"، يضعنا **جميعاً** منذ الآن، على عتبة الجحيم؟

وإني لأرى، ككاهن عربي، أنه بات في غاية الضرورة، أن تستعيد الكنيسة في الغرب، جرأة مؤسسها وذكاءه، لتطالب بإلحاح شديد وبشتى الطرق، قبل فوات الأوان:

١- بالتطبيق الفوري للقرارات ٢٤٢، ٣٣٨، ٤٢٥، الصادرة عن الأمم المتحدة ومجلس الأمن.

٢- بإدانة **القتل المنظم** لشعب بكامله، حُرم، بجبانة دولية، من وطنه بالذات، وسُلّم دونما سلاح لعصابات دموية، أُثقلت بقرون من المرارة، وسُلحت بدبابات وحوامات وطائرات أميركية ف١٦ وصواريخ.

٣- بالتحرير الفوري لآلاف من الشبان الفلسطينيين، وقد سُلموا، في تعسف، لإهواء جلادين سوف يقدمون في لذة مَرَضية، على تصفيتهم، وتحت سمع وبصر عالم يتظاهر بالجهل التام لكل شيء.

٤- بوضع حد لحصار، جزئي أو كلي، لا مبرر له وليس ما يبرره، فُرض على شعب، سبق له أن حُرم، في عملية ظالمة، من القسم الأكبر من وطنه، و هو لا يريد سوى تطبيق قرارات الأمم

المتحدة، كي يتمتع بحقه في الحرية، في الجزء اليسير مما تبقى له من وطنه الأصلي.

٥- بتفكيك الإسرائيليين لشبكة المستعمرات التي خردقوا بها الأراضي المحتلة، و التي قصدوا منها إلى أن يجعلوا جميع ظروف الحياة الممكنة، حالياً و مستقبلاً، لما تبقى من الشعب الفلسطيني، **مستحيلة**.

٦- بالاحترام التام من قبل الإسرائيليين بوصفهم محتلين، لمساكن الفلسطينيين ومؤسساتهم ومزارعهم، عملاً بمعاهدات جنيف لعام ١٩٤٩.

٧- بالإيفاد الفوري لمراقبين دوليين من الأمم المتحدة إلى فلسطين المحتلّة كي يفصلوا بين المحتلّ الإسرائيلي و الشعب الفلسطيني.

٨- برفض الهيمنة الواضحة للصهيونية على الولايات المتحدة الأميركية و الأمم المتحدة و مجلس الأمن، وحتى، للأسف، على المجموعة الأوروبية، إلى حد ما.

أصدقائي الأعزاء في الغرب،

إنكم غالون جداً عليّ بوصفكم أصدقاء.

وأنا لا ينتابني أي شك في وجود كثيرين مثلكم، يتحسسون، على غراركم، قيم الحق والعدالة والكرامة. و إنه ليؤلمني ألا أعرفهم.

إلا أني لا أخفي عليكم، كما صارحتكم بذلك مراراً، أن الغرب – بما آل إليه، وكما يتكشّف في سياسته اللا إنسانية، لا سيما في ما يتعلــق بالصراع العربي –الإسرائيلي– يشكل، في نظري في الساعة الراهنة، **مسخاً وحشياً**.

ولذلك حرّمت على نفسي السفر إليكم حتى إشعار آخر.

ماذا عساني أضيف؟

أرجوكم: قوموا بعمل ما!

لا تكتفوا بالقول، أسوة بالكثيرين:

"إن ما يجري في فلسطين لا يطاق، وهو يؤلمنا جداً!

"أنت على حق، ولكننا عاجزون بالكلية.

"ثم، هل من يسمع؟!!"

ولكن هل لكم أن تجيبوني:

هل انتظر يسوع، كي يتكلم، حتى يصبح الناس أهلا لسماعه؟

لتكن لكم، على الأقل، شجاعة تذكير **الجميع** بأن اليهود لم يجدوا، طوال تاريخهم، ميناء سلام، إلا في العالم العربي والإسلامي!

ولتكن لكم الشجاعة لتذكير رجالات الكنيسة الجبنــاء، الــذين يتولون مسؤولية رهيبة هي هدايتكم وقيادتكم، أنهم قد ينجحون بســبب

صمتهم المخزي حيال الفلسطينيين، وكذلك بسبب دعمهم غير المشروط لليهود، في تحقيق إنجازين فظيعين:

١- تكريس الشعب اليهودي **كشعب قتلة**، لا أكثر ولا أقل.

٢- زوال مسيحيي العالم العربي، عاجلاً أم آجلاً.

من تراه سيغفر لهم هذه **الخطيئة المزدوجة**، التي لا مغفرة لها؟!

أصدقائي،

لقد كان أولى بمسؤوليكم الكنسيين أن يسارعوا إلى تذكير اليهود بأن تاريخهم البالغ الاضطراب، كان من شأنه أن يعلمهم كيف يصبحون الشعب **الإنساني** بامتياز، لا سيما حيال العرب، بدل أن يصبوا عليهم، بسبب ضعفهم، كل ما اختزنوا في أعماقهم، من مرارة وبغض عبر تاريخهم.

أيعقل ألا يصدر من مجمل الغرب -وقد كممت الصهيونية فمه، واقتادته كما برسن- سوى صوتين يطالبان بتطبيق **الجميع** -وإذن إسرائيل أيضاً- لقرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن، وكذلك لمعاهدات جنيف؟

تعرفون هذين الصوتين: إنهما صوت البابا يوحنا بولس الثاني في دمشق، وصوت السيد هوبير فيدرين في باريس!

وأنتم لا تجهلون كيف تصرف الكاردينال لوستيجيه، مع أنه كـــان يرافق قداسة البابا في زيارته لسورية -بشجاعة طبعاً!- فـــور عودتـــه إلى باريس، وكيف تبعه في نهجه -بالقدر نفسه من الشجاعة طبعاً!- أحـــد أقرب معاونيه، المطران "أوليفيه دو بيرانجيه".

بئس تمثيلهم المحزن ليسوع المسيح!

أما هوبير فيدرين، فقد وفق، لحسن الحظ، بتجاوب يتسم بشجاعة حقيقية، لدى السياسيين الأوروبيين، ولدى العديد من المثقفين والعقلاء في فرنسا وأوروبا.

فهل تلوموني، أنا الكاهن العربي من دمشق، إن اعترفت لكم بقلب يعتصر حزناً، أنه يبدو لي أن يسوع لم يواجه يوماً عدواً أسوأ من الغرب؟

لكم أتمنى أن أكون مخطئاً.

إلا أني أعرف أن الكثيرين منكم يشـــاطروني، في صـــدق، هـــذا التفكير. وأما الذين يشكون في ذلك، فإني أجيز لنفســـي أن أحيلـــهم إلى كتاب رهيب، هو كتاب الصحفي الإيطالي، "لويجي أكاتولي"، بعنـــوان: "عندما يطلب البابا الغفران"!

اليوم، ١٨ نيسان، يصادف ذكرى مشؤومة، يوم أمر شمعون بيريز -الحائز سابقاً على جائزة نوبل للســـلام، والـــوزير الحـــالي للخارجيـــة الإسرائيلية- بقصف مركز قوات الأمم المتحدة عام ١٩٩٦، على الحدود

اللبنانية الإسرائيلية في بلدة **قانا**، فمزق واحداً ومائة طفل وامرأة وعجوز، كانوا قد التجأوا إليه!.

وأنتم تعلمون أنه بتاريخ ٢٩ آذار، غداة القمة العربية المنعقدة في بيروت، التي عرضت مشروع سلام صريح على إسرائيل، لم يجد شارون، في وفائه لمشروعه الصهيوني، العنصري والتوسعي، سوى جواب واحد: شن حرب شاملة على الفلسطينيين، وفي تصوره البعيد، على العرب!.

والحال أن أحداً لا يجهل أن الإعلام الغربي، الذي يهيمن عليه ويوجهه توجيهاً محكماً، اليهود والمتحكمون بمقاليده، لم ينجح في إخفاء كل شيء. ذلك بأن بعض الصحفيين الغربيين، الشرفاء والشجعان، قد نجحوا -وبعضهم على حساب حياتهم- في كسر الطوق الجهنمي، طوق الكذب وغسل الأدمغة والإعلام المقلوب.

وها قد رُفع الستار قليلاً عن **المحرقة الفلسطينية**، التي تدوم فعلياً منذ عام ١٩١٦.

وإني لأرجو أن يأتي يوم يتسنى لكم فيه الإعراب عن "إعجابكم بإنجاز شارون وفريقه البطولي"!.

أعني بذلك:

مئات من البيوت المدمرة على رؤوس سكانها، بفعل الدبابات أو الصواريخ التي أطلقتها الحوامات وطائرات ف ١٦ الأميركية...

مئات من الجثث -جثث أطفال و شبان و شابات و نساء و رجال- تملأ الشوارع دون أن تدفن منذ بضعة أيام، و قد أحرقت أو سحقتها الدبابات أو تناهشتها الكلاب الجائعة...

عشرات الجثث المعبأة في برادات المستشفيات، و قد حُظّر دفنها، فدُفِنت أخيرا" في حفرة جماعية نبشت في حديقة أحد هذه المشافي...

مشافي اجتاحها الجنود الإسرائيليون، الذين لم يترددوا في قتل كل ما صادفوا: أطباء، ممرضات، مرضى، حتى المشلولين منهم، حتى انتهى بهم الأمر إلى تدمير كل شيء أو نهبه...

جثثاً متفسخة ظلت بضعة أيام في البيوت المقصوفة، مع بعض من أفراد العائلة، الذين بقوا على قيد الحياة...

بضعة آلاف من الشبان و الرجال الفلسطينيين -من ١٥ إلى ٦٠ عاماً- اعتقلوا تعسفياً، و اقتيدوا نحو المجهول...

مئات من المقاتلين الذين نفدت ذخيرتهم فاضطروا للاستسلام، كما حدث في مخيم جنين، وقد أُجهِز عليهم على الفور برصاصة في رأسهم...

سيارات من الصليب الأحمر و الهلال الأحمر، منعت من نجدة جرحى ظلوا ينزفون حتى الموت...

كنائس -منها كنيسة المهد في بيت لحم- و مساجد، حوصرت، بل قصفت و أحرقت، لأن بعض الكهنة و الرهبان و الفلسطينيين، و بعضهم مقاتلون نفدت ذخيرتهم، لجأوا إليها...

السلطات الدينية في فلسطين -منهم بطريرك القدس اللاتيني، ميشيل صباح والسفير البابوي- منعت من زيارة هذه الكنائس والمساجد...

بعثة المجموعة الأوربية، منعت من زيارة رئيس السلطة الفلسطينية...

أخيراً بلداً بكامله **محتلاً، ويعاد احتلاله** بهذا الأسلوب الوحشي، ويقطع عنه الماء والكهرباء والغذاء والدواء، ويُجتاح ويُنهب بحقد وتصميم مَرَضيِّين على نحو واضح.

إنها لوحة فريدة يستحق عليها صانعها، السيد شارون، وساماً فريداً بالقدر نفسه. وإنه في الواقع لإنجاز لا سابق له!

والحال أن كل هذا وُصف من قبل السيد بوش، "بفعل دفاع مشروع عن النفس"!.

في ضوء تصريح كهذا، لا مفر من الاعتراف للسيد بوش بامتلاك **ذكاء متفوق!.**

لكم يحق للولايات المتحدة الأميركية أن تهنئ نفسها بزعيم من هذا "الحجم"!.

ومنذ ذلك الحين، فثمة نداءات مزعومة من الولايات المتحدة من أجل انسحاب القوات الإسرائيلية "فوراً" أو "في أقصر فترة ممكنة"... وثمة قرارات جديدة من الأمم المتحدة من أجل "انسحاب فوري" لهذه القوات... وثمة تهديدات بعقوبات اقتصادية تلوّح بها المجموعة الأوروبية... وثمة قطع من قبل بلجيكا لعلاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل... وثمة تهديدات أوروبية بمنع بيع الأسلحة لإسرائيل...

إلا أن **كل ذلك** الذي يطفو على السطح، والذي يوحي صريحاً بشتى الاتصالات السرية، وُوجِه من قبل شارون بلا مبالاة وقحة، في غطرسة واحتقار يوحيان بكل وضوح بتمتع إسرائيل **بشيء من الحصانة الدولية**، إن لم أقل **بحصانة دولية أكيدة!**

إزاء هذه النتيجة الجلية، ألا يتحتم التساؤل بنزاهة تامة من أين لإسرائيل **مثل هذه الحصانة**، بحيث **لا يجرؤ أحد** على مواجهتها، أية كانت المواجهة؟

دعوني، يا أصدقائي، أقول لكم جوابي:

إن الصهيونية باتت بكل وضوح، السيد المطلق على البيت الأبيض، و لست أظنني واهماً إن قلت: إن بوش وكل فريقه -و غالبيتهم يهود معروفون-ليسوا سوى اجراء للصهيونية، و إذن اجراء لشارون، هذا الجزار الوحشي الذي لم يتورع بوش- بوش الذي توحي سحنته و مظهره بأنه

ليس سوى مراهق يبحث عن بطولة -عن وصفه- انتبهوا! - بأنه "رجل سلام"!

إذن بعد اليوم، يسع العالم بأسره أن ينام مرتاح البال: فان لنا، على ظهر السفينة البشرية، قبطاناً لا مثيل له، وهو يقودنا **جميعاً**، مغمضي العيون، إلى هوة **لصوصية عالمية**، لن توفر أحداً!...

وعلى كل من يدعي أنه في مأمن منها، حتى في الولايات المتحدة و أوروبا، أن يكون على قدر من الحصافة ليشاهد ارتداد هذا الإعصار عليه، إعصار الغضب و البغض و العنف و القتل، الذي فجره احتقار و ظلم واستهتار واستغلال متجبري هذا العالم، في كل مكان، و لكن خصوصاً في فلسطين، **وطن الوديع فوق كل وداعة، يسوع الناصري.**

إخوتي،

إن يسوع في نزاع في فلسطين أكثر من أي وقت مضى.

فيما يواصل أحفاد بيلاطس غسل أيديهم!

ولكن قولوا لي، بالله عليكم، اما كانت كنيسة الغرب برمتها قد نادت بالويل و الثبور، لو أن الإسرائيليين تحملوا جزءاً من ألف مما تحمل الفلسطينيون، فقط منذ ٢٩ آذار ٢٠٠٢؟

ومرة أخرى، في كنيسة الغرب كلها، ليس سوى قداسة البابا يملك شجاعة الكلام!

شكراً لك يا صاحب القداسة!

و الويل لك يا كنيسة الغرب الممسوخة!

"ناموا الآن و استريحوا!"

تماماً كما في بستان الزيتون!

"لقد تم كل شيء...و حان الوقت"!.

هل حقاً حان الوقت؟

بل هو **الهول** الذي أتى و سيأتي!

فها إن فتاة فلسطينية، في العشرين من العمر، قُتِلت أسرتُها كلـــها على يد جنود "رجل السلام"، في مخيم جنين، قد فجرت نفسها في القدس الغربية، أي القدس **اليهودية**، فقتلت ستة إسرائيليين و جرحت ثمانين!

إلى أين نحن ماضون؟

إن المستقبل ليبدو مرعباً، إذا ما تذكرنا فقط الخروقات المرتكبة بهذا الصدد، منذ عقود طويلة، بحق الضمير العالمي و المؤسســـات و الشـــرعية الدولية، و كذلك بحق كرامة الإنسان والشعوب!

حسبي الآن...

بقي لي أن أترككم مع شهادة أستمدها من كتاب لكاتب إسرائيلي.

إنه **إسرائيل شاحاق،** المدرس السابق في الجامعة العبرية بالقدس، والرئيس السابق للجنة الدفاع عن حقوق الإنسان في إسرائيل. إن هذه الشهادة وردت في كتابه "عنصرية دولة إسرائيل"، الصادر في باريس عام ١٩٧٥، عن دار "غي أوتييه" - صفحة ٥٨:

"في الدولة اليهودية، وحدهم اليهود يعتبرون بشراً، فيما غير اليهود هم في حكم الحيوانات. حيوانات أحياناً مفيدة، و أحياناً ضارة، بل خطيرة. من الناس من يقولون بأنه لا يجوز التصرف بقسوة مع الحيوانات و غير اليهود، و غيرهم يظنون أن هذا ليس بذي أهمية. إلا أن كل من يؤمن بمبدأ الدولة اليهودية، يوافق أيضاً على أن غير اليهودي في الدولة اليهودية، ليس بإنسان (وفق التعريف الكانتي ليس "بغاية في ذاته")، و لكنه فقط إحدى وظائف المصلحة اليهودية".

أصدقائي،

دعوني أرجوكم أن تظلّوا كما أنتم، وأن تحاولوا أن تكونوه دائمـــاً أكثر فأكثر.

و لنظل نصلي جميعاً من أجل الجميع.

ولنسع جميعاً للقيام بعمل ما، من أجل عالم على قدر أكـــبر مـــن الكرامة و الإنسانية.

أخوكم العربي

دمشق في ٧/٩/٢٠٠٢

رسالة مفتوحة من كاهن عربي إلى الرئيس بوش[(١)]

السيد الرئيس،

بعد أيام تحل الذكرى الأولى لأحداث ١١ أيلول (سبتمبر) المشؤومة.

كتبت لك يومها معزياً، أنا الكاهن العربي، ولم أتلق جواباً، ولا إيعازاً بتسلمك الرسالة.

ويسرني أن أقول لك إني منذ العام ١٩٦٦ كتبت لبعض رؤساء الدول الغربية وزوجاتهم، ولم يتورع أحد منهم عن الإجابة.

أود اليوم أيضاً أن أكتب لك، دون أن أعير أمر إجابتك أو عدمها أي أهمية.

فدافعي الوحيد إلى الكتابة إنما هو الاستجابة لصوت ضميري.

السيد الرئيس،

يوم انتخبت رئيساً للولايات المتحدة، وحدثت "اللعبة الغريبة" في ولاية فلوريدا، تخوف الكثيرون من العرب من هزيمتك

(١)- نشرت في جريدة الكفاح العربي اللبنانية، بتاريخ ١١/٩/٢٠٠٢.

أمام خصمك السيد "ألغور"، لأنه كان يمالئ الصهيونية على نحو مقرف.

إلا أن ما حدث منذ إعلان فوزك، قادنا إلى الاعتراف بأن جميع رؤساء الولايات المتحدة، منذ منتصف الستينات إلى اليوم، لم يكونوا سوى أُجَرَاء لدى إسرائيل.

ثم أتت أحداث ١١ أيلول (سبتمبر). وإذا بك، باتهامك المتسرع والمطلق للعرب والمسلمين، وبإعلانك التعيس "للحملة الصليبية" علينا، تقدم الدليل القاطع على أنك إسرائيلي أكثر من الإسرائيليين.

ومنذ ذلك الحين، وأنت تجد اعتزازك في إعلان الولاء تلو الولاء لسياسة إسرائيل، على حساب ضميرك، وعلى حساب أبسط المبادئ والمفاهيم الأخلاقية والسياسية، وعلى حساب جميع القوانين والقرارات الدولية، وطبعاً على حساب بلدك، في نهاية المطاف، دستوراً ومصالح.

ثم تبين للعالم كله، وليس للعرب وحدهم، أنك دُفِعتَ واندفعتَ، تحت ستار مكافحة الإرهاب، لانتهاج سياسة تمارس أنت فيها الإرهاب المكشوف على جميع الدول، باستثناء إسرائيل، الدولة الإرهابية بامتياز، والخارجة، منذ تأسيسها، على جميع القوانين والمؤسسات الدولية.

إلا أن أبشع ما قمت به، كان وصفك المتهتك "لشارون" بأنه "رجل سلام"، الأمر الذي جعلني أشفق، مع الكثيرين في مختلف أنحاء

العالم، على الولايات المتحدة، لأنها تملك رئيساً في مستواك ذكاء وأخلاقاً!.

السيد الرئيس،

دعني أتساءل اليوم بصوت عال: إلى أين عساك تسير بالعالم، وببلدك بالذات؟

فإن ما زرعته وتصر، في عنجهية وتهور، على زرعه في العالم، سيرتد عاجلاً أو آجلاً، على الولايات المتحدة وعليك أنت شخصياً..

وهل تراك تجهل أن التاريخ لا يرحم، وأنه رَحِم أمين يلد ما يزرع فيه وما أسوأ ما زرعت!.

هل يمكن لنشوة السلطة أن تكون أسكرتك بالكلية؟

هل في زحمة المصفقين من حولك، وهل في هرولة الخائفين الوافدين من العالم كله، إلى واشنطن، وهل في سعيك الحثيث لانتزاع فترة رئاسية ثانية، هل في كل ذلك ما ينسيك الموت الذي زرعته في أفغانستان، وخطر الحرب الذي أثرته بين الهند وباكستان، والخوف الذي تزرعه في عقول وقلب وجيوب حلفائك المزعومين في أوروبا وروسيا والصين، وخصوصاً الكراهية التي نشرتها في العالم كله ضد الولايات المتحدة، بل الخجل والغضب اللذين تثيرهما كل يوم لدى العديد من الأمريكيين الذين ينظمون تظاهرات مستمرة في قلب بلدك، تندد بسياستك الإرهابية، وتصورك في ملامح هتلر، فيما هي تحمل لافتات تصف شارون بمجرم حرب...؟! .

أجل، إلى أين تريد أن تسير ببلدك وبالعالم؟

أما يكفيك ما نصبت من صلبان في العالم وخصوصاً في فلسطين، بيد معلمك شارون، فلسطين إياها التي رفع فيها، منذ ألفي عام، صليب واحد، صليب مات عليه يسوع الذي تدعي الإيمان به. ولقد مات حباً للبشر ودعوة لهم كي يكونوا بشراً، وليس وحوشاً يفترس فيها الأقوى الضعيف وكل الضعفاء!.

أجل، إلى أين تريد أن تسير ببلدك وبالعالم؟

أما آن لك أن تتوقف قليلاً وتسد أذنيك دون تصفيق المهرجين كذباً أو جهلاً، وتغمض عينيك دون تلويح الملوحين دهاء أو غباء؟...

أما كفاك ما استترفت من الدماء، وما تهدد باستترافه أيضاً في مختلف أنحاء العالم، خصوصاً في الشرق العربي، انصياعاً منك لأوامر الصهيونية، التي لم يعد أحد يجهل أنها تستترف، منذ عشرات السنين، دماء الشعب الأمريكي وكرامته وطمأنينته وأمواله، وتستثير عليه كراهية شعوب الأرض كلها، لا لشيء إلا لأن حكامه باتوا يخونون علناً دستورهم بالذات وتاريخهم كله، فيما الشعب الأمريكي معروف بطيبته المفرطة حتى السذاجة.

أيعقل ألا تكون قد أدركت حتى الآن، ولو للحظات خاطفة، ما باتت تشكل الصهيونية من مخاطر على أعظم ما في هذا الوجود من قيم:

الحقيقة والحرية والسلام، وذلك على نطاق العالم كله، وحتى في قلب الولايات المتحدة بالذات؟

السيد الرئيس،

أسألك، أنا الكاهن، أن تسرق لنفسك لحظات صمت ومراجعة، تتوقف خلالها عند أقدام الصليب، لتسأل سيدك المصلوب عليه، يسوع، ما هو مطلوب منك قبل فوات الأوان...

ألا يخطر ببالك أنك ماض بذاتك وببلدك إلى هاوية محتومة وسحيقة، من القلق والخوف والاضطرابات والموت، ذقتم شيئاً من طعمها يوم ١١ أيلول (سبتمبر)، ووجدتم لكم في العرب والمسلمين كبش فداء محدداً مسبقاً، لأن ما من أحد يجهل أن ما حدث في ذلك اليوم، يفوق، تخطيطاً وقدرة وتوقيتاً وتنفيذاً، جميع الطاقات العربية والإسلامية، وإن كان بعض أدواته، كما قلتم، من العرب والمسلمين؟

السيد الرئيس،

هل تراك عاجزاً عن وقفة صدق مع ذاتك لتغير مجرى الأحداث "المطلوبة" منك ... بمبادرات شجاعة تنسجم مع الدستور الأمريكي والقانون الدولي، وتعود على العالم بالعدالة والسلام، بدءاً من فلسطين، وذلك إنقاذاً لليهود والعرب معاً، وإنقاذاً للولايات المتحدة مما يتهددها، عاجلاً أو آجلاً، وإنقاذاً للعالم مما تهدده أنت به، وإنقاذاً لذاتك من لعنة التاريخ، وخصوصاً من لعنة الله الذي ستقف أمامه ذات يوم لا محالة!.

وإن ما أتمناه لك، ألا تنسى أن هذه اللحظة الرهيبة قد تكون أقرب بكثير مما تظن!.

لا يسعني في الختام إلا أن أؤكد لك، ككاهن عربي، أني أصلي كل يوم من أجلك.

لكم كنت أود أن أقدم لك الاحترام، إلا أني لا أشعر حيالــك إلا بالغضب والإشفاق، فاعذرني.

رسالة مفتوحة إلى السيد
وزير الخارجية الفرنسية دومينيك دوفيلبان(١)

السيد الوزير،

دعني أسألك مباشرةً:

ما الذي حوّلك بين ليلة وضحاها من أسد زائر إلى أرنب مجتر؟!

بالأمس كنا نحن المواطنين العرب، نتتبّع مع الدنيا كلها تصريحاتك ومواقفك، حتى في قلب أمريكا، بدهشة وإعجاب...!

وكنّا، إذ نراك ونسمعك، نردد في أعماقنا وفي ما بيننا: ما زالت الدنيا في خير. ما زال في عمق الوجدان العالمي الآخذ في التفسخ، بقية من نبض قد يعيد إليه الحياة. وكنّا ندعو ونقول: عسى فرنسا تستعيد روح المقاوم العظيم شارل ديغول، لتبثها في الجسم الأوروبي الناهض، قبل فوات الأوان.

وإذ بك تطلع علينا اليوم، السادس من أيلول ٢٠٠٣، باسم الاتحاد الأوروبي، بقرار تصنيف "حركة حماس" المقاوِمة، في عداد التنظيمات الإرهابية!.

---

(١) نشرت في مجلة "أوروبا والعرب"، العدد ١٩٤ – تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٣

فما الذي تغيّر؟

هل لك أن تقول لي أي منطق بات يحكم أوربا والعالم، بعد أن حكم الولايات المتحدة الأمريكية؟

متى كان من يدافع عن أرضه، بل عما تبقّى له من أرض سُرقت ومُزّقت، وعن بيته، بل عن وجوده كله... إرهابيّاً؟

ومتى كان من يسرق هذه الأرض وهذا البيت وهذا الوجود، صاحب حق؟!.

السيد الوزير،

يوم كنت تناهض الحرب على العراق، هل تراك كنت تدافع فقط عن حصة فرنسا وأوروبا من النفط العراقي؟

يا للسذاجة التي انتابتني مع الكثيرين الذين ظنوا أنك كنت، باسم فرنسا وأوروبا، إنما تدافع عن الشرعية الدولية أمام الوحش الأميركي.

فلقد تبين أنكم كلكم في الغرب سواسية!

وقد فاتنا يومها أن العراق ليس فلسطين!.

إلا أن ما فاتكم في أوروبا هو الأخطر. فلقد فاتكم أن النازية التي احتلتكم سنوات طويلة، جاء من يمحوها من ذاكرتكم، الصهيونية التي عرفت كيف تحتل ضمائر المسؤولين فيها وتشريعاتهم ومؤسساتهم، وضمائر شعوبهم.

أجل، الويل لكم مما كان، ومن الآتي.

أبمثلِ هذه الخسة تهربون من احتلال ألغى وجودكم لفترة، لتقعوا ضحية احتلال يُلغي يوماً بعد يوم وجودكم الحق، ويسعى لإلغاء وجود الآخرين بأيديكم وتشريعاتكم وأسلحتكم... إلى الأبد؟!.

يا للعار!.

السيد الوزير،

كيف لك ولزملائك في الاتحاد الأوروبي أن تفعلوا ما فعلتم اليوم، دون أن تتنكّروا لتاريخكم وتاريخ شعوبكم في مقاومة الاحتلال النازي؟

ما لم تكن، أنت وبعض زملائك هؤلاء تسعون لكرسي الرئاسة في بلدانكم، بأرخص الأثمان، على حساب ضميركم وحساب ما تبقى من فلسطين التي كنتم أنتم، أصلاً، من قسّمها وقسّم معها العالم العربي، حليفكم السابق ضد ألمانيا وتركيا!

فدعني أهنئك وأهنئ زملاءك في الاتحاد الأوروبي، لما تزرعون لذواتكم ولشعوبكم في أوروبا الغد، من أسباب الذل والخراب الزاحفين عليكم حتماً، بفعل انسحاقكم تحت أقدام الصهيونية والولايات المتحدة الأمريكية.

وإلى ذلك، تدّعون مكافحة الإرهاب!

ألا ليتكم تكافحون أصل الإرهاب. ألا ترى معي أن سياسة الغرب هي أحد أهم أسباب الإرهاب في العالم؟ هل لك أن تقول لي مَن

سِواكم حوّل ويحوّل الشبان والشابات في فلسطين، قسراً، إلى قنابل موقوتة، لا لشيء إلاّ لأنهم فقدوا كل شيء، ولم يعودوا يملكون سوى تفجير أنفسهم، أملاً منهم بإحداث تفجّر في الضمير العالمي؟

السيد الوزير،

قد تذكر أن أحد الفلسطينيين قال منذ ألفي عام، كلاماً رهيباً بحق من "يملكون هذه الدنيا"، كلاماً كنت أتمنى لمسؤولي الكنيسة في الغرب أن يردّدوه بين حين وآخر على مسامع المسؤولين السياسيين فيه. لعلّهم!...

فدعني أذكر لك بعضه. قال:

"الويل لكم أيها الأغنياء، لأنكم قد نلتم عزاءكم!

"الويل لكم أيها الشباع الآن، فإنكم ستجوعون!

"الويل لكم أيها الضاحكون الآن، فإنكم ستنوحون وتولولون!"

وقال أيضاً عن ساعة الوقوف المحتوم بين يدي الله الديّان:

"كل ما صنعتم لأحد إخوتي هؤلاء المستصغرين، فلي أنا صنعتموه!"

وقد لا تجهل أن هذا الفلسطيني العظيم كان يحمل اسم يسوع!

فدعني أبوح لك باعتزاز:

أنا مع يسوع الفلسطيني ومع كل فلسطيني!

السيد الوزير،

أود في الختام أن أقترح عليك وعلى المسؤولين في الاتحاد الأوروبي، أمرين يأتيان، في نظري، في منطق قراركم "التاريخي" اليوم بحق "حركة حماس" والمقاومة الفلسطينية.

الأول، هو إدراج اسم المقاوِمَين العظيمين ديغول الفرنسي وأديناور الألماني، في قائمة الإرهابيين الأوروبيين، لأنهما كانا أعظم من قاوم هتلر.

الثاني، هو السعي الحثيث إلى إطلاق اسم تيودور هرتزل، على أرقى ساحة في العالم، أعني بها ساحة النجمة في باريس.

وبوصفك وزير خارجية فرنسا، تقبّل ما أكنّ لفرنسا ديغول من احترام.

دمشق في ٢٠٠٣/٩/٧

القسم الثاني

أبحاث

I- الغرب وإسرائيل

شـــارع الحريـــة(*)

الغرب يسبح في بحر من عقدة الذنب

الغرب المسمى بالمسيحي... ومن قبله الإمبراطورية الرومانية.

والعقدة حيال اليهود... والتنكيل بهم طوال ألفي عام، بدءاً من آلاف الصلبان تنصب على هضاب فلسطين إلى المعتقلات النازية.

تلك قضية تاريخية، كثيراً ما أشير إليها، ولكنها لم تلق، في رأيي، من المفكرين والبحاثة العرب، ما يحق لها عليهم من تنقيب أولاً، ومن كشف أمام الرأي العام العربي ثانياً. ففيها أحد مفاتيح موقف الغرب اليوم، من إسرائيل، وبالتالي من العرب.

الخلفية الرئيسية

هذه العقدة اتخذت لها وجوهاً عديدة، عبر صراع تاريخي طويـــل، بدءاً من صلب يسوع نفسه، ومطاردة أتباعه عبر الإمبراطورية الرومانيـــة كلها، حتى استتب الأمر للمسيحية، فانقلبت مضطهِدة /بكســـر الهـــاء/

(*)- **دراسة نشرت في (صوت فلسطين)، ١ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٧٥**

ونكّلت باليهود "قتلة المسيح" تنكيلا بلغ حد المجازر الجماعيـــة، تتلاحـــق دون هوادة، ويضلع فيها بعض الباباوات من أمثال أينوشـــنتوس الثالـــث (١١٩٨-١٢١٦)، ويوحنـــا الحـــادي والعشـــرين (١٢٧٦-١٢٧٧)، ويوليوس الثالث (١٥٥٠-١٥٥٥)، و بولس الرابـــع (١٥٥٥-١٥٥٩)، باني الغيتو اليهودي في روما...

وجاءت النازية، فكانت عصارة الحقد الغربي على اليهود، وكان منها ما كان في معسكرات الاعتقال الجماعية، يباد فيها اليهود بالملايين.

وتنتهي الحرب العالمية الثانية. وتستفيق أوربا كلها من الكابوس النازي. وتأخذ ترمم نفسها، وإذا بها أمام كابوس آخر، يذهب عمقاً في النفس الغربية، ويستقر فيها متسلطاً قوياً، ويحركها من الأعماق، ويملي عليها مواقف من ذاتها ومن العالم، لم تكن لتتخذها لولاه. هذا الكابوس هو عقدة الذنب نفسها، ولكن مشحونة أيضاً بجرائم النازية كلها... وتحاول أوربا التخلص منه، بدعم إسرائيل غير المشروط، مالياً واقتصادياً وعسكرياً وإعلامياً... ويتقن الحاوي الصهيوني تحريك هذا الوحش القابع في أعماق الغربي، ويوقّت له أنغامه وألاعيبه، ويعتصر قلبه وجيوبه ومصانعه، ويبلغ من السيطرة عليه حداً لا يعود يشعر معه بأنه، منذ وعد بلفور، يستمر في ارتكاب جريمة أبشع من تلك التي ارتكبها بحق اليهود، لأنه، في هذه المرة، يرتكبها بحق شعب كان أحن الشعوب على اليهود، هو الشعب العربي.

تلك واقعة أساسية في عالمنا المعاصر، لفهم موقف الغرب من اليهود أولا، ومن إسرائيل ثانياً، ومن العالم العربي ثالثاً. ثمة أسباب أخرى سياسية واقتصادية... إلخ... ليس من يجهلها أو يقلص تأثيرها... ولكن القوى الخفية القابعة في أعماق الإنسان الغربي، تحركه لصالح إسرائيل، وتعميه عن العرب، تلك القوى لا يجوز التغاضي عنها أو التخفيف من شأنها. وهي تطال وتحرك أعلى المسؤولين السياسيين والكنسيين والثقافيين في الغرب... وفي الشرق، ممن تثقفوا على يدهم واتخذوا من رؤياهم منظاراً

على طريق الحرية

هذه الخلفية التاريخية الجماعية، والنفسية الشخصية، تكمن وراء كل كلمة من كلمات (شارع الحرية) للكاتب الفرنسي أدمون ميشليه، وهو أحد أبرز رجال المقاومة الفرنسيين الأوائل، يروي فيه قصة اعتقاله في سجون النازية.

نشر الكتاب عام ١٩٥٥، وقدم له كل من الجنرال ديغول، صديق الكاتب، والمستشار الألماني كونراد أديناور... رائد التعويضات المالية الكبرى لإسرائيل!!!

الكتاب يأتي في ٢٤٩ صفحة من القطع المتوسط، موزعة على ٢٢ فصلاً.

عنوانه مستوحى من أسم الشارع الرئيسي الذي كان يفصل معتقل (داخاو) الرهيب...

ماذا يريد الكاتب أن يقول؟

أمور أربعة رئيسية يصر، في رأيي، على إبرازها:

أولاً،

الصراع المستميت بين مفهوم للحياة، يتجسد في النازية، يحوّل الإنسان إلى رقم في قطيع ليس إلا... ومفهوم آخر، يتجسد في الديمقراطيات الغربية، حيث يُحترم الإنسان حريةً مسؤولة، وسط جماعة من الأحرار المسؤولين.

ثانياً،

واجب المقاومة وشرعيتها المطلقة، مؤكداً على أن الانتماء إلى فرنسا وطنه، ليس مدعاة للافتخار -خصوصاً بعد اندحارها المشين أمام هتلر- بقدر ما هو مجلبة للتضحية والبذل.

ثالثاً،

تجديد الثقة بالإنسان، على الرغم من أسباب اليأس القاتل التي عمت أوروبا وشوهت، لسنوات، إنسانها، مطلقة من أعماقه وحوشاً لم يكن ليجرؤ على تصورها، ويخجل الآن لمجرد ذكرها.

رابعاً،

الإيمان الراسخ بانتصار الوطن والإنسان على جميع وسائل الطغيان والاحتلال.

عبر هذه الخطوط الأربعة الكبرى، تنساب ذكريات الكاتب عن أيام اعتقاله في سجون النازية. وقد استند في رسمها إلى مذكرات مقتضبة جداً استطاع، بمنتهى الرعونة والمخاطرة، أن يحتفظ بها.

مع شريط الأحداث

اعتقل الكاتب في مطلع آذار سنة ١٩٤٣، بعد أن أنذر بأن النازيين يتعقبونه. ولكن لم يكن له أن يتنصل من الواجب... لاسيما وأنه والد لسبعة أطفال! اعتقل في بلدته (تول) في مقاطعة الليموزان، وهي تقع في الوسط الغربي من فرنسا. وكان يومها مسؤولاً عن فصائل المقاومة في ذلك القطاع، واسمه السري (دوفال). وبعد ستة أشهر من الاعتقال والتعذيب في زنزانة فردية، أحيل، مع أسرى آخرين إلى معتقل ألماني في بلدة (نوى بريمن)، يعرف (بمعتقل الفرز)، حيث أمضى أسبوعاً في ترقب قاتل، قيل له بعده أنه بريء وسيطلق سراحه... وفي القطار عرف مع زملائه الأسرى أن طريقهم إلى ألمانيا، وليس إلى فرنسا...

وبعد توقف يومين في معتقل "انغولشتات"، وصلوا معتقل "داخاو"... كان ذلك في ١٥ أيلول ١٩٤٣. وأقام فيه حتى ٢٩ نيسان سنة ١٩٤٥، حين دخله الجيش الأمريكي، وهو يشير بارتياح إلى أن أول جندي أمريكي اقتحم باب المعسكر، كان... يهودياً أسمه صموئيل كاهن!

وأقام، مع الثلاثين ألفاً من الأسرى الباقين على قيد الحياة، في المعسكر نفسه، تحت (الانتداب الأمريكي) ستة أسابيع، عاد بعدها إلى فرنسا، في سيارة مرسيدس وضعها تحت تصرفه وتصرف زملائه الثلاثة، بينهم كاهن مقاوم أسمه الأب "داغوزان"، الجنرال "دولاتردوتاسيني" نفسه...وكانوا آخر من غادر (داخاو) من الأسرى الفرنسيين.

تلك هي مراحل اعتقاله.

في جحيم داخاو

عبر هذه المراحل يمر شريط الأحداث رهيباً، فوق كل وصف... وترتسم فيه وجوه يصعب على المرء محوها من ذاكرته بعد أن انغرست فيها، مزيجاً من نبل إنساني غير متوقع ومن وحشية يخجل الكاتب من وصفها بالحيوانية، لأنها تهين الحيوان نفسه!.

ثلاثون ألفاً، بل أربعون، بل أكثر... جاءوا، بل اقتيدوا كالقطعان، من مختلف أنحاء أوربا، محمّلين بشتى التهم، الصحيحة والملفقة... يحشرون في معسكر أسمه "داخاو"، أقيم خصيصاً لترويض المناهضين للنازية، في ألمانيا وخارجها، و إبادتهم... لباس واحد موحد: قميص وبنطال مخططان، يحمل رقماً هو الإنسان... لباس ممزق ارتداه الألوف من قبل، ممن أصبحوا رماداً في أفران الإبادة الجماعية... أكل شحيح وقذر... أشغال شاقة مضنية داخل المعسكر وخارجه... والرأس حليق، لا غطاء يستره في الصقيع المجمِّد أو الشمس الحارقة... وساعات الوقوف التي لا تنتهي في

الزمهرير، عبر شوارع المعسكر الرئيسية، في انتظار ما لا يأتي... أو في ترقب خانق لإرادة عليا تقود المئات عشوائياً إلى التصفيات الجماعية في غرف الغاز والأفران... والمخابرات منبثّة بين الأسرى ومن بين صفوفهم... والقيادات الثانوية تُترك لبعض الأسرى، يُنزلون بزملائهم ما يلقونه من النازيين أضعافاً مضاعفة... والطبقية مستحكمة بينهم، يخططها القادة النازيون أو تُمليها التجمعات القومية أو النفوذ الشخصي، السابق أو الحالي... أو المساعدات تأتيهم من ذويهم بواسطة الصليب الأحمر، أو تنحجب عنهم لأشهر طويلة... ولا نبأ عن الأهل والأصدقاء والجبهات الحليفة، باستثناء تلك التي تبثها المخابرات النازية حول تنفيذ الإعدام بمجموعات من الرهائن هنا وهناك... ومحاولات تقسيم الأسرى في ما بينهم إلى فئات متناحرة سياسياً بل ودينياً، كإنشاء مجموعة من الكهنة الموالين للنازية، في وجه الستمائة من الكهنة المقاومين، الملتفين حول أسقف فرنسي عُرف بمقاومته العنيدة والصريحة للنازية... والقتلى يسقطون بالعشرات كل يوم، إعياء ومرضاً وجوعاً ويأساً... ويُحشرون أياماً وليالي بين من بقي على قيد الحياة، لاسيما أثناء التيفوس الذي أصاب المعسكر طيلة شتاء ١٩٤٥، واستمر حتى بعد وصول الجيش الأمريكي... والضرب اليومي العشوائي والتعذيب السادي، ينهار تحته من نفدت مقاومته أو شعلة الحياة فيه... والكرامة تُداس في كل لحظة وفي كل كلمة ولدى أدنى إشارة "فيتساقط الناس كالذباب"، ويُطبق اليأس من كل جانب، وينبع من أعمق الأعماق... "داخاو"... جحيم، كل ثانية فيه أبد...

وفي هذا الجحيم تومض ومضات أمل عنيد جداً وضعيف جداً... أنباء متضاربة عن الجبهات الحليفة... آثار الدمار في بعض المرافق والمباني في ألمانيا، نتيجة القصف الحليف، الضعيف والمتقطع... أنباء شحيحة عن المقاومة في فرنسا المحتلة، تشتد ويعتقل قائدها الجنرال (دليستران)، رئيس ديغول السابق... كلمات سرية تتسرب في الطرود القليلة تصل من الأهل أو من الصليب الأحمر... وظهور الطيران الحليف في سماء ألمانيا في الفترة الأخيرة... أما الومضات الكبرى والمشتعلة أبداً، فكانت تلك الوجوه المشرقة، تتمسك بالحياة وتريدها كريمة، وتأبى التدمير الذاتي في الحقد، وتحتفظ في طيات هيكل عظمي يتحرك أحياناً وكأنه الآلة، بشحنة من الإيمان وقدرة على التضحية تتحديان كل تصور، وتتخطيان كل ممكن وتذهبان بصاحبها إلى درجة التطوع لمعالجة المصابين بالتيفوس في مجمعاتهم الخاصة الرهيبة، بل إلى حد الذهاب إلى معسكرات الموت، بدلاً من زملاء أسرى ينتظرهم أطفال ما في مكان ما...

السؤال الأكبر

ذلك كان جحيم "داخاو" كما عاشه الكاتب المناضل أدمون ميشليه... جحيم أطبق على مجموعات بشرية لا حصر لها طوال عشر سنوات، دونما تمييز في العرق والقومية والدين والثقافة والسياسة... ولا يفلت منه إلا القلائل من ذوي البنية الروحية والنفسية والجسمية الخارقة... وقد ترك أثراً لا يمحى في نفوس كل من اجتازه، كما يقول الكاتب...

فَلِمَ، وكيف تراه يخص اليهود القلائل الذين شاهدهم بين عشرات الألوف، في مختلف مراحل اعتقاله، بنظرة خاصة وكلمات خاصة، وحنان خاص؟

في الكتاب كله، لا يذكرهم إلا ثلاثا وعشرين مرة... ولكنه قلما يذكرهم دون أن يرفق اسمهم بصفة محببة، كالرفاق والأصدقاء والمساكين، والإخوة الصغار.

ثم هو يخصهم بفصلين من كتابه، أولهما الفصل العاشر، وعنوانه: "... وعلى أولادنا"، يفتتحه بعبارة لكاتب فرنسي شهير يدعى ليون بلوا، يقول فيها: (إن اللاسامية هي أقذر صفعة توجه للسيد المسيح في آلامه المستمرة إلى اليوم، لأنه يتلقاها على وجه أمه!). وثانيهما الفصل السابع عشر وعنوانه "السامري" يفتتحه بآية من الإنجيل تتحدث عن السامري الذي أبصر اليهودي المطروح جريحاً على قارعة الطريق، فأشفق عليه وقدم له العون...

ويعود السؤال ملحاً: لم تُراه يخص اليهود بغير ما خص به جميع الأسرى الآخرين؟

الجواب منتشر في جميع أسطر الكتاب، وخصوصاً عندما يأتي على ذكر اليهود... وكأني بهم في نظره عصارة العذاب البشري الذي يستدعي التكفير.

إلا أن الجواب الأكثر وضوحاً والأعمق دلالة، نعثر عليه في الفصل العاشر. الفقرة التي تتضمنه طويلة ولكن لابد من ترجمتها كاملة لفهم ما تنطوي عليه النفسية الغربية من عقدة ذنب متأصلة حيال اليهود... وما يمكن أن يستتبعها من تحامل أو تعام حيال غير اليهود، كما يحدث اليوم للغرب حيال العرب.

جاء في الصفحات (١٠٧-١١٠):

"كان حارسنا البولوني (سفيدا) كغيره من البولونيين، يكنّ لليهود احتقاراً لا يوصف.

- لو كان لديكم في فرنسا ما لدينا من اليهود، لكنتم أقل رقة عليهم.

وذات صباح دعاني إليه في مركز العمل. التقيت هناك (جوس) الودود ويعقوب رئيسي. وكانوا كلهم غارقين في حديث جدي. ونظراً لمعرفتي الضئيلة باللغة الألمانية لم أكن أفهم ما يدور بينهم...

أدركت تماماً أن القضية ذات أهمية كبيرة. حاولت أن أشترك في الحديث، ولكني لم أتمكن من ذلك وضقت بنفسي ذرعاً... وفجأة حدقت حولي، فأدركت على شرودي الرهيب موضوع ذلك الحوار: أن الغرفة هذه الليلة تحولت إلى "روضة للأطفال".

كيف تراني لم أنتبه للصوت الهامس ينبعث في العتمة، بدل الصياح المألوف والضجيج؟

لاحظ (سفيدا) والآخران دهشتي

لكل أن يقول ما يشاء... فقد يحدث لليهود، كما يحدث لغيرهم، أن يكونوا كريهي السحنة، عندما يبلغون... أما هؤلاء الأطفال، بعيونهم السوداء وملامحهم الرقيقة، فإنهم يذكروني بطفل آخر يهودي... لست أدري لماذا تذكرت، عندما رأيتهم، لوحة "يسوع بين العلماء" للرسام "جوردانس".

ترى، ما هو عددهم؟ ربما قاربوا الخمسمائة. عمرهم؟ ما بين خمس إلى عشر سنوات، وفي أقصى الأحوال، أثنتا عشرة سنة. قدموا من بلاد البلط و ليتوانيا.

هم يلعبون بتصنع. يبدو أنهم كانوا محط رعاية خاصة في المعسكر الذي قدموا منه. وقد ألبسوا ثياباً لطيفة على قدهم، وكلها طبعاً مخططة.

إنهم أسرى صغار. ومع ذلك فمن الواضح أن لهم خبرة بالأسر طويلة. وهم يشدون إلى ذواتهم قصاعاً صغيرة، وكأنها لعب غالية، وفيها ملعقة من خشب. من الواضح أيضاً أنهم ليسوا هيني المنال، فقد خبروا الأسر وهم حذرون كالكلاب المضروبة.

...عندما أردت أن أعود في المساء، وجدت "المدرسة" خالية. كان ساكنوها قد طاروا إلى مكان آخر. وبدونا كالحمقى ونحن نحمل لهم طناجر الأكل الكبيرة للعشاء.

وسألنا في أي اتجاه ذهب هؤلاء الأطفال، فكان الجواب:

- إلى "اوشفيتز"!... كانوا هنا قيد الترانزيت!...

عندما كنت أشاهد الآلام الهائلة التي كان يتعرض لها رفقاؤنا اليهود، كثيراً ما كنت استعيد الصرخة التي وضعها القديس متى على لسان أجدادهم: "دمه علينا وعلى أولادنا...". البعض من أصدقائي اليهود المؤمنين، يرفضون التفسير الذي يخص به المسيحيون عادة هذه اللعنة الرهيبة. وأنا أعرف أنهم على حق عندما يفكرون بأن خصومهم الألداء يبحثون، دوماً، ومنذ ألفي عام، عن مبرر، في هذه الصرخة بالذات، لكل بغضائهم وجرائمهم.

ولكن هذا الحقد نفسه، وهذه الجرائم، هل من ينكرها؟ أليسوا إحدى خصائص التاريخ المميزة؟ والحال -وأنا لست وحدي في هذا الرأي- أن الجلادين الذين شاهدناهم في عهد هتلر، قد فاقوا بما لا يقاس جلادي القرون السابقة، هولاً وتفننا وحقارة. نحن كنا شهوداً لظاهرة لا تصدق، إن من حيث عدد الضحايا، أو من حيث الحقد الذي برهن عنه النازيون. ليس من أمر محض بشري يستطيع أن يقنعني بالسبب الذي يجعل اليهود يتحملون هذا التراكم من العذاب، ويتعرضون لمثل هذه البغضاء من

قبل جلاديهم. بالطبع، يحدث لي، كما يحدث لغيري، أن أضيق ذرعاً بالمساوئ الخاصة باليهود... ولكن فضلاً عن أن هذه الجوانب من طباعهم، لا تستطيع أن تفسر ما يحل بهم، يبقى في نظري هذا الذي يتميزون به أمراً غير معقول، إن لم نسلم بأن هناك ما يسمى بسر إسرائيل... وبالمختصر، لابد لنا من أن نعترف بأننا أمام شعب مختار...

ومهما تكن قيمة هذه الأفكار، فإن فظائع اللاسامية النازية تحتم الإمعان في التفكير، على من يريدون أن يكونوا مسيحيين، ويستسلمون في الوقت نفسه للاسامية الجديدة التي نشهدها اليوم، هذا إن لم يثيروها هم أنفسهم.

أما أولئك الذين لم ينسوا فظائع "داخاو" و "أوشفيتز"، فإنهم يقفون مبهوتين عندما يقرؤون في ممرات "الميترو" عبارات "الموت لليهود"، في زمن لا يفصلنا عنهما أكثر من عشر سنوات.

أما أنا، فحسبي أن أتذكر دوماً أخي الصغير يهمس في حشرجته الأخيرة في معسكر (نوي بريمن) قصيدة "كلوديل"، وأطفال راحيل الذين كانوا يلعبون عند "سفيدا" قبل إرسالهم إلى أفران "أوشفيتز"، وذاك العجوز الذي كان يجهد في إخراج طقم أسنانه المحطم من فمه المليء بالدم، حسبي هذا كي أكون دوماً بجانبك، أيها الشعب العنيد!...".

مثل هذا الموقف لا لبس فيه. وهو يلقي أضواء كاشفة على خفايا نفسية الكاتب، ومن ورائه نفسية الإنسان الغربي... وليس من عجب بعد ذلك، إن قال في آخر الفصل العشرين:

"انتهت المأساة. وقبل بداية المرحلة الأخيرة، هو ذا مشهد من فيلم... فإن أول جندي أميركي شاهدناه، يحمل في كلتا يديه مسدساً ضخماً: ملامحه سامية صرف، شفاهه غليظة، وأنفه معقوف... ركض في اتجاهنا بعد أن حطم البوابة. ليس بيننا من يحتج على هذا التكفير المعنوي: فالحقيقة هو أن اليهود كانوا أحق من غيرهم بهذه الأولوية الرمزية. عرّفنا على نفسه: اسمه صموئيل كاهن. كان في حقه تماماً".

سؤال أخير

ذلك وجه هام جداً من كتاب تتسرب في كل ثناياه عقدة الذنب التي يعاني منها الغرب حيال الشعب اليهودي، ونعاني نحن بالتالي منها أيضاً.

هذه العقدة اندست في تضاعيف أضخم صراع عرفته البشرية إلى اليوم، صراع الحرب العالمية الثانية. و امحت ظاهرياً معظم آثار الحرب، إن لم نقل كلها. ولكن ظلت تلك تستأثر بتفكير الإنسان في الغرب... وتحولت إلى ميدان اختبار واستغلال، لا أجدى ولا أخصب، للصهيونية العالمية.

عند هذا أجدني أنا العربي وجهاً لوجه مع سؤال ملح، ولابد من الإجابة عليه:

إن الغرب، عبر الصهيونية، كبل نفسه بعقدتي ذنب، كانت ثانيتهما جريمته في إقامة دولة إسرائيل في قلب الوطن العربي، مهدداً بها وجوده برمته... وهذه الجريمة ميدان رحب لعقدة ذنب رهيبة وعميقة وبعيدة الأثر.

فهل ترانا قادرين على استغلالها مجالاً حيوياً ومصيرياً، لتحرير الغرب أولاً من كلتا العقدتين، ومن ثم لتحرير العالم وتحرير أنفسنا من السرطان الصهيوني؟.

وجهاً لوجه مع الغرب المريض بعقدة الذنب (*)

صحراء مزدوجة

إن احتكاك أي عربي بالغرب، يجلب له دوما حزنا عميقا، بل يحمله على اليأس.

فالغرب هو ألفا عام من اللاسامية الدموية، وتاريخ طويل وعنيد من الاستعمار، وإرادة السيطرة التي أفضت إلى ابتكار وحش المجتمع الاستهلاكي، وعداء كامن ومزمن حيال الإسلام، يصحبه جهل متعال للعالم العربي...

ذلك هو، باختصار، ما يصطدم به كل عربي يحاور الغرب بشأن القضية الفلسطينية.

وهو يكتشف، يوما بعد يوم، على صعيد الممارسة العملية، إيثارا مسبقا "لليهود المساكين"، وانحيازا مكشوفا لصالح "إسرائيل"، وإعجابا لا

(*)- هذا المقال ترجمه المؤلف نفسه عن النص الفرنسي الأصلي الذي نشره بالفرنسية في مجلة (أضواء) (Flash) السورية، في العدد (٦٢)، تاريخ نيسان - أيار عام ١٩٧٦.

حد له "بهذا الشعب الصغير والشجاع، الذي يواجه مئة مليون عربي، قذرين وبدائيين، لا يستحقون سوى الاحتقار".

إنها حقاً عنصرية ضاربة في العمق.

وإن احتكاك كاهن عربي بالكنيسة الغربية، ليحمل بدوره على مثل هذه الحال من الحزن واليأس، إن لم يكن أسوأ.

ففي الكنيسة، في الواقع، تجد جميع هذه المقومات التاريخية والاجتماعية والسياسية، ذريعةً من أساس لاهوتي مزعوم. ذلك بأن تجذّر العهد القديم في المسيحية من جهة، و تأويلا خاطئا لوعد الله لإبراهيم، بشأن أرض كنعان من جهة ثانية، يشكلان المنطلق والبنية للاهوت متكامل، يبرر في آن واحد، وجود إسرائيل و"سياستها الوقائية"، القائمة على العدوان والحرب والتوسع.

واحـــة

ثمة واحات، هنا وهناك، في قلب هذه الصحراء الاجتماعية والكنسية، من سوء الفهم والعداء.

تلك كانت الندوة الدولية التي شاركت فيها مؤخرا، مع كهنة قدموا من فرنسا وإسبانيا وإيطاليا والبرتغال ولبنان وسورية. كان مجموعنا ٢٤ كاهنا، يمثلون ٨٠٠ كاهن منتشرين عبر العالم.

كان يحرك الجميع توجه أساسي واحد: كيف ترانا، حيث نحن، نحيا إنجيل المسيح، بوصفه حباً شاملاً للإنسان وقوة محرّرة للبشر جميعا، بدءاً من أكثرهم فقرا، ضحايا الاستغلال والظلم يمارسان على الصعيد الشخصي والاجتماعي والقومي والدولي.

من هؤلاء الكهنة، من كانوا عمالا في مصانع، ومنهم من كانوا منتدبين نقابيين، ومنهم من كانوا أساتذة في جامعات، ومنهم أخيرا من كانوا يحاولون إلى جانب التزامهم بخدمتهم الكنسية التقليدية، أن يشقوا دروباً جديدة في الالتزام، على صعيد الإعلام والأوساط الأدبية أو الشعبية، أو على صعيد حركات التحرّر.

المطران ايلاريون كبوجي

عقدت هذه الندوة بجوار مدينة ليون بفرنسا، ما بين ١١ و٢٢ آب (أغسطس) عام ١٩٧٥.

وفي اليوم الثامن عشر من الشهر نفسه، وقعت الذكرى الأولى لاعتقال مطران القدس العربي، ايلاريون كبوجي. فكان لابد من استثمار هذه المناسبة على أفضل وجه، كي نحاول أن ننتزع من ندوتنا صرخة ما، قد تكسر حلقة صمت لا يغتفر، تتمسك به الكنيسة الغربية.

إنه صمت على صعيد قضية الكبوجي، و صمت على صعيد القضية الفلسطينية. و هو صمت مطبق، عنيد، استطال بإفراط، حتى بات يثير أسئلة متعلقة بشأن ضغط الأوساط الصهيونية على هذه الكنيسة.

وقد كان هذا الصمت بالذات، مدعاة لقلق متفاقم، لأنه ما كان لينقطع إلا ببعض مداخلات تؤيد على نحو دائم، اليهود، بوصفهم "الشعب المختار والمضطهَد"، وتؤيد إسرائيل بوصفها "التحقيق الواقعي للوعد المقطوع لإبراهيم".

بعض هذه المداخلات ما كانت لتفتقر إلى دراية، كما هي الحال مع الكردينال "فرانسوا مارتي"، رئيس أساقفة باريس، في كتابه الصغير "الله عنيد" (باريس عام ١٩٧٢). ومنها ما كان بالحري صاخبا، كما هي الحال مع أمانة سر مجلس الأساقفة الفرنسيين، عام ١٩٧٣.

صرخة في صحراء

كنا، نحن الكهنة العرب، قد صممنا على كسر طوق هذا الصمت. ولكننا كنا نريد لصرختنا المرجوة والمطلوبة، أن تدوم بعد ندوتنا ورحيلنا، وأن تتواصل، وخصوصاً أن تترجّع أصداؤها عبر كنيسة الغرب كلها. هذا هو جوهر ما كنا نبتغيه.

وكنا أربعة كهنة عرباً، قدمنا من لبنان وسورية. فتشاورنا ووضعنا خطة عمل في غاية الدقة.

هيأنا الأفكار بمحاورات شخصية مطوّلة، وضمن حلقات ضيقة، تبعا للظروف. فرسمنا خريطة جغرافية للشرق الأوسط، على لوح أخضر كبير، وعلقناها طوال بضعة أيام على أحد جدران قاعة الاجتماع. ثمة تفصيل أصاب هدفه على الفور: كتبنا اسم إسرائيل -وهو يشكل في نظر

كل غربي المرجعية الرئيسية على خريطة تمثل الشرق الأوسط-بأحرف بالغة الصغر، ومحاطة بهلالين، فيما كتبنا فوقه، بأحرف كبيرة منفصلة، اسم "فلسطين المحتلة".

نبوءات ووقائع

ثمة مصادفة مدهشة: افتتح أحد الكهنة الفرنسيين، الجلسة المخصصة لنا، بقراءة من سفر اشعيا النبي (٢/٣-٤) جاء فيها:

"من صهيون تخرج الشريعة،

ومن أورشليم كلمة الرب.

وهو يحكم بين الأمم.

ويقضي للشعوب الكثيرة. فيضربون سيوفهم سِككا ورماحهم مناجل،

فلا ترفع أمة على أمة سيفاً،

ولا يتعلمون الحرب بعد ذلك".

وكان تعليقي:

"تقولون: هذه الكلمات النبوية... جميلة!

ولكن صهيون أجهضتها اليوم أكثر من أي وقت مضى.

لأن ما يخرج من صهيون، ليس الشريعة، وإنما هو أقصى الظلم، فيما أورشليم أصبحت، بسبب صهيون بالذات، بوابة للموت، لا أكثر ولا أقل".

عروبة ومسيحية

بهذه الكلمات بدأت مداخلتي. فأحدثت صدمة.ثم اتبعتها، بمنتهى الهدوء، بلوحة تاريخية، تستند إلى تواريخ ووقائع، تذكّر بالحقائق التالية:

١- وجود العديد من القبائل العربية المسيحية الهامة، التي سبقت ظهور الإسلام بزمان.

٢- ترحيب هؤلاء العرب المسيحيين بالعرب المسلمين، إذ وجدوا فيهم محرّرين من النير البيزنطي، الذي بات، على كونه مسيحيا، لا يطاق.

٣- التعايش والتعاون بين العرب المسيحيين والعرب المسلمين، وقد بلغ أوجه في عهد الأمويين.

٤- اعتبار العرب المسيحيين في حكم الذمة (الخاص بأهل الكتاب). فهو لم يحل دون قيامهم بدور مميز على الأصعدة السياسية والاجتماعية والثقافية والأدبية والدينية.

٥- فترة الحملات "الصليبية"(*). فقد كانت حملات استعمارية وتجارية تحت غطاء ديني، وأحدثت خللاً، دامياً أحياناً، في العلاقات بين الغالبية الإسلامية والأقليات المسيحية.

٦- تكريس هذا الخلل، قانونيا وعمليا، اثر الغزو التركي، الذي قيّض له أن يغرّق المنطقة كلها في سبات الموت، طيلة ٤٠٠ عام بالتحديد.

٧- الوضع المتدني الذي فرض على الأقليات المسيحية إبان العهد العثماني، مما منح الدول الغربية التي تدّعي المسيحية، ذرائع كي تتدخل في حياة الشرق الأوسط، السياسية والدينية، وأخيراً كي تتقاسم "الرجل المريض".

٨- رد الفعل الحاسم للمثقفين العرب، بدءاً من عام ١٨٤٧، ومساهمتهم الواسعة في النهضة العربية، سواء على صعيد الأفكار والآداب، أو على صعيد اليقظة القومية، في مواجهة النظام العثماني.

٩- الإنشاء المصطنع والمتفجر للبنان الحالي، بحكم تكوينه الطائفي، بتدخل الدول الغربية، على حساب سورية، فيما لبنان لم يكن فيها سوى إقليم صغير جداً وعلى قدر متفاوت من الحكم الذاتي.

(*)- هذه التسمية غربية صرف، لأن جميع المؤرخين العرب سموها (حملات الفرنجة).

١٠- التحالف بين الحلفاء والعرب، إبان الحرب العالمية الأولى ضد الأتراك، والحرب التي خاضها العرب إلى جانب الحلفاء، مقابل وعد بالحرية والاستقلال والوحدة العربية.

١١- خيانة الغرب، إذ كان يعمل في الوقت نفسه، على تقطيع أوصال العالم العربي إلى دويلات، فيها ممالك و إمارات وجمهوريات، بموجب معاهدة سايكس - بيكو، وعلى زرع السرطان الصهيوني فيها، وفقاً لإعلان بلفور.

١٢- تكريس المؤامرة المزدوجة على العالم العربي،

الأولى:

داخل عصبة الأمم، بفرضها حكم الانتداب على هذه الدويلات المقسمة، أو الإبقاء على الحكم الاستعماري.

والثانية:

داخل الأمم المتحدة، كي توفر غطاء قانونياً لوجود إسرائيل، بالقرار الشهير الصادر في ٢٩ تشرين الثاني عام ١٩٤٧.

عروبة وصهيونية

كان هذا الحديث الأول يستدعي بالضرورة حديثاً آخر حول الصراع بين الصهيونية والعروبة.

كان من الواضح أن هذا الصراع، بصورة أو بأخرى، لم يعد، منذ حرب تشرين ١٩٧٣، يدع أحداً في حالة من اللامبالاة. إلا أنه، بالنسبة إلينا نحن الكهنة العرب، كان يعني الغرب وكنيسة الغرب، أكثر مما يعني سواهما. بل أكثر من ذلك، لم يكن يعنيهما وحسب، بل كان يستفزهما بعنف. ذلك بأن الصهيونية ليست، في نظرنا، سوى النتيجة المنطقية والمحتومة للاّسامية التي مارسها الغرب منذ ألفي عام.

وهذا هو بالذات ما كنا نريد أن نقوله لهؤلاء الغربيين، "عشاق الحقيقة والعدالة". ولقد قلناه، في هدوء، ولكن في حزم.

وفي الواقع، كنا نرمي إلى انتزاع ذاك الصوت الذي يمكنه أن يمزّق الصمت الإجرامي لكنيسة الغرب.

وقد فعلنا ذلك انطلاقاً من المطران كبوجي.

كبـــوجـــي

هو أول أسقف عربي يُتهم بالتحالف مع المقاومة الفلسطينية، ويحكم عليه بالسجن مدة ١٢ عاماً.

وهو هو أسقف القدس بالذات.

مثل هذا الأمر لم يكن تافهاً. وهو يستحق التأمل والتفكير، لاسيما وأن أحداً من أساقفة الكنيسة الغربية، لم يرفع الصوت للاحتجاج أو لاتخاذ موقف.

وكان لابد لنا، بغض النظر عن شخص المطران كبوجي، أن نتوقف عند حادثة اعتقاله في ذاتها، وعند الاتهام الذي جلب له هذا الحكم. وعبر الكبوجي، يتبدى الصراع مع الصهيونية، في كل حدّته. وفي الواقع، فخلال الحديث والحوار الذي تبعه، كانت أبعاد الصراع الوحشية تظهر، شيئاً فشيئاً، بوضوح.

فهناك هرتزل وكتابه "الدولة اليهودية" (١٨٩٦)... وأول مؤتمر صهيوني في بال (١٨٩٧)... وإعلان بلفور (١٩١٧)... وقرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة (١٩٤٧).... وأولى الحروب العربية-الإسرائيلية (١٩٤٨)... ثم العدوان الثلاثي واحتلال سيناء (١٩٥٦)... فحرب حزيران واحتلال سيناء من جديد والجولان والضفة الغربية وقطاع غزة (١٩٦٧)... وحرب تشرين (١٩٧٣)...

ترافقت هذه المعلومات بأرقام مستمدة من مصادر مختلفة، ولكن خصوصاً من المصادر الصهيونية عينها. منها أرقام بشأن التواجد اليهودي في فلسطين، وتدفق "المهاجرين"... وتهجير ثلاثة ملايين فلسطيني وعربي من الأراضي المحتلة... وأرقام بشأن المساعدة المالية والعسكرية، الخيالية وغير المشروطة، من الولايات المتحدة لإسرائيل... وبشأن مليارات الماركات تقدمها ألمانيا تحت غطاء التعويض عن ضحايا النازية... وأرقام أيضاً بشأن المليارات التي ينفقها العرب من أجل التسلح، وأرقام أخيراً بشأن العدد غير المحدود من القرارات التي اتخذتها الأمم المتحدة ضد

إسرائيل، والتي لم يطبّق منها ولا قرار واحد، باستثناء القرار الذي "شرّع" إنشاءها!

دائرة جهنمية، لا يسع أحد أن يرى أو يتوقع لها مخرجاً.

ولكنها دائرة جهنمية، تجعل من يقرأ التاريخ يحمّل الغرب وحده، مسؤوليتها الكاملة. فليس ثمة أي شك في أن الصهيونية هي وليدة اللاسامية المباشرة. واللاسامية واقع فاضح وثابت في تاريخ الغرب، الذي يدّعي المسيحية. وليس بوسع أحد أن ينكرها. حتى أن بعض الباباوات سقطوا فيها.

ولقد باتت هذه الخطيئة ترهن الوجدان الغربي، بحيث بدا معها وكأنه مصاب بصدمة لا شفاء له منها. وكان حسب زملائنا ذكر النازية أمامهم، حتى يمرّ، فجأة، شريط لانهاية له، من الحقد والمجازر التي كان اليهود ضحاياها.

بالمقابل، لم يكن من الصعب علينا أن نبيّن بالأرقام والأسماء والتواريخ، كيف عاش اليهود وازدهروا في الشرق العربي، بل كيف أنهم استطاعوا، في بعض الحقب، أن يقوموا بدور مميز على مختلف الأصعدة.

ههنا، لامسنا جوهر القضية:

إن التعايش مع اليهودي لم يكن يوما مشكلة في نظر العربي. ولكنه أصبح مأساة، بل صراعا على الوجود، منذ بروز الصهيونية، أي منذ ظهور

أيديولوجيا عنصرية، تيوقراطية وتوسعية، تسعى لأن تراهن، في آن واحد، على مصالح الرأسمال اليهودي ومصالح الإمبريالية العالمية، على حساب الشعوب العربية، وفي قلب العالم العربي، كي تمزقه وتحول دون تنميته، فتستثمره وتستولي على أراضيه وثرواته، لاسيما النفطية.

وكانت فلسطين الضالة المنشودة.

ما كان للأرجنتين، ولا لأوغندا، اللتين فكّر فيهما أولاً هرتزل، أن تلعبا مثل هذا الدور المستقطِب، دينياً وعاطفياً، الذي كان يبدو أن بوِسع فلسطين وحدها، أن تلعبه بالنسبة إلى كل يهودي.

فضلاً عن ذلك، فإن فلسطين تقوم في قلب هذا العالم العربي، الذي كان من شأن يقظته ووحدته وطاقاته أن تشكل خطراً فادحاً، ذات يوم وإلى الأبد، على مصالح الغرب.

أما أن يدفع العرب ثمن كل ذلك، بالأرض والأرواح والثروات، فليس في ذلك ما يستحق القلق! ألم يقل ذات يوم أحد السياسيين الغربيين:

الحياة لإسرائيل!

والموت لليهود!

ذلك كان التبرير، الواعي أو اللاواعي، الذي كان الغرب لا يمتنع عن تقديمه لذاته، إزاء انفجار العنف، الذي أطلق شرارته منذ ذلك الحين. وهو بذلك يتحرر بثمن بخس من اليهود -العاصين على الاندماج- ومن

العرب، أي من المسلمين... ومن خطيئته الذاتية التي باتت لديه كابوساً مرضيّاً.

نتائج أولى:

من خلال هذا المنظور، كانت القضية الفلسطينية تفرض النتائج التالية، التي لم نتردّد لحظة في طرحها:

١- إن مسؤولية الغرب في الواقعة الصهيونية، وتواطؤه في إنشاء إسرائيل واستمرارها، أفضيا إلى خلق لاسامية جديدة، ولكن هذه المرة، ضد العرب.

٢- إن الصهيونية، بوصفها أيديولوجيا، تشكل استغلالاً وحشياً للشأن الديني في الشأن السياسي، وهو استغلال انزلقت فيه الكنيسة الغربية انزلاقاً خطيراً، عبر لاهوت مزعوم يستند، في نهاية المطاف، إلى تأويل خاطئ للوعد الذي قطعه الله لإبراهيم في العهد القديم.

٣- إن الصهيونية، في تطبيقها العملي، تشكل صيغة جديدة للنازية العنصرية والتوسعية، مع هذا الفارق الصارخ بأن النازية الألمانية انطلقت من شعب محدد، يعيش على أرض يعترف العالم بأسره أنها أرضه، فيما النازية الصهيونية تحاول أن تجمع أناساً متناثرين في شتى أرجاء الأرض، كيما تصوغ منهم أمة حية، تعيش فوق أرض ليست لها، بعد أن تطرد منها سكانها الأصليين.

٤- إذن، إن الصراع الذي نخوضه نحن العرب ضد الصهيونية ليس، كما يصوره بعضهم، حرباً دينيةً، بل هو صراع من أجل العدالة وحسب، يهدف إلى إعادة شعب انتزع من وطنه، إلى أرضه بالذات.

٥- من ناحية أخرى، إن هذا الصراع، إذا ما وضع في سياقه الدولي، ليس سوى مرحلة من الصراع الذي تخوضه حركات التحرر في العالم، ضد قوى الظلم والاستغلال، التي تهيمن عليها الإمبريالية العالمية، التي يمثل فيها الرأسمال اليهودي دوراً قيادياً.

٦- إن هذا الصراع يكتسب في نظرنا نحن العرب، حداً من الإلحاح، يتحتّم معه على جميع الدول العربية، أن تضعه في رأس أولوياتها.

٧- أما الفلسطينيون، فإن هذا الصراع يكتسب بالنسبة إليهم، أولوية مطلقة. ولذلك فإن حركات المقاومة الفلسطينية، قد أطلقت على ذاتها، اسم "منظمات فدائية"، كما أنها تطلق على مقاتليها اسم "فدائيين" (إنهم بالتحديد الفدائيون الذي تطلق عليه الصحافة الغربية اسم "إرهابيين")، أي أنهم، على مثال المسيح، أولئك الذين يموتون طوعاً من أجل الآخرين، وبدلاً عن الآخرين، كي يخلصوهم من خطاياهم الذاتية، والخطايا هنا هي بالضبط، اللاسامية والصهيونية.

٨- ونحن، بوصفنا كهنة عرباً، نضع على هذا الصعيد بالذات، وفي آن واحد، التزامنا، ونفهمه خدمة لإخوتنا العرب ضحايا الظلم الصهيوني، وخدمة لليهود ضحايا الوهم الصهيوني.

٩- أخيراً، بوصفنا كهنة، أي رجالاً من الكنيسة، نخاطب بإلحاح كنيسة الغرب، كي نخرجها من صمتها الذي نرى فيه تواطؤاً. لأننا نعرف أن هذه الكنيسة بالذات، قد عرفت، إبان الحكم النازي، أن تقاوم الطغيان كي تنقذ الإنسان. فلِمَ لا تقوم بالدور نفسه اليوم، على أرض فلسطين بالذات، التي يتجسد فيها المسيح اليوم، في الإنسان العربي الذي انتزع منها، وحرم من كل ما يجعل الإنسان إنساناً: العدالة، الحرية، الأرض، الحق، الحقيقة، الحياة؟

ونحن نناشد كنيسة الغرب، كي تحرر معنا المسيح الذي يصلب اليوم من جديد على أرض فلسطين، على يد إخوته بالعرق،... كي نحررهم، هم أيضاً، بدورهم!...

ردود أفعال واقتراحات

لم يكن الحوار الذي أعقب هذين الحديثين، سهلاً. فإن الحقائق، أو ما بدا لنا، نحن العرب، حقائق، لم تكن، في نظر زملائنا الغربيين، حقائق كما تصورناها. وكان لابد لنا من التسليم بأمرين واضحين:

الأول، مسؤوليتنا، وإن كانت نسبية، في جهلهم لقضايانا.

الثاني، هربهم من أي شيء يذكّرهم بخطيئتهم الأولى، وهي اللاسامية.

وتواصلت النقاشات طوال ساعات. وشهدت الأيام التي تلت، تأثر الصلوات بها.

وفي عشية اختتام الندوة، عقد اجتماع انتهينا فيه إلى النقاط التالية:

– على صعيد الإعلام:

فتحوا لنا صفحات مجلاتهم لكل مقال يتناول القضية الفلسطينية، على أن يكون مؤسساً على فكر إنجيلي، لاهوتي وتاريخي، في متناول التفكير الغربي.

– على صعيد العمل:

تعهد زملاؤنا ببذل وسعهم للقيام بعمل فعال في كنائسهم المختلفة، في نطاق السلطة الكنسية والمؤمنين، وفي نطاق النقابات العمالية. وطالبونا بمجلات ونشرات تتعلق بالقضية الفلسطينية. ورغبوا إلينا في الحصول على عناوين طلاب عرب يقيمون في الغرب، ولاسيما المناضلين منهم، ليتدارسوا وإياهم إمكانيات العمل المتاحة وطرق التأثير على الجماهير الغربية.

ســؤال

خلال كل ذلك، اتضح لنا، نحن العرب، أن كل ما انتهينا إليه، إن نُفّذ، لا يوازي احتكاكاً مباشراً بالعرب، في أي أرض عربية، مهما طالت أو قصرت مدته.

فقد بدا لنا أن دعوة زملائنا الغربيين إلى بلادنا العربية، هي الأهم: كي يتاح لهم أن يروا قضايانا بأم العين، ويتصلوا بشعوبنا على نحو مباشر، يمكّنهم من اكتشاف ظروف حياتنا ونضالنا. أجل ذاك هو الأهم. وكل ماعدا ذلك ثانوي، إن لم يكن نافلا.

إلا أن ذلك يقتضي من المال الكثير، أقله بالنسبة إلى أجور السفر، فيما استضافتنا لهم في بيوتنا وأديرتنا تتكفل بالباقي.

وكان ذلك يقتضي خصوصاً إعادة النظر في العلاقات القائمة، أو بالأحرى المعدومة، بين الحكومات العربية وحركات المقاومة من جهة، والكنائس العربية من جهة ثانية.

وكنت، شخصياً، قد أثرت هذا السؤال بعينه، في فترات سابقة، و ما كنت تلقيت أي جواب.

ترى، هل سيأتينا الجواب يوماً... قبل فوات الأوان؟.

دمشق – أيلول/١٩٧٥

II- اليهودية والصهيونية وإسرائيل

دولة إسرائيل... هل هي أرض الميعاد؟

(النص التالي صدر عن جمعية ((سويسرا والعرب)) ، ومركزها " برن " العاصمة ، في ٨ آب عام ١٩٨٠. وهو يضم كلمتين، الأولى لرئيس الجمعية، المحامي الدكتور هانس الينبرغر، وقد شاءها بمثابة مقدمة للثانية، وهي محاضرة ألقاها الأب الكاثوليكي السويسري، مارتان بويتلر. فيما يلي ترجمتي الحرفية لهاتين الكلمتين).

كلمة الدكتور هانس الينبرغر:

إن الحجج التي يقدمها الصهاينة، ليبرروا دولة إسرائيل وسياستها، متعددة وفق الجمهور الذي يقصدونه. فإذا ما توجهوا لأوساط مؤمنة، أبرزوا خصوصاً الادعاء بأن فلسطين هي الأرض التي وعد بها الله اليهود، الذين عادوا إليها بحسب النبؤات الأخروية، التي جاءت في العهد القديم... ثم يُصهر مفهوم "أرض الميعاد" الديني بمفهوم "دولة إسرائيل" السياسي، ليخلصوا منه إلى تبرير كتابي لهذه الدولة. والتزاماً بهذا المنطق، يتم الانتقال بسرعة إلى الادعاء بأنه يتحتم على كل مسيحي يحترم نفسه، أن يدعم دولة إسرائيل.

إن هذا التصور يفتقر كلياً إلى أساس لاهوتي وسياسي. فالعهد القديم، من جهة، لا يتحدث قطعاً عن إنشاء دولة يهودية في هذا البلد، الذي كانت تسكنه آنذاك قبائل أخرى. ومن جهة أخرى، ترى المفاهيم السياسية الأوربية في القرن العشرين، أنه لا يمكن لأي وعد الهي مرتبط بأي دين، أن يشكل قاعدة قانونية لمطالب سياسية، ولاسيما عندما يكون المقصود إنشاء دولة جديدة. فليس سوى إرادة غالبية شعب ما، في أرض ما، يستطيع أن يقدم الأساس القانوني لإعلان دولة ما. والحال أن الغالبية العظمى من سكان فلسطين، لم تكف، منذ نهاية الاحتلال التركي، وقد حدثت خلال الحرب العالمية الأولى، عن المطالبة بدولة فلسطينية لمجمل سكان فلسطين، أي للعرب واليهود. ثم إن اليهود، حتى عام ١٩٢٢، لم يكونوا ليشكلوا سوى ١٢% من مجمل سكان فلسطين، وفق الإحصاء الذي أُجرى إبان الانتداب البريطاني.

ما من أحد يحق له أن يناقش أو يرفض المفاهيم الدينية، التي يأخذ بها إنسان ما. وبالمقابل، لنا ملء الحق أن نلاحظ بأنه لا يجوز قطعاً التبرير الديني لادعاء سياسي يمارسه شعب ما على أرض ما، ولتحقيق هذا المطلب بالحرب والطرد، استناداً إلى أحداث قديمة تعود إلى ثلاثة آلاف سنة، وتنتمي إلى التاريخ الديني.

فضلاً عن ذلك، فإن اعتبارات كثيرة تجيز لنا أن نصف بالكذب المنطق "الكتابي" الذي تقدمه عادة بعض الأوساط الكنسية. فإن تيودور هرتزل نفسه، وهو مؤسس الحركة الصهيونية العالمية، ورئيسها الأول، لم

يعتمد في كتابه الأساسي "الدولة اليهودية"، أي حجج كتابية ليبرر هدفه السياسي الرامي إلى إنشاء دولة يهودية. ثم إن الشخصيات الكبرى التي ساهمت في تأسيس الدولة اليهودية، من أمثال حاييم وايزمن ودافيد بن غوريون وغولدا مئير، كانوا ملحدين، ولم يحاولوا قطعاً أن يعثروا على تبرير كتابي لعملهم السياسي. وينطبق الأمر نفسه على العديد من أعضاء "الكنيست" الملحدين. ويجدر بنا أيضاً أن نشير إلى أن قسماً من اليهود المؤمنين، ينكرون أي صلة بين العهد القديم ودولة إسرائيل، وأن بعضهم يذهبون أبعد من ذلك، فيرفضون دولة إسرائيل بوصفها دولة.

خلال فترة التأسيس، قامت سياسة دولة إسرائيل على تهجير شعب، كما قامت على الاستيلاء على ممتلكاته المنقولة وغير المنقولة. وفي الأراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧، قامت سياسة دولة إسرائيل، وتقوم دوماً على الاستيلاء المتواصل على الأرض، وعلى تدمير المزروعات بواسطة مواد سامة تقذفها الطائرات العمودية، وأيضاً بواسطة تحويل المياه المحدودة، ولكن الضرورية للزراعة والتموين، بقصد ترحيل عدد آخر من الفلسطينيين (خلال العام ١٩٧٩ وحده، هاجر قرابة ٢٠٠٠٠ فلسطيني من الأراضي المحتلة، نتيجة ضغط المحتل الإسرائيلي)، و "إزالة كل أثر عربي" عن الأراضي المحتلة، تماماً كما حاول هتلر أن يفعل من ألمانيا بلداً "فارغاً من اليهود". والحال أن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد. فإن كتلة الليكوود وعدداً من الأعضاء البارزين في حزب العمال، يدعون لإسرائيل الكبرى. وقد جاء في الصحافة الإسرائيلية أن وزير الدفاع السابق موشيه

دايان قد صرح عام ١٩٦٧، فوق مرتفعات الجولان، بأن مهمة الجيل الجديد ترمي إلى توسيع حدود إسرائيل إلى سورية ولبنان.

وعلى الرغم من أن مثل هذه السياسة، ومثل هذه النشاطات، لا تمت بأي صلة إلى الوصايا العشر التي أعطيت لموسى على جبل سيناء، ولا إلى المفهوم الديني المسيحي المستوحى من العهد الجديد، فإن قسماً من الأوساط الكنسية، ولاسيما الغالبية الساحقة من القساوسة البروتستانت، يساندون، بصورة فعالة جداً، دولة إسرائيل وسياستها، مع أن بوادر شرح ملطف بدأت تظهر منذ عدة سنوات. ومع ذلك، ففي هذا السياق، لا يعتمد على هذا الطرح الكتابي وحسب، ولكن أيضاً على الأكاذيب التي يرددها أبداً ودائماً الصهاينة، والتي تزعم بأن اليهود دخلوا أرضاً "فارغة"، وبأن الفلسطينيين تركوا بلدهم ليس فقط تحت ضغط اليهود، بل بتأثير النداءات التي وجهتها إليهم إذاعات البلدان العربية المجاورة. ويواصل الصهاينة ترويج هذه الخرافات، وهي تجد صدى واسعاً بصورة دائمة، مع أن شهوداً لا يمكن أن يطالهم الشك في هذا الصدد، أمثال رئيس مجلس الوزراء الحالي، بيغن، والوزيرين السابقين، الون ورابين، رووا بالتفصيل، في مؤلفاتهم المتعلقة بأحداث عامي ١٩٤٧-١٩٤٨، أن اليهود طردوا الفلسطينيين بالتهديد وبقوة السلاح.

في شهر آذار المنصرم، قدم السيد مارتان بويتلر، وهو كاهن كاثوليكي في مدينة فلشنرور، محاضرة عالج فيها الموضوع التالي:

هل دولة إسرائيل هي أرض الميعاد؟، وذلك بناء على دعوة من الجمعية السويسرية العربية.

ننشر فيما يلي، بموافقة المؤلف، نص هذه المحاضرة التي تعالج المسألة من الزاوية اللاهوتية.

كلمة الأب مارتان بويتلر:

إختلف الناس بصدد نزاع الشرق الأوسط. فليس في التاريخ البشري كله، مثال واحد على نزاع اكتسى مثل هذا التعقيد السياسي والديني والاجتماعي.

إن محاولة إدراك الوقائع في مجملها، وإن بصورة تقريبية، تطرح مسائل تكاد تكون مستعصية على الحل، في ما يتعلق بمعرفة الوقائع التاريخية، أو بما هو من أمر الوجدان الديني. ولاسيما وأن كثيراً من الناس يشعرون بأن الأمر يعنيهم مباشرة، نتيجة وحدة المصير على صعيد العالم، وهم يواجهون القضية -لشتى الأسباب- انطلاقاً من أفكار مسبقة، بل ومنحازة. ومع ذلك فثمة قاعدة تاريخية تقوم في نظرنا، ونظر المعنيين بالأمر مباشرة، تتيح معالجة هذه المسائل - وهي قاعدة يتصورها بعضهم على نحو متباين بحسب وجهة النظر المتبناة، ونعني بها العهد القديم، وخصوصاً العهد الذي عقده الله مع إسرائيل، من خلال تاريخ شعب يبحث عن هوية دينية.

إن كنت أرغب في تحليل المسائل عن كثب، وهي هامة بالتأكيد، التي تتعلق بعلاقة اليهودية بالأرض حيث جرت الأحداث التاريخية التي أصبحت خميرة هويتها الدينية المصيرية، فإن ذلك سيقودني إلى ما هو أبعد بكثير من إطار محاضرتي الوجيزة. وسأقتصر مساهمتي المتواضعة على تفسير بعض المفاهيم ذات الدلالات المتعددة، والنتائج المدمِّرة في معظم الأحيان التي استخلصت منها، في خطوطها الكبرى. فإن الاستخدام المتناقض والمدّمِر حقاً، لمفاهيم تتبدل كثيراً، وفق جوانبها الدينية والسياسية واللاهوتية أو الحقوقية، قد قاد إلى سوء تفاهم متبادل يبدو وكأنه لا يمكن تخطيه.

من ذلك، مثلاً، أن دولة إسرائيل امتزجت دونما تفسير، بمفهوم "إسرائيل" الكتابي. وهناك مفاهيم من أمثال "شعب الله" و "صهيون" أو "أرض الميعاد"، قد توحدت عشوائياً مع مطالب إسرائيل، السياسية أو الجغرافية، التي وجدت تبريراً لها، بصورة واضحة التحيز والتعسف إلى حد لا يصدق، بإحالتها إلى أفكار العهد القديم الدينية، بل والعهد الجديد.

سنرى بسهولة أن المفاهيم الدينية المتباينة، التي يأخذ بها أطراف النزاع في الشرق الأوسط، على الرغم من الخلفية التاريخية الدينية المشتركة، قد ولدت تفسيرات مختلفة جوهرياً لمصطلحات دينية، مثل "شعب الله" و "الشعب المختار" و "أرض الميعاد". ولنلاحظ بالمناسبة، أن مثل هذه المفاهيم الدينية، وكذلك المطالب السياسية المستمدة منها في الواقع، بالنسبة إلى دولة إسرائيل وتبريرها السياسي - الديني، يمكن أن تسبب نزاعات

دولية، وتهدد السلام العالمي، في عالم علماني كعالمنا، حيث يسوس التعايش السلمي قاسم مشترك يقوم على اتفاقيات جاءت نتيجة مفاوضات صعبة.

انطلاقاً من هذه الخواطر، يسعنا أن نطرح السؤال التالي: هل يمكن لتبرير ديني أن يلغي حقاً موضوعياً؟.

جواباً عن هذا السؤال، لنذكر بإيجاز بعض الوقائع التاريخية، ولنحلل البعد الديني الذي تكتسبه.

قدم إبراهيم من أور في العراق، إلى بلاد كنعان. وإن الكتاب المقدس ليذكر اليهود بأن جدهم إبراهيم كان آرامياً، أي سورياً. وموسى يحيل إلى ذلك أيضاً عندما يقول لهم: "... وستقول أمام العلي، إلهك: إن ابي (إبراهيم) كان آرامياً تائهاً..." (تثنية ٢٦/٥). وقد اختار الله إبراهيم لأنه ظهر لله أن إيمانه إيمان رجل صدّيق. وبذلك أصبح جد جميع الذين يبحثون عن الله في العدل. وهو أبو دياناتنا الثلاث السماوية الكبرى: أي اليهودية والمسيحية والإسلام.

إن هذه الديانات الثلاث تحمل في طياتها سمة مفهوم العدل بحسب العهد القديم. فيتوجب بالتالي على كل تأكيد أن يُفحص في ضوء مفهوم العدل هذا، الذي يشكل جوهر الأمانة للعهد وللوعد الناجم عنه. ليس العدل، في العهد القديم، مفهوماً مجرداً، ولكنه واجب طاعة نحو الله العادل، الذي ينتهي به الأمر إلى أن يُفرض، على الرغم من بعض المقاطع المتناقضة في الكتاب المقدس.

من ذلك أن إبراهيم تخلى للوط عن أفضل قطعة من الأرض التي كان يدعيها له بحق، ولكن لوط أضاع هذه الأرض. ولقد كشف الله العادل لموسى شريعته، لأنه أنقذ إسرائيل من العبودية والظلم ليقوده إلى الحرية.

ويجب أن تفسر توبيخات موسى بهذا المعنى: "إن لم تحافظ على جميع كلمات هذه الشريعة، وتطبقها،... فإن الله يجعل ضراباتك عجيبة، وضربات نسلك مروعة وراسخة، وأمراضاً خبيثة راسخة" (تثنية ٢٨/٥٨). وأيضاً "... ولن تكون قد أطعت صوت الرب إلهك. وكما أن الرب كان يجد متعة في الإحسان إليك وتكثيرك، فإنه أيضاً سيجد متعة في إبادتك وتدميرك، وتُقتلعون من الأرض التي ستمتلكها قريباً (تثنية ٢٨/٦٢-٦٣).

للأنبياء كلمات أخرى تربط امتلاك الأرض بالاستقامة. فالله يندد بمرارة بإسرائيل، على لسان الأنبياء: "اسمعوا هذا إذن يا رؤساء آل يعقوب وحكام آل إسرائيل، الذين يمقتون العدل ويعوّجون كل استقامة، الذين ينون صهيون بالدماء، وأورشليم بالإثم... ويجرأون على الاعتماد على الرب ويقولون: "أليس الرب في وسطنا؟". لذلك ستُحرث صهيون بسببكم كحقل، وتصير أورشليم رجماً..." (ميخا ٣/٩-١٢). ويقول الله في سفر اشعيا أيضاً: "... غذيت وربيت بنين، لكنهم تمردوا علي. يعرف الثور مالكه، والحمار معلف صاحبه، لكن إسرائيل لم يعرف شيئاً. الويل للأمة الخاطئة وللشعب

المثقل بالآثام، لذرية المجرمين، وللبـــنين الفجـــار. إنهـــم تركـــوا الـــرب، واستهانوا بقدوس إسرائيل..." (اشعيا ١/٢-٤).

لأرض الميعاد إذن بُعد أُخروي منذ العهد القديم، وهي رمز حقيقة شبه روحية. لذلك لم يكن، مثلاً، لقبيلة لاوي أي أرض في حوزتها، لأن الله نفسه كان ميراثها: "كان سبط لاوي السبط الوحيد الذي لم يعطه موسى أي ميراث، لأن الذبائح المقدمة للرب إله إسرائيل هي ميراثه، كما كان قال له".(سفر يشوع ١٣/١٤ - ٣٣).

في سفر ارميا، يتكلم الله منذ ذلك الحين عن عهد جديد مع الأبرار، لا يمت بأي صلة إلى أي أرض محددة، ولكن إلى الله بالذات: "ها إنها تأتي أيام، يقول الرب، أقطع فيها، مع آل إسرائيل وآل يهوذا، عهداً جديداً، لا كالعهد الذي قطعته مع آبائهم... لأنهم نقضوا عهدي...ولكن هذا العهد هو.. أني أجعل شريعتي في ضمائرهم، واكتبها على قلوبهم وأكون لهم إلهاً، وهم يكونون لي شعباً." (سفر ارميا ٣١/٣١ - ٣٣).

هناك من الحاخاميين اليهود من يؤكدون هذا البعد الروحي لأرض الميعاد، ومنهم الحاخام الكبير يوناثان الذي يقول في أحد تعليقاته: "لقد كتب: ستسكنون البلد الذي أعطيت لآبائكم..." (حزقيال ٢٨/٣٦). إن الله وعد إبراهيم بأن يعطيه أرض كنعان. والحال، عندما ماتت ســارة، أنه لم يكن له ولا قطعة أرض واحدة ليدفنها. كيف تحقق إذاً ذلك الوعد؟... "أرضان" تحملان اسم إسرائيل: أرض إسرائيل العليا، وأرض

إسرائيل السفلى. فالأرض المقدسة هي الأرض السماوية، حيث المساكن السماوية التي تجري منها ينابيع الحكمة. فإن هذه الأرض الروحية هي التي وعُد بها أجدادنا وأعطيت لهم، لا الأرض المادية(*).

إن هذه الخواطر تبين نسبية النصوص المستمدة من العهد القديم، وهي تتعارض مع مفهوم العدل في الكتاب المقدس، ولكنها كثيراً ما تقدم لتبرير شرعية دولة إسرائيل في جميع الظروف. ولنذكر أيضاً بمقال مثير نشر في مجلة "نوى زويشر تسايتونغ"، حيث يقول السيد هربير هاغ، وهو اختصاصي معروف بالكتاب المقدس، ضمن منظور مماثل: "يبدو من المؤكد أن ادعاء الشعب اليهودي على إنشاء دولة، يمكن أن يرتكز على الكتاب المقدس. ولكن يظل السؤال مطروحاً لمعرفة ما إذا كانت دولة إسرائيل الحالية هي حقاً تحقيق النبؤات التي سيجمع الله بموجبها شتات إسرائيل ليعيدهم إلى وطنهم، ذلك التحقيق الذي أراد خصوصاً المسيحيون المتصهينون أن يقدموا دعمهم له. كثيرة هي المواقف المؤيدة لهذا الرأي، ومنها تلك التي يتخذها بعض اللاهوتيين. ومع ذلك، يجب علينا أن نجيب عن هذا السؤال بـــ"كلا" جازم. ("دولة إسرائيل والإيمان المسيحي" بقلم هربير هاغ، بتاريخ ١٩٧٩/١١/٢).

(*)- ذكر ذلك الحاخام ايمانويل ليفين في كتابه، (ملكوت الله وملكوت قيصر)، نشر دار اليقظة، بيروت (المترجم).

من المثير أن نلاحظ، كما فعل كاتب هذا المقال، هذه الواقعة وهي أن فكرة "وطن قومي" لليهود في فلسطين، قد قام بالترويج لها المسيحيون أولاً أكثر من اليهود. وقد قال به البريطانيون خصوصاً، إذ تأثروا بمفهوم بروتستانتي للكتاب المقدس، وهو مفهوم استمر أيضاً في أوساط دينية أخرى، كما في العديد من البدع، مالت إلى الاعتقاد بأن فلسطين هي أرض الميعاد بالنسبة إلى الشعب اليهودي الذي أرهقه التاريخ بقسوة.

إن الرواد الأوائل للصهيونية، من أمثال اللورد بيكونسفيلد، وموسى مونتيفيوري وكذلك البارون ادموند ده روتشيلد و موريتس هيرش، لم يصادفوا سوى صدى خفيف، بل سلبي بالكلية لأفكارهم بين أبناء دينهم. وكان اليهود المستـــنيرون آنذاك، يسعون إلى الاندماج من خلال الفكر الأوربي التحرري، بينما كان اليهود الأرثوذكس مقتنعين بأن المسيح سيقيم ملكوت الله.

وشيئاً فشيئاً، اخذ اليهود المستنيرون خصوصاً يتبنون أفكار هيرتزل، وبدأوا الحملة من أجل دولة يهودية مستقلة في فلسطين، وهم يستوحون خصوصاً فكرة أرض الميعاد. ولا يجوز السكوت عن الواقعة القائلة بأن اعتبارات أملتها سياسة القوة لعبت دوراً حاسماً بهذا الصدد. وقد امتزجت الغطرسة الاستعمارية بالاقتناع بفكرة "الاختيار" الديني.

ومع ذلك فلم يكن من الممكن نشوء "دولة إسرائيل" في شكلها الحالي، إلا بعد الجرائم التي ارتكبت ضد الشعب اليهودي خلال حكم

هتلر. والأمر المقيت حقاً هو أنه لم تقم دولة إلا على قبور ملايين الأبرياء، لكي توفر للاجئين اليهود وطناً، لا يمكن أن يستمر وجوده، إلا بظلم جديد لا يطاق، حيال الشعب الفلسطيني الأصيل. وقد اغتيل الآلاف من الفلسطينيين، بينما استعبد مئات الألوف أو طردوا. وقد ذهب بعضهم، مثل غولدا مئير، إلى إنكار وجود هذا الشعب. هو ذا ظلم إذن يستلهم العقلية نفسها التي أنجبت اللاسامية، التي كان اليهود ضحيتها طوال قرون.

من المحزن حقاً أن تكون بعض الدول الأوربية خصوصاً، ومنها سويسرا، لم تفهم شيئاً، وان تدعم، استناداً إلى هذه العقلية نفسها التي أصبحت، فيما يبدو، أليفة جداً عندنا، الصهيونية العدوانية، وهي ترتكز على الكتاب المقدس، بل وهي تتكلم باسم المسيح. فإن كان لدينا، كمسيحيين، مفهوم مغاير لليهودية، حول "إسرائيل" و "صهيون" و"شعب الله"، فإن خطأنا الذي لا يغتفر هو أننا اضطهدنا اليهود بسبب طريقتهم المختلفة في الحياة، ونحن نستلهم عنصرية دينية لا تتفق أبداً مع تعليم المسيح الحق. ولكنه يقع تحت القدر نفسه من الفساد والخطأ، تواطؤنا، من وحي ضمير شرير، مع المفهوم الصهيوني للأرض وللشعب الإسرائيلي، ومساهمتنا في تحقيقه بوسائل ظالمة، وعلى حساب أناس أبرياء.

لقد اضطهد اليهود طوال قرون، استنادا إلى مفهوم خاطئ للكتاب المقدس، لا يتفق قطعاً مع فكرة إله عادل، ونحن نأخذ عليهم قتلهم المسيح. وقد وصفوا بأنهم قتلة الله. وإن الكثيرين من اللاهوتيين –البروتستانت والكاثوليك، وقد ذهب هؤلاء إلى حد مقاطعة التعليم الكاثوليكي الحق –،

بدل أن يتخذوا من التاريخ العِبَر، يسعون إلى تبرير ظلم جديد بواسطة الكتاب المقدس، وإلى إهانة الله وإنكار يسوع المسيح. ويكاد البعض أن يرى في دولة إسرائيل تحقيق مواعيد الله الأخروية، وأن يحرم شعباً بكامله من حقوقه الأساسية، المنصوص عليها مع ذلك في الكتاب المقدس، بل أن يبيدوه إن اقتضى الأمر.

ومن الأمور المثيرة حقاً، والتي لا تخلو من الدلالة، أن الدعاية "لدولة إسرائيل" في معناها الأخروي، وهي غير مقبولة على الصعيد الديني، تترافق مع تشهير بالإسلام، لا يطاق ومناف للمسيحية.

أوليس المسلمون هم الذين قدموا ملاذاً لليهود الذين اضطهدتهم أوربا المسيحية؟. لنلاحظ ذلك، بالمناسبة، باسم الحقيقة. في الدول الإسلامية، لم يعرف اليهود الاضطهاد. ولنذكر على سبيل المثال أن اليهود الشرقيين الذين اضطهدوا وطردوا من إسبانيا، وجدوا وطناً جديداً في تركيا.

ولنذكّر مرة أخرى، بأن الصهيونية، في سعيها إلى تحقيق أهدافها، تستلهم العقلية نفسها والأفكار نفسها غير المتسامحة والمطلقة، التي اتسم بها مضطهدو اليهود الذين تهيئوا، بدورهم، لفرض أهدافهم الظالمة الشوفينية، المنطوية على بذور العنصرية، بجميع الوسائل. أود أن أذكر كمثال، كلمة للكاتب مارتان بوبير، فقد أعمته في بادئ الأمر الصهيونية، وتحمس لدولة صهيونية في فلسطين، ولكنه شيئاً فشيئاً ابتعد عن الصهيونية على الصعيد

الروحي والسياسي، ربما لأنه فهم أن تشتتاً دام ألفي سنة لا يمكن إلغاؤه دون مظالم. فهو يقول عن الشعب الفلسطيني في كتابه "اليهودي و يهوديته": "لنتذكر دائماً – وفي الحقيقة لسنا بحاجة إلى تذكر ذلك، لأن كل ساعة من حياتنا موسومة بذلك – كيف أن الشعوب الأخرى نظرت إلينا وما تزال تنظر: على أننا كائنات غريبة، منحطة. إيانا أن نعتبر ما هو غريب عنا، أو ما ليس لنا به معرفة كافية، كائناً منحطاً، ونعامله على هذا الأساس. إيانا أن نفعل بدورنا، ما فعله الغير بنا".

إن الفارق بين دولة إسرائيل واليهودية إذن أمر واضح. فمن يعيش في إسرائيل لا يتجاوز سدس الأسرة اليهودية العالمية. ومع أني أعتقد أنه لم يقم طوال التاريخ البشري من التزوير، مثلما قام حول دولة إسرائيل، فإن الرأي العام العالمي يدرك أكثر فأكثر آلام الشعب الفلسطيني. فثمة أصوات ترتفع، حتى في إسرائيل، لا يمكن إنكارها، وهي تطالب بإحقاق الحق للشعب الفلسطيني، إذ إن أمناً أُحَدِي الجانب لا يمكن أن يستمر باستمرار الظلم.

لا يمكن تصور "دولة إسرائيل" بالاستناد إلى "الأيام الأخيرة" أو إلى "الخلاص الأخروي". والأنبياء، إذ يتحدثون عن هذه الفترة، يرون فيها عهد سلام. "... وسيكون في آخر الأيام... أن الناس سيصنعون من سيوفهم محاريث، ومن رماحهم مناجل... ولن تشهر أمة سيفاً في وجه أمة، ولن يتعلم أحد بعد الآن الحرب". (اشعيا ٢ وميخا ٤).

ويتحدث اشعيا عن مستقبل آخر، مستقبل جديد تقرره العدالة الإلهية. "لن يحدث أذى ولا ضرر على جبلي المقدس كله..." (اشعيا ١١/٩).

والحال أننا نعلم أن دولة إسرائيل، المدججة بالسلاح، تصر على مواصلة الظلم بالقوة، الأمر الذي يتنافى كلياً مع رؤيا الكتاب المقدس.

ويؤكد السيد هربير هاغ في المقال الذي ذكرناه سابقاً فيقول: "إن دولة إسرائيل، في شكلها الواقعي، لا تتسم بأي خلاص. ولكن هذه النظرة إلى الأمور، لا تأخذ بها قطعاً غالبية الأسرة اليهودية. ويمكن، بصورة عامة، انطلاقاً من العقيدة اليهودية، أن يتخذ الإنسان موقفاً مؤيداً لدولة يهودية، ومعادٍ لها، سواء بسواء".

ومع ذلك، فإني أود، بشأن هذه الملاحظة الأخيرة المتعلقة بالموقف الإيجابي أو السلبي، حيال فكرة دولة تستند إلى الكتاب المقدس، أود بهذا الشأن أن اعترض بأن الكتاب المقدس لا يجيز تبرير أي من الموقفين، المؤيد والرافض معاً. فضلاً عن ذلك، فإن دولة إسرائيل قامت بأسلوب ظالم، إذ حرمت شعباً آخر من حقوقه. فهذه الدولة إذن في تناقض فاضح مع مفهوم صحيح للكتاب المقدس. والأمر الذي لا يمكن بالتالي إنكاره، هو أن "دولة إسرائيل"، بشكلها الحالي وبتطلعاتها نحو "إسرائيل الكبرى"، لا تتفق بأي حال من الأحوال مع ما يسمى في الكتاب المقدس بـــ "أرض الميعاد". لا يمكن الاستناد على الكتاب المقدس لتبرير الظلم،كما تفعل الدعاية الصهيونية لتبرر سياسة إسرائيل العدوانية.

يضيف هربير هاغ في مقاله فيقول: "إن نصوص الكتاب المقدس تتعلق بموقف تاريخي محدد وثابت، ولا يمكن تطبيقها على سياق ديني وثقافي وسياسي مختلف كل الاختلاف. فإن كان لنا أن نتقيد بحرفية ما جاء في الكتاب المقدس من مواعيد بشأن الأرض، توجب على إسرائيل أيضاً أن تطالب بلبنان وسورية كاملين، لأن الكتاب المقدس يقول أن أرضها ستمتد حتى الفرات". (سفر التكوين ١٨/١، سفر الخروج ٣١/٢٣، سفر يشوع ٤/١).

من الجائز أن المواعيد كانت مشروعة قبل ثلاثة آلاف عام. أما اليوم فيستحيل اشتقاقها من الكتاب المقدس، وإن لم تسبب إلا ظلماً طفيفاً. ولهذه الأسباب عينها، لا يمكن الخلط بين "دولة إسرائيل" و"أرض الميعاد"، لأن نشوءها موسوم بمظالم ارتكبت بحق أبرياء.

كلنا مدعوون – يهوداً كنا أم مسيحيين أم مسلمين – لتقديم كل ما بوسعنا للوصول إلى سلام عادل في الشرق الأوسط. والذي يلزمنا بذلك هو تراثنا الديني المشترك، من أجل انتصار الحقوق المهضومة، ولكن الثابتة، للشعب الفلسطيني.

إن الأسرة اليهودية، التي أعطاها الله كلمته، ملزمة بواجب أخروي هو أن تمدّ – مع المسيحيين الذين يتحملون، بصورة غير مباشرة على الأقل، المسؤولية نفسها في المظالم التي حلت بالفلسطينيين – يداً مسالمة

للشعب الفلسطيني الذي يتألف من يهود ومسيحيين ومسلمين، كما يتوجب عليها أن تفعل كل ما بوسعها لتمكنه من العودة إلى وطنه.

إن لم يتحقق ذلك، -والخطر كبير بأن يكون الأمر كذلك- سنواجه أزمنة كوارث، لأن الله لن يطيق الاستهزاء به، وسيدفع للعدالة ثمنها.

يستحيل التسليم بأن الأوساط التي أخطأت إلى الشعب اليهودي، تسعى لتضمن مظالم الإسرائيليين -بحيث لا يمسهم أي أذى-، وعلى حساب أبسط الحقوق، حقوق الإنسان، وحقوق الشعب الفلسطيني، وبذلك تسلك هذه الأوساط مرة أخرى مسلكا عنصريا. إنما عدالة الله عدالة للجميع.

دمشق ٢٢ تشرين الثاني ١٩٨٠

جوانب من موقف الشتات الصهيوني

حيال حرب إسرائيل الجديدة في الشرق الأوسط(*)

١- وثيقتان،

بعد البدء بالعدوان الإسرائيلي، في ٦ حزيران ١٩٨٢، وجه الإرهابي "بيغن" برقية باللغة الإنكليزية، لعدد كبير من التنظيمات الصهيونية، منها "عمل إسرائيل، كيرين هايسود، سويسرا - روماند"، التي يرئسها السيد نسيم د. كاوون، رئيس مجلس إدارة فندق هيلتون، بجنيف، وأهم مساهم فيه.

إليكم بعض مقتطفات منها:

"أصدقاءنا الأحباء،

رجالنا يقاتلون من أجل سلام الجليل وسكانه، ونسائه وأطفاله. وأثناء إنجازنا هذه المهمة المقدسة، مُنينا ببعض الخسائر...

(*)- كتب هذا المقال بالفرنسية رجل القانون السويسري، الدكتور "هانس أليبرغر" وهو رئيس الجمعية السويسرية الفلسطينية. وهو الذي وضع الخطوط تحت بعض الكلمات والعبارات

نرجو أن نستطيع بلوغ هدفنا النبيل بضمان السلام والأمن لشعبنا. ولن نقبل أبدا بأن يكون أخوتنا العائشون في الشتات تحت رحمة أعـــداء الإنسانية.

إن عبارة انتهاء العداوات، يجب أن تعني أن العداوات تنتـــهي، لا حيال إسرائيل وحسب، ولكن أيضاً حيال اليهود، حيثما يعيشون.

أشكر لكم صداقتكم، وإرادتكم الطيبة ودعمكم. اقدم لكم تحياتي من القدس، عاصمتنا الأبدية والموحدة". مناحيم بيغن

وفي ١٠ حزيران ١٩٨٢، وجهت منظمة "عمـــل إســـرائيل"، في مقاطعة الروماند السويسرية، لأعوانها، رسالة كتبت باللغـــة الفرنســـية، إليكموها:

" أصدقاءنا الأحبّاء،

اضطر الجيش الإسرائيلي للتدخل في لبنان، كي يحمـــي النســـاء و الأطفال في الجليل.

إن هذه العملية العسكرية ليست حادثاً محلياً. إنها تشكل جـــواب الشعب اليهودي كله على التهديد الذي يثقل به الإرهـــاب الفلســـطيني، وجوده في القدس، وانفرس، وباريس، ولندن، وزوريخ، وسواها.

إن جنوداً من "تساحال" سيضحون بحياتهم، كي يتسنى لليهودية العالمية أن تعيش في الحرية والأمن. فالأمر ليس مجرد عملية انتقامية، ولكنه حرب حقيقية، بكل ما يواكبها من مآسٍ إنسانية ونفقات مرهقة.

لا يجوز للشتات أن يكون مجرد متفرج على هذا النزاع الجديد: إنه جزء لا يتجزأ منه. إن أعداء إسرائيل هم أيضاً أولئك الذين يطلقون النار على كنسنا و أطفالنا في أوربا. إن الرأي العام العالمي لا يبدي أي اهتمام بالشعب اليهودي: إنه بالنسبة إليه مشكلة بين مشاكل أخرى. أما في نظر السلطات الإسرائيلية، فإن مصير أبناء إسرائيل مرتبط بصميم مصير اليهود خارج إسرائيل.

نوجه إذن اليوم نداء إلى تضامنكم مع إخوتكم و أخواتكم في إسرائيل، الذين يدافعون عن حقنا في الكرامة. ولا بد لشجاعتهم وتضحيتهم من أن تجدا المكافأة العادلة في دعمنا وعملنا الملموس.

نعرف تمسككم بقضية إسرائيل، ومساهمتكم في أهم إنجازاتها في ميادين التربية والصحة والسكن ودمج المهاجرين. ولسوف يرهق مجهود إسرائيل الحربي كثيراً، ميزانيتها التي تعاني من عجز هائل. نسألكم أن تجهدوا بحيث يتسنى لشعب إسرائيل أن يواصل جهوده في التنمية بصورة متوازنة.

إن جيش إسرائيل يهتم بالجبهة العسكرية. أما الجبهة الثانية، جبهة اقتصاد البلد، فهي بين أيديكم. ساندوها بكل ما يتوفر لكم من

إمكانيات، فتبرهنون مرة أخرى على أن الشعب اليهودي شعب واحد لا يتجزأ.

لِنُصلِّ من أجل جميع أبناء إسرائيل، كي يحفظهم الله، سواء من كان منهم في الأرض المقدسة أو في الشتات.

نشكر لكم مسبقاً تضامنكم، ونرجوكم أن تقبلوا سلامنا القلبي".

الرئيس: نسيم د. كاوون

٢- بعض الملاحظات الضرورية،

إن هذه المراسلة، وكذلك التصريحات الصادرة عن منظمات صهيونية طليعية أخرى، تتيح لنا الفرصة لإبداء بعض الملاحظات حول أساليب الصهاينة الإعلامية، والتهجمات الصهيونية على وسائل الإعلام السويسرية، والمسألة القديمة والراهنة أبداً، مسألة "الانتماء المزدوج"، وبعض جوانب سياسة الحياد.

(١) أساليب الصهاينة الإعلامية:

يوم الأحد الموافق ٦ حزيران، بدأ الهجوم الإسرائيلي ضد لبنان، وكان قد أعِدّ له من زمان، وكان الفلسطينيون يتوقعونه منذ آذار - نيسان، وقد قامت به فرقتان مدرّعتان، تدعمهما البحرية والطيران. وكان هذا الهجوم، وفق أول بلاغ إسرائيلي رسمي، يشكل "عملية عسكرية محدودة"، تهدف إلى تدمير المواقع الفلسطينية المتواجدة في جنوب لبنان،

حيث كانت القرى اليهودية في شمال إسرائيل، تتعرض لمرمى المدفعية البعيدة والقصيرة المدى. ولذلك سميت هذه العملية "سلام من أجل الجليل". ونظراً للهدف المعلن لهذه العملية، والوسائل العسكرية التي بحوزة مقاتلي الحرية الفلسطينيين، كان يفترض أن تمتد العملية إلى قرابة أربعين كيلومتراً في العمق، على أبعد تقدير.

إلا أن قراءة التقارير المنشورة عن المعارك في صحف يوم الأربعاء ٩ حزيران ١٩٨٢، كشفت بوضوح أن هذا البلاغ الأوّلي الرسمي كان مرة أخرى كذباً فاضحاً. ذلك بأن القوات الإسرائيلية كانت يوم الثلاثاء ٨ حزيران قد واصلت خرقها في جنوب لبنان، متجاوزة بكثير أربعين كيلومتراً، وبلغت مواقع على الساحل تبعد ٢٠ كيلومتراً عن بيروت. وبعد قصف سابق لبيروت بالطيران الإسرائيلي أخذت القوات البرية والبحرية بدورهما تقصفان المدينة.

وفي اليوم نفسه، أي في يوم الأربعاء ٩ حزيران، وجد الإرهابي بيغن الوقت مناسباً ليسقط قناعه، ويعلن أن إسرائيل لن تسحب قواها من لبنان، إلا إذا لُبيّت مطالبها حول النقاط التالية:

١- انسحاب جميع مقاتلي منظمة التحرير من لبنان.

٢- انسحاب القوات السورية من لبنان.

٣- إعادة السيادة للحكومة اللبنانية على جميع أراضيها، خصوصاً في المناطق التي تشرف عليها منظمة التحرير.

٤- إنشاء منطقة منزوعة السلاح بعمق أربعين كيلومتراً على الحدود الشمالية لإسرائيل.

هذه النقطة الأخيرة في هذا التصريح، كانت هي وحدها تتفق والهدف المعلن في بداية الهجوم "للعملية العسكرية المحدودة". وبعد كل الذي حدث ما بين حدود إسرائيل الشمالية وبيروت، كان من الضروري أن يحتوي تصريح الإرهابي بيغن نقطة خامسة هي: "طرد مئات الألوف من اللاجئين الفلسطينيين، العائشين في المنطقة الواقعة بين الحدود الشمالية وبيروت، وتدمير مجموع القرى والمدن التي بناها هؤلاء اللاجئون طوال الأعوام الثلاثين الأخيرة، تدميراً كاملاً".

كان هتلر في حينه، يعلن أنه "سيمحو" المدن البريطانية، ولم يوفق لحسن الحظ. إن الإرهابي بيغن لم يقل شيئاً من هذا، ولكنه فعله. ولقد اضطر مئات الألوف من الفلسطينيين للهرب، بعضهم للمرة الرابعة، في حين كان الآلاف منهم يسحقون تحت أنقاض بيوتهم وهي تقصف. ولقد أكملت الجرافات الضخمة التي كانت ترافق الجيش الإسرائيلي، عمل التدمير هذا، فدفنتهم إلى الأبد.

في ١٠ حزيران ١٩٨٢، عندما وجه "عمل إسرائيل" الرسالة المذكورة أعلاه، "لأصدقائه الأحباء"، كان الجميع يعلمون، في ضوء تصريح السيد بيغن بتاريخ ٩ حزيران ١٩٨٢، وفي ضوء المعلومات التي نقلتها الصحافة والتلفزيون حول حقيقة ما يحدث في لبنان، أنه لم يكن من

الممكن أن يكون الأمر مجرد عمل دفاعي تقوم به إسرائيل لحماية قراها الحدودية، أو ما يزعم "أنه عملية عسكرية محدودة". وعلى العكس من ذلك، فإن إسرائيل كانت قد شنّت حرباً جديدة في الشرق الأوسط، سوف تطول أكثر من سابقاتها، وستضرب السكان المدنيين العزل، أكثر منها مقاتلي منظمة التحرير. وعلى الرغم من ذلك، فإن "عمل إسرائيل" في رسالتها بتاريخ ١٠ حزيران، كتب خصوصاً يقول:

"اضطر الجيش الإسرائيلي أن يتدخل في لبنان، كي يحمي النساء والأطفال في الجليل".

ثمة منظمات ووسائل إعلام صهيونية أخرى، اعتمدت هذه الحجة. ففي عدد يوم الجمعة ١١ حزيران ١٩٨٢ من "المجلة اليهودية" (اسرائيليتيش فوخنبلاط) أفاض في الحديث أحدهم، وهو السيد "م. رانكه"، حول العملية العسكرية المحدودة، "سلام من أجل الجليل"... في جنوب لبنان... وفي العدد نفسه، أكد الاتحاد السويسري للجماعات الإسرائيلية، بدوره يقول:

"في الحقيقة، إن الحكومة، وقد استمدت قوتها من دعم الشعب بأسره والشتات اليهودي، قررت أن تحرر بصورة جذرية سكانها في الشمال، من التهديد المستمر الذي اشتدت حدته مرة أخرى في الفترة الأخيرة، والذي اتخذ شكل قصف وحدات منظمة التحرير، من مواقعها في جنوب لبنان. إن القصد هو إبعاد التشكيلات العسكرية لجماعات المنظمة،

التي تزايدت قوها، إبعادها ما أمكن نحو شمال لبنان، بحيث لا تستطيع أن تهدد سكان إسرائيل".

وبانصياع تام، نشرت "الجمعية السويسرية الإسرائيلية" تصريحاً في العدد نفسه من "المجلة اليهودية". وان هذه الجمعية لتمتنع عن الوصف التفصيلي، لما تسميه بِخَفَر "النزاع العسكري في لبنان". وهي تمتنع أيضاً عن نقل الصورة الصحيحة "للعملية العسكرية المحدودة" المزعومة، ولكنها لا تجد الشجاعة لتسمية الأشياء بأسمائها. إن "الجمعية السويسرية الإسرائيلية" تستنكر محاولة اغتيال سفير إسرائيل في لندن، ولكنها تتجاهل الغارات الانتقامية التي أعقبت هذه المحاولة، والتي شنها السلاح الجوي الإسرائيلي، والتي ذهب ضحيتها، بين السكان المدنيين، أكثر من مائة قتيل، وعدد من الجرحى يفوق ذلك. وإن الجمعية "السويسرية الإسرائيلية" لتذكر أخبار الصحافة التي تتحدث عن المعاملة السيئة التي يلقاها جنود إسرائيليون وقعوا أسرى بيد قوات منظمة التحرير، وهي تصمت كلياً إزاء مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، التي حوّلها القصف الجوي الإسرائيلي، إلى صحارى من حجارة.

(٢) التهجمات الصهيونية على وسائل الإعلام:

بفضل إعلام عربي ناقص، بفضل جهاز إعلامي إسرائيلي مدهش، بفضل العديد من الصحفيين اليهود العاملين في وسائل الإعلام الأوربية، وبفضل تسلل رجال سياسة ومحررين إلى تنظيمات دعائية يقودها صهاينة،

بفضل كل ذلك، سيطر على أوربا الغربية إعلام متحيز جدا، ناقص، ومناقض في الغالب للحقيقة، حول كل ما يتعلق بالنزاع في الشرق الأوسط، طوال الثلاثين عاما التي أعقبت إنشاء دولة إسرائيل. ومنذ العدوان على لبنان، الذي شنته إسرائيل، وهي تتحدى بصورة تامة القانون الدولي، وقد جعلت فيه هدفها الرئيسي، بعد مقاتلي منظمة التحرير، السكان المدنيين، بدل أن تتحاشاهم، لوحظ تبدّل في الأفكار، على صعيد الصحافة. وكان رد فعل المنظمات ووسائل الإعلام الصهيونية على درجة من العنف، بحيث يمكننا وصفها بأنها مضادة لمصالحهم. وفي مقال من هيئة التحرير، كتبت "المجلة اليهودية" تقول خصوصاً، بتاريخ ١١ حزيران ١٩٨٢:

"إن وسائل الإعلام التي ابتعدت كثيرا جدا عن الحقيقة، تستحق لومنا".

وفي العدد نفسه، يُهاجِم بعنف "الاتحاد السويسري للجماعات اليهودية"، أولئك الذين يجرؤون ويتحدثون عن حرب جديدة في الشرق الأوسط، ويصفهم بأنهم "مخربون خبثاء". فنورد منه بعض المقتطفات:

"لم تكد إسرائيل تعلن عن دخول بعض الوحدات المسلحة إلى جنوب لبنان، حتى رغب بعض المخربين الخبثاء في التحدث عن حرب جديدة في الشرق الأوسط... إنه لتشويه خبيث للوقائع، وصف العملية التي أملاها همّ الدفاع عن الذات، بأنه تصعيد تثيره إسرائيل... إنه لمن قبيل العمى، بله الصفاقة، أن يقال عن عمل دفاعي بأنه عدوان".

وتعيب "الصحيفة اليهودية" على صحيفة "بازلر تسايتونغ" "إعلامها المخجل" لأنها تجرأت وتحدّثت عن "عدوان إسرائيلي". وهي توحي إلى رئيس التحرير بأن يتخذ "أخيراً" "إجراءات صارمة" داخل هيئة التحرير الأجنبية. ووصفت "المجلة اليهودية" تعليقاً قدمه في التلفزيون السيد "فرانس برونر" محرر صحيفة "تاكس – انزيكر" الصادرة في زوريخ، وصفته بأنه "فاضح". وعلى العكس من ذلك، فقد استطاع السيد "بيير روتشيلد" أن يتصالح مع صحيفة "البليك"، مع أنها كانت قبل ذلك بأسابيع قليلة، غير مرضي عنها بالمرة، ذلك بأن تقاريرها برهنت "على تفهم عميق لموقف إسرائيل" – وكانت هذه التقارير قد حررتها الصحفية الصهيونية "جيزيلا بلاو"...

(٣) "الانتماء المزدوج":

إن أكثر ما يعيبه اللاساميون على اليهود أنهم يمارسون "انتماء مزدوجاً"، وأنهم بالتالي غير موثوقين سياسياً بالنسبة إلى بلدان إقامتهم. إن هذا المأخذ لا يستند دون شك، إلى تبرير كاف، تحت هذا الشكل المعمم. إلا أن بوسع القارئ أن يحكم بنفسه، وهو يقرأ بعض المقتطفات التالية، ما إذا كان هذا المأخذ يجد تبريراً في ذاته حيال بعض الجماعات الناشطة.

من ذلك، أن "عمل إسرائيل" في رسالة له بتاريخ ١٠ حزيران ١٩٨٢، يدعو أصدقاءه لعدم الاكتفاء بدور المتفرج، بل بأن "يكونوا طرفاً ناشطاً". ويطالب "عمل إسرائيل" "بالتضامن مع إخوتنا وأخواتنا في

إسرائيل"، ويعتبر أن أعضاءه ملزمون بأن يدعموا، بكل مـــا أوتـــوا مـــن إمكانيات، "الجبهة الثانية"، أي اقتصاد إسرائيل.

وقد كتب "الاتحاد السويسري للجماعات الإسرائيلية" يقول:

"نحن نرى أن الرباط العميق الذي يربطنا بدولة إسرائيل المكافِحـــة ضد جيرانها من أجل السلام، رباط طبيعي".

ولقد بيّن الإرهابي "شارون" كيف تفهم دولة إسرائيل المكافَحة مع جيرانها من أجل السلام، إذ أعلن مؤخراً، ليسمع الحكم الســـوري، بـــأن دمشق باتت على مرمى المدفعية الإسرائيلية. ويبقى السؤال مطروحاً مـــن زمان، الذي يرمي إلى معرفة الوقت الذي تصبح فيه سورية ضحية "عملية عسكرية محدودة" في سبيل الدفاع المزعوم عن إسرائيل. ولقد كان الجنرال دايان الراحل قد صرح عام ١٩٦٧، غداة حرب الأيام الستة، في مرتفعات الجولان:

"إن الجيل السابق حقق حدود عام ١٩٤٨. جيلنا أنشأ حدود ١٩٦٧.

وقد يبلغ جيل جديد حدوداً جديدة، في لبنان، وربما حتى الفـــرات في سورية".

يبرر "عمل إسرائيل" تضامنه مع حكومة إســـرائيل الإرهابيـــة، إذ يؤكد خصوصاً بأن الإسرائيليين، بحربهم هذه، إنما يدافعون نوعاً ما، عـــن "حقنا في الكرامة الإنسانية". ونسمع النغمة نفسها في المقـــال الافتتـــاحي

"للمجلة اليهودية" بتاريخ ١١ حزيران ١٩٨٢. وإن هذه الصحافة لترى أن وضع اليهود في سويسرا، قبل عام ١٩٤٨، كان بالتأكيد وضعاً ميؤوساً منه:

"منذ قيام إسرائيل، بوسعنا أن نعيش حياتنا ونحن رافعو الرأس – ولا يجوز لنا أن ننسى هذا الأمر أبداً".

(٤) خواطر حول سياسة الحياد:

في سويسرا، يتمتع كل مواطن بحرية الإعلام والتعبير بشأن الدول الأخرى وحكوماتها. وان المواطن الأجنبي العائش في سويسرا أو المقيم فيها، يتمتع أيضاً بالحق في الاعلام، في حين أن حريته في التعبير حول الدول الأخرى وحكوماتها، تحدها إجراءات هي من صلاحيات شرطة الأجانب.

ثمة مسألة أخرى هي مسألة حق سكان سويسرا أو الأشخاص المعنويين الذين لهم مقرّ اجتماعي في سويسرا، في تقديم خدمات ما لدولة أخرى. وقد حُدِّد هذا الحق، من قبيل الحرص على الحفاظ على استقلال بلدنا، وبحكم مبدأ الحياد، حُدِّد مثلاً بإجراءات في القانون الجزائي، تتعلق بالتعليم أو بالجاسوسية السياسية، والاقتصادية والعسكرية. فإن مبدأ الحياد السويسري، يفرض على سلطات بلدنا أن تتخذ إجراءات بحيث لا يُقدَّم أيُّ دعم من بلدنا، لبلد في حالة حرب.

لذلك، حظر الاستيراد والتصدير والعبور لكل مادة حربية، دون إذن مسبق من الاتحاد السويسري. ولا يُمنح أي إذن بالتصدير لمناطق يـــدور أو يوشك أن يدور فيها قتال، أو لمناطق تسودها توترات أخرى خطيرة. ويقيّد الإذن بالتصدير، في ما يقيد به، بالتزام صريح تقدمه هذه الحكومة الأجنبية، بعدم استخدام هذه المواد إلا لِغاية دفاعية، وبعدم تصديرها بدورها. (القانون الفيدرالي حول العتاد الحربي بتاريخ ٣٠ حزيران ١٩٧٢، البنـــد ٩ و ١١). وبحسب هذه الإجراءات يُرفض أي إذن بتصدير العتاد الحربي إلى أي دولـــة متورطة في النزاع في الشرق الأوسط.

والحال أن الحرب لا يمكن أن تحد بمسائل العتاد العسكري، وتجهيز القطع أو التعليمات المعطاة لها. المسألة أيضاً مسألة ترتبط باقتصاد البلـــد الذي يقود الحرب، أو الذي يُعد لها. هذا لا يعني أن التبادلات التجاريـــة بين سويسرا وإحدى هذه الدول، تشكل خرقاً لحياد. بالمقابل، فإن توقيف المبادلات التجارية مع أحد أطراف النزاع، واستمراره مع طرف آخر، هو بكل تأكيد خرق للحياد.

إن كانت الخدمات الاقتصادية القادمة من سويسرا، ولصالح أحـــد أطراف النزاع، لا تقوم في إطار تبادل الخبرات، ولكن في صـــورة هِبـــات مجانية، وتكتسب طابع دعم أساسي للاقتصاد الحربي لهذه الدولة، فالمســـألة تأخذ شكلا مختلفاً. فقد لا تقع الطرود الغذائية المرسلة من سويسرا لـــبعض الأهل أو الأصدقاء في تلك الدولة، تحت هذا التصنيف. بالمقابل، إن تحويـــل ملايين الفرنكات من سويسرا إلى بلد في حالة حرب، أو يقع في منطقة تأزم

سياسي، يتناقض تناقضاً واضحاً مع مبدأ الحياد. وليس ثمة أي قيمة، من زاوية سياسة الحياد، للحجة التي يقدمها الواهبون، والقائلة بأن الهبات مخصصة للتربية أو لبناء شقق سكنية. فليس من الممكن، من ناحية، مراقبة الوجهة التي تنفق فيها هذه الأموال، إذ هي تنصب مباشرة في خزينة الدولة، شأنها شأن الضرائب والموارد المالية الأخرى. ولكن، حتى في حال تخصيص هذه الهبات مباشرة لمشروعات حددتها الدولة المعنية بوضوح، مثلاً لبناء مساكن أو للتربية، فلا بد من اعتبار هذه الهبات مناقضة لمبدأ الحياد، لأنها تخفف من أعباء الدولة في مجال تمويل المشروعات الحكومية، وتمكّن من تخصيص الموارد المالية للمجهود الحربي. ولولا هذه الهبات، لكانت هذه الموارد خصصت لأعمال البناء أو التربية.

إن نداء "العمل الإسرائيلي" بتاريخ ١٠ حزيران ١٩٨٢، يشكل مثالاً شبه كلاسيكي على عمل مناقض لمبدأ الحياد. وهو يقضي بأن يكون اليهود العائشون في سويسرا "طرفاً منحازاً" في حرب إسرائيل في لبنان. والنداء يدعو لصالح تقسيم للعمل يجعل الجبهة العسكرية من نصيب الجيش الإسرائيلي، في حين تكون الجبهة الاقتصادية "موضوعة في أيديكم"، أي في أيدي يهود الشتات. ويدعو "عمل إسرائيل" اليهود لأن يساندوا هذه الجبهة الاقتصادية، بكل ما أوتوا من إمكانيات.

كما في الحروب السابقة التي نشبت في الشرق الأوسط، اعتمدت الحكومة الإسرائيلية، منذ بداية الحرب التي شنتها إسرائيل، على الملايين بل المليارات من الفرنكات التي سترسلها الجماعة اليهودية العالمية. ولذلك

توجه الإرهابي بيغن، منذ بداية الهجوم، إلى التنظيمات الإسرائيلية الطليعية. وقد تبنّت هذه على الفور الادعاء القائل بأن الحرب شُنّت، لا من أجل حماية المستعمرات الجديدة في شمال إسرائيل وحسب، بل أيضاً في صالح يهود الشتات.

إن كانت حكومة بلدنا تريد أن تحافظ على مصداقيتها بشأن سياسة الحياد، فإنه يتوجب عليها أن تتخذ القرارات الضرورية التي تضع حداً لهذا الدعم الفاضح لجهود إسرائيل الحربي. وإن هذا يعني ليس الجباية التي يقوم بها "عمل إسرائيل" وحسب، ولكن أيضاً النشاطات المماثلة لغيرها من المنظمات الإسرائيلية الطليعية، بل أيضاً نشاطات جمعيات سويسرية في الظاهر، كتلك الجمعية في مدينة زوريخ، التي يقوم على رأسها النقيب والمرشد الدعائي النشيط جداً، "مارتان ريبر"، الذي يجهد في بناء الصداقة مع الجندي الإسرائيلي، والذي يبدو، كما بلغنا، أنه جمع أكثر من ٧٠٠٠٠٠ (سبعمائة ألف فرنك) من أجل دار للترفيه خاصة بالجنود في إسرائيل. وألا يكون "مارتان ريبر" حضر، باللباس العسكري السويسري، حفلة وضع حجر الأساس، أمر في غاية الغرابة...

إن الدسائس الصهيونية في سويسرا، أخذت أبعاداً تستدعي النقاش في المجلس النيابي ، أثناء انعقاد جلسته القادمة في الخريف.

١٥ أيلول ١٩٨٢

عنصريـــة دولـــة إســـرائيل(*)

قلما يرتفع صوت في الغرب يتهم إسرائيل بالعنصرية.

أما أن يكون صاحب الصوت يهودياً وإسرائيليا، ويتخذ من باريس منبراً له، فتلك هي المفاجأة.

صاحب الصوت: الدكتور إسرائيل شاحاك، مدرس الكيمياء العضوية، حالياً، في الجامعة العبرية بالقدس.

ولد في فرصوفيا، ببولونيا، عام ١٩٣٣. فخبر، وهو بعد في السادسة، الحكم النازي. وقدر له أن يقضي عامين كاملين (١٩٤٣-١٩٤٥)، في معسكر الاعتقال في (بركن بلسن)، ويخرج منه حياً.

قدم فلسطين عام ١٩٤٥. فشهد نشوء الدولة الصـــهيونية. ودان بأيديولوجيتها لسنوات طويلة. إلا أن عدوان حزيران عام ١٩٦٧، فـــتح عينيه، فانقلب على الصهيونية. وبدأ نضاله منذ عام ١٩٦٨، ضد كافـــة

(*)- **نشرت في مجلة المعرفة الصادرة عن وزارة الثقافة بدمشق - العدد ١٧٣ - تموز ١٩٧٦.**

مظاهر الظلم والعنصرية، عبر لجنة الدفاع عن حقوق الإنسان والمـــواطن، التي كانت أنشئت عام ١٩٣٥. وانتخب رئيســاً لهــا في عـــام ١٩٧٠، ومازال يشغل هذا المنصب إلى اليوم.

إسرائيل شاحاك، اسم لم يكن ليسمع به، خارج الدولة الصهيونية، إلا القلة القليلة. حتى ظهر كتابه في باريس في أيلول عام ١٩٧٥. وإذا به صوت مدو ينطلق من داخل إسرائيل، يدينها ويدعو العالم لإدانتها. وهـــو يحمل عنوان "عنصرية دولة إسرائيل"، وقد نشر ضمن المجموعة المســماة "حقائق".

مما لاشك فيه أن ما جاء فيه من حقائق، يبرر ما كتب بالحرف الكبير على غلافه الأخير:

"مؤلف هذا الكتاب مهدد بالموت، من قبل الفاشيين الإسرائيليين. فهو يفضح التعذيب وتدمير القرى والتمييز العنصري والاستيلاء على الأراضي العربية، والاحتلال الوحشي والقمع. أجل هذا كله يحدث في إسرائيل. وإن تصديق هذه الأمور يحتم قراءة هذا الكتاب الرهيب، الذي يكشف للمرة الأولى النقاب عن وجه إسرائيل الخفي".

وجه خفي... نقشت عليه التواريخ والأسماء والأرقام بأحرف من دم.

وقد جاء هذا العمل حصيلة سنوات طويلة من تقصي الحقائق، وتتبع الأحداث بصبر ودقة، وممارسة الاحتجاج كتابة وتظاهرات عبر الشوارع، أو مراجعات لدى السلطات المختصة، وسط ضغوط انصبت

عليه من كل جانب، وتهديدات بالقتل، واتهامات بالجنون، ومطالبات بإبعاده عن عمله، بل عن "بلده".

لذا جاء الكتاب "وثيقة" ليس إلا. وثيقة ذات أربعة أقسام، تناول القسم الأول منها كيان الدولة الصهيونية، من جميع جوانبها، في أسسها الأيديولوجية، وفي ممارستها التطبيقية. فينطلق من تعريف "الدولة اليهودية" ويأتي إلى كشف الحقيقة عما يسمى بالحقوق المدنية التي "تمنحها" جميع مواطنيها. ويتوقف أخيراً عند مفهوم "الشريعة الموسوية"، التي يحاول الكيان الصهيوني أن يقنع يهوده ويهود العالم بالأخذ بها.

هذا القسم من الكتاب يضج بالأرقام والوقائع والأحكام، ويخلص إلى نقاط أساسية نرى أن نوجزها بما يلي:

١- إسرائيل دولة يهودية وحسب. ليس كل مقيم فيها مواطناً إسرائيلياً. وهي في الحقيقة "تضع اليهود وحدهم في مرتبة البشر، وغير اليهود في مرتبة الحيوانات،حيوانات مفيدة أحياناً، وأحياناً ضارة، بل خطيرة". (الصفحة ٥٨).

٢- الحقوق المدنية فيها كلمة تخفي ازدواجية رهيبة في تطبيق قوانين عنصرية، تجعل من اليهود وحدهم أصحاب الحقوق، وتخضع غير اليهود أي العرب لنظام ظالم، إن صح التعبير، يستند إلى القوانين الاستثنائية التي سنها الانتداب البريطاني عام ١٩٤٥. (الصفحة ٨٦، ٨٩).

٣- الأسس الأيديولوجية والقانونية التي تقوم عليها دولة إسرائيل تضعها حتماً في خط نازية يهودية لا تقل وحشية عن النازية الهتلرية (الصفحات ٨، ٢٤، ٨٨).

٤- التهويد -تهويد الأرض والبشر- شرط أساسي لتلك الأيديولوجيا ونتيجة محتومة لها. ويعني ذلك، أولاً على صعيد الأرض، التضييق على الناس وتهجيرهم، ومصادرة ممتلكاتهم وأراضيهم، باسم الأمن القومي والمصلحة العليا والتدابير العسكرية. ويعني ثانيا، على صعيد البشر، الضغط على غير اليهوديات المتزوجات بيهود، لكي يعتنقن الدين اليهودي، ويعني الضغط على من ليسوا بيهود من جهة الأم، لكي يعتنقوه أيضا، وإلا حرموا من الزواج في إسرائيل، وتدرج أسماؤهم في سجل خاص، يضم ما بين العشرة آلاف إلى عشرين ألف اسم. (الصفحات ٦٩ إلى ٩١).

٥- رفع دولة إسرائيل إلى مكانة صنم جديد، تقدم له فرائض العبادة، ويخول اليهود، كشعب مختار، جميع الحقوق على جميع اليهود في جميع أنحاء العالم، وعلى الشعب العربي، في فلسطين، أمر يصل إلى حدود الكفر بالله، ويملي عملياً أخلاقية مزدوجة، تعرف كيف تستنكر مجازر التشيلي مثلاً، وتصمت كلية إزاء المجازر التي ينظمها رابين "الاشتراكي"، إن لم تبررها، (الصفحات ٨، ٩٣).

٦- تغني الدولة الصهيونية بالسلام ابتزاز وكذب. فهي بحاجة إلى عطف كبير وإلى مال كثير، وكلاهما مرتبط بوضع يهدد إسرائيل "بالدمار". فهي بالتالي تسعى إلى الحرب. ومن هنا كان تدفق الأموال المذهل عليها تحت ستار الديون. وإذا بهذه "الديون" ترتفع ما بين عام ١٩٦٨ وعام ١٩٧٢، من (١٠١٢٧) مليارات ليرة إسرائيلية، إلى (٣١٦٦١) مليار. (الصفحات ٩٤، ٩٥).

٧- هذا التدفق من الأموال من خارج إسرائيل ينطوي على مخاطر جسيمة، إذ إنه يفسد كلاً من المعطي والمتلقي. فالمتلقي، وهو دولة إسرائيل، تتمتع بسلطان على "مواطنيها" يجعل من المحال "القيام بأي محاولة ديمقراطية لتغيير الحكم فيها" (٩٥). وأما المعطي، أي اليهود المنتشرون في العالم، فإنهم ينسلخون بذلك عن مجتمعاتهم المختلفة، فيؤججون نار اللاسامية، في الوقت الذي يتواطئون فيه مع الدولة الصهيونية على ارتكاب المظالم بحق شعب بأسره حرم ويحرم من العيش فوق أرضه وأرض أجداده. (٩٤ - ٩٦).

٨- مقاومة هذه اليهودية الجديدة واجب على كل يهودي وكل إنسان ينشد الحق للجميع بالعيش الهانئ الكريم فوق أرضه. وهذا يعني العمل على تدمير الصور الإيجابية التي روجتها الصهيونية عن نفسها، من ريادة مزعومة للصحراء، إلى الادعاء بإنشاء مجتمع اشتراكي متساو في ما يسمى بالكيبوتزات، لأن ذلك كله ينطوي في أساسه على شرط طرد شعب من أرضه. (الصفحات ٨، ٥٢، ٧١ ...).

٩- ما لم تستأصل تلك الصنمية، فإن مصير النازية اليهودية ليس بأفضل من مصير النازية الهتلرية. (الصفحات ٥١، ٧٢، ٩٦).

تلك النقاط الرئيسية يعمل الكاتب في القسم الثاني من "وثيقته"، على توضيحها وتعريتها، من خلال ممارسات الدولة الصهيونية.

يحتل هذا القسم الجزء الأكبر من الكتاب. فأفردت فيه فصول خاصة لكل من: القمع، والسجون، والاحتلال، وتدمير القرى، و إدارة الأراضي المحتلة، والاضطهاد والتمييز العنصري. ويتحدث الفصلان الأخيران عن ظاهرتين هزتا أركان الكيان الصهيوني: أولاهما هي شبكة التجسس العربية اليهودية المشتركة التي اكتشفت عام ١٩٧٢، وثانيتهما هي نشوء حركة اليسار اليهودي الجديد "سياح" عام ١٩٧٢ أيضاً، التي كانت أول حركة جماعية تقف في وجه مصادرة الأراضي العربية، مما اضطر الحكم آنذاك لتليين موقفه والتراجع - ولو مؤقتاً - عن قراراته.

هذا القسم من الكتاب يكشف بأسلوب علمي صرف عن مختلف مظاهر النازية اليهودية. وهو سجل لأسماء وتواريخ لا تدحض ولا ترحم، تبرز فيما تبرز، حقيقة النضال الذي خاضه الدكتور شاحاك طيلة سنوات، تمرس فيها بمواجهة السلطات الصهيونية، حتى أصبح مرجعاً يلجأ إليه حتى البدو المقيمون في شمال شرقي سيناء، يوم قرر الإسرائيليون طردهم من أرضهم في منطقة رفح "أيار ١٩٧٥".

وتجدر الإشارة إلى أن نفوذه وتصميمه استطاعا في نتيجة الأمر أن يتيحا له الانتقال في أساليب نضاله، فلم يعد يكتفي بمنشورات محدودة العدد، توزع في الطرقات أو في الجامعات، بل اقتحم بعض الصحف الإسرائيلية، وتسنى له بذلك أن يبسط أبعاد نضاله أمام الرأي العام العالمي، حتى جاء يوم دعي فيه للإدلاء بشهادته أمام الكونغرس الأميركي، بموجب دعوة رسمية، في ٤ نيسان ١٩٧٤، حول وضع الشعب العربي في الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧. وقد خص القسم الرابع والأخير من كتابه، بهذه الشهادة. وهي لا تعدو كونها ملخصاً صارماً لكل ما جاء في كتابه عما يعود إلى تسميته بالنازية.

أما القسم الثالث، فيأتي نتيجة حتمية لموقفه المبدئي الأساسي، فيكشف فيه حقائق ثلاثاً تتناول طبيعة الكيان الصهيوني، وجذور النفسية الصهيونية، على صعيد التربية والمصلحة القومية.

يؤكد شاحاك أن طبيعة الكيان الصهيوني عدوانية توسعية، أفرغت اليهودي من كل ما هو أخلاقي، ومن كل ما هو ديني صرف، وشحنته بغطرسة لا حد لها، تستبيح كل إنسان وكل قيمة وكل شيء. فبات الإسرائيلي فيه يريد التوسع ويتحدث عنه، ويمارسه في الأراضي المحتلة، منفقاً مئات الملايين في إحداث مستعمرات عسكرية، ويدعو علناً إلى احتلال الأردن ولبنان وسورية والعراق والكويت، بحيث أنه يبقى في حالة حرب دائمة، تتيح الفرصة أمام اليهود في إسرائيل وخارجها لإذكاء الشعور القومي فيهم. (الصفحة ٢١-٢٣٣ و٩٦).

أما النفسية الصهيونية فتضرب جذورها في أعماق تربية عنصرية خطيرة، تقوم على المبدأ الأساسي القائل "بتفوق الشعب اليهودي" (ص٢٣٧)، وتستمد أصولها من الكتاب المقدس، وتستند أخلاقياتها إلى شرعية كل ما يخدم مصلحة "الشعب المختار"، حتى لو كان "إبادة شعب بكامله" كما فعل الأجداد قديماً بالكنعانيين. (الصفحات ٢٣٦-٢٤١ وخصوصاً ٢٤١).

ههنا يكمن، في نظر شاحاك، الخطر الأكبر الذي يتربص بالكيان الصهيوني وبالشعب اليهودي بأسره. فقد قام على العنف، وهو ما يزال يمارس العنف ويرفع الآخذين به من صهاينة إلى مرتبة أبطال قوميين، يقدمون للأجيال الإسرائيلية كمثل أعلى يجب التمثل بهم. (الصفحات ٢٦٤ - ٢٦٦). ويقابل ذلك رفض للعنف العربي، لاسيما الفلسطيني، الذي جاء نتيجة للعنف الصهيوني ليس إلا. صحيح أن شاحاك يندد بالعنف أنى كان مصدره، ولكنه لا يني يذكر بأن العنف العربي قام ليرد العنف الصهيوني، وبأنه لن يتوقف طالما أن إسرائيل ماضية في عنفها وتوسعها وإرهابها كدولة، وطالما أن شعوباً عربية بكاملها مهددة في تقدمها بل ووجودها (ص٢٢٥)، لاسيما وأن الشعب الفلسطيني لم يخرج من المحنة التي زجه فيها الصهاينة، ولم يعترف له بحقوقه المشروعة في الأرض والعودة وتقرير المصير (ص٢٥١).

وتأتي الخاتمة لتؤكد بأسطر وجيزة ظاهرة كثيراً ما أشار إليها، وأنذر باستفحالها، منذ السطور الأولى: تلك هي ظاهرة تحول اليهود، داخل

إسرائيل وخارجها، إلى مجتمع نازي، يسير بمنطق ذاتي محتوم، إلى الكارثة. يقول (ص٢٦٧ - ٢٦٨):

"لست أخشى من إقامة مقارنة بين أوضاع إسرائيل، وتلك التي سادت ألمانيا في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين. ولست أخشى من القول بأن اليهود الإسرائيليين -ومعهم معظم اليهود في العالم- قد دخلوا حالياً طور النازية. فإن شعباً يعتبر رجلاً من أمثال "مائير هارزيون" -وهو إرهابي صهيوني كبير ذكره "موشه شاريت" في مذكراته- بطلاً قومياً. إن شعباً كهذا، هل يليق به تسمية غير هذه؟ وهل يسعنا أن نطلق غير هذه التسمية على قوم يعلن بطلهم القومي عن اغتباطه بذبح اليهود و تمتيع ناظريه بمرأى دمائهم تجري؟ أليس النازي "هورست فيزل" هو الذي تحدث عن اللذة التي كانت تستبد به لمرأى الدماء تتفجر تحت سكينه؟... وأنا لا أشير فقط إلى النازيين الحقيقيين الموجودين في صفوفنا -وهم كثرة-، بل أشير إلى الذين لا يستنكرون النازية اليهودية، طالما أنها، في رأيهم، تخدم مصلحة اليهود. وما أفعله الآن، إنما هو القيام بعملٍ ما، قبل أن يفوت الوقت".

قد يجيز لنا اكتشاف مثل هذا الكتاب، وفي مثل هذا الوقت، أن همس في آذان المسؤولين العرب أن يعملوا على شراء ما أمكن من نسخه، وأن يجددوا طبعته الفرنسية، بل أن يعملوا على ترجمتها إلى لغات أخرى، وأن يعمدوا إلى إهدائه للمثقفين والمسؤولين في العالم، ولاسيما أولئك الذين ينوحون ويولولون، في أوربا والقارة الأميركية، على مصير شعب،

كانوا هم جلاديه عبر التاريخ، وقذفوا به فوق ظهورنا وأرضنا، جلاداً يريحهم من عقدة ذنبهم، ويهدد وجودنا برمته.

وما ضرنا، بعد ذلك، إن كان شاحاك ما يزال يؤمن بدولته؟...

أما القارئ العربي، فقد لا يكون بحاجة إلى من يكشف له في كتاب، ما يعيشه منذ سنوات قتلاً وسلباً وتشريداً وتهديداً.

إلا أن الاطلاع على بعض ما جاء فيه لا يخلو من الفائدة، ليذكرنا أقله، بأن الحقيقة في طريقها إلى النور، ومن قلب الظلمة والظلم.

لذا رأينا أن نورد الترجمة الكاملة للفقرة الأولى من الفصل الثاني (ص٥٥ – ٦٨) التي يعرّف فيها الكاتب "دولته اليهودية". يقول:

إسرائيل اليوم...

"إن معظم ما يكتب عن إسرائيل وأهم ما يقال بصددها، خارج حدودها، يشكو من نقص أساسي، فكله يجهل أن إسرائيل ليست – لا من حيث المبدأ ولا من حيث الواقع – دولة إسرائيلية، ولا دولة للإسرائيليين. بل هي دولة يهودية.

"ماذا يعني هذا عملياً؟...

"لنبدأ بالإحصائيات الرسمية: إن دولة إسرائيل تنشر كل عام "دليل إسرائيل الإحصائي". ويكاد يكون من المستحيل العثور في الدليل كله، على إحصائيات تتعلق بالإسرائيليين. فليس ثمة إلا إحصائيات تتعلق باليهود

وبغير اليهود. من ذلك مثلا، أنه لا يوجد في إسرائيل إحصائيات حول نسبة وفيات الأشخاص، بل هناك فقط إحصائيات حول وفيات "اليهود" و "غير اليهود". وعندما تجري إسرائيل مثلا تحقيقاً رسمياً بشأن وفيات الأطفال داخل حدودها، فإنها لا تجري التحقيق حول وفيات الأطفال الإسرائيليين، إذ إنه ليس في إسرائيل رسمياً وجود لأي طفل "إسرائيلي"، فهناك رضّع يهود، ورضّع غير يهود. إلا أنه لا يتم جمعهم أبداً إحصائياً. وإذا حدث ذلك في بعض الحالات، فلا يُدرجون تحت تسمية "إسرائيليين"، بل تحت تسمية "المجموع"، وكأني بالجمع يتناول أنواعاً مختلفة.

"في إسرائيل لا وجود لإسرائيليين، بل الحيوانات والنباتات نفسها تقسم بين يهودية وغير يهودية. فإن دولة إسرائيل تحصي وتصنف رسمياً الأبقار والخراف، والبندورة أو القمح، على أنها "يهودية" أو "غير يهودية". وإن التعريف الأقرب إلى الواقع لدولة إسرائيل، بوصفها دولة يهودية، يبدو وكأنه يضعنا بإزاء دولة لا تحصى فيها البندورة على أنها يهودية أو غير يهودية وحسب، بل تعتبر غايتها القصوى في تسهيل مثل هذا التصنيف الذي يبدأ بالبشر وينتهي بالبندورة، بصورة مطلقة ونهائية.

"إلا أن الإحصائيات تعكس وجهاً من وجوه الواقع. فما هو الواقع الذي تعبر عنه هذه الإحصائيات، في ما يتعلق بهذه الفئة المحددة بوصفها "غير يهودية" داخل الدولة اليهودية؟... ما الذي تشعر به؟... مم تعاني؟... ما مصيرها؟... "بادئ ذي بدء، وكما هي حال كل أقلية

مضطهدة، أين يؤذن لغير اليهود بالعيش داخل الدولة اليهودية؟... الجواب عن هذا السؤال هو أنهم بكل بساطة وصراحة لا يتمتعون بحق العيش في معظم الأماكن. فإن الدولة تملك القسم الأكبر من الأراضي، وقد أخضعتها لأنظمة تحظّر على غير اليهودي أن يعيش فيها. فهي حظرت عليه أن يبني فيها بيتاً، وحظرت عليه أن يستأجر مسكناً، وحظرت عليه أن يمارس فيها عملاً. باختصار حظرت عليه أن يعيش فيها. إن فظاعة هذا الأمر تكمن في أن معظم الأراضي التي تخضع لمثل هذه القوانين العنصرية تعود ملكيتها لهؤلاء الفلسطينيين أنفسهم الذين يعرفون رسمياً في إسرائيل بأنهم غير يهود، وقد انتزعت منهم. فهم بذلك يحرمون، حتى بوصفهم مواطنين في "الدولة اليهودية"، من حق التمتع بأراض "دولتهم". ففي إسرائيل مثلاً مدن بكاملها - كالكرمل والناصرة العليا(١)، وهاتزور وآراد وميتزبه رامون وغيرها يحظر القانون بصورة قاطعة على غير اليهود السكنى فيها. وحيثما تكون معظم الأراضي ملكية خاصة، كما هي الحال في القدس وتل أبيب وحيفا، فإن "الدولة اليهودية" تصنع ما تستطيع إليه سبيلاً، وتشيد أحياء متميزة، لا يجيز القانون لغير اليهود الإقامة فيها.

"إن أبرز مثال على ذلك هو مدينة القدس "الموحدة". فإن العديد من الأراضي قد صودر منذ "توحيدها" عام ١٩٦٧، وهي تكاد تكون بمجملها ملكاً للفلسطينيين. وقد بنت عليها الدولة أحياء جديدة

---

(١)- الناصرة العليا، مدينة بكاملها يهودية قامت بجوار الناصرة العربية. (الكاتب)

و"مجمعات سكنية ضخمة". هل هذه الأحياء مخصصة لسكن كائنات بشرية؟... هل هي مقتصرة على سكان القدس "الموحدة"؟... كلا. بل هي مخصصة بصورة رسمية وقانونية لليهود، ولليهود دون سواهم. فإنه يجوز لأحد سكان القدس ولأحد المواطنين الإسرائيليين، إن كان غير يهودي، أن يكون عضواً في الكنيست وضابطاً في الشرطة أو جندياً، ولكنه يستحيل عليه أن يقيم في حي رامة أشكول[1].

"على النقيض من ذلك، فإن القانون يجيز لمواطن فرنسي قادم من باريس إلى القدس، بعد أن يقدم الدليل على أن أمه يهودية، أو جدته، أو أم جدته أو جدة جدته، أو بعد أن يعلن اعتناقه اليهودية بحضور حاخام رسمي، ليس فقط أن يقيم في حي رامة أشكول، بل أن يحصل على قرض كبير، وعلى إعفاء من الرسوم الجمركية وضريبة الدخل طيلة سنوات، وأن يحصل على مساعدات مادية أخرى، يبلغ مجموعها ثروة هائلة. من البديهي أن ذلك يتم تحت سمع وبصر "غير اليهود" العائشين هناك، كمواطنين في الدولة اليهودية "الديمقراطية". وبوسعنا أن نقدم مثل هذه الأمثلة على جميع نواحي الحياة في إسرائيل، التي نستطيع أن نلخصها بمبدأ بسيط هو التالي: **في الدولة اليهودية، اليهود وحدهم يعتبرون كائنات بشرية، بينما يعتبر غير اليهود بمثابة حيوانات، حيوانات أحياناً مفيدة، وأحياناً ضارة، بل خطيرة.**

---

(١)- رامة أشكول، مجمع جديد من "المجمعات الكبيرة" التي بنيت على الأراضي العربية التي صودرت في الجانب الشرقي من القدس العربية. (الكاتب)

"بعضهم يعتقد بأنه لا يجوز التصرف بقسوة حيال الحيوانات وغير اليهود، فيما غيرهم يرى أن الأمر لا يستحق الاكتراث. إلا أن أي إنسان يؤمن بمبدأ الدولة اليهودية يوافق أيضاً على أن غير اليهودي في الدولة اليهودية ليس بإنسان (أي أنه ليس "غاية في ذاته" بحسب تعريف كانت)، **إنما هو مجرد وظيفة من وظائف المصلحة اليهودية.**

"لذا نجد في إسرائيل لغة عبرية ذات مفاهيم مزدوجة، منها ما ينطبق على اليهود، ومنها ما ينطبق على غير اليهود: ومن هذه المفاهيم ما يصعب ترجمته في اللغات الأخرى. فاليهود وحدهم، مثلاً "يستقرون" – الكلمة العبرية لها دلالات إيجابية. ومن ذلك أن حكومة الدولة اليهودية بررت أن "تهوّد" الجليل – أي أن تصادر، بشكل أو بآخر، أراضٍ يملكها غير اليهود، لكي تبرز على نحو أوضح الطابع اليهودي للمنطقة. والأرض في إسرائيل لا تعتبر "قومية" إذا كانت إسرائيلية، بل إذا كانت "يهودية". فإن الأراضي التي يملكها غير اليهود تعتبر أراض لم يتحقق "خلاصها" بعد. وأن هذا "الخلاص" يتم بنقلها إلى أيد يهودية.

"على هذا الصعيد، تجدر الملاحظة بأنه ليس ثمة فارق بين اليمين واليسار، أو بالأحرى بين اليمين و"اليسار" الصهيوني.

"فاليسار الصهيوني أيّد دوماً جميع المبادئ العنصرية التي ذكرناها. وإن جميع "الاشتراكيين" الصهاينة ينادون بالنظرية القائلة بأن الأرض يتم "خلاصها" عندما تنتقل ملكيتها من أيد غير يهودية إلى أيد يهودية.

"أما إذا انتقلت ملكية هذه الأرض إلى رأسمالي يهودي أو عامل يهودي، فأمر لا يقدم ولا يؤخر في عملية "الخلاص". وكذلك ليس بذي بال أن يتم "خلاص" الأرض من يد غير يهودية وتنقل إلى يد يهودية.

"من الضروري أن نتذكر أن العملية من حيث المبدأ لا تتوقف عند أي أحد. وفي هذا المعنى، فإن النظرية الصهيونية - وهي نظرية الدولة اليهودية - تختلف سلباً عما أنزل بسكان أميركا الحمر، أو بما أنزل بزنوج إفريقيا الجنوبية. ففي الولايات المتحدة وإفريقيا الجنوبية، أقيمت مجمعات خاصة بالسكان الأصليين. أما النظرية الصهيونية، فهي لا تكتفي بإعلان قصدها بصراحة، بل تبذل كل ما بوسعها، لكي تستولي على كل شيء، وتغتصب آخر شبر من الأرض يملكه غير اليهود. فحتى هذه الساعة، يجوب عملاء الحكومة الإسرائيلية ومبعوثو المنظمة الصهيونية القرى الفلسطينية في إسرائيل، بما فيها القرى التي صودرت معظم الأراضي فيها لصالح الاستيطان ("الاستقرار") اليهودي، ويمارسون شتى أنواع الضغط - بالتعاون طبعاً مع البوليس السري وجميع أجهزة السلطة- على الفلاحين، لكي يحصلوا على الأرض أو يستبدلوها أو يشتروها. وبكلمة واحدة، لكي "يخلّصوا" الأراضي التي يمتلكها غير اليهود. وحتى هذه الساعة يُلقَّن الأطفال في دور الحضانة والمدارس أن الأراضي تنتظر "خلاصها". أما إن تم "خلاص" هذه الأراضي من أيدي "إسرائيليّين" (أي مواطنين في دولة إسرائيل) فهذا لا يبدل شيئاً في الأمر. بل هو يبرهن مرة أخرى على أنه ليس ثمة "إسرائيليون" في إسرائيل.

"إن هذا الوضع، الذي يمثل اكتمال التطلعات الحقيقية المشتركة لمجمل الحركة الصهيونية منذ ظهورها، وقد عرّفه بوضوح ما بعده وضوح الأستاذ "بنزيون دينور"، وقد شغل منصب أوّل وزير للتربية في دولة إسرائيل، وهو مؤرخ ومثقف، وصديق لدافيد بن غوريون - في المقدمة التي خص بها كتاب "تاريخ الهاغانة"[(١)] الذي نشرته "المكتبة الصهيونية" التابعة للمنظمة الصهيونية العالمية ولجيش الدفاع الإسرائيلي[(٢)] (منشورات "معارخوث" سنة ١٩٥٤). فهو يقول أن الهاغانا نشأت لأنه ليس بالأمر الكافي أن تكون الصناعة المحلية كلها ولا الصناعة برمتها، أو أقله معظمها، في أيدي اليهود (بل يتوجب على اليهود أن يجيدوا صناعة السلاح، لكي يعلنوا على الملأ أنهم أسياد وطنهم القديم). فنحن في الوقت الحاضر نتحدث عن الاستيطان، وعنه فقط، ذلك هو هدفنا على المدى القريب، ولا نتحدث إلا عنه. ولكنه من الواضح أن إنكلترا للإنكليز، ومصر للمصريين، واليهودية لليهود. وليس ثمة من مكان في بلدنا إلا لليهود. سوف نقول للعرب:

"تنحوا". فإن لم يوافقوا أو قاوموا، فسننحّيهم بالقوة. سنضربهم، سنركلهم على أردافهم، ونرغمهم على الرحيل.

---

(١)- الهاغانا، تعني الدفاع، وهي المنظمة الإرهابية التي كانت نواة الجيش الإسرائيلي (المترجم).

(٢)- جيش الدفاع الإسرائيلي، تسمية تغطي بها دولة العدوان وجودها العدواني، لتظهر بمظهر المدافع عن حق ما (المترجم).

"إلا أن هذا الأستاذ المثقف يضيف أنه لا بد أحياناً من اللجوء إلى الصمت وإخفاء الأهداف الأخيرة، "فالقلب لا يتعرى أمام الفم"، بل ينصهر مع أهدافه بكل اندفاعه وقوته (ص٥-٦).

"تجدر الملاحظة بأن هذه التصريحات (وبوسعنا أن نورد العديد من أمثالها) تنشر رسمياً في إسرائيل دون أن تثير أي نقاش، لا في داخل الجهاز الحاكم، ولا في صفوف الصهاينة في الخارج. وفي حقيقة الأمر، فإن مثل هذه التأكيدات، ومثلها الإحصاءات الرسمية المنشورة في إسرائيل، تبدو طبيعية جداً في نظر هؤلاء الناس. فليس ثمة من نقاش إلا حول معرفة الضرر الذي قد يلحقه نشرها بما يسمى المصلحة اليهودية، أي بإثارة العقبات في وجه المظالم الحالة بغير اليهود. وفي هذه الحالة يتم اللجوء فوراً إلى عبارات "الديمقراطية" و"الإسرائيليين" و "المواطنين"، وإنما فقط بقصد الاستهلاك الخارجي. وأما داخل إسرائيل، فإن التصريحات التي أوردت، تدرس في المعاهد التربوية والعسكرية دون أن تثير أي جدل. وإنه ليبدو طبيعياً في الدولة اليهودية أن يكون هدف الدولة أن تقول للعرب: (تنحّوا). وعلى أي حال، فهل "خلاص" الأرض إلا هذا الأمر بالذات؟... وإنه ليبدو أيضاً طبيعياً، (طالما أن العرب لا يريدون أن يتنحوا)، أن يؤخذ بالعصا ويضربوا حيث يتوجب ضربهم. (هل من تصرف غير هذا حيال كلب أو حمار عنيد؟... وهل يعتبر العرب حيوانات في الدولة اليهودية؟). والأسئلة الوحيدة المطروحة هي: متى يجب استعمال العصا؟... كم من العصي يمكن شراؤها أو تلقيها؟... ثم ألا يخشى أن تكسر العصا أو أن ينهض الكلب؟... أعرف تماماً أن هذه

المعلومات من شأنها أن تبدو غريبة وشبه مستحيلة للقارئ الفرنسي عام ١٩٧٥.

"سأقول بهذا الصدد شيئين: أولاً أن هذه الأمور كانت تبدو لي، لفترة مضت، طبيعية تماماً. فقد كنت صهيونياً آنذاك، أعتقد بما يعتقد به الأستاذ "دينور". وعندما قرأت هذه الأسطر لأول مرة، بعيد نشرها، بدت لي ليس فقط طبيعية وصحيحة، بل أيضاً بديهية ومنطقية. ثانياً، يتحتّم على القارئ الفرنسي، كي يدرك مفهوم الدولة اليهودية وحقيقتها، أن ينسى للحظة فرنسا ما بعد ١٧٨٩، أن ينسى "الحرية والمساواة والأخوة"، وأن ينسى مفاهيم "المواطن" و"المواطنة"، ويعود بالفكر إلى الحكم الذي سبق الثورة، ولا سيما إلى وضع أولئك الذين لم يكونوا ليدينوا بالكثلكة آنذاك.

"يومها لم يكن ليسمح ليهودي بسكنى باريس (باستثناء اليهود الحائزين على "امتياز ملكي"). ولكن ما إن كان يقصد كاهناً كاثوليكياً، ويعلن عن إيمانه بيسوع المسيح، وبطبيعته المزدوجة الإلهية والإنسانية، وبكل المبادئ والعقائد الكاثوليكية، حتى يؤذن له، بهذا الشرط فقط، بالإقامة فيها. وبالطريقة نفسها، إن قصد اليوم كاثوليكي فرنسي أحد الحاخامين، وأنكر أمامه إيمانه بيسوع المسيح وبمبادئ المعتقد الكاثوليكي وأبدى استعداده للإيمان بكل ما يأمره الحاخام بالإيمان به، عندها، للحظته، وبهذا الشرط فقط، يحصل بحكم القانون على السكنى في حي رامة أشكول و الناصرة العليا.

"إن تطلع دولة إسرائيل الرسمي إلى تحقيق "خلاص" جميع الأراضي، شبيه بتطلع الحكم الفرنسي القديم إلى تبني جميع الفرنسيين المعتقد الكاثوليكي. وقد تثار بعض التساؤلات هنا وهناك، حول الفرصة المتاحة أو الوسائل. أكان يجب إلغاء مرسوم "نانت"[1] أو تحديد تفسيره؟.... هل بوسع السياسة الخارجية أن تؤثر بصورة دائمة أو مؤقتة على الوضع الداخلي؟... هل ينبغي اللجوء إلى طريقة الرشوة، أم ترى القسوة أكثر نجاعة؟.. ولكن ما كان الجدل ليثار -أقله لدى الكاثوليك- حول المبدأ القائل بأنه يتوجب على الفرنسيين أن يكونوا كلهم كاثوليك.

"ولقد تحالف اليسوعيون والقائلون بالجانسينية ضد البروتستانت. وكذلك فإن الصهاينة "الاشتراكيين" والبروجوازيين يتفقون اتفاقاً مطلقاً بشأن "خلاص" الأراضي.

"إن هذا التشابه يفسر أيضاً ما تبذله "الدولة اليهودية" من مجهود لهداية غير اليهود إلى المعتقد اليهودي. وهي تبذل في هذا المنحى جهوداً لا تضاهيها إلا جهود لويس الرابع عشر في حمل البروتستانت على اعتناق الكثلثة. فالأسباب متشابهة، وكذلك الخوف الهستيري من اعتناق اليهود ديانة أخرى. فإن الضغوط التي تمارس في إسرائيل -بدءاً بدور الحضانة والمدرسين ومروراً بالمخاتير ومدراء المدارس وكل الوجوه البارزة، وانتهاء

---

(١)- مرسوم نانت، مرسوم ملكي أصدره ملك فرنسا هنري الرابع عام ١٥٩٨، يحدد فيه شروط وجود البروتستانت في فرنسا. (المترجم)

بضباط الجيش- ضد غير اليهود (ولا سيما المسيحيين) بقصد حملهم على اعتناق اليهودية، تذكر بفرنسا القرن السابع عشر، وإلى حد ما بألمانيا لأربعين سنة خلت. وإن المسيحيين أنفسهم في حالة بالغة الصعوبة، لأنهم غير مطهَّرين، ويسهل بالتالي اكتشافهم. وفي اللحظة التي يتم اكتشاف هذا الأمر، يأخذ الجمهور - من أطفال أو جنود - بالصراخ: غريب (أي غير يهودي)، تماماً كما كان جمهور آخر يصرخ: "يهودي"، دون أن يكتفي بالصراخ... أما موقف السلطات فلا يكاد يتغير: فهي ليس فقط لا تربي الجمهور، بل تستغل هيجانه لتقنع العائلة باعتناق اليهودية "من أجل مصلحتها ومصلحة الأطفال.. ففي دولة يهودية، يجب أن يكون الإنسان يهودياً".. في إسرائيل يحدث هذا الضغط في العديد من الحالات، كما حدث في فرنسا، بعد إلغاء مرسوم "نانت". وفي كلا الطرفين، يكفي التقيد بالشكل والطقس.

"أما الإيمان والقناعة، فليسا ضروريين، لا هنا ولا هناك. وفي كلا الظرفين، كما هي الحال في الأنظمة الديكتاتورية، المهم هو كبت الحرية الفكرية، وإرغام الإنسان على ممارسة الكذب علناً، وعلى القول بمعتقدات لا يؤمن بها، لا لشيء إلا لأن الدولة تأمره بذلك. وأما الضحية الطائعة، فهي تحصل، لقاء تنازلها عن حريتها الفكرية، على أموال، أحياناً طائلة، من السلطات القائمة.

"وإن هذا الأمر ليفسر الأهمية العظمى التي تتسم بها في إسرائيل مشكلة تحديد (هوية اليهودي). ليست المشكلة مشكلة لاهوتية وحسب.

فهي تطرح قضية الحقوق - سواء منها الحقوق المادية الأولية، كحق الحصول على قرض، أو مسكن بسعر محدود، أو السكن في هذا المكان أو ذاك، أو الحق الأساسي في أن يكون الإنسان إنساناً بكل ما في الكلمة من معنى، ليس فقط في حياته، بل بعد مماته أيضاً. ففي الدولة اليهودية، ليس إلا للمقابر اليهودية من الحرمة ما يحول دون تدميرها. أما المقابر الأخرى، فليس ما يحول دون تخريبها. فإن فندق الهيلتون مثلاً في تل أبيب قد شُيّد في موقع المقبرة القديمة، وكانت آية فنية. وحديقة الاستقلال في القدس تحتل في قسمها الأكبر موقع المقبرة الإسلامية القديمة، التي يعود عهدها إلى القرن الثالث عشر. كما أن مدينة "يميث" الجديدة، في شمال سيناء، قد شيد معظمها على أرض مقبرة البدو الذين أجلوا عنها. وإن غالبية القرى الفلسطينية التي دمرت سنة ١٩٨٤، قد أزيلت مقابرها بالكلية.

"لهذه الأسباب عينها، أمر لويس الرابع عشر بتدمير مقبرة بور روايال. وللأسباب عينها فرض لويس الخامس عشر على المحتضرين أن يعترفوا بصحة المرسوم البابوي "أونيجينيتوس"(١)، وعلى وجه التحديد بحضور كاهن، وإلا حرموا من مراسيم الدفن، في حين أنه لم يكن يحق القيام بمراسيم الدفن إلا للكهنة الذين اعترفوا بها.

---

(١)- مرسوم بابوي صدر عام ١٧١٣، استصدره لويس الرابع عشر من بابا روما ضد مذهب الجانسينية، وقد حاول فرضه على الكنيسة الفرنسية برمتها. (المترجم).

"إن الظواهر المتشابهة تحدث نتائج متشابهة. وإن الدولة اليهودية تتساوى في طبيعتها مع ملكية ملوك فرنسا المسيحيين جداً.

"أما النتائج التاريخية لمثل هذه الأحوال، فإنها واضحة، وهي واقعة حتماً، إن عاجلاً أو آجلاً. فسجن الباستيل محكوم عليه بالسقوط، ذلك بأن نظاماً يقوم على مثل تلك الأسس، يتوجب عليه أن يزداد تشنجاً وأن يضيق قبضته، في الوقت الذي يستبدّ به غباء متفاقم. وتبقى قضية معرفة عدد السجناء الموجودين في الباستيل في فترة ما، خالية من أي أهمية. فالمهم هو أنه بوسع السلطة أن تزج فيه من تشاء ومتى تشاء. والنظام القديم لا يمكنه أن يتخلى تلقائياً عن الباستيل: وبالطريقة نفسها لم تتخل الدولة اليهودية، ولن تتخلى عن "القوانين الاستثنائية" الصادرة عام ١٩٤٥، التي تجيز، مَثَلُها مَثَلُ رسائل الملوك سابقاً، إرسال أي إنسان إلى السجن، دونما سبب ودونما حدود (علماً بأن هذه القوانين لا تطبق إلا على غير اليهود).

"إن القضية بالنسبة إليّ مزدوجة: فهي أولاً تفسر الوضع القائم. إن التفسير والجدل يساهمان في وضع حد للنظام السابق، وفي إرساء نظام جديد سوف يكون، على سيئاته الممكنة، خيراً منه: سيعترف على الأقل بأن البشر هم بشر، وبأن الحرية حق من حقوق، لا الكاثوليكي أو اليهودي فحسب، بل الإنسان.

"وقد يسألنا الفرنسيون الآن: "ماذا تريدون منـــا؟... فـــالأمر أولاً وأخيراً يتعلق بكم، وليس بنا. فالباستيل، في نهاية الأمر باستيلكم، وليست

باستيلنا.. ويتوجب عليكم أنتم أن تدمروها"... لماذا إذن نتوجه بالكتابة إلى الفرنسيين؟... **ذلك بأن القضية ليست قضيتنا وحسب. فهي أيضاً، لا نظرياً، بل بصورة عملية جداً – قضيتكم أيضاً وقضية العالم بأسره.** وكما كان سقوط باستيلكم انتصاراً للحرية في العالم كله، كذلك فإن سقوط باستيلنا وإنشاء نظام يصبو على الأقل إلى "الحرية والمساواة والأخوة"، سيشكل بالنسبة إليكم أيضاً انتصاراً للحرية. فالحرية كالعنصرية، مُعدِية. ولقد كان أبراهام لنكولن على حق عندما قال عام ١٨٦٠، إن الأمة الأمريكية لا يمكنها أن تبقى طويلاً، نصفها من الأحرار ونصفها من الرقيق، وإنه لا يسعها إلا أن تصبح بالكلية حرة أو تتحول بالكلية إلى مجتمع رقيق. **وما كان يصح قوله عام ١٨٦٠ عن الولايات المتحدة، يصح أيضاً قوله اليوم عن العالم كله.** فإن كان لا يجوز اليوم، في القدس، للناس المؤمنين ولغير المؤمنين، أن يسكنوا حيث يشاؤون، فسيأتي يوم يلغى فيه هذا الحق في باريس بالذات، ويسأل الإنسان في باريس عن معتقداته، قبل أن يؤذن له بالسكن في مكان ما. وما يدرينا، فقد يرتد هذا التمييز مرة أخرى على اليهود أنفسهم، وبعنف ما بعده عنف.. **فهل تكون "الدولة اليهودية" تمهيداً لعودة اليهود إلى ما خضعوا له من تمييز في العهود السابقة؟ وهل سيترل بهم في المستقبل في أوروبا ما ينزلونه هم بالفلسطينيين في إسرائيل والأراضي المحتلة؟** وفي هذه الحالة أيضاً، يبقى صحيحاً المثل القديم القائل بأنه "**يستحيل على شعب يظلم غيره، أن يكون شعباً حراً**". وإن كنتم ترغبون في الحفاظ طويلاً على قسط من

الليبرالية والحرية، والاحتفاظ بتراث ثورة ١٧٨٩، يتوجب عليكم أن تساندوا نضالي ونضال رفاقي هنا من أجل المبادئ نفسها.

"ثم إنكم، من ناحية ثانية، تساهمون بوصفكم مواطنين فرنسيين، في الإبقاء على نظام الظلم الذي تمارسه الدولة اليهودية. فإن الأموال التي تستعمل في "خلاص" الأراضي، يأتي قسم منها من بلادكم، حيث تعتبر هذه المساهمات "أعمالاً خيرية"، وهي، تبعاً لذلك لا تخضع لضريبة الدخل. أنا ليبرالي، وإذن أنادي بحق كل فرد في استخدام ماله بالطريقة التي يشاؤها. وأنا يهودي، ولقد قاسيت في عهد هتلر. وإني لأدافع عن حق أي إنسان في أي مكان، في دعم الحركة النازية بالمال. ولكني أرفض أن تكون الدولة التي يعيش فيها، هي التي تساعده على القيام بذلك. فإن كان في فرنسا قوم يريدون أن يسخوا بأموالهم من أجل الإبقاء هنا على الظلم والتمييز والعنصرية، ومن أجل دعم الدولة اليهودية وهي تأمر العرب أن "تنحوا من هنا"، فهذا في اعتقادي من حقهم. أما إن أقرت الدولة الفرنسية لهذه المساهمات بصفة الأعمال الخيرية، وأعفتها من ضريبة الدخل، ورطت بذلك جميع المواطنين الفرنسيين في الظلم والتمييز السائدين هنا. عندها يصبح الأمر لا يطاق. وعندها يعود لي ملء الحق في مطالبة المواطنين الفرنسيين ودولتهم بالكف عن المساعدة في بناء أو تدعيم أسوار باستيلنا.

"أخيراً، أختم بما قد يكون أهم من ذلك: إن عرفتم الحقائق، وإن خرجتم من سجن الأفكار المسبقة والأكاذيب التي يبدو لي أن معظمكم ما يزال يأخذ بها، تسدون لأنفسكم خدمة جلى بوصفكم كائنات بشرية.

فإن حياة تخلو من النقد، ويستسلم فيها الإنسان للأفكار السائدة دون أن يضعها على المحك، ليست جديرة بكرامة الإنسان. وإن الوضع الذي يستبد بغالبية الجمهور الأوروبي، ذلك الوضع الذي يخشى فيه أن يطرح الأسئلة، ويوضح المشكلات وينقد كل ما يتعلق بالدولة اليهودية، لهو وضع يلحق الضرر بهذا الجمهور نفسه. **وأما إن خضتم غمار نقاش حر وعقلي، وتصديتم بالسؤال للقضايا الأساسية، وأقمتم مقارنات بين الأوضاع، وفكرتم بطريقة مستقلة ومنطقية، وأشرتم علينا وعلى العالم كله بالاستمرار في الدرب الذي فتحتموه عام ١٧٨٩، درب الحرية، عندها تكونون قد ساعدتم أنفسكم، وساعدتمونا وساعدتم أيضاً البشرية بأسرها على التقدم خطوة إلى الأمام".**

III- إسرائيل والمقدسات المسيحية والإسلامية

الأماكن المقدسة المسيحية(*)

عرف تاريخ الأماكن المقدسة المسيحية، منذ ألفي عام إلى اليوم، أربع مراحل واضحة المعالم:

في الأولى، وتمتد من بداية القرن الأول إلى بداية القرن السابع، واجه اليهودية، فكانت مرحلة التألق ثم التمزق، المسيحي الصرف.

في الثانية، وتمتد من بداية القرن السابع إلى بداية القرن السادس عشر، واجه الإسلام، فكانت مرحلة تفاقم التمزق المسيحي الشرقي، والغزو العسكري الغربي.

في الثالثة، وتمتد من بداية القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين، واجه الاستعمار التركي فكانت مرحلة الانكماش المسيحي الشرقي، والتدخل السياسي الغربي.

في الرابعة، وقد بدأت في مطلع القرن العشرين، ولما تنته، يواجه اليهودية من جديد متمثلة بالصهيونية، وقد تكون مرحلة الاندثار...

(*)- **هذا المقال طلب للموسوعة الفلسطينية في شهر أيلول/ سبتمبر ١٩٨٢**

هذه المراحل الأربع، شئتها، على ما فيها من فجوات، أقسام بحثي. ولسوف استعرضها بخطوطها العريضة، معتمداً المحطات التاريخية الكبرى، وما يرافقها من أسماء حاسمة، وأحداث بارزة، أسباباً ونتائج.

أولاً: مرحلة المواجهة مع اليهودية:

١- من الثابت أن المسيحية تلمست دربها بصعوبة، إلى أن حققت انسلاخها عن اليهودية، على صعيد العقيدة والفرائض والطقوس معاً. وقد استغرق ذلك ردحاً من الزمن، حتى إن اليهود أنفسهم، عندما ثاروا على الرومان، عام ٦٦، أخذوا على اتباع "البدعة الجديدة" - وقد واجهوها بمقاومة عنيفة، بل دموية - تخلّيهم عنهم ونزوحهم عن القدس العاصمة، عام ٦٨، إلى مدينة في الشمال تدعى "بيلا"، يصحبهم أسقفهم سمعان. وفيما كان أتباع يسوع يرون في ما حدث وما سيحدث حتى عام ٧٠، من إحراق للهيكل، ودمار للقدس، تحقيقاً لنبوءة أطلقها يسوع قبيل آلامه، حيال المدينة "قاتلة الأنبياء"، كان اليهود يتهمونهم بالخيانة والهروب.

٢- وعندما قامت ثورة عام ١٣٢، بدءاً من القدس، بقيادة بن الكوكب، ظل المسيحيون، ومعظمهم لا يزال في مدينة بيلا، على الحياد. ولم يتسن للرومان إخمادها إلا بعد ثلاث سنوات من قتال وحشي. فقرروا عندها إزالة كل أثر لليهود، لا في القدس وحسب، ولكن في فلسطين أيضاً. ومنذ ذلك الحين حلّ الشتات باليهود. أما

القدس، فدمرها الرومان تدميراً تاماً، وبنوا مكانها مدينة أخرى أسموها "ايليا كابيتولينا"، تيمنّاً باسم قاهرها الإمبراطور ايليوس أدريانوس. وإمعاناً في التحدي والتشفي، أقاموا في المدينة الجديدة، حيث بدا لهم أنها أهم معالمها الدينية، بعد الهيكل المدمر طبعاً، معبدين، الأول لإله الآلهة جوبيتر، والثاني لزوجته جونون، ورفيقتها إلهة الحب فينوس. ولم يكن هذان المكانان سوى...قبر المسيح، والجلجلة حيث صلب. ثمة معبد ثالث أقيم للإله أدونيس، في مكان آخر يليهما في الأهمية، هو...مغارة بيت لحم...!

٣- تلك كانت أبرز المعالم المسيحية، وقد شهدت أهم وقائع حياة المسيح، فظنها الرومان يهودية.وثبّتوا بذلك مواقعها بحيث لا تترك صحتها مجالاً لأي شك. وكان العديد من شهود العيان الأوائل يزورونها، فكتبوا عنها وعن سواها، مما تناقله الرواة والشهود عن مواقع أخرى شهدت بعضاً من حياة المسيح، منها بركة "بيت حِسدا"، وبستان النزاع في الجتسمانية، والعلية (مكان العشاء الأخير وحلول الروح القدس على التلاميذ)، ومكان صعوده إلى السماء من قمة جبل الزيتون. وكان أبرز من كتب عنها مفكران دافع كلاهما عن المسيحية، الأول في وجه اليهودية، وهو جوستينوس النابلسي (١٠٠-١٦٦)، والثاني في وجه الوثنية، وهو أوريجانس الاسكندري (١٨٥-٢٥٥).

٤- وحدث الإنعطاف الكبير ما بين عام ٣١٢، الذي أصدر فيه الإمبراطور قسطنطين إعلان ميلانو الشهير، وعام ٣٢٥، حيث انعقد مجمع نيقيا بالقرب من القسطنطينية. فكان أسقف القدس مكاريوس حاضراً آنذاك، ورثى لحال مدينته، وهي "أم الكنائس". فكان أن أمر الإمبراطور بالكشف عن معالم القبر والجلجلة والمهد. وأشرفت أمه هيلانة بنفسها على الأعمال. فأزيلت المعابد السابقة، واكتشف القبر المحفور في الصخر، كما عثر على خشبة الصليب المقدس بجواره، وأبرزت مغارة بيت لحم للعيان. وبوشر بإنشاء ثلاث كنائس ضخمة، تضم الأولى الجلجلة والقبر المقدس، وقد دشنت في ١٤ أيلول عام ٣٣٥، وتحتضن الثانية غار جبل الزيتون، الذي يقال إن المسيح علّم فيه تلاميذه صلاة "أبانا"، وسميت "كنيسة إيلونا" نسبة إلى شجر الزيتون هناك. وأقيمت الثالثة فوق مغارة بيت لحم.وكانت الثلاث غاية في الإبداع. ولم يكتب إلا للثالثة البقاء، مع احتفاظها بآثار العبث والتراكم اللذين لحقا بها منذ ذلك الحين.

٥- وتواصل عمل البناء، فشمل المزيد من الكنائس وأنشئت أديرة للرهبان والراهبات، وفنادق للحجيج.وقد تم كل ذلك تارة بمبادرة من بعض الأباطرة، أمثال "تيودوسيوس" (٣٤٧-٣٩٥) و"أفدوكيا" (٤٠٠_٤٦٠)، و"جوستينيانوس" (٤٨٣-٥٦٥) وطوراً بفعل الأساقفة والبطاركة أو الأثرياء الأتقياء. وكانت

حصيلة هذه الحركة العمرانية ما لا يقل عن ثلاثمائة دير وكنيسة في القدس وحدها، في أواخر القرن السادس.

٦- ترافق كل ذلك بحركة حج عظيمة، حتى أن المؤرخ "أوسابيوس" يؤكد بأن "الحج إلى القدس وبيت لحم من كل أنحاء العالم، اتخذ قوة عرف راسخ". فكانوا يتوافدون إليها من شمال إفريقيا وبلاد الغال وبريطانيا وإيطاليا وآسيا الصغرى وأرمينيا وبلاد فارس وسورية وفلسطين. فيهم الأساقفة أمثال هيلاريون الغزاوي وباسيليوس الكبير ويوحنا الأنطاكي الملقب بالذهبي الفم، وفيهم الناسك كسمعان العمودي وايرونيموس، وفيهم الإمبراطور يأتي متخفياً كما فعل تيودوسيوس عام ٣٨٦، أو مُحْتفياً كما فعلت هيلانة عام ٣٢٦ وأفدوكيا عام ٤٣٧.

٧- والعديد من هؤلاء كتب ما شاهد. إلا أن أبرز ما وصلنا ثلاثة مؤلفات، يعود أولها إلى عام ٣٣٣ ولا يعرف كاتبه، وهو بعنوان "رحلة من بوردو ـــ بفرنسا الحالية ـــ إلى القدس". ويعود ثانيها لحاجّة اسبانية ثريّة تعرف باسم "ايتيريا". زارت القدس ما بين عامي ٣٩٣-٣٩٦، ونشرت مذكراتها تحت عنوان "رحلة ايتيريا". أما ثالثها فيعود إلى عام ٥٧٠، ويحمل عنوان "رحلة انطونان من بليرانس". ولقد أجمعت كلها على خصائص التبدل الذي طرأ على الحياة في فلسطين عامة، والقدس وبيت لحم خاصةً، وعلى المركز الفريد الذي احتلته الأماكن المقدسة في المسيحية قاطبةً.

٨- لم يكن اهتمام المسيحيين بالقدس ليقتصر على الجوانب المعمارية والمالية و الطقسية، ولكنه تعداها إلى مجال آخر، ذلك بأن المجمع المسكوني المنعقد في خلكيدونيا عام ٤٥١، كان قد منح أسقفها "جوفينال" لقب بطريرك، فاحتلت بذلك كنيسة القدس المرتبة الخامسة بين الكنائس الرئيسية، بعد روما والقسطنطينية والإسكندرية وإنطاكية. ولقد ظلّ نجمها يزداد تألقاً حتى بلغ عدد الأساقفة الدائرين في فلكها، في أواخر هذه المرحلة، سبعاً وأربعين.

ثانياً: مرحلة المواجهة مع الإسلام:

١- في ٢٠ أيار عام ٦١٤، دخل خسرو الثاني، ملك الفرس، القدس بتواطؤ مع اليهود المقيمين فيها، واستباح كل ما ومن فيها. ودمّر واحرق الكنائس والأديرة، وذبح من السكان ما قدر بأربعين ألفاً، وعاد إلى عاصمته بخشبة الصليب المقدس.

٢- في ٢١ آذار عام ٦٢٩، عاد الإمبراطور البيزنطي هرقل بخشبة الصليب المقدس إلى القدس، بعد سلسلة من الانتصارات حققها على الفرس، فأمعن تقتيلاً باليهود انتقاماً لتعاونهم مع الفرس، وأصدر قانوناً يحرم على من سلم منهم من المذبحة، الإقامة في القدس وضواحيها.

٣- في عشرين آب من عام ٦٣٦، اندحرت الجيوش البيزنطية في معركة اليرموك أمام الجيوش العربية. وضرب الحصار حول القدس، وعبثاً انتظر البطريرك صفرونيوس العون من بيزنطة المنهكة، فتفاوض على تسليمها إلى الخليفة عمر بنفسه، فجاء عمر وتسلّم القدس من يد صفرونيوس، مدينة مسالمة وسالمة. ولقد كان عمر نموذجياً في سلوكه الشخصيّ أولاً، وفي المعاهدة التي وقعها مع البطريرك ثانياً.

٤- منذ ذلك الحين بدت القدس وكأنّها تمتلك وجهين، يتجه أحدهما صوب الشرق، والآخر صوب الغرب. فالوجه الشرقي منها، يواجه ظروفاً جديدة، تتمثل في سلطة جديدة، لن تكون دوماً في مستوى الخليفة عمر، ولا في مستوى الشرع القرآني بحق "أهل الكتاب"، ولا بمنأى عن نزوات شخصية أو جماعية، عابرة أو مزمنة.

ولن يتسنّى لها أن توفر الأمن دوماً لكل حاج، والبلاد كثيراً ما تتعرض لتقلبات سياسية، بعضها عنيف، تجرف بعنفها بعضاً من غير المسلمين أيضاً. لاسيما وأن الحروب قائمة أبداً بين المسلمين الأمويين، ثم العباسيين من جهة، والبيزنطيين من جهة ثانية. وكان من أبرز النتائج السلبية في هذه المرحلة شغور الكرسي البطريركي، بعد وفاة صفرونيوس عام ٦٣٨، حتى عام ٧٠٦.

أما الوجه الغربي منها، فكان ما نتج عن صعوبة تعيين خلف للبطريرك صفرونيوس، ومبادرة روما إلى إيفاد مندوب يدير شؤون

البطريركية. وقد تمثل أيضاً مالياً في استمرار وصول المساعدات لها، ولاسيما من روما، وكان أول المبادرين البابا مارتان الأول عام ٦٥٢. وتمثل أيضاً باستمرار وصول الحجيج إليها، ولكن على نطاق ضيق جداً. وتمثل أخيراً، بعد مرور وقت طويل على هذه الحال، في بروز الحاجة إلى المفاوضات، افتتحها الخليفة المنصور وملك فرنسا "بيبان القصير" عام٧٢٦، وتواصلت بين شارلمان وهارون الرشيد ما بين عامي ٧٩٧ و٨٠٧، واستمرت حتى عام ٨٣١ بين الخليفة العباسي المأمون وابن شارلمان لويس التقي. و لم تكن المفاوضات بين بيزنطة والمسلمين لتنعدم كلياً، ومن أهمها تلك التي جرت بين الإمبراطور قسطنطين الثامن والخليفة الفاطمي الظاهر، ابن الخليفة الحكيم، إثر تدمير هذا لكنيسة القيامة عام ١٠٠٩، والتي انتهت إلى إعادة بناء الكنيسة ما بين عام ١٠٢٧ و١٠٤٨.

٥- في هذه الأثناء، لم تنقطع حركة الحج إلى القدس، وإن تقلصت. إلا أن القرون الثلاثة: التاسع والعاشر والحادي عشر عرفت نمواً مطرداً لها، باستثناء ثلاث فجوات من العنف، أعقبت الأولى وفاة هارون الرشيد عام ٨٠٩، والثانية الهجمة البيزنطية بقيادة الإمبراطور نيكيفور فوكاس عام ٩٦٦، وأعقبت الثالثة فترة الحاكم الفاطمي بين عامي ١٠٠٩ و١٠٢٠. عن هذه الحقبة، يقول أحد أبرز مؤرخيها: "إن مجرد استعراض أسماء العديد من الغربيين الذين جاؤوا الشرق حاجين، ليظهر أن العلاقات بين الغرب وفلسطين كانت وافرة، ولا تنطوي على صعوبة تذكر". ويضيف مؤرخ آخر: "إن

هذه الحركة باتت في القرن الحادي عشر عامة، متصلة وكثيفة، حتى أن القبر المقدس بدا أكثر من أي وقت مضى، أشبه شيء بقطب مغناطيسي يجتذب إليه العالم الغربي، في إعصار من التقوى والفتوة". ولقد كان لاعتناق استفانوس ملك المجر المسيحية (٩٩٧-١٠٣٨) أثر كبير على فتح وادي الدانوب في وجه الحجيج الغربيين.

٦- وسرعان ما توالت الأحداث: عام ١٠٧٠، احتل السلاجقة مدينة القدس... وعام ١٠٧٤ وجّه البابا غريغوريوس السابع نداء إلى مسيحيي الغرب لإنقاذ المدينة، ثم أعلن عن استعداده للزحف إليها على رأس خمسين ألف مقاتل. وشحنت الأجواء... بحيث أن نداء البابا أوربانوس الثاني في مجمع كليرمونت، في٢٧ تشرين الثاني عام ١٠٩٥، لقي تجاوباً سريعاً، امتزجت فيه العوامل الدينية بالغايات السياسية والاقتصادية والعسكرية. وفي ١٥ تموز عام ١٠٩٩ دخل "الصليبيون"(١) القدس في بحر من الدماء... وأنشأوا لهم فيها وفي المناطق التي احتلوها مملكة، كتب لها أن تبقى، حتى بعد استعادة صلاح الدين القدس عام ١١٨٧ ، حتى عام ١٢٩١.

٧- كانت أركان هذه المملكة اللاتينية في قلب الشرق: القوة العسكرية والدعم الغربي المستمر، وكنيسة لاتينية انتزعت من الكنيسة المحلية نفوذها ومراكزها، وأقامت مسؤولين غربيين فيها بدلاً من

---

(١) لا بد من التذكير بأن المؤرخين العرب المعاصرين لهذه الحملات أجمعوا على تسميتها بـــ "حروب الفرنجة".

مسؤوليها الذين كانوا في الغالب من العرب المسيحيين. وبعد أن كانت هذه الكنيسة تعد في مطلع القرن التاسع خمسة أساقفة فقط يرئسهم بطريرك القدس، أصبحت تخضع كلياً لكنيسة أجنبية يرئسها بطريرك لاتيني، تم تنصيبه بعد احتلال "الصليبيين" للقدس مباشرة. ومن الإجراءات التي اتخذت منذ ذلك الحين، الاستيلاء على العديد من الأماكن الإسلامية وتحويلها إلى مراكز للصلاة المسيحية، ومن أهمها المسجد الأقصى عام ١١٤٢. وغني عن القول أن الحركة التجارية بين الشرق والغرب نشطت آنذاك جداً، ومعها حركة الحجيج.

٨- عام ١١٨٧، دخل صلاح الدين القدس دخول الفاتحين، ولكنه كان صنوا للخليفة عمر في سلوكه وإبائه وتسامحه. وأعاد إلى الإسلام جميع الأماكن التي كان "الصليبيون" قد استولوا عليها، بعد أن أزال منها كل أثر مسيحي. ولم يتردد في تحويل كنيسة بيت العذراء إلى مدرسة قرآنية، أطلق عليها اسم الصلاحية تيمناً باسمه، وذلك ضمن خطته الرامية إلى جعل القدس مركزاً تربوياً إسلامياً. ولكنه أولى كنيسة القيامة كل احترام، وبعد فترة سمح بإقامة الشعائر الدينية فيها. إلا أن أبرز ما حدث آنذاك كان عودة الكنيسة المحلية العربية إلى مركزها، إذ استعادت على الفور كرسيها البطريركي، وقد رئسه منذ ذلك الحين بطريرك عربي حتى عام ١٥٣٤.

٩- توالت حتى مطلع القرن السادس عشر، الصراعات المحلية والهجمات "الصليبية" على نحو سريع ومستمر... فكان نصيب العاصمة البيزنطية من "الصليبيين" رهيباً عام ١٢٠٤. وأما القدس فلم يعودوا يطالونها، بل أصبحت وقفاً على فتوحات العديد من الطامعين المسلمين، حيث احتلها الخوارزميون عام ١٢٤٤، والمماليك عام ١٢٥٠. وأخيراً حوّلها السلطان بابيرس عام ١٢٦٠ إلى مدينة إسلامية.

١٠- في هذه الأثناء، برز عنصر جديد في الصراع بين الغرب والشرق، على الأماكن المقدسة، هو عنصر الحوار الديني والسياسي. وكان من أبرز ممثليه القديس فرنسيس الأسيزي، والإمبراطور فريدريك الثاني. فالقديس فرنسيس قدم فلسطين حاجاً مسالماً، يبغي الحضور المحب والمتضرع في القدس ليس إلا، ويبغي أيضاً خدمة الأماكن المقدسة في وجه جميع قاصديها. كان ذلك عام ١٢١٩، وقد كان له ما يريد منذ عام ١٢٢١...

وأما الإمبراطور فريدريك الثاني، فقد استطاع بالأساليب الدبلوماسية أن يستعيد القدس وبيت لحم والناصرة لمدة عشر سنوات فقط، وكان له ذلك من عام ١٢٢٩ إلى عام ١٢٣٩.

١١- بعد ذلك تواصلت الخطوات الرامية إلى تأمين الحضور المحب والمتضرع إلى الأماكن المقدسة، بينما كانت فكرة الحرب "الصليبية"

تتلاشى شيئاً فشيئاً، لتحل محلها "مشروعات لحملات صليبية لم تكن في الحقيقة تبغي سوى انتزاع السماح من البابا بجمع الضرائب" أو إبرام معاهدات سياسية محلية. كل ذلك تحقق في خطين متوازيين طوال القرن الرابع عشر. وكانت طلائع الحضور المسيحي المحب والمتضرع ١٢ كاهناً دومينيكياً كلّفوا بخدمة كنيسة القيامة عام ١٣٢٢. تلتها بعد ذلك خدمة كنيسة العليّة وكنيسة قبر السيدة العذراء في القدس، وكنيسة المهد في بيت لحم ما بين عامي ١٣٣٣ و١٣٣٥.

١٢- وكان من نتائج هذا الحضور المحب والمتضرع، وهذا الانحسار للحملات "الصليبية"، نمو حركة الحجيج إلى الأماكن المقدسة، طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ومعه نمو التبادل التجاري بين الشرق والغرب.

ثالثاً: مرحلة مواجهة الاستعمار التركي:

١- عام ١٥١٧، دخل السلطان سليم الأول مدينة القدس فاتحاً. وكانت القسطنطينية عام ١٤٥٣، قد سقطت بيد الأتراك، بعد أن لم يبق من الإمبراطورية البيزنطية كلها سوى العاصمة. وأطبق الأتراك بذلك على المسيحية الشرقية إطباقاً تاماً. فكانت الطوائف

الكثيرة فيها تعيش عزلة متزايدة، وانكماشاً ثقافياً وإدارياً، بل تتقلص عدداً تحت ضغوط شتى، إدارية ومالية، بل ودينية، فضلاً عما كانت وما زالت تعاني فيما بينها من تنافر، لم يكن حتى للاحتلال التركي الجديد أن يرغمها على الخروج منه. وارتسمت منذ ذلك الحين معالم السياسة التركية حيال المسيحية الشرقية، إذ باتت تخضع كلياً لسلطة الباب العالي، من خلال رؤسائها، في شؤونهم الكنسية الصرفة، منقطعة بذلك انقطاعاً كلياً عن أي صلة بروما. فأنجز الانفصال الفعلي عن روما بالنسبة لبعضها، وقد كان منجزاً كنسياً ونفسياً وعقائدياً من زمان بالنسبة لبعضها الآخر.

٢- وكان الأتراك يهددون بصورة متواصلة الغرب بكامله، من حدوده الشرقية والجنوبية، براً وبحراً.وكانت فكرة "الصليبية" قد تلاشت بالكلية تقريباً، وتكشفت شيئاً فشيئاً الأغراض الاقتصادية والعسكرية التوسعية التي كانت تختبئ وراء "الحملات الصليبية"، أو التي كانت امتصت بالكلية النزر القليل مما خامرها من روح دينية. وظهرت فكرة سياسة المحاور، على ما انطوت عليه من غرابة، وعلى ما جلبت لأصحابها الأوائل من استهجان عفوي...ظاهري.

٣- وكان أول من بدأ بها ملك فرنسا الملقب "بالمسيحي جداً"، وكان يومها فرنسوا الأول. فوقّع عام ١٥٣٦، مع السلطان التركي المسلم سليمان الثاني، معاهدة كانت الأولى في سلسلة من المعاهدات،

سوف تستمر بين مد وجزر، وتوضيح وتوسيع، وتعليق وتثبيت، حتى الحرب العالمية الأولى، وقد أطلق عليها اسم "امتيازات"...

كان ظاهرها يرمي إلى حماية الأماكن المقدسة المسيحية والحجاج الغربيين القادمين إليها، والمسيحيين المقيمين فيها من غربيين خصوصاً، وشرقيين عموماً، فيما كان باطنها يرمي، فيما يرمي إليه، إلى قطع طريق البحر، بين أسبانيا وايطاليا، على عدوه شارل الخامس...

٤- يعترف نص معاهدة عام ١٥٣٦، لمسيحيي الغرب قاطبة -باستثناء رعايا البندقية التي كان لها وضع متميز آنذاك بالنسبة إلى الأتراك- بحقهم في تعاطي التجارة مع الأتراك، بشرط رفع راية ملك فرنسا. واعترف النص أيضاً لعملاء فرنسا في الشرق، دون سواهم، بالنظر في أمور هؤلاء الرعايا القضائية، بعيداً عن المحاكم الإسلامية، وأيضاً بحقهم دون سواهم بالعمل على إطلاق سراحهم إن سقطوا في الأسر. وأما الحجاج الغربيون، فإنهم يضمنون حياتهم وممتلكاتهم، إن وضعوا أنفسهم تحت حماية ملك فرنسا، ويستطيعون بذلك تأدية واجباتهم الدينية كاملة، إن دفعوا ما يترتب عليهم من ضرائب معروفة...

٥- لم يعد ثمة ما يقلق الأتراك كثيراً في شؤونهم داخل إمبراطوريتهم، فيما يتعلق بالمسيحيين من رعاياهم وسواهم. فالسلطان سليم كان قد أطلق على نفسه لقب "خادم الأماكن المقدسة في مكة والمدينة والقدس". أما

السلطان سليمان، فقد أمر عام ١٥٢٤ بالاستيلاء على "أم الكنائس" في القدس، كنيسة العليّة، وحوّلها إلى جامع. وفي عام ١٥٥٨، منح هو نفسه الكهنة الفرنسيسكان الذين طردوهم من كنيسة العليّة، ديراً كان تابعاً للكرج، هو دير القديس يوحنا اللاهوتي، فأطلقوا عليه اسم دير المخلص، وحوّلوه إلى دار عظيمة لإقامتهم واستقبال الحجاج الكثيرين المتوافدين من كل أطراف الدنيا. ولقد كرّس البابا هذا التحول برسالة خاصة أطلق فيها على رئيسهم اسم "حامي صهيون المقدسة"، وذلك عام ١٦٦١.

٦- تواصلت المعاهدات المسمّاة "امتيازات" عام ١٥٩٧ بين هنري الرابع ومحمد الثالث، ثم عام ١٦٠٤ بين هنري الرابع أيضاً وأحمد الأول. والجديد في المعاهدة الأخيرة أنها تضع تحت حماية فرنسا أيضاً جميع رعايا السلطان الكاثوليك، وتقرّ بأن زيارة الأماكن المقدسة حق معترف به لجميع رعايا "إمبراطور فرنسا"، ورعايا الأمراء أصدقائه وحلفائه، وتضمن سلامة الرهبان في القدس "إكراماً لشرف وصداقة ذلك الإمبراطور ، طالما هو راعي الصداقة التي وعد بها". وفي عام ١٦٧٣، أبرمت معاهدة جديدة بين الملك لويس الرابع عشر ومحمد الرابع، "يلتزم فيها السلطان حيال فرنسا باحترام حرية الكاثوليك، أية كانت جنسياتهم، في الشرق". وفي عام ١٧٠٠، أنشئت قنصلية فرنسية في القدس.

٧- وكان أن تحركت دول أوروبية أخرى ضد فرنسا ساعية إلى التوقيع على معاهدات مماثلة، تتيح لها التسلل إلى الشرق من خلال رعايا لها، شاءتهم النمسا الرهبان المتواجدين في القدس، وشاءتهم روسيا الرعايا الأرثوذكس. فوقّعت النمسا وتركيا معاهدتين، الأولى في عام ١٦٩٩، والثانية في عام ١٧١٨، فيما روسيا وقّعت معاهدة عام ١٧٢٠. وأما فرنسا، فقد واصلت توثيق العلاقات مع تركيا، ووقّعت معها آخر معاهدة في سلسلة الإمتيازات، وكان ذلك عام ١٧٤٠، وكانت أهمها إذ ضمت خمساً وثمانين بنداً، ثبّتت ووسعت جميع ما اتفق عليه سابقاً. وكان أن صدر من روما عام ١٧٤٤، أول توجيه بهذا الشأن، تعترف فيه روما بموافقتها على تلك الاتفاقيات، وبالتالي على سلامة النهج السياسي الذي اتبعته فرنسا.

٨- يطول الأمر كثيراً، ويتعقد، لو شئنا استعراض انعكاس جميع هذه المعاهدات على وضع الأماكن المقدسة والتراعات اللامتناهية الناشبة بين حراسها الكثيرين... حسبنا أن نشير إلى أبرزها وهي الحرب التي نشبت بين تركيا وروسيا بسببها، والتي تحالفت فيها فرنسا "المسيحية جداً" مع السلطان المسلم ضد روسيا الأرثوذوكسية، تلك هي حرب القرم. ولقد كان من نتائجها أن كافأت تركيا فرنسا في ما فعلت بمنحها "الصلاحية"، فأعيدت إلى وضعها القديم ككنيسة، مع أرض واسعة تضم "بِركَة بيزاثا"، التي أنشئت بالقرب منها مدرسة ضخمة عرفت باسم "القديسة حنة"، خرّجت عدداً كبيراً من كهنة وأساقفة

وبطاركة كنيسة الروم الكاثوليك، التي انشقت عام ١٧٢٤ عن الكنيسة الأرثوذوكسية.

٩- ولقد وقّعت معاهدات أخرى كثيرة مع كل من ايطاليا وروسيا عام ١٨٨٨، ومع ألمانيا عام ١٨٩٨. كان منها ومن سابقاتها أن سمحت لمختلف الرهبانيات الغربية بالزحف إلى الأماكن المقدسة، وإنشاء أديرة لها ومؤسسات لا حصر لها... ولم يتغير في الأماكن المقدسة شيء يذكر، حتى بعد رحيل الأتراك عنها بعد الحرب العالمية الأولى. فلقد كان الوضع من التعقيد والتداخل، بحيث أن إبقاءه على حاله كان يبدو الحل الأمثل... وليس أدل على التفتت الذي أنزله الشرق والغرب معاً بالأماكن المقدسة، من وصف الحال التي آلت إليها قبل الغزو الصهيوني لفلسطين... يقول أحد المؤرخين:

"ما من شيء أكثر تلوناً من الخريطة الجغرافية للقدس وللأرض المقدسة، كما صنعتها الظروف التاريخية. وإن "الوضع الراهن" الذي تحدثت عنه معاهدة برلين لَـيُداخِل بين حقوق تملّك، بالغة التعقيد.ففي كنيسة القبر المقدس، يعود داخل الهيكل لليونانيين. ويعود للاتين هيكلان في "المرحلتين" العاشرة والحادية عشرة، من درب الصليب، في حين أن هيكل الجلجلة يعود لليونانيين. ولكن اللاتين يمتلكون بالقرب منه كنيسة العذراء سيدة الآلام. ويشترك اليونانيون واللاتين والأرمن في حَجَر التحنيط. كما أن ملكية كنيسة القديسة هيلانة انتقلت من الأحباش إلى

الأرمن. فيما الفرنسيسكان يمتلكون كنيسة العثور على الصليب... وفي كنيسة قبر العذراء مريم، أُقصِيَ اللاتين بصورة تعسفية، وأقام كل من اليونانيين والأرمن والأحباش هيكلاً خاصاً بهم. وفي ما كان كنيسة الصعود سابقاً، وقد تحولت إلى جامع، يحق للاتين واليونانيين أن يقيموا الصلاة يوم عيد الصعود، أثناء الليل والنهار. تلك هي الحال أيضاً بالنسبة إلى كنيسة المهد في بيت لحم: فاليونانيون يحتفظون بالهيكل الرئيسي، الذي رفعوا أمامه جداراً فاصلاً عام ١٨٤٢. ولكل من اللاتين والأرمن هيكل خاص. وفي المغارة، يعود هيكل سجود المجوس للاتين، في حين أن الهيكل الرئيسي في المغارة، لا يجوز إلا لليونانيين أن يقيموا عليه الذبيحة، بينما يحق لجميع الطوائف أن تضيء عليه الشموع"...

رابعاً: مرحلة مواجهة اليهودية متمثلة بالصهيونية:

١- كنيسة القدس والأراضي المقدسة، نبتت في القدس وكانت أم الكنائس جميعاً. وانفتحت منذ لحظة تأسيسها على الجميع، لا فرق بين يهودي ويوناني وعربي وفارسي وروماني... وظلت في موقعها وفية أصيلة، إلى أن جاءت ظروف ليست بسببها ولا من فعلها، طردت قسماً من سكان البلاد عنها، وكانوا يهوداً، وكان ذلك عام ٧٠ وعام ١٣٥... ثم حدث لهم ما حدث إبان الاحتلال الفارسي

للقدس، واستعادة هرقل لها، ومن يومها لم يعد يذكر وجود يهودي في القدس. وجاء شهود معهم بعد ذلك إلى القدس، فذكر أحدهم عام ١١٦٧، هو الحاخام الأندلسي بنيامين، وكان من مدينة توديلا، أن في القدس قرابة ٢٠٠ يهودي ليس إلا... وذكر آخر عام ١٤٨١ وهو ميتشولام بن مناحيم، وكان من فولترا بايطاليا، أن في القدس ٢٥٠ عائلة فقط...

٢- وإذا ما انتقلنا دفعة واحدة إلى مرحلة تمتد من عام ١٨٠٠ إلى عام ١٩٨٠، تفاجئنا شهادات وإحصائيات وردت لدى مؤلفين غربيين لا يخفون تعاطفهم مع إسرائيل كدولة. ففي عام ١٨٠٠، كان في القدس (١٠٠٠٠) نفس منهم (١٠٠٠) يهودي... وفي عام ١٩٠٠، كان هناك (٤٥٠٠٠) نفس، منهم (٢٨٠٠٠) يهودي. وفي عام ١٩٣١، كان يسكنها (٩٠٥٠٠) نفس، منهم (٥١٠٠٠) يهودي. وفي عام ١٩٥٠، لم يبق في القدس سوى (٤٥٠٠٠) مسيحي ، بينما انحسر عددهم عام ١٩٧٠ إلى (٢٥٠٠٠) مسيحي، وبلغ عام ١٩٨٠ (١٠٠٠٠) مسيحي ليس إلا... فيما ارتفع عدد سكانها إلى نصف مليون.

٣- هذه الأرقام وغيرها ليست بخافية على أحد... والمراجع الثقافية والسياسية، الغربية والعربية منها على السواء، تشكو من ذلك... كما أن المراجع الدينية المسيحية العليا والدنيا، رفعت الصوت مراراً

احتجاجاً على ما يحدث، وعلى شتى أساليب التهجير المتبعة. حسبنا ما قال البابا بولس السادس في خطاب خص به الكرادلة بتاريخ ١٥ كانون الأول عام ١٩٦٩... "إن صفوف المؤمنين بيسوع تقلصت، وهي تزداد تقلصاً فوق هذه الأرض التي قدّسها ببشارته وفدائه. وإن هذا الوضع ليحملنا على التفكير، ويقودنا إلى طرح هذا السؤال الخطير: تلك الصروح الدينية، المهيبة والجميلة... ألا يتوقع لها يوماً أن تحرم من حضور جماعاتها الكنسية الحيّة؟". وقد لا نغالي إن قلنا إن حركة الهجرة والتهجير، إن استمرت على ما هي عليه الآن، تنتهي قريباً بالأماكن المقدسة إلى تحويلها إلى متاحف ليس إلا... هذا إذا شاءت إسرائيل أن تبقيها حتى كمتاحف...

٤- والحقيقة أن الأماكن المقدسة نفسها تتعرض لعملية تهويد بات العالم كله أيضاً يعرفها ويتبع بقلق ترجمتها إلى واقع الأرض، حفراً وتنقيباً وهدماً وحرقاً وتدنيساً وبناء وتخطيطا. ولقد أزيل الكثير من معالم القدس العربية، الإسلامية خصوصاً، ولسوف يزال الأكثر. وما حدث إلى اليوم، لم يراع حرمة بناء، ولا قدسية ولا حياة إنسان... ولا قيماً فنية أو حضارية... ولقد لقي كل ذلك من الاستنكارات الصادرة عن هيئات دولية ومراجع علمية ومؤسسات دينية ومؤتمرات وأفراد، ما لم يلقه، في رأينا، موقف قط. وقد لا يكون ما حدث إلى الآن هو الأخطر والأدهى... وقد يكون ما كتبته الباحثة الفرنسية "آن ماري غواشون"، محذرة، في كتابها الصادر في باريس

عام ١٩٦٦، بعنوان: "القدس نهاية المدينة الكونية؟" حول مشروع بناء الهيكل ، هو الحقيقة الآتية بعينها.

دمشق، أيلول ١٩٨٢

أهم مراجع البحث

العهد الجديد

دانيال روبس: ١) كنيسة الرسل والشهداء، باريس ١٩٥٧.

٢) الكنيسة في زمان البرابرة، باريس ١٩٥٦.

ادوار فلانيري: ضيق اليهود، باريس ١٩٦٩.

آبا ايبان: شعبي، باريس ١٩٧٥.

فيليب حتي: تاريخ العرب، بيروت عام ١٩٥٥

رينيه ايغران: "الزيارات إلى قبر المسيح" في موسوعة "المسيح"، باريس ١٩٤٧.

الأب يوسف حجار: أوروبا ومصير الشرق الأوسط، باريس ١٩٧٠

المسيحيون المتحدون، باريس ١٩٦٢.

الأب باسيل حمصي: الامتيازات وحماية مسيحيي الشرق، حريصا، لبنان ١٩٥٦.

آن ماري غواشون: القدس، نهاية المدينة الكونية؟ باريس ١٩٧٦.

الأب يواكيم مبارك: القدس القضية - بيروت ١٩٧٤.

د. خيرية قاسمية: قضية القدس - بيروت ١٩٧٩.

الملف (١٠٠) من مجلة - فرنسا - البلدان العربية، باريس ١٩٨٢.

ابراهام ليون ساخار : تاريخ اليهود ، في ترجمته الفرنسية — باريس ١٩٧٣ ، منشورات دار " فلاماريون " .

تدمير القدس الحالي(*)

القدس تُدمّر

المدينة الجديدة في ازدهار. ولكن المدينة القديمة وما يحيط بها، المدينة الفريدة، الغالية على قلب الدنيا، مصلّى الديانات السماوية الثلاث، تتعرض للتدمير المنتظم، باستثناء حائط المبكى. وقد ضّيق فيها الخناق على حياتها الروحية، ويتناهشها جميع أنواع المضاربات.

إن الأفعال تسبق بسرعتها الفكر العالمي. فإذ هو يتوقف عند الأماكن المقدسة وينظم رحلات الحج إليها -يتنامى طابعها السياحي- لا يلحظ التبدلات التي تحدث تحت ناظريه. ولقد كانت، منذ ثلاث سنوات خصوصاً، تبدلات ضخمة.

إسرائيل تريد مدينة يهودية:

"للمسلمين مكة، وللمسيحيين روما، حسبهم هذا. نحن، ليس لنا سوى القدس".

(*)- المقال للباحثة الفرنسية "آن ماري غواشون"، وكلفت بترجمته إلى العربية، فنشر في مجلة "المسرة"، في عددي شباط وآذار من عام ١٩٧٤.

قمت منذ مدة قريبة، بزيارة للقدس، أتاحت لي أن أدرك، على نحو أفضل، خيوط الخطة المتبعة. وكنت يومها أزور المدينة للمرة الرابعة عشرة منذ سنة ١٩٤٦. وما كنت قَدِمتها منذ سنة ١٩٦٩. في هــذه الأثنــاء تكشّفت أبعاد الخطة.

بدأ كل شيء في الحادي عشر من حزيــران ســنة ١٩٦٧، عنــدما اجتاحت الجرّافات الحي العربي المسمى بحي المغاربة، لتحل محله ســاحة إزاء حائط المبكى. ومنذ شهر كانون الثاني ســنة ١٩٦٨، طوقــت إجــراءات الاستيلاء على الأراضي، المدينة القديمة بمناطق خصّصت لإسكان اليهود، في الشمال والشرق والجنوب الشرقي منها، فيما الغرب تقوم فيه الآن المدينــة اليهودية. ثم توالت عمليات الاستيلاء داخل السور العثماني. واتسعت ساحة حائط المبكى على حساب الأحياء المجاورة في الجهة الجنوبية الغربية. وقد امتد نطاق حفريات بوشر بها سنة ١٩٦٧، بجوار القسم المكشوف مــن حــائط المبكى، امتد في السنتين التاليتين نحو الجنوب، حول الزاوية الجنوبية الغربيــة، وقد كشفت عنها أعمال هدم جديدة. هذا كله، تحدثنا عنه في المجلد الثــاني من مؤلفنا "الأردن الحقيقي" (صــفحة ٦٢٦، ٨٤٣-٨٨٤، ٩٢١-٩٢٨)، حيث دعمنا سرد الأحداث ببيان عن إجراءات الاستيلاء والاستملاك، الــتي وقعت حتى سنة ١٩٦٩، في المدينة القديمة.

كان من الممكن إذاً توقع حدوث إنجازات مختلفة، في مطلع عــام ١٩٧٣. إلا أن مغزاها يفوق كل تصور. هي ذي الخطوط الكبرى للأمور كما تبدو:

كانت نقطة البداية في المخطط الإسرائيلي، شق طريق رحب إلى حائط المبكى، وهو بعد شبه دفين، وكان لابد فيما بعد من الكشف عن معالمه كلها. ثم بعد إذ بدا أنه يصار إلى إحاطته بمساكن يهودية، يشاد الآن في الجهة الجنوبية الغربية، حيّ جديد على أنقاض الأحياء القديمة. وثمة دورة ثالثة من الأشغال، قطعت شوطاً بعيداً جداً، تحيط المدينة القديمة بمجمعات سكنية، خصّصت لاستيعاب عدد كبير من اليهود، المهاجرين والمقيمين. يبدو أن ألفي عام من تاريخ القدس المجيد، منذ مجيء المسيح، قد حكم عليهما بالزوال. والتصميم جاد للتخلص من هذه المرحلة الدخيلة على التاريخ اليهودي، الذي يستعيد الحياة حيث تركها.

إن بطاقات الصور البريدية نفسها لم تعد تذكر إلا "جبل الهيكل"، بدلاً من ذكرها الحرم الشريف. شأنها في ذلك شأن المصورات الجديدة للمدينة. فجامع قبة الصخرة يقوم على "جبل الهيكل". واستبدلت أسماء الشوارع.

إن الوجه الجنوبي من "حائط جبل الهيكل" قد أصبح مكشوفاً، سواء داخل الأسوار، أو إلى الشرق من جناحها الشمالي الجنوبي، وهو يحيط بآثار القصر الأموي البائد. أما الآن فتتراكم، في أرض مسوّرة مجاورة، بقايا مرقمة لبعض الأعمدة. والجرّافات تزيل الردميات في الجهة الجنوبية. وإن قسماً كبيراً من الزاوية الجنوبية الشرقية بات مكشوفاً. وإن الأشغال توقفت على مقربة من المدافن الإسلامية. وقد تم الاستيلاء على هذه الأرض في ٣٠ آب ١٩٧٠.

إن المسجد الأقصى الذي أحرق، بعد أن امتد داخل الحرم، يتوقف عند الحائط الجنوبي. وما زال الباب المسمى بباب المغاربة يفضي إلى الحرم. وقد أوقفت أعمال التسوية الخارجية، لكي يحتفظ بممر يتيح الوصول إلى السطح. والحفريات المجاورة عميقة جداً في الجهة الجنوبية، وقد بلغت عمقاً كبيراً تحت الأرض، يصل إلى ٢٧ متراً عند جانب المسجد الأقصى، و٣٥ متراً عند صدره. وقد تم الكشف عن مدخل الممر القديم جداً، الذي يشكل ما يشبه القسم السفلي للمسجد. وإن الحكومة الأردنية تبدي قلقاً حول إمكان استغلاله من قبل بعض المتطرفين، بقصد إلحاق الضرر بالمسجد. وتنفي الحكومة الإسرائيلية هذا "التصور الاعتباطي". ومع ذلك لفت أحدهم انتباهي مرتين إلى هذا التصور وإلى حدوثه في الوقت نفسه، أثناء زيارتين قمت بهما للمسجد الأقصى، قبل حريقه وبعده.

هذا الممر هو واحد من الممرات التي كانت، عهد هيرودس، تفضي إلى داخل السور تحت القصر الملكي الذي دكّه تيطس، بعد ذلك بقليل. وقد سدّ فيما بعد المدخل المسمى بالباب المزدوج. وكان يحجبه عن الأنظار بناء عربي يدعى "الخاتونية"، يوم قام الأب ل. هـ. فانسان (L.H.Vincent) ببحثه المدهش "قدس العهد القديم"، القسم الثاني، دراسة الهيكل الأثرية، (باريس ١٩٥٦، خصوصاً الصفحات ٥٦٨-٥٧١). وقد أزيل هذا البناء اليوم. وقد تم الكشف عن الباب. وإن الممر ليمتد على طول المسجد، في مَيلان صاعد حاد. ويبدو أنه كان أبسط شكلاً أيام الملك سليمان، إذ كان يمر تحت قصره.

وقد شوّه منظر الأعمدة الضخمة القديمة تشويهاً كبيراً بسبب أعمال التـــدعيم التي أجريت في عامي ١٩٢٧ و ١٩٢٨.

إن الساحة غربي حائط المبكى هي اليوم أوسع بكثير مما كانت عليه سنة ١٩٦٧. وكما قلنا، إن الساحة الجديدة لم تنجز إلا بتـــدمير بعـــض المساكن والمساجد والمدارس إلخ.... تدميراً كاملاً. فإن الجانب الشـــمالي، المتعامد مع حائط المبكى، والجانب الغربي، قد قطعا كمـــا بســـكين.... وترتفع المنازل عمودياً، على علو.... -أفلا نقولها؟- عدة مدن!.

ذلك هو الشعور الذي تخلفه في النفوس زيارة دورة معدة في سماكة هذا الجدار الشمالي. يدخل المرء من باب صغير جداً، يبدو مؤقتاً، ويرتفع عن الأرض. ويغوص الدهليز في باطن الأرض وقد جهز بالإنـــارة هنـــا وهناك. بعد قليل يكشف ضوء كهربائي ساطع قوساً شبيهاً بأقواس المنازل القائمة حالياً، وشيئاً يكاد يكون مفترق طرق. ثم ينعطف الطريق المفتوح نحو حائط المبكى، وينساب متعرجاً ليفضي إلى مفارق طرق مضاءة داخل أسوار نجهل عهدها. ليس هذا ممراً محفوراً، فالجدران والقبة المتصلة، مـــا تزال كما كانت يوم حلت بها لا ندري أي كارثة. ها قد فتحت مدينـــة دفينة. وشيّدت فوقها مدن أحدث عهداً منها، دون أن تـــدمرها تـــدميراً كاملاً.

وينتهي المرء بعد اجتيازه مسافة طويلة بعـــض الشـــيء، إلى دورة أدراج واسعة وقريبة العهد، تفضي إلى قاعة رحبة مستطيلة، أطول جدرانها

هو حائط المبكى بالذات. بعض الإسرائيليين يسندون جباههم إليه ويصلون. إنه كنيس تحت الأرض، يأتيه النور من مشبك عريض يطل على قسم الساحة المخصص للصلاة اليهودية. ويغادر المرء الكنيس، عبر ممر آخر تحت الأرض ينتهي بعد قليل إلى الساحة.

هذه الدورة التي لم يكن، حتى عهد قريب، ليصل إليها إنسان، تجعلنا ندرك جيداً الشروط التي تجري فيها الحفريات. كان من المعروف أنها ستجري في باطن الأرض، انطلاقاً من الساحة حتى باب الحرم المسمى بباب الحديد، وقد تجاوزته الآن. وهي تستأنف إذن تحت العديد من المدن التي بنيت الواحدة فوق الأخرى، إثر الدمار الذي كان يحلّ بها. والأرض لم تتلكد، أو أقله ليس في كل مكان. ولكن المدن القديمة لم يكن لها ثقل ضخم. وقد صمدت طوال قرون، تتمتع بصلابة لا بأس بها

اليوم تبدلت الظروف. والحفريات التي بوشر بها تحت الأرض الحالية، تستأنف بآلات حديثة قوية تزعزع الأبنية. والهدف المباشر هو الكشف عن حائط المبكى على طول يبلغ ٤٨٥ متراً.

تجوّلت أجيل النظر في الحي الذي يبدو سالماً من أي أذى، حيث يوجد معظم أبواب الحرم الشمالية الغربية، خصوصاً باب الحديد وباب القطانين، وكان فيه قديماً سوق باعة القطن. ويهبط درج تحت الطرقات الحالية، يفضي إلى طبقة أخرى من الطرقات. وبلغت قوساً يدعمه هيكل حديدي متين. في جانب القوس أعد ممر ضيّق للغاية، انسابت فيه امرأة،

ولم تعد. مشيت في إثرها، فوجدتني في طريق يسلكه المارة إلى اليوم. وبعد بضعة أمتار، رأيت قوساً آخر يكاد يكون مسدوداً كليةً بهيكل مماثل. وتسللت عبر الفتحة الضيقة، المتبقية فانتهيت إلى درج يصعد إلى السطح. وهنا تقوم منازل تبدو سالمة، آهلة بالسكان، مزدانة بالورود، وذات شرفات صغيرة. ما من شيء يثير الشك في طبيعة الأرض من تحتها. ومع ذلك فالخطر مسلط على ثلاثمائة مترل، يسكنها ثلاثة آلاف عربي.

نشرت صحيفة "جيروسالم بوست" بتاريخ ١٩ كانون الثاني ١٩٧٣، مقالاً مفاده أن المهندسين الإسرائيليين في الأشغال العامة تدخلوا ليدعموا هذا الجزء من الطريق تحت الأرض، الذي من شأنه أن يكشف عن مساحة قاعدة حائط المبكى، على طول جانبه الغربي، وهذه النقطة تقع على مسافة ١٧٥ متراً من الساحة. ونظمت قائمة بالمنازل المتصدعة. وشاهدت بنفسي في مكان آخر صوراً لها.

وإن مجموعة الأبنية التالية تبدأ بالمترل الذي ولد فيه روحي الخطيب،المحافظ الأردني للقدس العربية. وهو ملك لأسرته منذ عدة قرون.

لابد أن نضيف أنه بالقرب من باب القطانين يقوم قبر ملك الحجاز، حسين بن علي، لا يكاد يفصله متر واحد عن حائط الحرم، الذي يرتكز على الحائط العبراني. ويشاهد الضريح بإزاء الحرم، خلف فتحة زجاجية. ويضم هذا المكان خمسة أضرحة أخرى، منها ضريح الزعيم الباكستاني مولانا محمد علي، وضريح أحمد علي، وهو أول حاكم للقدس

تم تعيينه في أيلول ١٩٤٨، وضريح الزعيم الفلسطيني عبد القادر الحسيني، الذي قتل في معركة القسطل سنة ١٩٤٨.

هذه الأضرحة تجاور مسجدين يرقيان إلى القرن الرابع عشر، وهي تقع فوق السرداب الذي يكشف عن حائط المبكى. وإن الحاخام المسؤول عن الحائط في وزارة الشؤون الدينية الإسرائيلية، أشار إلى أن الحفريات تقترب شيئاً فشيئاً من سطح الأرض. ولسوف تقضي يوماً بشق طريق في القطاع المأهول.

من السهل أن تدعى هذه الشقوق للقيام بدور سياسي. فمنذ فترة قريبة، أصرت إحدى العائلات على التشبث بمنزلها، برغم كل الظروف. وكان المكان مقضياً عليه. فقامت بعض الجرافات بجولة مدروسة حوله، زعزعت جدرانه، بحيث ظهرت التصدعات فيها.فاضطرت العائلة للرحيل. و إلا دفنت تحت الأنقاض. وأخليت مدرسة الأقصى للفتيات، بأمر صدر في شهر تشرين الثاني ١٩٧١، لأن التصدع فيها بلغ حداً خطيراً، بتأثير الحفريات. وكانت تلك آخر مؤسسة دينية إسلامية متبقية في هذا القطاع.

إذا ما عدنا إلى خريطة لجوار حائط المبكى والحرم الشريف، أرسلت إلى المكتب التنفيذي للأونسكو، في١٣ تشرين الأول ١٩٧١، تسنى لنا أن نعرف وضع الأبنية الأثرية التاريخية العربية، التي ترقى إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، والتي تتجمع على طول الحرم، وبالتالي على طول حائط المبكى. وهي تعدّ ستة وعشرين، إلى الشمال من الأحياء التي استولي

عليها ودمرت. وإذا ما استثنينا منها أربعة أو خمسة، فإنها تقع كلها عـــل طريق الحفريات الجارية تحت الأرض. وهي، شأنها في ذلك شأن القســـم الأكبر من هذه الأحياء القديمة، أملاك موقوفة، وإذن أملاك دينية.

كثير منها تصدع اليوم. فقد وافى ممثلُ الأردن مديرَ الأونسكو العام بتقرير مؤرخ في ٣ تموز ١٩٧٢، يفيده فيه أن أوامر الإخـــلاء صـــدرت بتاريخ ١٤ كانون الأول ١٩٧١ إلى سكان القطاع الواقع بـــين البـــاب المسمى بباب السجن وباب الحديد. وبعد أيام قليلة وضعت الإشارة على خمسة أبنية بقصد هدمها. ثم إن مدرسة ترقى إلى العهد العثمـــاني، علـــى وشك الانهيار، أتاحت الفرصة أمام السلطات أن تحظر على السكان ارتياد منطقة تحتوي على بئر.

يجوز التفكير بأن طريقة خفية ترمي إلى هدم الأحياء المجاورة لحائط المبكى هي الآن قيد التنفيذ. فما من قرارات مثيرة تتخذ كمـــا في ســـنة ١٩٦٧، بل هنالك المصلحة العامة الأكيدة تستغل للغاية ذاتهـــا، بعـــد أن تكون اختلقت بعناية في الوقت المناسب.

وقد نشرت صحيفة "دافار" الإســـرائيلية بتـــاريخ ٢ آب ١٩٧١ مقابلة مع الجنرال دايان يوضح فيها رأيه قائلاً:

"في رأيي أنه من العبث تأخير الأشغال إلى حين العثور في منطقـــة الحفريات على آثار تاريخية ترقى إلى عهود قريبة نسبياً. يجب أن نبدأ العمل لنكشف عن كل ما يرقى إليه عهد الهيكل الثاني، ونرممه. وأنا أؤثر أن أرى

حائط المبكى، كما كان عهد الهيكل الثاني. من الممكن إذن تصوير جميع المواقع التاريخية الأخرى ليبقى منها بعض الأثر. ويجب أن تزول، لأنها تمنعنا من مشاهدة المجموع كما كان عهد ذاك".

إن إعادة بناء الهيكل هدف ما زال بعيداً، ولكنه حقيقي. وقد أشير إلى هذا الأمر منذ سنة ١٩٦٧.

قد يكون في صفوفنا، نحن الغربيين، من يذهبون إلى اعتبار أعمال الهدم هذه احتمالات بعيدة الحدوث.يا للوهم! هل تعرفون المدة التي يقطع بها المرء سيراً على الأقدام المسافة الواقعة بين باب دمشق، وهو مدخل الأسوار، وباب الحديد؟ إنها دون العشر دقائق! وهي المدة ذاتها التي يصل بها المرء إلى كنيسة القيامة، القائمة إلى الغرب قليلاً من مدخل الحرم هذا، **فكل شيء يتقرر في نطاق مئات الأمتار**. وإن طريق الآلام ومراحل درب الصليب التقليدي، الست أو السبع، تبعد من ثلاث إلى خمس دقائق، عن زاوية الحائط الشمالية الغربية، في الحي الإسلامي. وإن مساحة المدينة القديمة هي بحدود كيلو متر مربع واحد.

من المرجح كثيراً أن باطن الأرض فيها يشبه القسم المكشوف حالياً بجوار الساحة. فبالقرب من باب دمشق مدخل لممر تحت الأرض. والإسرائيليون يعرفون المدخل. وقد سدّه البريطانيون سنة ١٩٤٧، عندما أخذت الأوضاع تتدهور. ليس هو منفذاً لسرداب حفر بقصد ما. بل يبدو على الأرجح أن الممر طريق مردوم. ونحن نعرف إنساناً تجول فيه طوال

ثلاث ساعات، بمصباح كهربائي، ولم يستنفد إمكانياته. وقد قيل له إنه من الممكن الوصول تحت الأرض إلى سلوام، مروراً بالمدينة القديمة كلها، وإن هذا الممر ليس بالممر الوحيد. فهناك من يعرف ممراً آخر على الأقل، في المدينة القديمة، وقد جلب بعض المتاعب للجيران، مع أنهم لم يقوموا بحفر أي مخبأ. وقد استعمل اليهود هذه الأنفاق في المدينة ليزودوا بالإمدادات سكان الحي اليهودي سنة ١٩٤٨.

عندما يبلغنا أن الإسرائيليين يريدون العثور تحت الردم على آثار الهيكل، يمكننا التفكير بأنه ليس من الصعب عليهم كثيراً أن يصلوا إلى حدوده العميقة. بل من الممكن وجود طرق للغوص في باطن الأرض، أبعد عهداً، توفرها الأنفاق وقنوات المياه التي تعود إلى عهد هيرودوس، والتي تحدث عنها م.ب.مازار (M.B.Masar) في مقال بعنوان "اكتشاف جبل الهيكل من جديد"، نشرته صحيفة "الجيروزالم بوست" في١ كانون الأول ١٩٧٢. وقد تتصل هذه الطرق بأبواب حائط المبكى، التي تعرف مواقعها. وإن كثيراً من المعلومات المتعلقة بباطن أرض الحرم توفرت بطريقة السبر (الأب فانسان، المرجع ذاته).

إن صحيفة "اليديوت أهرنوت" الصادرة في ٢٨ تشرين الأول ١٩٧٠، تنسب إلى الوزير الإسرائيلي للشؤون الدينية هذا التفسير: إن وزارته تحاول أن توسع عمليات التنقيب الجارية حتى يتم الكشف عن الحائط بكامله، بقصد العودة بهذه الجوهرة الثمينة إلى حالتها الأولى. "وإن هذه العمليات لَمقدسة"، وهي تشمل تدمير الأبنية المجاورة، برغم جميع

العقبات التي تعترض سبيلها. "وقد عثر على أضخم حجر معروف من حائط المبكى في١٣ تشرين الأول ١٩٧٠، تحت دار المحكمة الشرعية". فهل يُخطئ تقرير أردني رُفِع بعد ذلك بسنة إلى هيئة الأونسكو، إن هو توقع الاستيلاء على الحرم الشريف، و بضمنه كل من قبة الصخرة والمسجد الأقصى، حالما يعثر فيه على أثر ما للهيكل؟

إن الجانب الإسرائيلي ينشط الآن للبحث عن مخطط الهيكل الثاني. فإن قرأنا بتمعن تصريح الجنرال دايان الذي نقلته صحيفة "الدافار"، أمكننا أن نفترض أنه يرى أن هذين المسجدين الرائعين، يجب أن يهدما. فهما بالطبع يحولان دون التمتع بالمنظر الكامل لجبل الهيكل"في ذلك العهد". بل أكثر من ذلك، إنهما يحولان دون بناء الهيكل الثالث.

في هذه الأثناء ألا يسر الإسرائيليون إن يشاهدوهما يهتزان بفعل عوامل خارجية، شأنهما شأن كنيسة القيامة وغيرها من الكنائس المسيحية التي لا "ترقى إلى ذلك العهد"!؟.... كل ما في الأمر أن سماء المدينة القديمة تخترقها من وقت لآخر طائرات ضخمة على علو منخفض. وقد حدث أن كنت في أحد المنازل في اللحظة التي كانت تتحمل فيها تأثيرات هذا العبور المنخفض. وفي مرة أخرى رأيت قاذفتين تحلقان فوق إحدى الضواحي، في منطقة النبي يعقوب، حيث لم يكن يبدو أن الأمر يستدعي وجودهما. وقد قيل لي، دون أن أتيقن من ذلك بنفسي، أن الطائرات فوق الصوتية كانت تخترق أحياناً جدار الصوت فوق المدينة القديمة. وإن الترميم الرائع لكنيسة

القيامة لا يمكنه أن يقاوم نتائج هذه التحليقات المختلفة، الــتي تســتطيع أن تتجنب هذا المربع المتناهي الصغر، الذي هو المدينة القديمة.

ثمة مرحلة تمهيدية أخيرة، تنسب إلى مخطط القدس الجديــدة. إنهــا مرحلة هدم الأماكن المقدسة المسيحية، بعد القضاء على الأماكن المقدسة الإسلامية. أياً كانت الضمانات المقدمة للرأي العام المسيحي، طالما كانت مودته ضرورية، فإن الهدف النهائي هو أن تصبح المدينة يهودية تمامــاً، في جميع ما يذكر بتاريخها، كما في سكانها. أليس ذلك أفضل ضمان "لوحدة المدينة وسلامتها"، إذا جاز لنا أن نردد عبارة رسمية جداً.

ولنعد إلى قسم المخطط الذي ينفذ حالياً. فمن المفيــد أن نقــارن المساحات التي يعنينا أمرها. فمخطط القدس الذي نشر صفحة ٨٦٢ من مؤلفي "الأردن الحقيقي"، والذي قدم في حينه إلى مجلس الأمن، يوضح أن القسم المستولى عليه بين سنة ١٩٦٧ وسنة١٩٦٩، يساوي تقريبــاً ربــع المساحة داخل الأسوار، باستثناء الحرم. وهو غير مأهول. وقــد ســردنا الطرق التي اتّبعت لإخلاء حيّ شرف.

وإن صحيفة "هآرتس" الإسرائيلية تشير بتاريخ ١٩ تموز ١٩٧١ إلى حدوث بوادر انهيارات في الحي المجاور.

والواقع أن جميع الأبنية تقريباً، العامة منها والخاصة، الموجودة في المنطقة المستولى عليها، قد أزيلت في شتاء ١٩٧٢. كانت الجرافات آنذاك ما تــزال تطحن ما تبقى، وهي في ذهاب وإياب فوق الأنقاض. وعلى مقربة من هذا

المكان كانت بقايا المنازل تنتظر دورها. وكان يشاد مكانها أحياء ذات طراز قديم، يستخدم فيها حجر القدس، هذا الحجر الوردي الجميل، وهي تتحول إلى حي أنيق مخصص لسكنى الشخصيات اليهودية.

لا يسعنا أن ننسى أن السلطات الإسرائيلية كانت قد قدمت أولاً هذا المخطط لمبعوث الأونسكو، وأقنعته بأنها تود أن تجدد بناء هذا القسم من المدينة، وهو أقدم ما فيها، وتعيد إليه طابعه القديم. ولذا كان الاستيلاء أحد إجراءات الوقاية والنجاح. ("الأردن الحقيقي" صفحة ٨٧٠). كانت تلك إحدى الحالات التي ينطق فيها الكلام بالحقيقة، وهو يسمع عكسها. فلم يخطر ببال أحد أن العرب سيطردون منها. وقد اتضح المعنى الحقيقي بعد التنفيذ، ولكنه لم يدرك من خلال الكلمات.

هل ستتوقف أعمال الهدم عند هذه الحدود؟

السؤال مطروح بوضوح. سوف يتم قريباً إعادة بناء هذه المنطقة بفضل وفرة اليد العاملة العربية، التي تعمل في البناء لتكسب قوتها اليومي الضروري.

إلى الشمال مباشرةً يقوم قسم صغير من الحي ومجموع الحي المسيحي الإسلامي المتبقي. وهذا الأخير هو الذي تطاله أعمال الحفر المتعلقة بحائط المبكى. وهو يمتد إلى الشمال والغرب من الحرم الشريف

الذي تحده شرقاً المدافن الإسلامية. وهنا يرقد بعض العرب من أيام الفتوحات في القرن السابع، ومن حرب التحرير التي قادها صلاح الدين.

فمن ناحية، يلح اليهود في الولايات المتحدة وخارجها على الحكومة الإسرائيلية، أن تعمل على الكشف كلياً عن حائط المبكى، من جميع جوانبه. وهذا الحائط ليس بحائط الهيكل، بل هو حائط السور الخارجي العام الذي يحيط بجبل الهيكل.

ومن ناحية أخرى، أخذت الأقلام تصرح بأن هذا الحي الإسلامي، يضيق بالسكان، وأنه، وفقاً للمقاييس الغربية، بوسع الإسرائيليين القول، وضميرهم الاجتماعي في اطمئنان تام، أنه يجب إعادة بنائه. وهذا يعني، حسب مجلة "الإيكونومست" (٥١ كانون الأول ١٩٧١، صفحة ٥٠) أنه يتحتم طرد أربعة آلاف ساكن (عربي). ويرجح أن الحسابات الإسرائيلية أكثر صرامةً. فصحيفة "الجيروزالم بوست" الصادرة في ١٠كانون الثاني ١٩٧٢، تتحدث حتى عن خمسة آلاف. ولكن هل يمكننا الاعتقاد بأن أكثر المناطق التصاقاً بجبل الهيكل، وقد تم الكشف عنه، سوف يعاد بناؤه لإسكان العرب فيه؟

كل المساعي تبذل الآن لإقصاء المسلمين والمسيحيين عن المدينة القديمة. فهناك، فضلاً عن أساليب الطرد والهدم الخشنة، طرق محببة! والغباء في فهم الشفقة، وهي مسوّغ قيام بعض الجمعيات المسيحية، يُستغَل لحث المسيحيين على الهجرة. وفي كانون الثاني، أثير موضوع رسالة حديثة

جداً وجهتها رابطة الدفاع عن اليهود التي يرئسها الحاخام كاهان. فقد كانت تقترح على عرب القدس الذين يودون الرحيل، أن توفر لهم نفقات السفر ومبلغاً من المال. كما أن بعض شركات الطيران تقدم، منذ أمد بعيد، بطاقات سفر بالتقسيط: "سافر اليوم وادفع فيما بعد"، تقول شركة الطيران الكندية عبر الباسيفيك، التي تقنع بخمسة عشر قسطاً تدفع شهرياً. أما القروض فيقدمها مصرف التسليف الإسرائيلي. ولأسباب متعددة، للدراسة فيها مكانها، يقال أنه لا يمر أسبوع واحد دون أن تكون أسرة أو مجموعة عربية، مسيحية أكثر منها مسلمة، قد غادرت القدس من غير رجعة. وهناك عائلات أخرى تترك هذه أو تلك من المناطق المحتلة، وتبيع أراضيها، لحاجتها إلى مال يساعدها على الاستقرار في مكان آخر. وهي لا تبيع الإسرائيليين بصورة مباشرة، بل تبيع عرباً يتفقون مع المنظمات اليهودية التي يحق لها التصرف بالأراضي وفق القوانين الإسرائيلية. وإن عدد هؤلاء العرب لقليل جداً، ولكنهم يحققون ثروات طائلة.

هذه الهجرات تسهل إلى حد بعيد **تهويد القدس**. وقد بات معروفاً الآن أن عمليات الإخلاء تسبق بفترة وجيزة عمليات الهدم. يقول البعض، حتى من ممثلي البلاد الأجنبية، وهم يتبسمون: "سوف نصبح حراس متاحف"! ويمكننا التوقع بأن هذه المهمة لن تدوم طويلاً. فإذا كان الوجود الإسلامي القديم عاجزاً عن صيانة المباني التاريخية، فكيف يمكننا التفكير، بعد رحيل هؤلاء السكان، بأن الأماكن المقدسة المسيحية والإسلامية ستبقى، في مدينة يبذل فيها كل شيء لإزالة كل أثر غير يهودي عنها؟

وعلاوة على هذه الأخطار التي لمحنا إليها، هناك خطر **المساومات**. "إن جمعية العودة والإسكان للحي اليهودي في مدينة القدس القديمة"، ترتكز على القانون البريطاني الصادر عام ١٩٤٣، والخاص بانتزاع الملكية باسم المصلحة العامة. إن هذه الجمعية قد تأسست بقرار صدر في الجريدة الرسمية في ١٨ نيسان ١٩٦٨، وإذن فوراً بعد عمليات الاستيلاء التي حدثت في ٤ نيسان. ذلك لأنه يجب أن توفر المنطقة مساكن لخمسة آلاف يهودي. ومخططات الجمعية تضم بيوتاً تستوعب ٧٠٠ عائلة و٢٥٠ مخزناً تجارياً، ومدارس دينية (إسرائيلية) وكنساً، وفندقين إلخ... وفي حزيران ١٩٧٢، كشفت صحيفة "هاآرتس" النقاب عن النتائج الأولى، وإذا بها مرضية جداً: نصف السكان طرد، وقسم كبير من المنازل هدم، وبعضها رمم، وبني الكثير. وتحاول الجمعية، تدعمها البلدية وهيئات حكومية، أن تهدم على حد قولها، ما تبقى من المنازل العربية.

وقد دونتُ بدقة، فيما يتعلق بالجانب العربي، أعمال الإبعاد، مع اسم كل أسرة، وعدد الأفراد، واسم صاحب الملك، والحي الذي كان يقطنه. وهكذا طردت بين الأول من كانون الثاني ١٩٦٩، والأول من آذار ١٩٧٢، داخل أسوار القدس، ٣٦٠ عائلة تضم ١٩٩٠ شخصاً.

إن شركة إعمار المدينة القديمة باشرت بإنشاء مرآب تحت الأرض. فبالقرب من باب صهيون، في مقدمة الحي الأرمني، سيشاد فندق من الدرجة الممتازة، ولكن "دون أن يرتفع فوق المنازل المجاورة" (جيروزالم

بوست). وتقول صحيفة "الإيكونومست": "إن تشييد الفنادق في القدس أعظم إغراء للرأسمال الأجنبي".

إن هذه الفنادق تمتد خصوصاً في الأحياء الخارجية التي ضُـمت إلى مساحة القدس الجديدة. بتاريخ ٢٨ حزيران ١٩٦٧، أعلنت صحيفة (الإيكونومست) عن وجود تسعة فنادق، بينما هناك ستة عشر فندقاً في طور الإنشاء. وقد أثير الجدل خصوصاً حول فندق ذي ٢٣ طابقاً يعلوه برج، كان سيشاد على كل من جبل السكوبوس وجبل الزيتون. وقد سبق لنا أن تحدثنا عن الجهود الفاشلة التي يبذلها المهندسون الشبان والمحافظ الإسرائيلي كي لا يلحق بالمرتفعات أي تشويه. إلا أن مهندساً شاباً يهودياً، من أصل أميركي، استطاع، في هذه الحالة، أن يحصل على تخفيض ارتفاع هذا الفندق البشع، الذي تعهدته الشركة الأميركية "هاياة". وعلى كل حال، فإن ارتفاعه ما زال يبلغ حداً يجعله يشوّه تشويهاً كاملاً مناظر الطبيعة المتناغمة. وعلى مقربة منه، سدّت المنحنيات المتماوجة في جبل الزيتون بكتل من المجمعات السكنية، بينما اخترق الهضبة طريقان يشوّهان لوحة الأشجار المعلقة عليه.

لم يُظهر شعب قط ما أظهر هذا الشعب من انعدام ذوق ومن تسارع إلى تشويه منظر فتان غال على مثل هذا الخضم من الملايين. مع ذلك ففي إحدى الهضاب الجنوبية، حيث تمّ الاستيلاء على قسم من الأرض المخصصة لهيئة الأمم المتحدة، اقتصر الأمر أخيراً على تشييد

المجمعات السكنية على سفح المنحدر الجنوبي، وهو بعيد عن مرمى العين من القدس.

يشاد الآن ثلاثة عشر حياً يهودياً، تحيط بالمدينة من الشمال إلى الجنوب، في الجهة الشرقية. وفي ٣٠ آب ١٩٧٠، تم الاستيلاء على أرض واسعة ذات مساحة تبلغ ١١٦٨ هكتاراً، لإحكام إقفال هذا الطوق حتى مشارف بيت لحم، حيث تشاهد المساكن الجديدة. وقد أعلنت صحيفة "دافار"، في تشرين الثاني ١٩٧٠، عن مخطط لمناطق سكنية بين القدس وكل من بيت لحم وأريحا ورام الله.

شاهدنا منطقة النبي يعقوب شرقاً، والنبي صموئيل إلى الشمال الغربي، وهما في حمّى البناء. وقد انتزعت ملكية هذه القرية الأخيرة الفتانة من أصحابها، وتمّ الاستيلاء عليها في ٣٠ آب ١٩٧٠.

وفي ٢٣ آذار ١٩٧١، دمّر الجيش تدميراً كاملاً هذه القرية التي ترقى إلى القرون الوسطى، باستثناء المسجد فيها. فتحولت إلى موقع ترتفع فيه هذه المجمعات السكنية البشعة الرتيبة، الشبيهة بتلك التي شيدت في منطقة النبي يعقوب واتسع مداها.

هذه الأبنية ذات الطوابق العشر، تغطي الهضبة الفرنسية، وتسد الأفق كله، في عين الرائي الذي يصل إلى القدس قادماً من طريق الشمال، طريق نابلس. وما تزال هناك بجوار الطريق، بعض الفيلات العربية الأنيقة. إلا أن حي "ليفي أشكول" قد غطى الوادي الغربي، وهو يصعد بوحداته

السكنية الأشبه بمد من الوحل، حتى يبلغ الحدائق القليلة التي نجت من الهدم. لقد أحيطت القدس بسور ثان يسكنه اليهود، ويطلق عليه العرب اسم "حائط المبكى الثاني".

ولكن **خطة الإسكان المكثف** لا تقتصر على الإنجازات الحالية. فقد خطط لتشييد الآلاف من المجمعات السكنية في الأحياء الثلاثة عشر الجديدة، وفي المنطقتين الصناعيتين. وهي ترمي إلى تطويق القدس، بعد أن أعيد بناؤها، إلى أن يأتي يوم يضفي فيه عليها الهيكل الثالث معناها العبراني كاملاً. ولا بد لها أيضاً من أن تفقد طابعها الحالي بوصفها مدينة حدود، وذلك بتأسيس مدينة جديدة هي مدينة "معاله آدوميم"، فوق أعلى قمة تشرف على طريق أريحا، وبإنشاء العديد من المستعمرات اليهودية المتوقع قيامها شرقاً. (صحيفة الدافار في٣ شباط ١٩٧٢).

هل ستبقى القدس مدينة مقدسة يسطع إشعاعها الروحي على أتباع الديانات الثلاث؟ ما من شيء يطاله الشك كهذا الأمر. فقد انخفضت روحانية السائحين انخفاضاً كبيراً. ولوحظت الظاهرة عينها في مدينة الناصرة. وتلاشت الصلاة تقريباً. ففي القدس في موقع الجلجلة، شاهدت امرأة أنيقة تمسك شمعة بيدها، وتدير ظهرها للهيكل، وتقف هكذا حتى تؤخذ لها صورة. ثم تغادر المكان دون أن تصلي. هل كانت مسيحية؟ لست أدري.

ومنذ احتلت إسرائيل المدينة المقدسة كثرت فيها حانات الليل. قبل ذلك لم يكن لها من أثر. وتقدم للسائحين مغريات جديدة. فليس هناك فقط أرض كبيرة تتسع للألعاب والرياضة، اقتضى إنشاؤها عمليات استيلاء جديدة في شمال المدينة، بالقرب من قرية شافاط، بل ثمة أيضاً المجمع المسمى بالمجمع الأسباني، الذي يحتوي على مقصف وناد ومطعم وفندق. وهو يقع على طريق الخليل، على مقربة من الأسوار الموجودة في الجانب الإسرائيلي، في المكان الذي كان يقوم فيه مستشفى القديس يوحنا. وقد صمم هذا المجمع غير العادي يهودي يعود بأصله إلى مدينة طنجة، حيث تسود تقاليد من هذا الطراز. أما شريكاه فهما اثنان من أصحاب "الخان"، وهو حانة ليلية مجاورة. وقد ضمّ الافتتاح أكثر من خمسمائة مدعو. ومن المقرر أن يشاد فندق ضخم على المنحدر المجاور لكي يكتمل هذا المجمع. (جيرو سالم بوست في ٢٥ تشرين الأول ١٩٧٢).

إن الدعاية تعتمد عليه أكثر من اعتمادها على الأماكن المقدسة. وفي الواقع، فالإعلان الذي يملأ صفحة كاملة في صحيفتي "الفيغارو" و"اللوموند" الفرنسيتين الصادرتين بتاريخ ١٥ و١٧ آذار ١٩٧٣، كان أكثر من متحفظ بصدد الأماكن المقدسة. فتحت عنوان: "القدس تاريخ. القدس وعد"، لا يذكر الإعلان سوى حائط المبكى، وجبل الزيتون، وقبر الملك داوود (الذي لم تثبت بعد صحته). وليس من إشارة إلى قاعة العشاء الفصحي، القائمة في البناء نفسه، ولا شيء عن المساجد الشهيرة. لا شيء عن قبر "ملك لليهود" آخر، يحظى بإكرام حرم غيره منه. ولكن ما يعرض

علينا هو "قدس حانات الليل"، الخان مثلاً، وهو فندق تركي قديم، بات اليوم قبلة الناس.

تلك هي القدس. قدس الأمس وقدس اليوم. وهكذا ففي قدس اليوم ما من وقفة واحدة عند الجلجلة ولا عند مسجد قبة الصخرة، بل يكثر فيها ارتياد حانات الليل. جبل الزيتون؟ فيه فنادق فاخرة. على كل حال، لقد قيل لنا منذ فترة قريبة إن الإسرائيليين يريدون أن يحولوا القدس إلى مدينة للّعب.

تلك نظرة إجمالية لما حصل في القدس خلال ثلاث سنوات. إن مجلس الأمن لم يحرك ساكناً لتنفيذ قراراته. شأنه في ذلك شأن المكتب التنفيذي لهيئة الأونسكو. ولقد عثر، في العالم، على الطرق الكفيلة بإنقاذ العديد من الأبنية الأثرية التاريخية، أما القدس فلم تحظَ بأي اهتمام. والمسيحيون - أقول ذلك بأسى - لا يولون الأمر أي اكتراث.

بودّنا الآن أن نختم هذا البحث بمواقف تدعم ما عرفنا.

على الصعيد الإنساني، قال لي طبيب عربي من الأراضي المحتلة، بصدد الوضع العام في فلسطين: "إن أعظم الأخطار هو اللامبالاة الدولية. لا يبدو أن العالم معني بالأمر، مع أن القيم التي يدعي الحرص على حمايتها تنتهك. إن هذا التقاعس، الذي يناقض المبادئ المعلنة، أمر في غاية الخطورة. وإن فيه خطراً على العالم أجمع، إذ يدمر الثقة الموضوعية في العالم. في أعماقي شيء ما انكسر. فنحن لم نعد نسكن عالماً متحضراً، بل

غاباً. أما إسرائيل فقد أسكرتها انتصاراتها. وما لم تعد إلى رشدها، فلن تفكر حتى بما قد يعود عليها بالخير".

وعلى الصعيد الديني، وجّه المطران "جوزيف رايان" رئيس أساقفة انكوراج، إلى أساقفة الولايات المتحدة، نداء شديد اللهجة ومدعوماً بالوثائق، عمّم، ولكنه لم ينشر بعد. يقول الأسقف إنه لم يعد من الجائز أن يبقى المسيحيون في لامبالاتهم. وعلى هذا الأمر يتوقف إمّحاء محتمل للوجود المسيحي الفعلي في الأرض المقدسة. وإن استمر رحيل السكان العرب، فإن الوجود المسيحي في خطر، ومثله الوجود الإسلامي. على هذا يجمع أيضاً جميع أساقفة وقساوسة الشرق الأوسط. وجوهر القضية يعود إلى مشكلات مطروحة بشأن السكان، تتركز في المخطط الإسرائيلي الرامي إلى تهويد القدس يوماً بعد يوم، حسب وزير الإسكان، وإلى توفير غالبية يهودية كثيفة ثابتة ودائمة، "حسب وزير الهجرة". وأخيراً، كما قال الممثل البابوي: "عندما يغادر العرب القدس، ترحل المسيحية في ركابهم".

إن ضواحي القدس تشبه شواهق بروكلين. والجرافات تشق أثلاماً عميقة صفراء في الهضاب الخضراء الساحرة، حيث كانت الطبيعة نفسها تتشح بقيمة روحية. وهذه الأبنية تكشف عن اعتزام إسرائيل السيطرة على مدينة حظّر عليها امتلاكها، وعلى أرض لا يحق لها أن تستولي عليها.

وقد سأل المطران رايان السيد كوليك، محافظ القدس الإسـرائيلي: كيف يسوّغ قانوناً هذه الإنشاءات؟ فأجاب: "لست رجل قـانون، بـل محافظ مدينة حيّة".

فتهويد القدس السريع إذاً لا يمكن أن يتم إلا خلافاً للقانون (وقـد تحدثنا سابقاً عن الاتفاقيات الدولية الـتي وافقـت عليهـا إسـرائيل ثم انتهكتها).

ويؤكد المطران رايان أنه لابد من تقديم العون للسلطة المسـيحية في الشرق الأوسط، قبل أن تفقد المسيحية وجودها الحـي. وأيـاً كانـت العبارات المستعملة، فإن العرب يُدفعون بأعداد متزايدة خارج القدس، في حين يفد إليها اليهود بأعداد متزايدة. فسواء راقنا ذلك أم لم يرق، فإن من شأن هاتين الواقعتين أن تضعا حداً، وإلى الأبد، للوجـود المسـيحي في الأرض المقدسة.

إن المسيحية والإسلام يتمتعان في القـدس بوجـود شـرعي. والمسيحية لا يمكنها أن تسلم بسيطرة عنصرية ولا بسيادة تمارسها إحدى الديانات حيال سواها. "فالقدس مدينة مقدسة ليس فقط بالوعد المبرم مع إبراهيم، بل بحياة وموت يسوع المسيح".

هل هناك من يريد أن يضيف عملاً دولياً إلى هذه النظرة الدينية؟

لقد قال لنا الأمير حسن أمير الأردن، منذ فترة وجيزة:

"إن أحد العناصر الأساسية لضمان استقرار الشرق الأوســـط، أن تكون القدس مستقرة، وأن يسكنها العرب. أما إذا كانت بأسرها يهودية وإسرائيلية، فلا يمكن أن يكون هناك توازن".

القدس، نهاية المدينة الكونية(*)؟

ذلك هو عنوان كتاب صدر في باريس، عـــام ١٩٧٦، للكاتبـــة الفرنسية "آن ماري غواشون" وهو يقع في ٣٧٩ صـــفحة مـــن القطـــع المتوسط.

وككل الكتب التي تتناول أحد وجوه الصراع العربي الإســـرائيلي، بموضوعية وجرأة، لم يكد يشعر به أحد. فالكتاب يدين إسرائيل. فكانت مجرد الإشارة إليه، وبأولى حجة مهاجمته والتنديد به، من قبل الأوســـاط الثقافية أو السياسية الفرنسية، الموالية عموماً لإسرائيل، تعريفاً به وبالتـــالي مساهمة في نشره. فووجه بالصمت، إلا في ما ندر، وفي حدود هزيلة..

وكالعادة، مارسنا نحن العرب صمتاً آخر حياله.

الكاتبة مدرّسة سابقة في "السوربون"، وهي من القلة المثقفة الـــتي تصدت في فرنسا للفلسفة العربية القديمة. ولها العديد من المؤلفات بهـــذا الشأن.

(*)– نشر في مجلة (صوت فلسطين) /نيسان/ أبريل ١٩٧٩

ولكن اهتمامها بأئمة الفكر العربي القديم، ولاسيما ابن سينا، لم يمنعها من الالتفات بجرأة وموضوعية إلى الصراع العربي الإسرائيلي، بل هيأها لذلك، وإذا بها تقف في صف الذين يقفون إلى جانب الحق العربي، على الرغم من كل العنت الذي لاقته، سواء في تدريسها في السوربون، أو في ما نشرت من كتب ومقالات، وقد تبدى ذلك خصوصاً في الصمت الذي ووجه به بعض مؤلفاتها.

وإن ما تتمتع به من إتقان للعربية والعبرية والإنكليزية، فضلا عن الفرنسية، ومن سعة الإطلاع على جميع ما ينشر بهذا الشأن، من كتب ومجلات دورية وصحف يومية، ومن دأب على ارتياد كبريات المكتبات في فرنسا وخارجها، ومن قدرة على التنقل والسفر، ومن قوة ملاحظة ورسوخ ذاكرة وانفتاح ذهن وصلابة في الرأي، وفتوة في الكتابة، ما يدهش حقاً في إنسانة تجاوزت الأربع والثمانين.

نشر لها حتى اليوم تسعة عشر مؤلفاً، كان آخرها كتاب ضخم بمجلدين كبيرين، يحمل عنوان "الأردن الحقيقي"، تناولت فيه جذور الصراع العربي الإسرائيلي، وواقعه الراهن حتى عام ١٩٧٢.

وأما عن كتابها "القدس، نهاية المدينة الكونية؟" فقد وثقته، فضلاً عن رحلاتها المتعددة إلى الأرض المحتلة، وإلى القدس بالذات، التي شاهدت بأم عينها، سفرة بعد أخرى، معالم تدميرها – وكان أول ما نشرته بهذا الشأن، عام ١٩٧٣، مقالاً بعنوان "تدمير القدس الحالي"، توليت آنذاك ترجمته ونشر

في مجلة "المسرة" (عام ١٩٧٤)- إذاً أقول إنها وثقت كتابها هذا بعدد مذهل من المراجع والوثائق الدولية، بلغ بالتحديد:

(٤) من عهد الانتداب البريطاني حتى عام ١٩٤٨.

(٥) من المواثيق الدولية، كشرعة حقوق الإنسان، وإتفاقيات جنيف ولاهاي بشأن حقوق المدنيين أيام الحروب، وحماية التراث الثقافي العام...

(٥) من التشريعات الإسرائيلية...

(١٥) من قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بالقدس.

(١٥) من قرارات وتوصيات مجلس الأمن.

(١٤) من منظمة الأونسكو.

(٢٠) من المراجع الدينية العالمية والمحلية.

(٢) من وزارة الخارجية الفرنسية.

(٢) من القصر الملكي الهاشمي.

وقد بلغ عدد المراجع المنشورة التي اعتمدتها -١٣٤- بين كتب ومجلات.

حشدت كل هذا لمعالجة قضية القدس، وأعطته العنوان المثير الذي أعطت: "القدس، نهاية المدينة الكونية؟".

يضم الكتاب ١٥ فصلاً، يحمل آخرها عنوان الكتاب. وأضافت عليه الكاتبة ٤٠ صفحة من الملحقات التي تحتوي النصوص الرسمية، الإسرائيلية والدولية المتعلقة، بالقدس بالذات.

وضمنته أيضاً ١٩ صورة، ثلاث منها ملونة، للقدس وضواحيها، بالإضافة إلى صورة كبيرة تكشف عن الأفق الشرقي والشمالي الشرقي للهضاب المحيطة بالقدس، وإلى خريطة تبين مراحل عمليات الضم والتوسع التي تعرضت وتتعرض لها القدس وضواحيها القريبة والبعيدة.

موقف الكاتبة من القضية المطروحة، واضح منذ السطور الأولى للمقدمة، ولكنه لا يخرجها ولا لحظة واحدة عن موضوعيتها.

القدس، في نظرها، تحتل في التاريخ البشري، مكانة خاصة، فهي قلب الحياة الروحية لملايين الملايين من البشر، أتباع الديانات الثلاث، فضلاً عن المكانة الروحية والفكرية التي احتلتها عبر التاريخ، بالنسبة إلى شعوب الأرض كلها. فثمة عواصم للمال، وللسياسة والصناعة... أما عاصمة الحب والاحترام فهي القدس دون منازع. ومن غريب المفارقات التي تعيشها هذه العاصمة العالمية، "أنها تجمع في حب واحد الذين يتقاتلون للحصول عليها".

وهي ترى، نتيجة لهذا الواقع التاريخي والروحي، أن القدس يجب أن تبقى مدينة حية، ولكن تنبض بحياة الجميع، وأن تحكي للجميع حكايا التاريخ الروحي للبشرية جمعاء.

أما أن تتحول إلى مدينة يهودية صرف، وتصبح بـذلك عاصـمة العنف واللهو والمال – فلا تعدو عندها بالنسبة إلى المؤمنين بها كعاصـمة للروح والمحبة، كونها مجرد متحف لبقايا الـدينين الكـبيرين، المسـيحية والإسلام – "فذلك خطأ فادح" (ص٧٠)، لا بد من التنديد به والتنبيه إليه قبل فوات الأوان.

وهي تقول منذ المقدمة:

"إنها تستهدف من كتابها تحليل التوجهات التي يخشى أن تحوّل، في السنين القليلة القادمة، القدس عن رسالتها العظيمة والحقيقيـة، أي عـن كونها المدينة الكونية" (ص٧٠).

تستعرض فصول الكتاب الخمسة عشر:

-تسلسل الأحداث التي شاءت للقدس أن تكون بـؤرة الصـراع العربي الإسرائيلي، منذ عهد الانتداب البريطاني إلى قرار التقسـيم عـام ١٩٤٧، وإلى يوم سقوطها بيد إسرائيل عام ١٩٦٧ (الفصل الأول).

-ضم القدس القسري إلى المدينة العبرية (الفصل الثاني).

-عمليات التمهيد لتدمير المدينة القديمة (الفصل الثالث).

-عمليات التدمير الشاملة والتهجير القسري والمتنوع (الفصل الرابع).

-المخادعات الإسرائيلية "والاستيلاء الزاحف" لاسـيما في "الحـي اليهودي" (الفصل الخامس).

- المخططات المتوالية من أجل القدس الجديدة (الفصل السادس).

- الصعوبات التي اعترضت المخطط الرئيسي (الفصل السابع).

- بداية التحول الذي أخذ يطرأ على المدينة التاريخية القديمة (الفصل الثامن).

- الآفاق المفتوحة أمام المدينة الجديدة لجلب الأموال واستثمارها (الفصل التاسع).

- تحويل القدس كلها والجبال المحيطة بها إلى مسافة كيلومترات، إلى قلاع حصينة (الفصل العاشر).

- المستوطنات الإسرائيلية في وادي الأردن وفي الضفة الغربية: مرحلة جديدة من مراحل الاستيلاء النهائي (الفصل الحادي عشر).

- عمليات التنقيب عن الآثار اليهودية خارج المدينة المقدسة: تمهيداً لإزالة الآثار غير اليهودية (الفصل الثاني عشر).

- عمليات التنقيب عن الآثار اليهودية داخل المدينة القديمة: تمهيداً لتدمير الآثار غير اليهودية فيها والأحياء العربية (الفصل الثالث عشر).

- نصوص المعاهدات الدولية التي وقعت عليها إسرائيل والتي تخرقها على كل صعيد باستمرار (الفصل الرابع عشر).

-التلويح بقرب انتهاء القدس كعاصمة روحية وحضارية للعالم (الفصل الخامس عشر).

لاشك أن مجرد استعراض عناوين هذه الفصول بما يوحي سريعاً بمحتواها، يكشف النقاب عن خطورة ما يحدث الآن في القدس وللقدس.

والأخطر من كل ذلك، التصميم الواضح الذي تضعه إسرائيل في أساس مواقفها، على تهويد القدس، وعلى الاستعجال في إنجاز هذا التهويد.

وتتوالى الوقائع ثابتة، ساحقة.

منذ السابع من حزيران ١٩٦٧، بدأت الجرافات الإسرائيلية بدك المنازل المحيطة بحائط المبكى، وذلك بعد إنذار السكان بثلاث ساعات فقط. وفي اليوم التالي كانت المنطقة كلها قد تحولت إلى ساحة كبيرة. وكانت حصيلة العملية: تدمير ١٣٥ منزلاً، وجامعَين، وترحيل ٦٥٠ عربياً و... ودفن عجوز عمياء تحت الأنقاض... (ص٧٠) وكانت تلك أولى عمليات التهجير والتدمير.

وتواصلت العمليات المماثلة دون هوادة، داخل القدس القديمة وخارجها. وشملت مناطق بكاملها، وقرى مسحتها من الوجود، وهضاباً ارتفعت عليها بسرعة أبنية شاهقة شوّهت مناظر القدس وآفاقها الفريدة.

كان ذلك كله، وما يزال مستمراً، بطرق باتت معروفة، منها الإجلاء القسري، ونسف البيوت، ومنها مصلحة الأمن العليا، وتوسيع المناطق العسكرية المحظورة، ومنها حفر أنفاق تحت الأحياء السكنية وسواها، وشراء الأراضي بواسطة عملاء، ومنها قطع المياه والكهرباء، بل وسد المجارير على أحياء بكاملها لفترات طويلة لا يعود معها الاستمرار في السكن ممكناً، ومنها عبور الطائرات النفاثة فوق الأحياء القديمة في فترات منتظمة، تقوم خلالها حفريات جوفية تدعمها رقصات الجرافات الضخمة التي جلبت "لتمهد الأرض..." (ص٧٠ - ٧٤).

ويأتي التبرير العلني والرسمي لهذه العمليات:

"بأسلوب خبيث، يشوه الحقائق وينتقصها، بل ينتهج الكذب" (ص٦٠). فالعرب "يسكنون زرائب لا تليق ببشر.. وقد قدمت لهم تعويضات مناسبة، واستبدلت منازلهم العفنة بمنازل لائقة" (ص٨٠).

ثم إن الأراضي المستولى عليها، إما مهملة يجب استصلاحها، وإما فارغة من السكان ويجب إشغالها واستثمارها، والعرب لا يعرفون كيف يستثمرون هذه الأراضي بعد أن تركوها مئات السنين جرداء كالصحراء، أو هم عرّوها مما كان أجدادهم اليهود الأولون قد كسوها به...

وقد واكب كل ذلك قرارات حكومية -سبقت أو لحقت- تسوّغ الاستيلاء على الأرض كلها -الآن ومستقبلاً- باسم الحق الإلهي الذي وهب لإسرائيل على أرض إسرائيل كلها. (ص٢٢ - ٢٣).

وأما حدود هذه الأرض، فترسمها إرادة الشعب الإسرائيلي، تنفيذاً للإرادة الإلهية، تلك هي شرعيتها.

"وقد طبق هذا المبدأ دونما ضجة، وبأسلوب فعال وواقعي إلى أقصى الحدود، من جراء سرعة التنفيذ من جهة، وشلل الأمم المتحدة من جهة ثانية" (٢١ - ٢٣).

وتبرز الكاتبة المبادئ الأساسية المكيافيلية التي تعتمدها إسرائيل في كل ما تقرر وتنفذ، منها على سبيل المثال، لا الحصر:

"إن سياسة إسرائيل الدائمة هي سياسة الأمر الواقع". (ص٢١).

"وإن البناء على أرض ما، هو التأكيد الصريح على امتلاكها" (ص٤٥).

"وإنه يجب العودة بالقدس إلى طابعها القديم" (ص٦٤).

وتؤكد إسرائيل أن القدس كانت دوماً يهودية، في حين أن دليل القدس الرسمي، المنشور في إسرائيل بالذات عامي ١٩٧٤ - ١٩٧٥، يؤكد أن اليهود لم يكونوا ليتجاوزوا العائلتين فقط عام ١٩٦٧، وأنهم لم يكونوا ليتجاوزوا بضع مئات فقط، في مطلع القرن السادس عشر (ص٧٩ - ٨٠):

وباسم سياسة الأمر الواقع،

وباسم البناء على الأرض،

تواصل إسرائيل الاستيلاء يوماً بعد يوم، وبشتى الطرق، حتى لو كان ذلك باسم "حماية المارة" (هكذا...):

"فالقضم أصبح أحد مبادئ السياسة اليهودية" (ص٣١).

وتقابل إسرائيل الاحتجاجات المحلية العربية والعالمية:

"بالكذب، وقد تحول إلى مؤسسة وطنية" (ص٦١).

"وبالضحك على مبعوثي الأمم المتحدة بتقديم تقارير كاذبة لهم" (ص٥٩).

"وباللامبالاة والصمت والتجاهل" (ص٥٩).

"وبالتأكيد السفيه والكاذب على تمسكها بمواثيق الأمم المتحدة" (٢٦٩).

"وباستعجال التدمير والتهجير والبناء" (ص٢٦٨).

"وبالتواطؤ والتسويف" (ص٢٦٩).

"وبكسب تأييد بعض مبعوثي الأمم المتحدة" (ص٢٧٠).

وبتحريض بعض المثقفين الغربيين وانتزاع تأييدهم كـ "سيمون دوبوفوار" (ص٢٧٦).

وإذ يتردد السؤال الخطير والملح: ما هي قدس المستقبل؟

تؤكد الكاتبة:

"إن أحداً لم يكن، في البدء، يتصور المخطط الصهيوني بكل ضخامته... كان بعضهم يقول إن هذه الإجراءات ملومة بل ومجرمة. ولكن لم يكن المخطط العام واضحاً بكل ما ينطوي عليه من تطبيق لا يرحم" (ص٤٩).

وإذا بالمخططات العمرانية المتوالية تكشف النقاب شيئاً فشيئاً عن خطة مدروسة بعيدة المدى:

كان أولاً مخطط – ماك لين – عام ١٩١٨ – ص٨٨ –، ثم مخطط – آشبي وجيدس – عام ١٩٣٠، فمخطط – هوليداي – عام ١٩٣٤ – ص٨٩–، فمخطط – كندال – عام ١٩٤٤ – ص٩٠ – فمخطط – ران عام ١٩٤٨، الذي تميز برفضه التهويد وتوحيد القدس في التفاهة – ص٩١ –، ثم جاء مخطط عام ١٩٥٠ يدعو إلى الاستيلاء على منطقة واسعة من القدس وضاحيتها، ثم كان مخطط – شفيف – عام ١٩٥٦ – ص٩١ –، إلى أن سقطت القدس، فكان الاستيلاء عليها عنصراً أدخل تعديلاً كلياً على المعطيات السابقة، بإدخاله عامل السياسة بدلاً من الجمالية والتعقل – اللذين حاولت المخططات السابقة الأخذ بهما – ص٩٣–.

ثم كان مخطط عام ١٩٦٨، المعروف بالمخطط الموجه، ذاك الذي أثار ضجة كبرى في العالم كله، بما فيه الولايات المتحدة الأميركية.

كان هذا المخطط يحتوي قسمين يمتد تنفيذ أولهما إلى سنة ١٩٨٥، فيما الثاني يطال عام ٢٠١٠ – ص٩٣–.

وهو يرتكز على نقاط ثلاث رئيسية:

الأولى: المدينة القديمة وجبل الزيتون.

الثانية: المدينة الجديدة التي تحيط بالمدينة القديمة.

الثالثة: منطقة تابعة للمدينتين، تمتد شمالاً حتى رام الله ضمناً، وجنوباً حتى بيت لحم.

ويستهدف هذا المخطط:

أولاً: تحويل القدس كلها إلى مدينة موحدة تكون عاصمة إسرائيل من جهة، وإلى مدينة عالمية تكون عاصمة المال والثقافة والمتعة لجميع الجماعات المقيمة والعابرة.

ثانياً: المحافظة على القدس القديمة، وإبراز معالمها التاريخية الأساسية (ص٩٣-٩٤). ذاك هو المخطط الرئيسي الذي تستلهمه إسرائيل حيال القدس.

وقد قامت الضجة في العالم كله ضد هذا المخطط. ووجهت إليه انتقادات كثيرة، كان أقساها ما جاء على لسان وقلم أحد أبرز أعضاء لجنة القدس الدولية، التي كان شكَّلَها تيدي كوليك محافظ القدس، من أجل دراسة المخطط، وهو المهندس اليهودي الإيطالي -برونو زيفي- حيث قال عنه: إنه مخطط مقرف وغوغائي بصورة مطلقة - ص١١٤-

وكتب عضو آخر من أعضاء اللجنة في دراسة طويلة خص بها المخطط نفسه، كتب "كوتشر" في وصف إحدى جلسات هذه اللجنة يقول:

"وفي جلسة عقدت في سرية وعلى عجل، أعرب أعضاء اللجنة للسلطات الإسرائيلية عن مشاعرهم حيال المخطط. كان معظمهم يتأجج غضباً إزاء ما يرى. وبعضهم بكى، وبعضهم أصيب بما يشبه الهستيريا، وقد نقل أحدهم على الأقل إلى المستشفى لسوء حالته. وكان المسؤولون الذين توقعوا التأييد المألوف في مثل هذه الدعوات، في حالة من الذهول. كان من الواضح أنهم لم يتصوروا قط أنه يمكن لإنسان أن يؤخذ بمخطط مدينة إلى هذا الحد" -ص١١٤-.

ثم إن هذا المخطط كان يضم:

"لائحة بالأبنية التاريخية التي يجب الحفاظ عليها، ولم يكن ثمة أثر في هذه اللائحة لكل ما هو قائم الآن في المدينة القديمة - ص١١٨-.

وتوالت الاحتجاجات هنا وهناك. فكان أن عرض عضو مجلس العموم البريطاني، مايكل آدامس، وهو مدير لجنة التفاهم العربي البريطاني، في إحدى قاعات المجلس، فيلماً وثائقياً يبين فيه:

"أن إسرائيل تشوه الطبيعة وتغيّر معالم المدينة بتشييد أبنية شاهقة ذات طوابق متعددة، وبانتزاع الأراضي وتدمير المنازل. ونندد بمؤامرة الصمت التي تحوكها الصحافة الغربية" - ص١١٨-١١٩-.

أما العرب في المناطق المحتلة، فوصفوا الأحياء السكنية الجديدة التي قامت فوق الهضاب الشمالية الشرقية للقدس، وصفوها "بحائط المبكى الثاني" -ص١٢٤- وهي أشبه ما تكون بحصون متراصة ممتدة على طول الطريق بين رام الله والقدس، تطل من علُ على وادي الأردن كله...

وكان أن احتج بعض الإسرائيليين أنفسهم

فكتب"ريشارابلين" افتتاحية في "الجيروسالم بوست"، بتاريخ ٢٣ حزيران ١٩٧٣، تحمل عنوانا مثيراً:

- جمال القدس يرحل... يرحل...

إلا أن أفضل وأقسى ما وُجِّه من انتقادات جاء بقلم المهندس اليهودي "كوتشر" الذي خص المخطط بدراسة مطولة قال فيها، في ما قال:

"إن وزارة الإسكان الإسرائيلية معروفة بولعها بالأرض المحروقة -١٢٨-".

ذلك هو المخطط الصهيوني:

بناء عاصمة اسرائيل الموحدة واليهودية الصرف...

وبناء عاصمة العالم المالية والسياسية والثقافية.

...على انقاض شعب تنتزع منه أرضه يوماً بعد يوم، بانتظام

-١٥٥-

كل ذلك واضح....

ولكن في الأفق تترامى الرغبة الصريحة في بناء....الهيكل.

أجل هنا بيت القصيد:

لن تكون القدس يهودية إلا ببناء الهيكل.

وقد بدأ ذلك بعيد حرب حزيران عام ١٩٦٧.

فالمواقف المعلقة يتخذها كبير الحاخامين الجنرال غورين في ١٥ آب عام ١٩٦٧، حيث أقام الصلاة مدة ساعتين داخل الحرم الشريف تنطوي على الكثير الكثير....

ولا بد من ربط هذا الموقف بما أعلنه وزير الديانات الاسرائيلي في اجتماع عقد بتاريخ ١٢ آب من السنة نفسها، وضم مندوبين عن الطوائف اليهودية في بريطانيا وفرنسا وكندا والولايات المتحدة، إذ قال:

"إن سلطات الاحتلال تعتبر الصخرة وجميع ملحقاتها ملكاً لها، بحكم استملاك حدث في الماضي، أو بحكم الاحتلال الراهن".

وقد صرح أيضاً علنا بأن السلطات مصممة على بناء هيكلها في مكان الباحة عينها، عاجلاً أو أجلاً. وأضاف موضحاً: "لا نريد في هذه الفترة أن نبني هيكلنا، ولكن سنسعى لأن نبنيه فيما بعد، وسنباشر ببناء جميع الكنس في المدينة القديمة، وإبراز المنطقة الواقعة بالقرب من حائط

المبكى بأقصى سرعة... فقد اشترينا الصخرة المقدسة في عهد داوود واليبوسيين" (ص١٢).

وقد يكذب بعضهم هذا القول والادعاء كما فعل "شوراقي" (ص١٢).

ولكن الحقيقة غير ما يقولون، وإن السؤال ليطرح حول هذا الأمر باضطراد متزايد منذ حزيران ١٩٦٧(ص١٢).

وقد تصدى لهذا السؤال عينه أحد أبرز الباحثين الإسرائيليين، وهو أستاذ الديانات المقارنة في الجامعة العبرية بالقدس، المدعو "زفي فربلوسكي"، إذ نشر مقالاً مسهبا جداً في الجيروساليم بوست بتاريخ ٢٥آب ١٩٦٧، أكد فيه في نهاية المطاف بأن بناء الهيكل ضرورة قومية وليست دينية (ص١٢-١٣).

وتحذر الكاتبة القارىء منذ الصفحات الأولى إذ تقول:

"لا يغيبن عن البال مثل هذا الموقف الذي أعلن منذ بدء الاحتلال". (ص١٢).

ولئن كان الكتاب كله موجها ضد تهويد القدس أثرياً وحضارياً، فهو يدعو في الخاتمة، إلى الحؤول دون تهويد القدس بشرياً (ص٣١٩).

وهي تدعو إلى:

قيام حركة عالمية لصالح الإبقاء على سكان المدينة القديمة، (ص٣١٩).

وتؤكد:

"إنه يتحتم على المسلمين والمسيحيين ان يخلقوا رايا عالمياً لصالحهم. فالمدينة مدينتهم، لأنها مدينة عالمية.

"وإنه ليحق للجميع، بل يجب على الجميع أن يقولوا إن المدينة يجب أن تظل كذلك.

"ولئن كنا نتحدث عن حقوق الفلسطينيين الذين رحلوا، أفلا يتوجب علينا بأولى حجة أن نتحدث عن احترام حقوق الذين صمدوا، والذين تسعى إسرائيل بكل طاقتها لطردهم وسلخهم عن ممتلكاتهم؟" (ص٣١٩).

وبعد أن تستنهض الكاتبة الضمير العالمي لمواجهة هذا التحدي الإنساني والحضاري، تختم الكتاب بقولها:

"لا نبالي أبداً إن ألححنا على اللاشرعية المطلقة التي تنطوي عليها جميع الإجراءات الإسرائيلية. فعندما كان الألمان، إبان الحرب العالمية الثانية، سادة باريس، لم يكن هناك من يقول إن باريس ألمانية. لم تكن باريس في ألمانيا، وليست الأماكن المقدسة في إسرائيل. وان الضم من جانب واحد لاغٍ بحكم القانون.

"فالقدس ليست بأي حال ملكاً لإسرائيل.

"لا بحكم قرار للأمم المتحدة التي لم تعطها إياها، والتي جعلت منها كيانا مستقلاً،

"ولا بحكم الاحتلال، إذ إن شرعة الأمم المتحدة التي وقعت عليها إسرائيل، تحظره...

"ولا بحكم حقوق تاريخية، إذ إن الحضور العربي، مسيحيه ومسلمه، يفوق بكثير الحضور اليهودي.

"وأية كانت السيطرة التي تمارسها إسرائيل في جميع الميادين، فإنها لم تحصل يوما من أي بلد على الاعتراف باحتلالها للقدس، وبالحقوق التي تدعي ممارستها.

"أفلن يسمع أخيراً الإسرائيليون الأصوات المعتدلة التي ارتفعت حتى بين صفوفهم، لتطالبهم بكف يدهم عن المدينة المكرمة؟" (ص٣٢٠).

وبعد،

أفلن نسمع نحن العرب بدورنا الأصوات الذكية والعلمية التي ترتفع هنا وهناك لتدافع عن حقوقنا بأفضل مما ندافع عنها؟.

علنا نسارع إلى كتاب كهذا، وإلى أمثاله القليلين،

لنوافي بها المثقفين في العالم، والمسؤولين الروحيين، ولا سيما المسيحيين منهم، نوافيهم بها،

هدية رخيصة ثمينة،

قد تهديهم يوما إلى بعض حقنا.

IV- إسرائيل والحرب والسلام

إسرائيل والسلام: استراتيجية المماطلة(١)

أيكون المجتمع الإسرائيلي أسير الماضي، أكثر من البلدان العربية التي توافقها مسيرة التاريخ الجديدة؟

ماذا تريد إسرائيل، بعد فشل مهمة كيسنجر، وقبيل العودة المحتملة إلى مفاوضات "جنيف"؟... ما هو السلام الذي تريد، وتستطيع حكومتها المنقسمة على نفسها، والمستندة إلى غالبية ضئيلة، أن توقع عليه؟.. ما هو السلام الذي يوافق عليه الرأي العام الإسرائيلي، إذا أخذنا بعين الاعتبار عدم ثقته بالدول العربية؟...

هذه الأسئلة تضطرنا للقيام بتقويمات ثلاثة:

الأول: سياسي، يتخلله شيء من علم النفس التاريخي، يتناول الطبقات الحاكمة، وعلى نحو أوسع، السياسة الإسرائيلية.

---

(١)- المقال للباحث الفرنسي "جيرار شاليان"، نشر في صحيفة "لوموند الدبلوماسية" بتاريخ نيسان/ أبريل ١٩٧٥، في الصفحات ١٦-١٧-١٨، وقد قمت بترجمته آنذاك، ولكني لم أجد من ينشره.

والثاني: سوسيولوجي، يتناول الرأي العام، وبصورة أشمل، المجتمع الإسرائيلي، لأنه في آن واحد، يعكس اختيارات القادة ويؤثر عليها.

والثالث: استراتيجي وسياسي، يتناول توازن قوى انفجارياً يبرز، على نحو متفاوت، على مستويات ثلاثة:

محلياً (الفلسطينيون)، إقليمياً (الدول العربية)، وعالمياً (المنافسة بين الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتي). وإن التقويم الثالث، وقد بات معروفاً أكثر من التقويمين السابقين، يتوقف عليهما، أقله على صعيد الإرادة الإسرائيلية.

كان يبدو أن الصهيونية ودعوتها القومية والمسيحانية لن يكتب لهما النجاح، سواء بالنسبة إلى "البوند" ذي البرنامج العقلاني (الداعي إلى اندماج اليهود، بوصفهم أقليات ثقافية ودينية، اندماجاً تاماً في مجموعات وطنية)، أو بالنسبة إلى الماركسيين الثوريين، الذين كانوا يعتقدون بزوال المشكلة اليهودية - ومشكلات أخرى كثيرة - من جراء ظهور نظام جديد. وكانت المفارقة، عندما تبين، نتيجة اللاسامية الحديثة والنازية والستالينية، أن الحلم الصهيوني هو أقلها ابتعاداً عن الواقع، وإن كان لم يتحقق إلا جزئياً. وهو، من الزاوية القومية، ثورة قوة قامت بتضافر الإرادة والصبر والذكاء السياسي والعنف الضروري. أرض واحدة وشعبان، إن كانت هذه العبارة تعبر عن جوهر الخلاف، إلا أنها لا تكشف قط عن تعقيده التاريخي.

إن إنشاء المستوطنات الزراعية الصهيونية يأتي، تاريخياً، في إطار التوسع الأوروبي. ولكن الصهيونية ليست استعماراً من الطراز الكلاسيكي: فهو لم ينطلق من وطن أم، و لم يستخدم اليد العاملة المحلية (١٩٠٥-١٩٦٧). وإن هدف الصهيونيين، لاسيما أولئك الذين قدموا مع موجة المهاجرين الثانية والثالثة (عاليا)، كان بناء مجتمع طبيعي، أي مجتمع يتألف من مجموع طبقات مجتمع معاصر، ويقوم على العمل اليهودي (افودا ايفريت). ولكن سكان فلسطين العرب (وكانت القومية العربية قد ظهرت بوضوح ابتداء من عام ١٩٠٨) اعتبروا مقدم اليهود على أنه تدخل غريب، ذو منشأ أوروبي، يشكل خطراً على بقائهم فوق أرضهم. وهذا هو بالضبط ما حدث، بالرغم من حركات التمرد التي قام بها الفلسطينيون في العشرينات والثلاثينات (١٩٢٠، ١٩٢٩، ١٩٣٦، ١٩٣٩). وإن مطالب الفلسطينيين القومية قد ظلت قوية منذ عام ١٩٤٨، إذا اعتبرنا أن رفض العالم العربي هو استمرار لها، واستغلال في آن، (و إلا فما الذي حال دون إنشاء دولة فلسطينية في الضفة الغربية وفي قطاع غزة، وقد كانت بالأمس تحت حكم عربي، فيما اليوم يطالب بها كأرض فلسطينية، يمكن أن تقام عليها الدولة الفلسطينية؟). فإن الدول العربية كانت السبب في استمرار الحركة الفلسطينية، وفي ضعفها.

منطقان:

إن الرفض العربي يضفي على النزاع طابعه الإقليمي وبعده التفجيري، طالما أنه نزاع بين دول تتواجه.ونظراً لأهمية المنطقة الجغرافية

والسياسية والاستراتيجية والاقتصادية، فقد كان محتوماً على القوتين العالميتين العظميين أن تخوضا منافسة شديدة من خلال بعض العملاء (استبدالهم أسهل مما يبدو). وإن إسرائيل (وهي تعد ٢٨٠٠٠٠٠ يهودي و ٤٥٠٠٠٠ عربي ودرزي) تحتل منذ عام ١٩٦٧ أراض يسكنها ١,٠٥,٠٠٠فلسطيني أي أن العرب قد بلغوا نسبة ٤٠% من مجموع السكان. وقد نجم عن هذا الاحتلال ثلاثة أمور أساسية:

أولها، أن الحركة الوطنية الفلسطينية قامت من جديد بقيادة منظمة التحرير.

ثانيها، أنه أصبح لسورية ومصر مصالح وطنية تدافعان عنها، بدل رفض عنيد وغامض.

ثالثها، أن تنامي النزاعات التوسعية، غير المعلنة، في إسرائيل، يطرح سؤالين حاسمين بالنسبة إلى مستقبل الصهيونية:

الأول حول أقلية فلسطينية يمكن على المدى البعيد، أن تصبح أغلبية، والثاني حول نهاية "العمل اليهودي" واستخدام يد عاملة فلسطينية، تلغي بعد اليوم، بالرغم من ارتفاع الأجور، كل التباس بشأن طابع الدولة الاستعماري.

إن إطار النزاع العام أوسع من أن يخضع لحدود عقلانية ضيقة، غير مهيأة لأن تفسر علاقات لعبت فيها الإيديولوجيات، وما زالت، دوراً أساسياً. فإن موقف الأخذ بهذه القضايا لا يخضع حتى على الصعيد

الخارجي، لوحي من هذين المنطقين، بل لِتبنٍّ شبه تام لهذه القضية أو تلك، وفقاً للانتماءات الثقافية. فقد كان لا بد من أربعة حروب في أقل من ربع قرن، كي تتقبل الدول العربية، وخصوصاً تلك المعنية مباشرةً بالنزاع، فكرة دولة إسرائيل، وتصبح مستعدة للاعتراف بها رسمياً في إطار تسوية سلمية، لقاء مطلب كان بدا معتدلاً في حزيران ١٩٦٧ (وهو إعادة الأراضي المحتلة). وكان لا بد أيضاً من أربعة حروب وربع قرن، كي تدرج الحكومة الإسرائيلية في نصوصها الرسمية (وهو برنامج ٢٨ تشرين الثاني ١٩٧٣، ذو الأربعة عشر فقرة)، مجرد العبارة التالية "الشعب الفلسطيني"، في حين أنها كانت بالأمس تنكر حتى وجود الفلسطينيين. إن الكثيرين ممن يؤيدون الدولة العبرية تأييداً مطلقاً، يضعون موضع الشك إرادة العرب في الاعتراف بإسرائيل. أما خصوم إسرائيل، فإنهم يلاحظون أن الحكومة الإسرائيلية تصر، في تصريحاتها، على تجاهل الصفة الوطنية للكيان الفلسطيني، في حين أنها على استعداد لتوقيع الصلح مع دمشق، شريطة الاحتفاظ بالجولان، وللجلاء عن قسم من سيناء، لقاء معاهدة عدم اعتداء.

مراحل الرفض:

يجدر بنا أن نرسم الأبعاد الإيديولوجية للقضية. فخلافاً لفكرة واسعة الانتشار في الغرب، فإن الهوس الجماعي المتطرف، والهستيريا ذات الطابع الكلي (كل شيء أو لا شيء)، والانغلاق السيكولوجي المطلق، كل هذا ليس في النزاع القائم، وقفاً على العرب. والحقيقة، بكل بساطة،

أن هذه كلها تبدو لدى الطرفين المتنازعين، في أشكال ثقافية متباينة. فإن الحواجز الإيديولوجية لدى الشعوب، بالإضافة إلى الرفض الذي يواجه به الحكام جميع الاختيارات المحتملة - وهم يهدفون من وراء ذلك إلى خدمة مخطط ما أو إلى إرضاء الرأي العام- تنتهي في كلا الطرفين، وإن بأشكال خاصة، إلى نتائج كثيرة التشابه. لا شك أن هذا الهذيان، بعيداً عن الحسابات السياسية وعن عقلانية المخططات العسكرية، هو في أصل ما يسمى في التاريخ بالمآسي.

إن العرب واليهود، مثلهم كمثل العديد من الشعوب، منذ القرن التاسع عشر، قد حاولوا الإعلاء من شأن ماضيهم ذي الأصول الدينية القوية، كي يبعثوا من جديد، على أسس علمانية خصوصاً، ولكنها لا تخلو من جوانب دينية هامة، عظمة غابرة (لدى العرب المهزومين)، واستقلالاً يتخذ (لدى اليهود) شكل دولة ويضع حداً لوضعهم كأقلية تشكو من بعض التعصب.

من الجانب العربي، فإن تجاهل الخصم تجاهلاً يكاد يكون كاملاً حتى فترة قريبة، وانعدام الرغبة في التعرف عليه، كانا ينعكسان في النزعة إلى الاستعاضة عن البحث الجدي بصورة أسطورية لدولة شريرة، تحركها مؤامرة محلية ودولية. وبدل أن يواجه العرب تسوية تمليها علاقات القوى، فإنهم آثروا دوماً التخلص من المشكلة باللجوء إلى سحر الكلمة. ولهذا فإن بعضهم أبدى أسفه سنة ١٩٤٨، لأنه لم يقبل تسوية عام ١٩٤٧، وسنة ١٩٦٧، لأنه لم يقبل تسوية عام ١٩٤٨ إلخ...

العقبة الفلسطينية:

أكد الإسرائيليون، منذ البدء، أنهم يهدفون إلى سلام مع الدول العربية، ولكنهم لم يعترفوا بالعقبة الرئيسية، وهو الشعب الفلسطيني بوصفه كياناً وطنياً. فإن القيادة الإسرائيلية اصطدمت دائماً بصعوبة هي من صميم الصعوبة التي تواجهها في الاعتراف بالأذى الذي ألحقته بالفلسطينيين من جراء إنشاء الدولة الصهيونية. فثمة واقع لا جدال فيه ولا تطاله كل المماحكات الفارغة: وهو رفض إسرائيل السماح للاجئين الفلسطينيين بالعودة إلى ديارهم عام ١٩٤٩. إن السؤال الإسرائيلي "هل الفلسطينيون موجودون كشعب؟"، هو صدى للسؤال العربي: "هل اليهود يؤلفون شعباً؟". "وإن الفلسطينيين ليسوا أمة" يأتي جواباً على الشعار العربي القائل بأن "إسرائيل لا تشكل أمة". وعلى الصعيد العملي، ليس للفلسطينيين، في نظر الإسرائيليين، دستور جماعي. فسواء داخل إسرائيل في حدود ١٩٤٨، أو اليوم في الأراضي المحتلة، فإن الفلسطينيين ليسوا سوى أفراد عرب ليس من يمثلهم، لأن منظمة التحرير لا تمثلهم، ولأنهم يفتقرون كلياً إلى حرية التنظيم السياسي داخل الأراضي المحتلة، تتيح لهم التعبير عن تطلعاتهم الجماعية.

إن الصهيونية، نتيجة لقصر نظر متعمد، تميزت منذ البداية بمحاولة تقليص أهمية القضية الفلسطينية. فالفترة الممتدة من ١٨٨١إلى ١٩١٤،كانت مرحلة الوهم الاستعماري القائم على شعار: "شعب بلا أرض لأرض بلا شعب". أما الفترة الممتدة من ١٩١٧ إلى ١٩٤٠، فقد

كانت مرحلة الوهم الليبرالي التي نوجزها بأن بعض المسؤولين الإسرائيليين، من أمثال وايزمان، ذهبوا فيها إلى الاعتقاد بأن العرب سيقبلون بالصهيونية، لأنها ستحمل لهم التقدم الذي يعود عليهم بالخير. وبدأت المرحلة الثالثة يوم قامت الدولة، وهي تتميز بأفكار بن غوريون بصورة أساسية، الذي يسلم بواقع رفض إسرائيل، ولكنه يعتبر أن الدولة اليهودية قادرة على ردع العرب بفضل تقدمها التكنولوجي. وإن هذا الموقف، إثر التوسعات الجديدة التي طرأت عليه بعد حرب ١٩٦٧، يرفض اليوم أيضاً، وبعناد، أن يأخذ بعين الاعتبار التطلعات الوطنية الفلسطينية. وإن الموقف الرسمي الإسرائيلي منذ عام ١٩٤٨، يتلخص بأن اللاجئين قسم من العالم العربي يتوجب عليه أن يستوعبهم.

أما الرفض العربي فقد تلقاه الإسرائيليون، لاسيما ممن ينتمون إلى الجيل السابق القادم من أوروبا، بحق أو بخطأ، على مستوى اللا وعي الجماعي، وكأنه تهديد بمذبحة جديدة. وعلى هذا الصعيد، فإن المجتمع الإسرائيلي ينطوي على مفارقة بيِّنة تقوم في أنه مجتمع يخضع لشعور بالثقة والضعف معاً. وهذا ناجم عن مجموع عوامل هي: تفاوت الأجيال فيه، والالتباس المستمر بين الدعاية والواقع، والازدواجية في المشاعر. فإن ذكرى المذبحة ماثلة في الذاكرة، وهي تتغذى في صيغتها العسكرية، بذكرى مذبحة "مسعدا"(١) الانتحارية، وتتعايش مع اطمئنان مجتمع واثق من تفوقه العسكري.

إن التشدد العربي ينبع من إحساس بالذل يعود إلى القرن التاسع عشر، والخضوع للسيطرة العثمانية وازدياد التدخل من قبل بريطانيا العظمى وأوروبا. وقد تعاظم إثر هزيمة ١٩٤٨. فيرفده شعور بالحرمان إزاء عجز عن مواجهة تحديات العالم المعاصر، وقد باتت إسرائيل تشكل تجسيداً لها داخل الشرق الأوسط نفسه. صحيح أن إسرائيل كانت موضوع سجال كلامي بين الدول العربية، ولكنها كانت أيضاً، بالنسبة إلى العالم العربي والفلسطينيين، أكثر من مهرب، فقد كانت عاملاً قوياً في تماسكه الإيديولوجي. وعلى النحو نفسه، فإن هوس الأمن (بيتا هون)، وقد ارتقى إلى مستوى مبدإ أعلى، ساعد بقسط كبير على تعجيل الاندماج الوطني وترسيخ الإجماع.

بذلك ساق منطقان باديا الهذيان كلا الطرفين إلى أهداف معقولة. إن دولة إسرائيل -مثلها كمثل سائر الدول- قامت بالقوة، وهي تبقى مرهونة للقوة، نفسياً. من هنا كانت الصعوبة التي تواجهها، خصوصاً منذ عام ١٩٦٧، في تبني موقف بنَّاء على المستوى الدبلوماسي. وإن الذي يملي عليها هذا الموقف هو سياسة التشدد والرفض التي اتبعتها دوماً حيال العرب، من وجود نزعات توسعية تزداد قوة سنة بعد أخرى، والإغراء الذي تعيشه غالبية السكان في الاحتفاظ بأعظم مساحة من الأراضي المكتسبة.

أما الفلسطينيون أنفسهم، ضحايا هذا النزاع، فقد خضعوا لتناقضين أساسيين، منشأهما إيديولوجي، يَصِمَان الحل المقترح لتسوية قضيتهم الوطنية:

أولهما تضخيم التضامن العربي، وقد كان ثمنه تصفية معظم فصائل المقاومة في أيلول ١٩٧٠، على يد بدو الملك حسين.

وثانيهما الاستناد في برنامجهم المعلن إلى إنشاء دولة ديمقراطية وعلمانية في أراضي فلسطين الانتداب كلها، التي تضم أيضاً إسرائيل. وإن اللغة المستخدمة على هذا الصعيد، (استمرار المعركة مئة عام إن اقتضى الأمر، تذكير بانهيار الممالك "الصليبية" بعد قرنين ونصف من الاحتلال)، تتيح لنا أن نتلمس فيها ملامح نفسية أسطورية، تعقلن ذاتها بمنطق معكوس من خلال إنجازات المشروع الصهيوني.

تراث الرواد:

في إسرائيل -كما في الولايات المتحدة- مجتمع ذو شحنة أسطورية قوية. ففضلاً عن وجوه الشبه الواضحة للوهلة الأولى - منها ثقافات مستمدة من الكتاب المقدس (وهي خاصة البروتستانت واليهود)، وماض قام على الرواد-، ثمة ما هو أعمق. فهناك في كلا الحالتين، إيديولوجيا الإنشاء المتأصلة عميقاً، والتي، وإن كانت لا تترك أثراً بالغاً في الأحداث المعاصرة، تحتفظ بحيويتها في الوجدانات والرموز الجماعية والقيم المعلنة. وهناك قناعة معنوية بالوقوف مع الحق، نابعة من الإحساس بأنهما شعبان

مختاران، كل منهما موضوع اختيار خاص. ثمة أيضاً تماسك إيـــديولوجي وإجماع جماعي، نادران جداً في تاريخ المجتمعات الحديثة.

كان الرواد الصهيونيون يفدون إلى بلد قلما يقيمون وزناً لسكانه. وكان هذا تصرفاً مألوفاً لدى الأوروبيين في مطلع القرن. كانت المركزية الأوروبية هي القاعدة في الفترة الاستعمارية (التي اعتبرها ماركس، بالرغم من سلبيتها، فترة حضارية، لأنها وضعت حداً "للطغيان الشرقي"). فكان من الصعب على رواد المستعمرات اليهودية الأولى، ألا يخضعوا لها. وكان عندها ينظر إلى المشكلات على أنها تعود بالدرجـــة الأولى للإمبراطوريـــة العثمانية. إلا أن بعض اليهود رفعوا أصواتهم لينبهوا إلى مشكلة الســـكان العرب. وإبان الانتداب، حيث كانت الإمبراطورية البريطانية تتأرجح بين اليهود والعرب، أكثر مما انحازت للأقلية اليهودية، أثير موضوع إنشاء دولة ثنائية القومية (ولم يكن هذا الهدف الصهيوني). إلا أن الموضـــوع طـــوي نهائياً بعد إنشاء دولة إسرائيل، ضد إرادة الفلسطينيين، وعلى حسابهم.

الإيديولوجيا والواقع:

إن إسرائيل – مثلها كمثل العديد مـــن المجتمعـــات ذات النزعـــة النخبوية والتصميمية التي تسعى لشق طريق جديد من خلال تطبيق برنامج مرتكز على إيديولوجيا ما – ما زالت إلى اليوم تحافظ – بالرغم من جميع الانحرافات، وإنها لكثيرة – على ارتباطها بالقيم التي قامت عليها، مع أنها

أفرغت إلى حد بعيد من جوهرها. فما من إيـديولوجيا إلا وتحـاول أن تتحول إلى مؤسسة. وإنه لمن الأهمية بمكان أن نستجلي معالم المجتمع الذي ظهر من أنقاض البلاغة. فثمة مجموعة من الرموز الجماعية، النابعـة مـن صورة الرواد الأوائل، المتخذة كنموذج، تعرف انتشاراً واسعاً في المجتمـع الإسرائيلي، وتجمع بين الديناميكية والمحافظة. فإن صورة الرائـد كانـت النموذج الذي يطالب المهاجرون بالتشبه به، كما هو الحـال عامـة في المجتمعات التي قامت على الهجرة. وإن إيديولوجيا الرائد قد قدمت إطـاراً للأمة، وهي في طور التكوين، ورمزاً لتحقيق الذات، مع أنه يجوز التأكيد بأن الجيش هو الذي يلعب، منذ عشرين عاماً، في الواقع، دوراً رئيسياً على صعيد الاندماج القومي والتربية معاً.

إلا أن مجتمع الرواد الذي سبق وعقب إعلان بلفور، صاغ بعـض المؤسسات الرئيسية التي قامت عليها الدولة العتيدة: منها نظام الأحـزاب والمكان المركزي الذي يحتله في حياة البلاد السياسية والاجتماعية. ومنـها ما يتميز به الاقتصاد من مركزية أعطت القطاع العام الأهمية التي له. منها أيضاً الدور الخاص الذي تقوم به منظمة الهيستادورت القوية النفوذ (لأنها تقوم بدور رب العمل والعامل معاً). ومنها التعاونيات الزراعية: الكيبوزين والموهافيم، ومنها أخيراً بعث اللغة العبرية كلغة قومية. فضلاً عن ذلك فإن المهاجرين الأوائل سوف يضيفون فوقية خاصة، لما قدر له فيمـا بعـد أن يصبح دولة، بوسعنا أن ندعوها بنية فوقية مستوردة. فإن تنظيم وتصـور الجماعية الزراعية في المستعمرات اليهودية، قد جاءا من إيديولوجيات المدن

الأوروبية، وزرعا في إطار لا يصطدم فيه الناس بمشكلات الصراع الطبقي، بل بصراع مع الطبيعة وصراع -شئنا أم أبينا- مع السكان الأصليين. وإن المستعمرين الجدد، الوافدين من أوروبا الوسطى والشرقية، قد أشبعوا بالروح الشعبية الروسية، وباشتراكيات استمدت وجودها من ينابيع سبقت ماركس وواكبته. فهؤلاء دمغوا المجتمع الذي أنشؤوه بسلسلة من القيم والبنيات، إلا أنهم تأثروا بدورهم بأشكال الواقع المحلي. لذا فإن التطلعات الاشتراكية سوف تتلاشى، تحت ضغط الوقائع، ليحل محلها الجانب الآخر من المشروع الصهيوني: ألا وهو إنشاء دولة تحتاج، بحكم طبيعتها، إلى دينامية تتعارض والمجتمعات العربية المجاورة.

وإن بعضاً من البنى الفوقية الموروثة من تلك الفترة، سوف تبقى، بوصفها رموزاً، جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الإسرائيلي. منها: التشديد على "العمل اليهودي"، والترعة إلى المساواة والتقاليد الزراعية، والاعتماد على الإرادة المصممة، وأخيراً ما هو أهم من ذلك كله: الصهيونية بوصفها مفهوماً لإيديولوجيا الدولة. ولكن الواقع لم يرفد إلا قليلاً معظم هذه البنى الفوقية، ذلك بأن الجيل الذي عقب الرواد الإيديولوجيين، اضطر بالدرجة الأولى لمواجهة العرب والتطور الاقتصادي الخاضع لقانون السوق. وقد تكمن عظمة بن غوريون القومية في أنه مهد الطريق لهذا الجيل الثاني. وفي الحقيقة فهو الذي ساهم في تصفية اليسار الشعبي (مثل البالماخ) ليفتح الطريق أمام دعاة قومية الدولة الشبان من أمثال دايان وشمعون بيريز. وإنه ليسعنا أن نقيس هذا الانزلاق، الذي تم بسرعة نسبية، بتلاشي المابام والها

فدوت آفودا - وكلاهما حزبان اشتراكيان كانا بالأمس عظيمي الشأن- تلاشيا تدريجياً، أقول يسعنا أن نقيسه بتطور الكيبوتز التي كانت تشكل فيما تشكله، يسار الماباي (كانت بالأمس تضم ٢.٥ % من السكان، بينما هي اليوم تضم ٢.٥%). فاليوم تستخدم فيه عمال ليسوا أعضاء في الكيبوتز، في حين أن الماباي وافق في شباط ١٩٧٥، على إحداث عدد من الكيبوتز في الأراضي المحتلة (ما بين قطاع غزة وسيناء).

لقد كان إنشاء الدولة التغيير الأساسي في بنية مجتمع الرواد: ذلك بأن قادة مختلف الحركات الرائدة والتنظيمات الاجتماعية، أصبحوا الطبقة الحاكمة. فباتت المشكلات الأساسية، بعد الاستقلال، الأمن والوحدة الوطنية والتوسع الاقتصادي واستيعاب المهاجرين الجدد. وازدادت المركزية الاقتصادية والسياسية بيد قلة من الأجهزة صاحبة القرار، يقودها منذ عشرات السنين الرجال أنفسهم تقريباً، الأمر الذي جعل متوسط العمر لديهم مرتفعاً: فالجنرال دايان الذي كان منذ فترة وجيزة يبدو "قائداً شاباً"، قد ولد عام ١٩١٥. فإن الديمقراطية الإسرائيلية هي على العموم بيروقراطية ليبرالية، تقودها طبقات تسلقت من أجهزة الأحزاب الكبيرة. إنّا لن نبالغ مهما شددنا على أهمية الأحزاب في الحياة السياسية الإسرائيلية، فهي تفرز القادة والجماعات الضاغطة القوية. فإن التبدلات التي طرأت منذ العام ١٩٤٨، لم تحدث أدنى تغيير، لأن البلد ما زال خاضعاً لقيادة الأحزاب، والماباي يشكل العمود الفقري للسلطة، إذ يرتكز على الهيستدروت والكيبوتزين العمالية. وإن السلطة السياسية تقوم إلى اليوم،

كما في أي مجتمع بيروقراطي، على الوظيفة (فإن صعود شمعون بيريز مثلاً هو صعود إنسان بيروقراطي). وبالرغم من أن مجموع الأحزاب الدينية لا تشكل أكثر من ١٥% من مجموع الناخبين، فإن وزنها الإيديولوجي يفوق عددها بكثير، لاسيما وأنها تحتل موقفاً مفصلياً، يتوقف عليه ميزان التحالفات الحكومية. وقد ساهموا، بتمسكهم المتشدد بالتقاليد، في دفع التنظيمات العمالية بصورة واسعة في اتجاه محافظ. كما أنهم تلقوا مساعدات مالية، دعمتهم وهيأت لهم أن يبسطوا نفوذهم على القطاع التربوي.

التمايزات الاجتماعية:

إن القطاعات التي تشرف عليها الدولة أو التي يشرف عليها، بصورة مباشرة، الهيستادروت[1]، هي في غاية الأهمية: منها شؤون الطيران، والتسلح، والمواصلات العامة، والتعاونيات الزراعية. فإن القطاع الاقتصادي العام، بالمعنى الواسع للكلمة، يشكل ٤٠% من المجموع. وإن انتخابات الكنيست تجري بموجب التمثيل النسبي، الأمر الذي يقوي سلطة الأجهزة الحزبية. (وهي التي تحدد ترتيب المرشحين في القوائم).

إن جيلاً مسناً من القياديين استطاع، من خلال هذه البنيات السياسية والاقتصادية، أن يحتفظ إلى اليوم بمقاليد الحكم، وأن يجمد

(١) اسم اتحاد نقابات العمال في إسرائيل.

أي تغيير عميق في الاتجاه، سواء في ميدان السياسة الخارجية أو في نطاق الإصلاحات الداخلية. وإن استمرار الإيديولوجيا والبنية الاجتماعية، يعود إلى هذه الطبقة الحاكمة، التي تبرر استمرارها في الحكم بتشديدها على مسألة الأمن (الأمن أو "البيتاهون"، هي إحدى الكلمات الرئيسية في القاموس السياسي الإسرائيلي).

على الصعيد الاجتماعي فإن مظاهر التفاوت (ذات المنشأ الاجتماعي الثقافي) بين اليهود "الأوروبيين" واليهود "الشرقيين"، قد برزت، بالرغم من رمزية ترتكز على إيديولوجيا تدعو إلى المساواة. وقد ازدادت هذه التمايزات، بعد عام ١٩٦٧، بفضل ظهور جماعات ضاغطة، سياسية واقتصادية، وبفضل تطور الثروات السريع في بعض الأوساط المرتبطة بالدولة. ولكن هذا لا يجوز أن يقودنا إلى تصور الماضي بأفضل مما كان: ففي أواخر الانتداب، كانت التمايزات بارزة بروزاً واضحاً.

الأمن والتماسك الوطني:

بذلك نشأ مجتمع جديد تحددت عقليته، بقسمها الأكبر، بسنّ مسؤوليه. وفي كل مجتمع مهجري المنشأ، يبلغ الفاصل بين الأجيال شقاً كبيراً جداً. فإن الجيل القديم القادم من أوروبا، ذو مزاج بالغ التأثر، لأنه ما زال تحت وطأة صدمة الإبادة التي تعرض لها. وهو أيضاً يناصب السوفيتيين العداء، بسبب وضع اليهود في الاتحاد السوفيتي، خصوصاً إبان

العهد الستاليني. وهو أخيراً مغلق دون أي فهم للمشـــكلات الفلســـطينية والعربية. وإن غولدا مئير تمثل جيداً هذا الجيل. فهي تعتبر أن كل ما تقوم به إسرائيل عمل أخلاقي.إن الجيل التالي ليس بهذا القدر مـــن التصـــلب. والملاحظ لدى "الشرقيين"، أنهم يفتقرون في الغالب إلى الفضائل التقليدية، دون أن يكونوا قد استبدلوها بثقافة المجتمعات الصناعية. أما مشـــاعرهم فتتسم بعداء كبير للعرب، ويبدو أن الوهم "اليساري" الذي يرى فـــيهم، بصورة موضوعية، بسبب أوضاعهم الاجتماعية والاقتصـــادية، حلفـــاء محتملين للفلسطينيين، يفتقر إلى أساس. فإن الانتماء القومي يسيطر علـــى أي اعتبار آخر.

وإن الشعور القومي لدى السابرا، يفوق شعور الشرقيين اســـتقراراً واتزاناً، ولكنه يخلو من أي مرونة. كما أنه يلاحظ لـــديهم، أيـــاً كـــان منشأهم، سعي حثيث وراء الرفاهية المادية. وفي الســـتينات لم تحـــدث في إسرائيل حركات طلابية كتلك التي قامت في الغرب. صحيح أن الأمـــور تتشابه في ظاهرها: اللباس والشعر الطويل والموسيقى الشعبية، إلا أن هذه قشرة دون اللب، الذي هو الاحتجاج على"الوضع القائم".

أمة طبيعية:

بالرغم من صدمة حرب تشرين ١٩٧٣، فإن إسرائيل مـــا زالـــت تتمتع بأعظم إجماع عرفته الديمقراطيات كلها. ذلك مـــا يشـــبه الهيمنـــة

الإيديولوجية: فإن ما يتراوح بين ٩٠ و٩٥% من الإسرائيليين يؤيـــدون الحكومة أو يقفون على يمينها. ولما كانت الحكومة تسعى وراء الخط الذي يحقق أعظم إجماع (أياً كان برنامجه أو نواياه في البداية) فهي مضطرة على صعيد السياسة الخارجية، لتبني دينامية المجتمع الإسرائيلي العميقة، وهـــي دينامية وسط اليمين. فالليبرالية في نطاق السياسة الخارجية تعني في إسرائيل الانهزامية، بل "اليسارية".

فالمؤسسات الجامدة والمؤقتة في الغالب، والتشريع البطـــيء جـــداً، والصعوبة في إدخال الإصلاحات والتفاوتات الاجتماعية الحـــادة جـــداً، وهيمنة من يؤلفون نخبة متعالية تمنّ أكثر مما تخدم، كل هـــذه الخصـــائص الكامنة في المجتمع الإسرائيلي الذي سبق ١٩٦٧، برزت منذ ذلك الحـــين بروزاً خاصاً تحت تأثير كل مـــن الاحـــتلال لأراض جديـــدة، والوثبـــة الاقتصادية التي عقبته، والنجاح الاقتصادي الذي يسود منذ حرب تشرين عام ١٩٧٣.

إن احتلال الأراضي أثار موجة من التعصب القومي مزجت بـــين الدين والدنيا. وقد غذتها مشاعر التفوق والانزواء حيال العالم الخـــارجي. حدثت في الوقت نفسه توترات اجتماعية، زادت من حـــدتها الفضـــائح الكثيرة والصعوبات الاقتصادية. ولقد تعددت مظاهر الكبح داخل هـــذا المجتمع الدينامي (كما يتضح من قدرة الجـــيش علـــى الـــتلاؤم). إلا أن التماسك الذي تقتضيه حالة الحرب يعلو فـــوق التناقضـــات الداخليـــة والاجتماعية والاقتصادية.

حالة الحرب هذه التي يستقطبها مفهوم الأمن، هي التي تبقي الحكم بدون منازع بين أيدي الجماعات الحاكمة حالياً. ولسوف لا يدفع السلام إلى المقدمة مشكلات أخرى دونها إلهاباً للمشاعر، ستضع حداً للإجماع: منها إصلاح نظام الضرائب (٢)، وأزمات السكن الحادة، دور الدين ومكانه في المجتمع، والتفاوتات الاجتماعية إلخ... فكل شيء يشير إلى ضرورة إدخال إصلاحات في مجتمع يحتاج إلى تحديد هويته من جديد. ولكن من المرجح أن الجماعات المسيطرة الآن ليست قادرة ولا راغبة في تحمل نصيبها من هذه التغييرات.

في هذه الأثناء، بدّد وجود إسرائيل في نظر العديد من اليهود، الصور السلبية التي شحنها عنهم غير اليهود. فإن اليهود القادمين من أوروبا حيث كانوا يؤلفون أقليات غير طبيعية، غالباً ما تحتل الطليعة في العديد من المجالات، أصبحوا خلال جيلين أو ثلاثة، مواطنين في أمة "طبيعية"، بما يفترض ذلك من وسطية لا تخلو من التفاهة. وإن الأجيال الجديدة لتتمتع بالصحة الفيزيولوجية، ولكنها غير شغوفة بالثقافة. لا شك أن التماثل بالناس يكلف غالياً (وفي هذا المعنى يشعر اليهود والإسرائيليون باختلاف بينهم). وإن هذا الإفقار الفكري، المؤسف أحياناً، يحمله يهود الشتات دون شك كشوكة مؤلمة خاصة بهم. فإن الاعتقاد بأن الصهيونية تتيح لليهودي حياة في ظروف أفضل، وانطلاقاً لقوته الإبداعية، هذا الاعتقاد قد تبخر. فإسرائيل اليوم، سواء رضينا بذلك أم لا، تتميز على صعيد الإبداع الثقافي ولاسيما الفني، بنزعة استعلائية ريفية.

بعد حرب تشرين:

إن الوضع السياسي الذي تعيشه اليوم إسرائيل، قد تحدد منذ فترة قريبة، بواقعين اثنين: الانتصار العسكري عام ١٩٦٧، والأراضي المحتلة التي احتفظت بها، ونتائج حرب تشرين. إن حرب تشرين تستدعي منا بعض التعليقات: فهي تعني بالنسبة إلى إسرائيل نصف انتصار عسكري -لم يتحول إلى انتصار كامل بسبب تدخل الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي- وهزيمة سياسية.

تعود الهزيمة السياسية إلى تصور نظري أخذ به موشيه دايان بصورة خاصة، إذ كان وزير الدفاع السابق يقلل (٣) من قدرة العرب على استخدام الحرب كأداة سياسية (فإن تأثير المفاجأة ومحدودية الهجوم، وتغطيته الجوية الكثيفة كانت كلها تسترعي الاهتمام في الأيام الأولى). فقد كان التفوق الشامل الإسرائيلي، يبدو، حتى ذلك الحين، كاملاً. وما كانت تلوح في الأفق أية ضرورة لتغيير الوضع القائم بالنسبة إلى أي دولة كانت، وفقاً لمقاييسها، تنعم بما هو أكثر من السلام، تنعم بالأمن وبأراض باتت هدفاً لإرادة في التوسع تتجسد في إقامة مستوطنات عسكرية ومدنية.

بعبارة أخرى فإن إسرائيل لم تضع أي فرصة لإقرار السلام بين ١٩٦٧و١٩٧٣ (وكان ذلك ممكناً خصوصاً بعد ١٩٧٠، وعلى الأخص خلال ١٩٧١، حيث تعرضت لضغوط أميركية في هذا الاتجاه) بالقدر الذي لم يكن لدى الحكومة الإسرائيلية... يوماً أي رغبة في السلام، في

إطار القرار ٢٤٢ الصادر عن الأمم المتحدة: السلام لقاء إعادة الأراضي المحتلة.

الضغوط التوسعية:

حتى عام ١٩٦٧، كان مجموع السكان الإسرائيليين يتصورون الحدود على أنها نهائية، حتى لو كان المشروع الصهيوني الأولي يستهدف أراضي الانتداب بكاملها. ولكن دعاة التوسع، بعد أن كانوا أقلية لا يعتدّ بها لدى الرأي العام، استطاعوا شيئاً فشيئاً أن يحرجوا موقف المناهضين للتوسع، بعد إذ تقلص عددهم بمرور الزمن. فإن التقاليد الإيديولوجية للشعور القومي العبري، تتفق في الواقع ونظرية التوسع. فنستطيع القول بهذا الشأن أن الضفة الغربية تحتل في نظر الحكومة الإسرائيلية مركزاً سياسياً (وهي جزء لا يتجزأ من "أرض إسرائيل" التاريخية، أكثر من الجولان وسيناء).

إن الأقلية التوسعية (أقل من ١٥% عام ١٩٦٧) والأحزاب الدينية ذات الأهداف نفسها، (أقل من ١٥% أيضاً) كان وما زال لها قوة إيديولوجية تفوق بما لا يقاس حجمها الانتخابي. وقد تلقت الدعم بصورة قد تفتقر إلى الضجيج، ولكن لا إلى الفعالية، من الأحزاب كحزب الرافي، ومن التيارات القائمة داخل الحزب "الأفدوت آفودا" والماباي (وثلاثتهم أعضاء في التحالف العمالي الذي يؤلف (الحكومة الحالية).

لا يجوز أن نقلل من أهمية دور دايان في التعديلات التي أدخلها على حكم الاحتلال من جهة، وأهمية إقامة المستعمرات الصهيونية، المدنية أو العسكرية، في الضفة الغربية من جهة ثانية. واجهت هذه المشروعات معارضة قادها في الأساس السيد بنحاس سفير والسيد إيغال آلون، وزير الخارجية الحالي. وكلاهما مقتنع بأن استمرار الاحتلال سوف يضع الضفة الغربية اليهودية للدولة الصهيونية موضع تساؤل، تماماً كما أنه وضع حداً لإحدى أساطيرها الأساسية، ألا وهي أسطورة "العمل اليهودي". هل ترانا حيال صهيونية جديدة أم إزاء مرحلة مؤقتة؟ السؤال مطروح.

إن جوهر السياسة الإسرائيلية منذ أواخر عام ١٩٧٣، استهدف تقليص وتجاهل مضامين حرب تشرين السياسية. وبالرغم من تصريحات اسحق رابين الأولى – الذي يعتبر من دعاة السلام، وليس من دعاة الوضع الراهن، والذي قيل عنه إنه سيرضخ بسهولة للضغوط الأميركية– ومن اختلاف يذكر بينه وبين الحكومة السابقة، فإن الضغوط التوسعية تجد القبول نفسه تقريباً وفق خطة أدنى تصلُّباً. وإن الحكومة، أياً كانت خلافاتها الداخلية وضعفها –بل بسببها إلى حد ما– تتبع خطة متماسكة من رفض ومماطلة، في الوقت الذي تحتفظ فيه بأوسع إجماع شعبي. وثمة أمر يبدو أكيداً: إن إسرائيل ترفض بكل ما أوتيت من قوة مفاوضات من أجل سلام يُفرض عليها. والمسألة ليست أن نعرف إن كانت تمتلك القدرة على ذلك، بل إن كانت الظروف ستسمح لها بذلك مدة طويلة.

بعض التيارات، لاسيما لدى العسكريين الذين أغضبتهم وأثارتهم نتائج حرب تشرين، تتمنى اشتداد التأزم في المنطقة، بحيث يفسح المجال أمام مبادرة قتالية تبدل معطيات الوضع، شريطة أن تتوفر الضمانة لدعم أميركي، أو أقله لحياد أميركي مشجع. وإن الشائعات بهذا الصدد تتحدث عن العديد من الخطط: احتلال جنوب لبنان، وقسم من الضفة الغربية وشمال العربية السعودية.

إلا أن الأوساط الإسرائيلية التي تبدي وعياً لأدق الحسابات السياسية، تدرك أن الأزمة الراهنة تحدد عملاً نسبياً في إمكانات إسرائيل الحربية. فإن الولايات المتحدة، بالرغم من تهديداتها بالقيام بحملة عسكرية في الخليج، تحجم مبدئياً عن المخاطرة بالمواقع التي كسبتها في الفترة الأخيرة، بفضل دبلوماسيتها في العالم العربي. وثمة تيارات أخرى ترى أنه لا بد من الصمود، إلى أن يأتي يوم يستطيع فيه الغرب، وبصورة خاصة الولايات المتحدة، أن يعتبر نفط الشرق شيئاً ثانوياً، بفضل مصادر للطاقة جديدة.

وإن مجمل هذه التيارات تمثل إلى حد ما مجموع الخيارات المطروحة على الحكومة الإسرائيلية، التي سوف تسعى عملياً لتطبيق الحل الذي يتفق وغايتها على الوجه الأكمل: الاحتفاظ بأوسع مساحة من الأراضي المحتلة. يبدو بذلك أننا انتقلنا تدريجياً من الرفض العربي إلى الرفض الإسرائيلي.

بانتظار الانتخابات الأميركية:

إن اسحق رابين يهدف في الأساس إلى كسب الوقت، كما لو كان يقود اللعبة فقط لصالح إسرائيل. وإنه ليجهد في الاستمرار حتى الانتخابات القادمة (عام ١٩٧٨)، على رأس حكومة تتمتع بغالبية هزيلة، أخذت على نفسها ألا تعيد أي قطعة من الضفة الغربية دون اللجوء إلى استفتاء انتخابي جديد. إلا أن بعض رجال الحكم، لاسيما الملتفين حول الحزب الرافي، لا يتصورون الأمور على النحو المنسوب إلى السيد رابين، وهم يسعون إلى دعم مواقعهم. ويبدو في هذا المجال أن أفضل الفرص متاحة أمام السيد شمعون بيريس.

وثمة حجة أخيرة ليست أقلها شأناً، تدعم نظرية المماطلة: فإن الانتخابات الأميركية سوف تشل منذ الآن وحتى ١٩٧٨، إدارة يرجى منها فيما بعد، موقف أكثر تأييداً. فإن السياسة الأميركية ومصالحها في الشرق الأوسط، هي التي تحدد في الواقع الخيارات الإسرائيلية. إن الولايات المتحدة هي التي تمد إسرائيل عسكرياً واقتصادياً، وهي حليفها الوحيد (وهذه حالة من التبعية قد تثير دولة حريصة على حريتها في الاختيار..). فهل يمكن عندها الاعتماد على الولايات المتحدة لإنقاذ ما ترغب غالبية الحكومة والرأي العام، الاحتفاظ به من الأراضي.؟..

إن الدبلوماسية الأميركية قد حققت على العموم، منذ حرب تشرين عام ١٩٧٣، انتصارات لا يستهان بها في الشرق الأوسط. وفي

الواقع، فإن السلام يشكل في نظر الولايات المتحدة أفضل خيار، بسبب مصالحها العامة فيه. لماذا تراها تترك الاتحاد السوفييتي يظهر بمظهر المدافع عن استقلال الشعوب العربية في هذه الأثناء؟ فإن استراتيجية الخطوات الصغيرة التي أنتجها السيد كيسنجر، سمحت لإسرائيل بكسب الوقت. ولكن بعد ذلك؟..

إن تصريح الرئيس الأسد الذي أعلن فيه (٤) استعداد سورية للاعتراف بإسرائيل، ألقى الحكومة الإسرائيلية في حرج ما عتم لحسن الحظ أن تبدد إثر التراجع الذي قام به بعد ذلك رئيس الدولة السورية. وإن جميع الاحتمالات تشير إلى أن مفاوضات جنيف إن حدثت - سوف تنتهي إلى مأزق. وإن الدول العربية تدرك تماماً التصلب الإسرائيلي، في الوقت الذي تستمر فيه سياسة الأمر الواقع في الأراضي المحتلة، فتثير عقبات جديدة في وجه مفاوضات، ترى الحكومة الإسرائيلية في غالبيتها، بحق أو خطأ، أنها ستجر عليها من الخسارة أكثر مما ستجلب لها من الربح. وإنه لمن قبيل المفارقة الظاهرة أن الفلسطينيين في منظمة التحرير، يأخذون بالأسباب نفسها التي تأخذ بها الحكومة الإسرائيلية في هربهم من مفاوضات جنيف، وذلك نظراً للتوترات القائمة داخل المقاومة، وللفرص شبه المعدومة المتوفرة لديهم، من أجل تحقيق مطاليبهم، ولو بصورة جزئية جداً.

الدولة اليهودية والفلسطينيون:

إن الحكومة الإسرائيلية لا تعترف بالكيان الوطني الفلسطيني. وهي ترفض الاعتراف بمنظمة التحرير، وتعارض أي فكرة في إقامة دولة فلسطينية إلى الشرق من حدودها، أي في الضفة الغربية. إن اللغة الرسمية التي تسند هذه الاختيارات، المتمحورة بدورها حول ثلاث مبادئ، تنطوي على تناقض:

(١) إن منظمة التحرير لا تعترف بإسرائيل (وإسرائيل تبادلها بالمثل).

(٢) إن الضفة الغربية وقطاع غزة لا يستطيعان الوقوف اقتصادياً (هل طرح مثل هذا التساؤل حول فلسطين عام ١٩٤٧، أم حول شرقي الأردن؟).

(٣) إن دولة فلسطينية غربي الأردن قد تصبح قاعدة سوفيتية (ألا يستطيع الجيش الإسرائيلي الذي انتصر على مصر وسورية، أن يقهر عند الضرورة الدولة الفلسطينية؟).

في إسرائيل اليوم تقوم مناقشات بين التيارات التي تدعو إلى الاحتفاظ بالضفة الغربية وقطاع غزة، مع منح سكانهم الجنسية الإسرائيلية، وأولئك الذين يرفضون أن يمنحوا الجنسية الإسرائيلية، وعناصر أخرى تدعو إلى إقامة أي شكل من أشكال الاتحاد مع الأردن، يتيح لإسرائيل أن تحتفظ بإشرافها على الضفة الغربية. وفي الواقع العملي، فإن السياسة

الإسرائيلية ترمي إلى دمج ما يسمى رسمياً باليهودية والسامرة (الضفة الغربية)، أما أن تمنح "جميع الحقوق الديمقراطية" سكان المناطق المحتلة، فهذا وجه من وجوه البيان: إن دولة تعرّف كدولة يهودية صرف، لا تستطيع أن تمنح من ليسوا يهوداً "جميع الحقوق الديموقراطية". هل تراها أيضاً تستطيع الاعتراف بحق الفلسطينيين في قانون العودة؟ هل تراها أيضاً ستعترف للعرب الإسرائيليين بحق شراء الأراضي، ذلك الحق الذي تنكره عليهم منذ إنشائها؟ وأخيراً ألا تتضمن الحقوق الديمقراطية، الحق في الانفصال؟.

إن الذي تقدمه إسرائيل ليس إلا الترجمة الإسرائيلية للدولة الديمقراطية التي تقترحها منظمة التحرير، والتي تبدو للإسرائيليين بحق غير مقبولة: فهي دولة لا تعترف بالكيان الوطني، وإنما فقط بحقوق أقلية دينية. وفي الواقع إن هذا النظام هو اليوم النظام الذي يخضع له ٤٠٠٠٠٠ عربي إسرائيلي تقريباً. وإن هذا النظام هو في الواقع نظام العرب الإسرائيليين (وهم يقاربون ٤٠٠٠٠٠)، الذين يتمتعون بحقوق فردية (ظلت محدودة حتى منتصف الستينات)، ولكنهم، بعد أن انتزعت منهم أراضيهم، لا يملكون أن يطمحوا في شراء أراض أخرى في بلد هم، من حيث المبدأ، مواطنون فيه.

وعلى المدى البعيد، فإن الفكرة القائلة بأن الرفاه الاقتصادي وحده يكفي، وأن الشعور الوطني يمكن كبحه بوسائل أخرى غير القمع، هي

أفدح تناقض وأخطر وَهم تتخبط فيه غالبية الطبقة الحاكمة في إســرائيل، متحدية بذلك التاريخ المعاصر برمته.

سياسة الأمور الواقعة:

كانت إسرائيل قد أقامت في نيســان ١٩٧٣، اثــنين وأربعــين مستوطنة عسكرية (ناحال)، ومدينة تضم ما يقارب ٣٥٠٠شخص: ١٥ في الجولان، ٣ في جنوب سيناء، ٧ في شمال سيناء وفي غــزة، و ١٧ في الضفة الغربية. إن السير في هذا الاتجاه لم يتوقف بعد حرب تشرين: فــإن سكان المستوطنات يبلغون اليوم ٥٠٠٠ شخص، وقد تجاوز عــددها ٤٥ مستوطنة، وستقام قريباً خمس أخرى (ثلاث موشافيم واثنتان كيبوتزين) في وادي "بيتسايل" (الضفة الغربية). وإن أكثفها سكاناً المسماة "كيريــات عربا" بالقرب من الخليل، إحدى المدن اليهودية المقدسة، ويقطنــها مــا يقارب الألف من اليهود المتدينين. وإنه لمن السخرية التي يحفــل بمثلــها التاريخ، أن تكون مساكنها محاطة بأسلاك شائكة تعلوها أبراج للمراقبــة. كما أن الحكومة تضطر لمواجهة ضغط قوي تمارسه عناصر متطرفة مــن المتدينين المتشددين، الذين يطلق عليهم اسم "غوش إينوهيم"، (في إسرائيل تيارات أخرى ذات روحانية أسمى)، والذين يسعون في اتباع الاســتيطان "العفوي" مقابل الاستيطان "الشرعي" الذي تتبعه الدولة.

إن أورشليم الشرقية (القطاع الشرقي من القدس، الذي ضُم بعد حرب ١٩٦٧)، قد ألحقت بها من الجهة الشرقية، أحياء جديــدة هــي:

رامات أشكول، وفرينش هيل، وجبل سكوبوس (حيث أقيمت الجامعة العبرية الجديدة) وإيست تالبيوت، وجيلو إلخ... وفي المدينة القديمة، فإن القطاع المسمى بالحي اليهودي، والذي يشكل سدس المدينة الواقعة داخل الأسوار، قد تحول إلى ورشة بناء، وهذا يعني بالنسبة إلى السلطات الإسرائيلية، إبعاد العائلات العربية منها، لقاء تعويضات حقيرة. وإن إجراءات الطرد المتوقعة تستهدف ٥٩٥ بناء يضم ١٠٤٨ شقة سكنية.

في الضفة الغربية، تستولي الحكومة على الأراضي "الحكومية"، والأراضي التي تمتلكها البلدية في القرى، أو تشتري من جديد أراضي "الغائبين" (وهم في الغالب مطرودون). وبالإضافة إلى ٢٥٠٠ سجين، صدر بحقهم حكم قانوني، فهناك، بناء على تصريح وزير الشرطة نفسه، ٧١ شيخاً يخضعون للاعتقال الإداري. وإن التهم الموجهة ضدهم ليست سوى ادعاءات، وإن الذي يؤخذ عليهم هو في الواقع انتماؤهم إلى الجبهة الوطنية الفلسطينية، التي تعترف بتمثيل منظمة التحرير. وإن إجراءات الإبعاد الفردية تتخذ بحق النخبة المثقفة، والاعتقالات ونسف منازل المحبذين النشيطين لمنظمة التحرير وإلغاء الحكم بالإعدام وسياسة الجسور المفتوحة، إن ذلك كله هو جزء من سياسة تهدف إلى الاحتفاظ في الضفة الغربية بجو من الاحتلال المحتمل.

وإن الواقع على خلاف ذلك في قطاع غزة، بعد أن "طُهِّر" وأعيد تنظيمه وأحيط بالأسلاك الشائكة. ففي قطاع غزة والضفة الغربية، لم يجد الإسرائيليون مجتمعات مستقلة، بل قوماً خضعوا لسلطات أجنبية (مصرية

وأردنية). ولقد سهل هذا الأمر عليهم، إلى حد كبير، مهمتهم كمحتلّين لَبِقين نسبياً، وفعالين اقتصادياً. فما يقارب ٧٥٠٠٠ فلسطيني، يعملون بصورة دائمة في إسرائيل، أي ١٠% من سكان إسرائيل النشيطين. وفي ميدان الوظائف، تلاحظ حركة من العمل الزراعي نحو الخدمات.

إن الحالة الاقتصادية في الضفة الغربية قد سجلت منذ سنة ونيف تدهوراً واضحاً، نظراً للتضخم وارتفاع الأسعار. وإن الشعور الوطني في الأراضي المحتلة، إذا ما قورن بما كان عليه قبل ست سنوات، قد برز بصورة ملموسة جداً: فقد غمرت النشوة قطاعات واسعة جداً من السكان، غداة استقبال ياسر عرفات في هيئة الأمم. ولكن السلطات الإسرائيلية تستطيع بكل سهولة أن تؤكد أن السكان لا يؤيدون منظمة التحرير، لأن أي تنظيم سياسي محظور داخل الأراضي المحتلة.

اقتصاد تابع:

إن نقطة ضعف إسرائيل، في الوقت الحاضر، هي اقتصادها الذي يعاني من تضخم سريع، ومن ميزان مدفوعات في عجز مستمر. والسبب الرئيسي في هذا الاختلال هو الميزانية العسكرية التي ترصد ما يقارب ٣٠% من المنتوج القومي الإجمالي.

وفي الأوقات العادية، أي حتى عام ١٩٧٣، كانت الواردات تمول بنسبة ٦٠% بواسطة الصادرات، -والاستهلاك ضخم في هذا البلد ذي

الإمكانيات المحدودة- وكان الباقي يسدد برؤوس الأموال المجلوبة أي بقدرة الحكومة الإسرائيلية على جلب الأموال من الخارج.

وكان العجز عام ١٩٧٢ يفوق قليلاً مليار دولار. ثم ارتفع عام ١٩٧٣ إلى مليارين، وهو يبلغ اليوم بسبب نفقات الحرب الباهظة، ما يقارب ثلاثة مليارات ونصف من الدولارات. فازدادت تبعية إسرائيل حيال الولايات المتحدة، وقد طلبت الحكومة الإسرائيلية قرضاً بقيمة مليارين ونصف من الدولارات، لم تحصل منها حتى الآن إلا على ٧٠٠ مليون فقط.

في عام ١٩٧٣، كانت الواردات تشكل ضعفي الصادرات، وكان ٧٢% منها يأتي من الولايات المتحدة والسوق الأوروبية المشتركة. وإن الحكومة، في محاولة منها لتقليص هذا العجز والتضخم (ارتفعت الأسعار عام ١٩٧٤بنسبة ٥٧.٨%)، اتخذت منذ بضعة أشهر سلسلة من الإجراءات، منها تخفيض العملة - بحيث بات الدولار يساوي ٦ ليرات بدلاً من ٤.٢ - والحد من الواردات. وأتبعتها في شباط ١٩٧٥، برفع الضرائب المباشرة وغير المباشرة: ٧.٥% على ثلث المواد الاستهلاكية تقريباً، وبفرض ضريبة خاصة على أرباب العمل بنسبة ٧.٥%. ومع ذلك لا بد من وجود موارد أخرى لتحقيق التوازن في الميزانية. في حين أن الإسرائيلي اليوم هو أكثر المواطنين المرهقين بالضرائب في العالم.

ترجو الحكومة الإسرائيلية، أن تحتفظ بارتفاع في الأسعار، للسنة الحالية لا يتجاوز ٢% شهرياً، وهذا يعني في أفضل الاحتمالات ارتفاعاً يقارب ٣٠%. ويرى الاقتصادي الإسرائيلي "أرنون"، أن الحكومة أبدت تخوفاً عندما تهربت، بالرغم من خطورة الوضع، من الإشراف الصارم على الأسعار، ومن ازدياد البطالة، وخصوصاً من توزيع أفضل للمهام. على كل حال، سوف تضطر الحكومة، في حال الفشل، لإجراء تخفيض جديد للعملة قبل الانتخابات القادمة بفترة طويلة. إن ديون إسرائيل الخارجية تبلغ، بموجب أقوال السيد رابينوفيتش، وزير المالية، ٨ مليارات دولار، فيما المبادلات المتوقعة تصل إلى ٤ مليارات دولار للصادرات، و٧.٥ مليارات دولار للواردات. يبدو أن سياسة التقشف أصبحت ضرورة يتعذر التنصل منها: ولكنها ليست بالأمر الممكن، إلا إذا طبقت في أكثر القطاعات ثراءً، في بلد كثرت فيه الفضائح المالية منذ سنتين، وبصورة خاصة حول أفراد أو جماعات لها ارتباط ما بالإدارة الحكومية.

أين تقع الواقعية

ما بين عام ١٩٤٨و١٩٦٧، لم تكن الدول العربية على استعداد للتوقيع على معاهدة سلام. ولقد قادهم إلى ذلك نتائج حرب ١٩٦٧و١٩٧٣، على أساس قراري الأمم المتحدة ٢٤٢ و٣٣٨. إلا أن ظاهرة مضادة حدثت في إسرائيل، حيث يعلن الميل بصراحة إلى حالة الحرب، شريطة الاحتفاظ بالأراضي.

إن فشل مهمة كيسنجر قد حققت دون شك رغبات دعاة التوسع، ولم تحسّن من فرص الدبلوماسية الإسرائيلية التي سيتحتم عليها مواجهة مؤتمر جنيف في شروط تزداد تعقيداً على ساحة الشرق الأوسط.

إن مصر التي حظيت بدعم مالي واسع من الملك فيصل، تظل، لأسباب داخلية، الدولة التي لها المصلحة الكبرى في عقد اتفاق مع إسرائيل. وإن الرئيس السادات، إذ أعلن عن إعادة فتح قناة السويس، وتمديد مهمة القوات الدولية ثلاثة أشهر أخرى، قد هيأ لنفسه فرصاً قوية لسعيه نحو السلام. ولكن أن يوافق الإسرائيليون يوماً على انسحاب جزئي لقواتهم في سيناء، فلأنهم سيسعون للاحتفاظ بأفضل المواقع العسكرية، الكفيلة بتجنيبهم مفاجآت جديدة في الميدان.ومن المرجح أن حكومتهم ستسعى إلى إحداث "وضع راهن" بشأن الأراضي في سيناء، أية كانت المخاطر التي قد ينطوي عليها.

أما قضية الجولان، فيبدو أن حلها نظرياً ليس بمستعصٍ، إذ إن تهديد أمن إسرائيل هناك لا يتجاوز بضع مزارع منتشرة في وادي الأردن، يضاف إليها الآن بعض المنشآت الزراعية في الجولان. وفي الواقع فإن سورية لا تعود تشكل أي خطر، إن كان من الممكن فصلها عن مصر. فموقفها من الولايات المتحدة لا يقارن بموقف مصر منها، فضلاً عن أن للسوري في الرأي العام الإسرائيلي صورة غاية في السلبية.(خصوصاً بسبب المعاملة السيئة التي عومل بها الأسرى الإسرائيليون). لذا يبدو أن من المرجح أن الإسرائيليين لن يقوموا بأي مفاوضة مع السوريين بطيب خاطر.

وإن دمشق، إذ تقدر هذا الواقع وتريد إكراه مصر على التضامن معهــا، تشددت مؤخراً في موقفها، واقترحت على منظمة التحرير إنشــاء قيــادة عسكرية مشتركة.

أما الأردن فلا يجوز الاستهانة به، بالرغم مما اعترى دبلوماسيته اليوم من ضعف. فإن الملك حسين، إذ يتلقى مساعدات سخية على الصــعيدين العسكري والمالي، من الولايات المتحدة منذ عام ١٩٧٠، يفرض، بفضــل جيشه من رجال البادية وبعض الطبقات الاجتماعية، إشرافاً حقيقياً علــى بلد، ثلث سكانه من الفلسطينيين. والعديد من مخيمات اللاجئين، لاسيما بالقرب من عمان، شرذمت وطوقت. وإنه لمن الخطــأ اعتبــار المملكــة الأردنية الهاشمية، التي استطاعت أن تمارس "أردنة" لبقة، بالرغم من إمحائها الدبلوماسي، عاجزة عن القيام بأي دور فعال، إن أتيحت لها الفرصة.

فإن طبيعة النظام الهاشمي، هي الاستمرار بين تضامن عــربي معلــن، وتضامن مع إسرائيل تفرضه ضرورة كبح جماح الشعور الوطني الفلســطيني. وإن منطق رفض الحكومة الإسرائيلية، حيال منظمة التحرير، له ما يبرره، طالما أنه من الممكن إعادة الضفة الغربية، كلياً أو جزئياً، إلى الملــك حســين. إن الحركة الوطنية الفلسطينية تصطدم في آن واحد بمصالح إســرائيل ومصــالح الأردن، اللذين يسعيان للحؤول دون إنشائها دولة ما. ولســوف تســتمر عمليات الفدائيين الانتحارية داخل إسرائيل، كما ستستمر عمليات القصف الانتقامية ضد مخيمات اللاجئين الفلسطينيين. وإن وجود "جبهة الرفض" منذ أيلول ١٩٧٤، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين -جورج حــبش- والجبهــة

الشعبية لتحرير فلسطين -أحمد جبريل- وجبهة الثورة العربية، يُضطر منظمة التحرير لتجنب المزاودة عليها. إلا أن منظمة التحرير أبدت خفية رغبتها في التسوية (فإن مجرد الرغبة في الاشتراك بمفاوضات جنيف، اعتراف بإسرائيل). ويبدو، أياً كانت التسوية، أن الحركة الوطنية الفلسطينية هي الخاسرة في هذه التسوية، نظراً لقوتها الحقيقية العسكرية، وخصوصاً السياسية، ما لم تنهر الملكية الهاشمية. وقد تحدث على الورق دون شك دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة، بعد الجلاء عن سيناء والجولان وتجريدهما من السلاح. إلا أن هذا الاحتمال هو أقلها حظاً في الحدوث.

رهان السلام:

إن الإسرائيليين، بالرغم من عدوانية استراتيجيتهم، أعلنوا دائماً أن السلام هو غايتهم، ولكنه سلام مجتمع ما بعد الحرب، كما في أوروبا الغربية، حيث أصبح معطى مكرساً وحيث تقوم العلاقات بين الدول على أساس من الانفتاح المطلق. إن مثل هذا الحل غير ممكن اليوم في الشرق الأوسط، حيث يشكل اتفاق سلمي، يعترف بإسرائيل تحيط بها مناطق مجردة من السلاح، وتضمن أمنها الدول الكبرى في المرحلة الأولى، خطوة هامة نحو اندماج إسرائيل في المنطقة (٦). ولكن هذا الحل يقتضي تبدلاً في الهيئة الحاكمة في إسرائيل، في حين أن الطبقات السياسية الحالية ما زالت تتسم حتى الإفراط، بعقلية وتصورات إيديولوجيا مشبعة بالتصلب.

لا يستبعد أن يحدث تبدل في الغالبية الحكومية اليوم في إســرائيل، قبل انتخابات عام ١٩٧٨، وذلك نتيجة انزلاق بسيط داخل التحالفات. وقد تنــزلق، بفضل تقاطعات معقدة نحو الــيمين (في مجــال السياســة الخارجية)، إن تقرّب الرافي مثلاً من الليكود، أو نحو الوسط إن انفصــل الليبراليون مثلاً عن الليكود، ليتبينوا مواقع السيد رابين. وعلى أي حال، فإن الاستراتيجية السياسية للحكومة الإسرائيلية تقوم على مبــدأ "انتظــر وانظر". إلا أن الظرف الدولي لا يتفق وتجميد الوضع في الشرق الأوسط، في حين أن أهمية الدول العربية، العالمية والاقتصادية – وبالتالي العسكرية – تذهب في تعاظم – أقله على المدى القريب. ويبدو أن الحكومة الإسرائيلية لم تستنتج عِبَر حرب تشرين العميقة.

ولما كان يبدو من غير المتوقع نشوب مواجهة تمليها ضرورة السيطرة على منابع الطاقة النفطية، فإنه من المستبعد أن تساند الولايــات المتحــدة سياسة إسرائيل التوسعية (في شباط ١٩٧٥ كانت نسبة المؤيــدين لزيــادة الدعم لإسرائيل لا تتجاوز ٨%). بذلك يبدو من الواضح، أكثر فــأكثر وعلى مر السنين، أن المشكلة المطروحة اليوم في الشرق الأوسط، ليســت خطر تدمير إسرائيل – وهو أمر مستبعد طالما أن الولايات المتحدة تظــل هي القوة المسيطرة، وطالما أن الدولة العبرية تحتفظ بأوسع مساحة وبتفوقها العسكري في المنطقة. إن السؤال مطروح حول إرادة الحكومة الإسرائيلية في الاحتفاظ بأوسع مساحة من الأراضي المحتلة، وفي رفض رهان الســلام لقاء إعادتها.

لا يسعنا أن نلوم إسرائيل على صعيد الواقعية، إن آثـــرت إعـــادة الضفة الغربية إلى الملك حسين، بدلاً من إعادتها إلى منظمة التحرير. ولكن رفضها لكل جلاء بات لا يطاق.

هل الحنين إلى العهد الذهبي الذي امتـــد مـــن ١٩٦٧ إلى ١٩٧٣، بات هو المسيطر في إسرائيل؟ هل ينظر إلى السلام كإلى أي تهديد آخـــر، تهديد لبلد صغير وقوي عسكرياً، ولكنه ريفي يفتقـــر بســـبب مـــوارده المحدودة، إلى ما من شأنه أن يجتذب إليه مهاجرين محتملين؟ إلا أن الفرصة الفضلى لوجود إسرائيل على المدى البعيد، هي، مع ذلك، إقرار السلام مع جيرانها. وهل تصريحات السيد غولدمان، رئيس المؤتمر اليهودي العـــالمي، الذي يلح على التوقيع على اتفاقية سلام دون تأخير، كي يتسنى لإسرائيل أن تندمج في الشرق الأوسط، تفتقر إلى الواقعية أكثر من سياسة الحكومة الإسرائيلية الحالية؟

أن يكون الوضع العسكري في إسرائيل أفضل من أي وقت مضى، لم يعد يشكل ضمانة كافية، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار التبدلات السريعة التي تحدث في العلاقات الدولية. وإن خصوم سياسة التوسع في إســـرائيل، خضعوا للإرهاب، باستثناء القلة القليلة منهم. ومع ذلك فهل الوقت يعمل لصالح إسرائيل وحدها؟ هل يستطيع الاحتلال كبح انفجار الشعور الوطني إلى ما لا نهاية؟ هل يكمن أخيراً حل سياسي في حرب جديدة؟ إن البلد، في مواجهته لمشكلة على هذا القدر من الخطورة، يفتقـــر إلى مســـؤولين عظام، يستطيعون أن يأخذوا بعين الاعتبار المصالح الوطنية علـــى المـــدى

البعيد، وأن يتخذوا إجراءات قد لا تحظى بالتأييد الشعبي، ولكن لها ما يبررها، كما كان يفعل بن غوريون. ومن المرجح أن الخيارات التي ستواجهها إسرائيل غداً، لن يصنعها الرجال بقدر ما ستمليها الأحداث. وفي نهاية المطاف، يبدو أن الولايات المتحدة ومعطيات الاقتصاد الإسرائيلي الواقعية، تشكل العوامل الحاسمة، في اتخاذ قرار بشأن مصير يدعه القادة يتجمد في حالة حرب تبدو لهم واقعية.

ملاحظات من صلب النص:

(١) مسعدا: اسم قلعة قريبة من البحر الميت، حيث اعتصم مئات من المقاتلين اليهود، إبان حربهم ضد الرومان سنة ٧٣ ميلادية، فنحر بعضهم بعضاً، بدلاً من السقوط بيد الرومان.

(٢) سوف يسترعي تقرير "نادل" -وهو اليوم قيد الطبع- الرأي العام، إذ يكشف النقاب عن الفضائح في نطاق الضرائب.

(٣) باستثناء الجنرال "تل"، وهو أبرز قائد إسرائيلي (راجع "إسرائيل: نهاية الأساطير"، للصحفي الإسرائيلي "أمنون كابيليوك" صدر بالفرنسية في باريس، عام ١٩٧٥).

(٤) مجلة "نيوزويك" تاريخ ٢٤شباط ١٩٧٥.

(٥) من تصريح لدايان في مجلة "النيوزويك" بتاريخ ٣ آذار ١٩٧٥: "لا أعتقد أننا سنتخلى عن الضفة الغربية. يجب ألا نفاوض منظمة التحرير الفلسطينية، حتى لو هي اعترفت بإسرائيل، ولا الملك حسين بشأن اقتسام الضفة الغربية. ويتعين على سكان الضفة الغربية أن يظلوا أردنيين، وأن يكون تمثيلهم في عمان. ويجب أن تبقى الجسور مفتوحة بين الأردن وإسرائيل".

(٦) راجع ملف "السلام المستحيل" في جريدة "لوموند الدبلوماسية"، عدد تشرين الثاني ١٩٧٣صفحة ٣– ٨.

"حرب الغفران الحقيقية"

كنت قد تناولت هذا الكتاب الخطير في دراسة نشرت في صوت فلسطين بتاريخ ١آذار ١٩٧٥.

إلا أن الأحداث التي بدأت بزيارة أنور السادات إلى القدس، وتصاعدت بمؤتمر القاهرة.... حدت بي إلى العودة إليه، لإبراز جانب منه، كنت قد أغفلته عمداً لأسباب لن تخفى على القارىء.

خصصت يومها بهذا المقال الجديد، العدد الأول من مجلة "الكاتب الفلسطيني". وأرفقت به ترجمة كاملة ودقيقة للفصل الأخير من كتاب "حرب الغفران الحقيقية"، ما كان للمقال، من دونها، أن يعني الكثير للقارىء.

وفوجئت بالمقال ينشر في ١ شباط عام ١٩٧٨، دون الترجمة.

ولم يكن في ما قُدِّم لي من أسباب لعدم نشرها، ما يقنعني. وكان أن رفضت منذ ذلك الحين، المساهمة في تلك المجلة.

اليوم أورد المقال والترجمة معاً:

I- المقال: لو كنت قارئاً غربياً:

هو كتاب آخر عن حرب تشرين طبع أولاً في لندن بالإنكليزيـــة، تحت عنوان (المواجهة) في كانون الأول ١٩٧٣. وترجم بعد اشهر قليلـــة إلى الفرنسية بعنوان "حرب الغفران الحقيقية". وقد جاءت الترجمة، الـــتي نحن بصددها، جذابة في غلافها، وفي عنوانها، وفي حجمها، إذ هي تقع في /٣٠٠/ صفحة من القطع الكبير. أما الدار التي تولت نشـــره، فهـــي دار (كَلمان ليفي) إحدى أكبر دور النشر في باريس، وهي دار يهودية. ويبقى أن نعرف أن واضعه هو "ولتر لاكور"، مدير معهد التـــاريخ المعاصـــر في لندن، كي ندرك وقع هذا الاسم على القارىء الغربي. وهـــو إلى ذلـــك يهودي.

ما الغرض من الكتاب؟

"متواضع وبسيط" ومنسجم مع العقلية الغربية الشغوفة بالتحليـــل والنقد. يقول الكاتب في الصفحة /١٠٧/: "إنه يرمي إلى إلقـــاء نظـــرة تحليلية ونقدية على مراحل الحرب الأساسية، ليس إلا". وقد يبـــدو هـــذا الغرض ضيقاً، إلا أنه في الواقع يتسع ويتسع حتى يأتي الكتـــاب في ثمانيـــة فصول تتناول:

١- الفترة التي تمتد من حرب حزيران إلى حرب تشرين.

٢- الاستعدادات للحرب.

٣- الحرب نفسها.

٤- سياسة الوفاق الدولية.

٥- الحرب كاختيار لهذه السياسة.

٦- سلاح النفط.

٧- صدى أوليا لنتائج الحرب.

٨- احتمالات المستقبل.

ويؤكد الكاتب، في مقدمة وجيزة رشيقة، أنه يلتزم جانب الموضوعية، وان كانت الوثائق التي في حوزته في معظمها غير عربية، سيما وأن المصادر العربية كلها رسمية /ص١٠٧/. وتذهب به النزاهة العلمية إلى الاعتراف بأن معظم الفصل الثالث من وضع جنرال الاحتياط الإسرائيلي "ميتياهو بليد" /ص١٠/. وهو يؤكد "انه حاول ألا يتجاهل تطلعات وطموحات أي من الأطراف المتنازعة".

الموضوعية والحرب الخامسة:

ماذا عن هذه الموضوعية؟ وعن هذا الذي أراده تحليلاً نقديا للحرب؟

في الواقع، إن الإجابة على هذين السؤالين تقتضي دراسة مفصلة ومطولة للكتاب كله.

وعندها يتضح للقارىء العربي أن الكتاب موجه للغرب لتبرير حرب خامسة تقوم بها إسرائيل، وتضع فيها حداً نهائياً "لاعتداءات المجانين والمتعصبين" اللذين يحيطون بها!! /ص٣٠٠/.

تلك هي بإيجاز قاطع، رؤيا الكاتب وقناعته المطلقة، برغم ما يتخلل كتابه من تحليلات، يبدو معها وكأنه يتحامل على إسرائيل والمسؤولين فيها، على نحو قلّ أن قرأناه لكاتب غربي. والخطر الكامن في هذه التحليلات بالذات، هو أنها تأتي موثوقة وصريحة. فتوهم القارىء بالموضوعية، فيبتلع معها الرؤيا الكامنة في الكتاب، على أنها الرؤيا الوحيدة للقضية المطروحة، والموقف النابع منها، على أنه الموقف المنطقي الوحيد حيال القضية كلها.

وهو في الواقع يقوم بتشريح دقيق للمجتمع الإسرائيلي في الفترة الواقعة بين حرب حزيران وحرب تشرين. ويشدد على الثقة المتغطرسة التي تميزت بها تلك الفترة. فالمجتمع الإسرائيلي انتقل فجأة من طور الانكماش والخوف إلى طور الانطلاق والتعالي. فبات يتطاول على العالم العربي كله، يهدده بالاحتلال في غضون أسبوع واحد، من أقصاه إلى أقصاه /ص٥٠/. واخذ يتحدى أوروبا كلها معتبراً جيشه وحده متفوقاً على جيوشها كلها مجتمعة /ص٥٠/. وفجأة، يتخلى المسؤولون الإسرائيليون عن فكرة اللا

توسع الصهيونية /كذا! صفحة ٥١-٥٢/ و/ص١١٣/، ويأخذون بتصلب بفكرة التوسع. ويطلع الحاخام الأكبر في إسرائيل، اسحق نيسيم بفتوى كتابية لاهوتية تحظر على أي مسؤول مجرد التفكير بإعادة الأراضي المحتلة في حرب حزيران /ص٥٢/. وتظهر هذه الحرب بصورة نهائية على أنها حرب دفاعية فقط /ص٥٢/. ويأخذ الإسرائيليون بتأليه إبطالها /ص٢٧٢/ ويمنحونهم الثقة المطلقة، فينفق هؤلاء المليارات في إقامة خطوط دفاعية في الجولان وعلى القناة، اتضح فيما بعد أنها ليس فقط لم تفِ بالغرض المطلوب، بل هي ترجع لنظريات عسكرية قديمة ومتأخرة /ص١١٥/. وتظهر طبقة جديدة، هي الطبقة العسكرية الحاكمة، تقوم بينها وبين المدنيين فجوة تزداد اتساعاً، ويقودها "رجل متردد، ذو غرائز قوية، قلما يستطيع السيطرة عليها، يتمتع بقدرات عقلية.. متواضعة جداً، هو دايان" /ص١١٧/. وتسجل هذه الطبقة "انحطاطا في إسرائيل، فكريا وأخلاقياً ومسلكياً" كان "المناخ الذي اشتعلت فيه حرب الغفران" /ص١١٨/. ذلك بأن القيمين على مصير إسرائيل أخذوا بانتصارهم السهل السريع في حزيران، وباتوا يستهترون استهتاراً فادحاً بجيرانهم العرب، فما عادوا يعيرون أهمية للعزلة الدولية تحل بهم، ولضرورة تنازلات قد يكونون وفقوا معها إلى مكاسب تفوق المكاسب الجغرافية الآنية، وللاستعدادات القائمة في الدول العربية من أجل استرداد كرامة مرغت في الوحل، حتى ولا للمعلومات الدقيقة تحملها شبكات الاستخبارات الأمريكية والإسرائيلية المتعاونة /ص٩٣ و١١٣/ والأقمار الصناعية الأمريكية عن احتمال قيام

العرب بعمل عسكري ما، ظنوه "بعيد الاحتمال، إن لم يكن مستحيلاً" /ص١٤٤-١٤٥/.

القضية المطروحة:

هذا التشريح يقوم به الكاتب، والتشريح الذي يقوم به للمجتمع نفسه بعد حرب تشرين، يجب ألا نؤخذ به. صحيح أنه يحدثنا عن هذه الحرب، في وقعها على الشعب الإسرائيلي، كعن "زلزال" /ص٢٧٢/، "وعاصفة وإعصار" /ص٩١/، وكعن "مفاجأة ساحقة" /ص٧٨/، "حولت آلهة الأمس" -دايان وزمرته- "إلى متهمين" /ص٢٧٢/. وصحيح أيضاً أنه يقول بصريح العبارة إن التناقضات التي تفجرت في الكيان الإسرائيلي بعد حرب تشرين وضعته على "حافة حرب أهلية كالتي سببت في القديم، دمار الدولة اليهودية" /ص٢٧٣/.

هذا كله، وكثير غيره، صحيح. ولكن القضية الكبرى المطروحة ليست القضية الفلسطينية كما حدثت، وكما يعرفها العرب والتاريخ والحق. بل القضية المطروحة في الكتاب كله هي، بكل بساطة، قضية صراع بين دولة تتمتع بوجود شرعي ودولي، وبمقومات اجتماعية وحضارية وعسكرية متفوقة ومتقدمة، وتحمي مصالح العالم الغربي كله، ليس فقط في منطقة الشرق الأوسط، بل في العالم بأسره /ص١٥٠و١٩٦/، وبين دول متخلفة تنكر عليها حق الوجود والبقاء

و"تعيش في عالم من الوهم" قد يقودها إلى حرب انتحارية مع إسرائيل، قد تودي بكلا الأطراف المتنازعة، كما حدث لشمشون من قبل /ص٢٨١/.

تلك هي القضية الأساسية، وما عداها، أياً كان حجمه، ثانوي جداً في الكتاب.

ما وراء التناقضات:

بالطبع يخطىء القارىء العربي، إن ظن في الكاتب مثل هذا الوضوح، بل مثل هذه الخشونة في التصريح. فهو يدسُّ آراءه هنا وهناك ويوزعها بقدر، من خلال لمسات ناعمة وانسيابات رقيقة قد لا يتبينها حتى القارىء المتيقظ لأول وهلة. فهو غاية في اللباقة إذ يوحّد بين الجيش المصري والقوات السوفيتية في حديثه عن المواجهة مع إسرائيل ابان حرب الاستنزاف /ص١١٣و١١٥/. وكذلك عندما يتحدث عن المساعدات السوفيتية للدول العربية وما يستتبعها من "ثمن"... والمساعدات الأمريكية لإسرائيل وما يشوبها من "تردد وعدم وضوح" /ص٥١ وص١٤٣/، بل وتبعية لسياسة الوفاق الدولية /ص٢٧٤ وص٢٨٨/.

ويحدث له أن يقع في تناقضات غريبة، كما جاء في الحديث عن معرفة إسرائيل المسبقة بحرب تشرين أو جهلها لها، وبالتالي عن استعدادها أو عدمه /ص١٠٥-١٠٦ خصوصا الحاشية ص١٠٦/. وكذلك الأمر عن يقينه المطلق والمسبق بانتصار إسرائيل في الحرب، حتى في حال فقدانها السيطرة على سماء المعركة، وتوقعه اندحارها /ص٢٧٠/.

تناقض أيضاً إذ قال إن الحرب بقيت سراً مغلقاً، قراراً وتوقيتاً، على الصديق والعدو /ص٢٧٤/، ثم إن السوفييت كانوا على علم بها وقد خططوا لها /ص١٠٠و ص٢٧٥/. تناقض أيضاً إذ أكد أن تسليح السوفييت للعرب لم يكن كافياً /ص٩٥/، فعاد يؤكد أن السوفييت اتخموا البلدان العربية بالسلاح /ص٥١ و٩٣ و٩٩/. وقد يكون أكثر هذه التناقضات سخفاً تحليله لموقف أفريقيا حيال إسرائيل وانحيازها للعرب وقطعها العلاقات معها، دولة تلو الأخرى، إذ يعيدها كلها إلى عجز إسرائيل عن دفع مائة مليون دولار للزعماء الأفارقة، في حين يملك أمراء النفط أضعاف هذا المبلغ /ص٨١ وص٨٢/!....

ويحدث له أن يكذب نفسه. من ذلك مثلاً عندما يؤكد أن الطائرات التي فقدتها إسرائيل طول الحرب، وفي كلتا الجبهتين لم تتجاوز خمسا وعشرين طائرة /ص١٨٧/، في حين أنه كان أكد /ص١٤٢/ أن إسرائيل فقدت في الحرب مائة طائرة...وقد لا يتورّع عن القول بأن ادعاء السوفييت بأن مركزهم الثقافي في دمشق قد دمر، ادعاء مختلق وكاذب من أساسه /ص١٨١/. قد يحدث له أيضاً أن يكذب على المجتمع الدولي بأسره، فيشوه الحقائق ويتطاول على أعلى هيئاته، وحتى على الهيئة التي طلعت على العالم بقرار التقسيم، فيمسخها ويحقرها /ص٨٢/.وأما الدول الأوروبية التي كانت لفترة وجيزة جداً تؤيد إسرائيل تأييداً تاماً، فقد أصبحت كلها مجتمعة تساوي صفرا لا أكثر /ص٩٢/.

ففرنسا مثلا تخلت عن "المثاليات" وتقيدت "بالمصالح الاقتصادية فقط"، وهذا أمر لم تكن إسرائيل لتصدقه. كذا /ص٨٣/.

وسائر الدول الأوروبية باستثناء هولندا، التي تقيدت بقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ /كذا ص١٩٢/، تصرفت كمجموعة من "الأرانب الحقيرة" /ص٢٥٦/ فباعت الشعب اليهودي لقاء البترول /ص١٩٦-١٩٧/، "واتخذت موقفاً خالياً من أي كرامة" /ص٢٢٥/ حيال "حفنة من أمراء الصحراء وسلاطينها" /٢٦٧/، خير ما يتقنونه هو فن الابتزاز /ص٢٦١ و٢٦٢ و٢٦٥/ والاستبداد بالعالم كله /ص٢٦٦-٢٦٧/.

أبعاد حرب تشرين:

ههنا تكمن المشكلة، في نظر الكاتب. وفي هذا الإطار من التحليل، يسوق الكاتب أسباب الحرب الحقيقية، وإذا بها من جانب العرب حرب دينية ليس إلا /ص٢٧٤و٢٨٣/ و"صليبية عربية" /ص٣٠٠/، تشبه حرب الأقليات التي... يمكن أن تقوم في مقاطعة كرواتيا اليوغسلافية أو في مقاطعة كيبيك الكندية أو في الصين أو الولايات المتحدة...."طالما أن هذه البلدان تحتضن هي أيضاً مشكلات أقليات" /كذا ص٩٧!/ هذه الحرب هي إذن، وفي نتيجة المطاف، حرب دينية في نظر سورية، وعلى لسان قائدها الفريق حافظ الأسد /١٣٨-١٤٠/. وهي، في نظر العرب، جهاد /ص١٣٨و١٣٩و٢٧٤/، في حين أنها من جانب إسرائيل حرب للبقاء /ص٢٩٦/ للدفاع عن مصالح العالم الغربي /ص١٩٦/.

ولذا فإن النتائج النهائية لسير العمليات العسكرية لم تحدث كما كان يجب. فإن إسرائيل وقعت ضحية سياسة الوفاق الدولي، التي أملت على الولايات المتحدة موقفاً متعقلاً متردداً حيال إسرائيل، وعلى الاتحاد السوفيتي موقفاً "لا عقلانياً وعاطفياً مؤيداً للعرب" /ص١٨٢-١٨٣/. كما أنها وقعت من ناحية أخرى ضحية المصالح النفطية للدول الأوروبية. وهذان الأمران هما المسؤولان عن الحؤول دون تحقيق إسرائيل انتصاراً حاسماً ونهائياً على العرب /ص٢١٢-٢١٣/.

وفلسطين؟

أما القضية الفلسطينية، وأما الشعب الفلسطيني، فلا مكان لهما، ولا داعي لذكرهما. فالكاتب لا يأتي في كتابه كله ولا مرة واحدة على ذكر فلسطين. بل هناك إسرائيل... وهناك حفنة من "الإرهابيين العرب" /الصفحات ٨٤-٨٦ و٢٨٦/ "والمتمردين واللانظاميين أو الخارجين على القانون" /ص٧٢/ و"منظمات اللاجئين" /ص٢٨١ و٢٩٦/، الذين يمارسون القتل شخصياً أو بالوكالة /ص٢٣٦/ والذين استطاعوا بالقرصنة والاعتداءات /ص٢٣٦/ أن يخضعوا لمطالبهم مجمل الدول الأوروبية، من النمسا إلى تشيكوسلوفاكيا إلى فرنسا /ص٨٦ و٨٧/. وإن آخر ما طلع به هؤلاء هو مشروع الدولة الفلسطينية الديمقراطية التي تهدف في نهاية المطاف إلى "تدمير دولة إسرائيل" وإلى دعوة اليهود لأن "يمارسوا حقهم في دفن أنفسهم أحياء في مقابرهم"/ص٢٩٧/.

الحقائق الأربع:

وماذا بعد؟

ثمة حقائق أربع لا يشوب الكاتب أي شك بشأنها:

أولاً: وجود العالم الغربي كله متوقف على إرادة حفنة من الأمراء ومشايخ النفط، وإذن على العالم العربي.

ثانياً: شريعة الغاب تسود العالم كله /ص٢٩٦/ والعالم لا يحترم إلا القوي. والقوي وحده يجوز له أن يفعل ما يشاء وكيفما يشاء /ص٢٧١ والحاشية ١ص٢٧٠/.

ثالثاً: إذن لا بد من استعمال القوة لضرب العرب الذين لا يفهمون إلا لغة القوة /ص٢٨٦-٢٨٧/.

رابعاً: إذن أيضاً لا بد من إطلاق العنان لإسرائيل ودعمها في حربها القادمة "ذلك بأنه يستحيل إعادة توازن العلاقات الدولية على صعيد الطاقة إن أخذ بمبدأ التخلي عن القوة" /ص٢٤٧/.

بمثل هذه العبارة، أطلقها الخبير النفطي الصهيوني "ولتر ليفي" في مؤتمر أمستردام الذي انعقد في آذار ١٩٧٣، نستطيع أن نختم هذه الدراسة الوجيزة.

وليس في هذه النتيجة من غرابة، فالكاتب يؤكد أن الرأي العام العالمي لن يضيق ذرعاً بإسرائيل إن هي فعلت /ص٢٩٦/. وإن على إسرائيل أن تتكيف مع شريعة الغاب تلك /ص٢٩٦/ ، لتكون قوية وتفعل ما يضمن بقاءها حتى لو طردت العرب كلهم، الأمر الذي لا يجوز إلا للكبار أن يفعلوه /ص٢٧٠ و٢٩٨/. وليس ثمة من مانع إن اضطرت إسرائيل لاستخدام السلاح النووي /ص٢٨٢/.

وأما العرب، فهم في نتيجة الأمر، وفق كلمة السيناتور الأمريكي فولبرايت "جماعة من الغزلان بين أسود"/ص٢٦٧/. ولقد كان تم هذا الاحتلال الضروري لبلادهم لو لم يكن العصر الذي نعيش فيه متمدنا بعض الشيء، الأمر الذي يبدي له الكاتب أسفه /ص٢٤٩/، لا سيما وأن منطقة الشرق الأوسط أعتادت أن تكون منطقة نفوذ تقتطعها الدول الكبرى /ص٢٤٩/ و/ص٢٦٦-٢٦٧/. فليس ثمة، "حتى" في هذا العصر المتمدن، ما يحول دون ذلك.

حرب الغفران الحقيقية؟

بل حرب الدس الحقيقية، تبريراً لحرب قادمة.

بقي أن نسأل أين الكتب التي يخاطب بها العرب العقل والوجدان الغربيين؟

فلو كنت قارئاً غربياً لا تتوفر له إلا أمثال هذا الكتاب، ما كنت ترددت في تأييد الكاتب ودعم إسرائيل

بمثابة خاتمة: النبوءة الواقع!

هذا أحد وجهي القضية المطروحة، وقد لا يحمل جديداً.

ثمة الوجه الآخر: رسم الكاتب ملامحه بخطوط بدت عام ١٩٧٤ أشبه شيء بحلم سخيف. ولكن الأحداث الأخيرة التي شهدها القدس وتشهدها القاهرة، تترجمها يوماً بعد يوم إلى وقائع، وتكسبها بالتالي ما يمكن أن نسميه صفة النبوءة السياسية......وللقارىء العربي أن يتحقق ما تقول، وقد رأينا أن نختم مقالنا هذا بالترجمة الحرفية لما جاء في الصفحتين ٢٩٤-٢٩٥، بهذا الصدد، قبل أن نورد الترجمة الكاملة للفصل الأخير من الكتاب.

يقول ((ولتر لاكور)) عن هذا الوجه الأخر:

"بعد عام ١٩٦٧- وخصوصا بعد موت عبد الناصر-كان على السياسة الإسرائيلية أن تهدف إلى قيام معاهدة منفصلة مع مصر، وتلك هي السياسة التي يجب اتباعها اليوم.

ولكن الصعاب هائلة. فمصر تعاني من فقر رهيب، وهي مرتبطة بقسط كبير بالمساعدة المالية التي تقدمها لها العربية السعودية ودول الخليج "الفارسي". وإن المصلحة الكبرى لهذه البلدان تقوم، لأسباب مختلفة، على استمرار الحرب ضد إسرائيل، إذ هي تشكل بالنسبة إليهم ضمانة ضد التطرف في العالم العربي، الذي يتهدد وجودهم.

صحيح أن وضع السادات اليوم أقوى منه قبل الحرب، ولكن هذا قليل. فإن معاهدة مصرية- إسرائيلية لن تضع حداً للصراع الإسرائيلي – العربي. فقد تنشأ مجابهات أخرى، والخطر ماثل في جر مصر إلى حملة جديدة ضد إسرائيل، إذا ما خلق السوريون والفلسطينيون من جديد مناخا حربياً واستنجدوا بالتضامن العربي. وإذا فرضنا أن مصر قررت آنذاك التزام الحياد، فسيشهّر بقادتها في العالم كخونة، ويتهمون بالجبن، أو بما هو أسوأ من ذلك، وسيكون عندها صعباً على الحكومة المصرية في هذه الأحوال، ألا تبدي من جديد تمسكها بالقضية العربية.

إن كان الاتفاق مع مصر ينطوي على مخاطر جسيمة، فإن الاحتمالين ينطويان على خطورة أدهى. فأحدهما يقوم على الاحتفاظ بكل شيء، والآخر على مواجهة المشكلة في صلبها، بالموافقة على تسوية يرضى بها العرب الفلسطينيون. وإن المقارنة بين هذه الحلول ونتائجها المتوقعة، تجعل توجه إسرائيل نحو مصر ينطوي على قدر أكبر من التعقل. وسينطوي هذا التوجه على انقلاب نفسي جذري. فمصر عدوة إسرائيل منذ عام ١٩٤٨، ولكن طالما أن مصالح البلدين لا تتنافى بالضرورة، فإن احتمال قيام علاقات طبيعية، إن لم نقل صديقة، أمر لا يجوز استبعاده.

ولسوف يكون العالم العربي، في السنوات القادمة، مسرحاً لتبدلات سياسة كثيرة، وإن بدا ذلك، اليوم، بعيد الاحتمال. فليس بمستحيل قطعاً، مثلاً، أن يأتي يوم تكسر فيه إسرائيل العزلة السياسية في الشرق الأوسط، وتتحالف مع بلد عربي أو أكثر ضد بلدان عربية أخرى".

II- ترجمة الفصل الأخير من الكتاب.

وهو بعنوان "السنوات القادمة"

نظرة إلى الماضي أم... نبوءة؟

كان من المألوف، إلى عهد قريب نسبياً، أن يعقب الحروب مؤتمر ينتهي إلى معاهدة سلام.

وكان التقليد القانوني الدولي يقضي بأن يحيا العالم إما في حرب وإما في سلم. ولم يكن هناك احتمال ثالث (كما نقل "غروسيوس" عن "شيشرون": "ليس ثمة ما يتوسط الحرب والسلم").

قبل الحرب العالمية الأولى، كان ممثلو المعسكر المهزوم يعاملون بالكياسة التي تليق بشخصيات مرموقة. وكان مؤتمر السلام يتقلص من حيث المدة بنسبة تقلص مدة الحرب. وعلى العكس من ذلك، فإن كانت الحرب قد استطالت، فالمشاكل الكثيرة الناجمة عنها، كانت تتطلب وقتاً طويلاً لحلها. وفي الواقع، فإن معظم الحروب التي نشبت منذ عام ١٩٤٥، لم تنتهِ بمؤتمر سلام مكتمل ونهائي، إما بدافع الإهمال، وإما لأسباب أخرى أكثر عمقاً.

ويبدو، عبر التاريخ كله، أن بعض الحروب كانت تنطوي على صعوبة قصوى في حلها، منها الحروب الدينية، حروب الجهاد المقدس، الحروب "الصليبية" والحروب الشاملة، حيث لا يتمثل العدو في زعيم أو في

حكومة الخصم، بل في كل فرد من أفراد المعسكر المقابل. صحيح أن حرب الثلاثين سنة نفسها قد انتهت بمعاهدة سلام، ولكن الدِّين في هذه الحالة لم يكن سوى أحد الأسباب الكثيرة في نشوب تلك الحرب.

إلى أي مدى يعتبر العرب صراعهم مع إسرائيل حرباً دينية أو حرب تحرير قومي، بالمعنى الحديث للكلمة؟ إن مواجهة الأمور بصراحة لا تبشر بمستقبل واعد. فقد أعلن مؤتمر القمة الذي عقد مؤخراً في الجزائر، أن البلدان العربية تقاتل من أجل استعادة الحقوق الوطنية للفلسطينيين العرب، وأن منظمة التحرير الفلسطينية هي ممثلهم الشرعي الوحيد. وإن فهمهم "للحقوق الوطنية" يتمتع بقوة القانون. وقد اندرج هذا الفهم في الدستور الوطني الفلسطيني الذي يعود إلى تموز ١٩٦٨، والذي ينص على أن إنشاء إسرائيل "باطل ومرفوض". وبالنتيجة فإن قرار قمة الجزائر يرمي إلى التأكيد، بعبارات أخرى، على أن الغاية من مؤتمر سلام هي مناقشة تصفية إسرائيل. في مثل هذه الشروط ليس ثمة من مصلحة لإسرائيل أن تشارك في مثل هذا المؤتمر، أية كانت الضغوطات التي قد تتعرض لها. ولحسن الحظ فهناك عموماً مسافة بين الأماني والواقع، حتى في أهداف الحروب التي تشعلها حركات دينية أو شبه دينية. فعلى الصعيد النظري ما كان ليقوم اليوم تعايش بين الجماعات الكاثوليكية والبروتستانتية، والإسلام والمسيحية، والعالم الشيوعي وغير الشيوعي.

وفي مؤتمر جنيف للسلام، سينتهي الأمر بإسرائيل إلى أن تكتشف، انطلاقاً من هذه النقطة التي وصل إليها الصراع، إن كـــان ثمـــة إمكانيـــة للتوصل إلى تسوية.

أما فيما يتعلق بمصر، فمن الجائز أن يكون مؤتمر السلام قد تـــأخر عقده أكثر من اللازم. مع أن عقده قد يكون أمراً مبكـــراً، إذ إن ســـائر العرب ليسوا بعد مستعدين على الصعيد النفسي لأن يتقبلوا حتى وجـــود إسرائيل، أية كانت حدودها. من هنا أن مؤتمر جنيف قد لا يكون سوى البداية لعملية طويلة - وربما المؤتمر الأول في سلسلة مـــؤتمرات تتخللـــها أزمات وضغوطات وتهديدات وقطع للاتصالات وعودة للقتال، تعقبـــها مفاوضات جديدة. وإن البحث في احتمالات السلام بين إسرائيل والبلدان العربية، يعني كتابة تاريخ الشرق الأوسط منذ حـــرب حزيـــران ١٩٦٧. ولقد كانت محاولات التسوية السلمية طويلة، وبالغة التعقيد، وبالنتيجـــة، غير مجدية. فليس اليوم لمشروع روجيرز ومشروع يارينغ، وغيرهمـــا مـــن المشاريع الكثيرة، سوى أهمية أكاديمية، ما لم يحدث ما يدعو لبعثهـــا مـــن جديد، وهذا الأمر ليس بمستبعد.

إن تاريخ هذه المفاوضات، المشحون باليأس، يترك العديـــد مـــن الأسئلة دونما جواب، وبالدرجة الأولى ما إذا كانت إسرائيل فوّتت عليها فرص تحقيق السلام مع جيرانها. وغني عن البيان أن إسرائيل لم تجهـــل أي انفتاح سلمي من قبل العرب: فإن أياً منهم لم يمد لها يـــده، ولم يعـــدها بالسلام حتى في حال انسحاب قواها.

وأما إن كان يستحيل بالمطلق التوصل إلى اتفاق مع مصر، حول نزع السلاح في سيناء مثلاً، وإن كان اتفاق من هذا النوع لا يلغي الصراع بعض الشيء، ويخفف من احتمال نشوب قتال مجدداً، أما هذا فإن اكتشافه ليشكل مسألة مختلفة كل الاختلاف.

في أعقاب هجوم عام ١٩٦٧، كثر التأكيد بأن حرباً تنشب من خطوط ما قبل ١٩٦٧، كانت تهدد وجود إسرائيل بالذات. لا شك، ولكن هذه الحجة تقوم على فرضية لا يمكن قبولها دونما تمحيص عميق، نعني بها أنها كانت البديل الوحيد لخط بارليف. وقد أكد بعضهم أن سيناء بعد نزع السلاح منها، يمكن أن تكون منطقة إنذار أعظم جدوى من قناة السويس. ثم إنه يستحيل التسليم بصورة مسبقة، بحتمية هجوم مصري. فإن القادة المصريين يواجهون العديد من المشاكل، في الداخل والخارج على السواء: ربما لم تكن حرب جديدة لتنشب عام ١٩٧٣، إلا في حال قيام وضع مسدود، وقد نكون سمعنا خطباً قتالية وتهديدات، وقد يكون القادة المصريون وعدوا مرة أخرى بتدمير دولة إسرائيل يوما ما. ولكن ذاك الشعور بالواجب الملح في استعادة الأراضي المفقودة، لم يكن ليشتد في مصر، وكان الصراع بمرور الزمن، قد فقد بعض حدَّته. وكان من الممكن التوصل إلى اتفاق مع الأردن.

صحيح أن احتمالات الصلح مع سورية كانت في الواقع منعدمة، ولكن سورية منعزلة لم تكن لتشكل خطراً كبيراً.

وكذلك هو الأمر بالنسبة إلى فتح وخصومها، الذين كانوا واصلوا هجوماتهم المتقطعة من الطرف الآخر للحدود. ربما كانوا حولوا بعض الطائرات وقتلوا بضعة يهود، ولكن وجود الدولة بالذات لم يكن ليناله أي خطر. وربما كان الفلسطينيون، بمرور الزمن، أدركوا أنهم لا يستطيعون الاعتماد على الحكومات العربية لمساعدتهم في قتالهم. وربما كانوا في نهاية المطاف، هم أيضاً، سلموا بوجود دولة إسرائيل.

في تلك الفترة، كانت هذه الحجج تعتبر أوهاماً خطيرة في نظر الذين كانوا يدّعون معرفة النفسية العربية. ومع ذلك، فقد تبين في ما بعد أن المنظمات الإرهابية لم يكن ليستبد بها سوى خوف واحد: أن تنتهج إسرائيل سياسة على جانب أكبر من المرونة تنتزع منها مبرر وجودها. وقد كتب عرفات، بعد ذلك، يقول: "لنشكر الله من أجل دايان".

"بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧، كان الرأي العام العربي، محطماً يائساً، مستعداً لتوقيع الصلح بأي ثمن. فلو كانت إسرائيل أعلنت، بعد انتصارها الساحق، أنها لا تستهدف التوسع على الإطلاق، وسحبت قواتها من الأراضي المحتلة، مع احتفاظها ببعض النقاط الاستراتيجية الضرورية لأمنها، لكانت المشكلة وجدت حلاً يسيراً..."(١).

---

(١)- ورد ذلك في كتاب "جون كولي": (آذار الأخضر، أيلول الأسود) نيويورك عام ١٩٧٣، صفحة (٩٩). (المؤلف)

لا شك أن عرفات يبالغ: فالمشكلة ما كانت لتحل بمثل هذه السهولة. ولكن، كان ثمة في الواقع، فسحة للجم التصعيد. فقد توفرت فرص للسلام، لم تستغل، وذلك لأسباب كثيرة، أهمها أن الرأي العام في إسرائيل كان يميل إلى توقع أسوإ الاحتمالات، وإلى رفض المخاطرة بحياة أي يهودي، وهذا أمر لا يعسر فهمه في ضوء التاريخ اليهودي الحديث.

كان الزعماء العرب، قبل عام ١٩٦٧ بسنوات عديدة، قد هددوا بإزالة إسرائيل، و لم يكن من الممكن اعتبار هذه التهديدات مجرد كلمات. ولما كانت قمة الخرطوم العربية، قد اختارت أن تجمّد الأمور، بدا لإسرائيل من الطبيعي جداً أن تتخذ الموقف ذاته. وكان أي موقف آخر فسّر على أنه دليل ضعف. والحال أن الحكمة الشعبية السائدة تؤكد أن العرب لا يحترمون إلا القوة. وكانت خطوط الهدنة، من وجهة نظر عسكرية، تبدو مثالية. فقد أصبح باستطاعة الجيش الإسرائيلي، للمرة الأولى، أن ينتهج استراتيجية في العمق. فحدود ما قبل ١٩٦٧، مع الأردن، كانت تبلغ (٣١١) كم طولاً، فيما هي أصبحت، بعد وقف إطلاق النار، ٧٨ كلم. وكان الأردنيون، قبل الحرب، يقفون على بعد (٣٠) كم من تل أبيب، والمصريون على بعد ثمانين. ومنذ ذلك الحين، أصبح المصريون يبعدون مئات الكيلومترات، والأردنيون في الضفة الأخرى من الأردن. كما أصبح بمقدور الطائرات الإسرائيلية أن تبلغ القاهرة في دقائق، بينما تحتاج الطائرات المصرية إلى مدة أطول بكثير لتبلغ تل أبيب، وبات بمقدور إسرائيل أن ترفض التخلي عن هذا

الخط، دون أن ترتكز، كما يفعل دعاة الضم، إلى سفر الخروج (١٥/١٨: "لنسلك أعطي هذه الأرض.. ")، أو إلى أوامر إلهية أخرى أو نبوءات كتابية.

في البدء، لم يكن في إسرائيل من يتوقع أن تحتفظ بجميع الأراضي التي احتلتها أثناء حرب الأيام الستة. فقد اعترض دايان، في إثر الحرب مباشرة، على التواجد الإسرائيلي على القناة، وصرح بقوله: "إن بقي الجيش على القناة، لن تنتهي الحرب، إذ إن هذا يعني أن السيف معلق أبداً فوق رأس مصر". كذلك فعل أبا أيبان إذ حذر بلده من "نشوة الانتصار". وقد كان بن غوريون صرح مراراً أن جيشاً قوياً أمر ضروري، ولكنه لا يكفي ليضمن مستقبل البلد. وكان يطالب بحل سياسي: التراجع عن الساحل الغربي، ضمن شروط يُتفق عليها خلال مفاوضات. وكان يرى أنه من الأفضل للإسرائيليين ألا يحتفظوا بسيناء. وكان الانقسام واضحاً في صفوف الحكومة الإسرائيلية، لا سيما فيما يتعلق بمشروع آلون الذي يعترف للعرب الفلسطينيين بحقهم في تقرير مصيرهم. ولكن بمرور الزمن، كان التشاؤم يستبد بدايان وغولدا مائير وغاليلي وغيرهم من القادة، بشأن احتمالات الحل السلمي. فإن كان العرب لا يبدون استعداداً للدخول في حوار، بات من الضروري على إسرائيل أن تظل متشددة، ولا تتخلى عن أي شيء تحت الضغط. وأخذ ينمو التمنع، في إسرائيل، حتى حيال فكرة التفاوض حول شروط اتفاق ما. ولسوف يتقدم الإسرائيليون باقتراحات محددة من أجل معاهدة سلام، عندما يبدي العرب استعداداً للبدء بمحادثات مباشرة معهم.

لم تكن هذه السياسة لتفتقر إلى تبرير تاريخي، ولكنها كانت تشكو ثغرات جسيمة. فهي تجهل أن الصراع الإسرائيلي العربي لـــيس ذا طـــابع إقليمي، وأنه لم يكن ثمة مجال للمقارنة بين الدعم الأمريكـــي لإســـرائيل، والمساعدة السوفييتية للعرب. فقد كان على الولايات المتحدة الأمريكية أن تأخذ بعين الاعتبار مصالحها الأخرى في الشرق الأوسط، بينما كان بوسع الاتحاد السوفييتي أن يقدم لزبائنه مساعدة غير محدودة. كمـــا وأن هـــذه السياسة كانت تقلل من شأن القوة الحقيقية للجيوش العربية، التي عززهـــا الروس منذ عام ١٩٦٧. وكانت على العكس من ذلك تبـــالغ في تقـــدير سياسة الوفاق، وعلى الأخص لم تكن لتأخذ بعين الاعتبار الأهمية المتنامية لسلاح النفط، الذي سوف يسبب حتماً عزل إسرائيل بصورة متزايدة على الساحة الدولية.

كان بوسع أوروبا واليابان أن تضحيا بإسرائيل دون النفط العربي. وفي نتيجة الأمر، فإن التوازن العالمي آخذ بالتبدُّل، ولكن لـــيس لصـــالح إسرائيل. فقد كان بوسع دولة كبرى أن تماشي هذا التطـــور بطمأنينـــة. ولكن الأمر يختلف بالنسبة إلى بلد صغير، ما لم يمتلك سلاحاً فعالاً، وما لم يكن خصوصاً قادراً على مقاومة الضغوط السياسية والاقتصادية إلى ما لا نهاية. بذلك كانت سياسة إسرائيل الخارجية تســـتند إلى العديـــد مـــن الفرضيات الخاطئة. وإن الهجوم العربي في تشرين عـــام ١٩٧٣، لم يكـــن فقط مفاجأة تكتيكية: فإسرائيل لم تكن لتتوقع الحرب قبل عشر سنوات في أفضل الاحتمالات.

بعد الحرب، ظهرت في إسرائيل نزعة جديدة ترمي إلى إعادة التفكير في الصراع الإسرائيلي العربي، وإلى البحث عن وسائل للاتفاق. وقد تبدّى هذا التطور بادئ ذي بدء، بسيل من المقالات والخطب، يكشف عن هذه البلبلة الفكرية ويقترح شتى أنواع الحلول. فرأى البعض أنه لا بد من إنشاء مجلس أمن قومي في إسرائيل. وارتأى غيرهم أنه كان على الولايات المتحدة وإسرائيل أن توقعا منذ زمان طويل على معاهدة دفاع مشترك. وأكد آخرون أنهم سبروا دون سواهم، عمق العداء العربي حيال وجود دولة إسرائيل. وألحَّ غيرهم على ضرورة إحداث "وزارة للإعلام النبوي". وكان النقاش يتناول بالضرورة، ودونما حدود، الفرص التي أضاعتها إسرائيل من الناحية العسكرية: لو كانت إسرائيل واصلت حربَ الاستنزاف حتى نهاية عام ١٩٧٠.. لو كانت استنفرت رجال الاحتياط قبل السادس من تشرين... لو كان أطلق العنان لأريل شارون في اجتياز القناة في يوم ٩ تشرين... لو كان الدكتور كيسنجر لم يسارع على هذا النحو إلى التوقيع على اتفاق ٢٠ تشرين مع الروس...

لم تكن المقترحات المقدمة آنذاك لتخلو من المنطق والأهمية، ولكن كان لا بد من مضي بضعة أسابيع، قبل أن تبرز المحاولات الجدية الأولى، لاستخلاص الدروس الحقيقية من حرب تشرين، بكل أبعادها وعمقها. وقد صادفت هذه العملية التحليلية الخطة الانتخابية التي اضطرت الأحزاب إلى تحديد سياستها القادمة. وقامت خطة حزب الحيروت -وهو حزب وطني أسسّه ميناحيم بيغن عام ١٩٤٨، القائد السابق لحركة "آرغون" السرية-

(المؤلف) على فكرة الانتصار العسكري الرائع الذي حققه شعب إسرائيل، الذي رفض أن يدفع ثمن هزيمة العالم الغربي في ساحات قتال النفط العــربي. ولكن هذا الحزب كان يرفض بشدة أن يُنظر إليه على أنه "حزب يدعو إلى الحرب": فإنه على الرغم من الافتراءات التي وجهت إليه، اكثر كفاءة مــن التحالف العمالي على تحقيق السلام للبلاد.

وكان الحيروت يفتقر بعض الشيء إلى الوضوح في تحديد أهدافــه، ولم يكن ليتقدم بأجوبة بينة على بعض الأسئلة. من ذلك مثلاً: هل هــو يستمر في سياسته القائمة على رفض التخلي عن شبر واحد من الأرض، أم تراه يتنازل عنها؟... هل هو يأخذ بمبدأ قرار الأمم المتحدة بالذات؟... هل هو على استعداد للاشتراك في مؤتمر جنيف؟...

وكان حزب الأحرار، حلفاء الحيروت داخل تجمع الليكود، ينادي بسياسة أكثر اعتدالاً، تنطوي على تنازلات إسرائيلية من أجل الســلام. وكان الخلاف بين الأحرار يقوم على ضرورة الإعلان عن طبيعــة هــذه التنازلات المحتملة.

أما برنامج الاتحاد العمالي، الذي تبلور في تشرين الثاني عام ١٩٧٣ والذي يتضمن ١٤ نقطة، فقد كان تسوية بين اتجاهات متعارضة. فتقول مقدمته: "يتحتم على برنامجنا أن يأخذ بعين الاعتبار دروس حــرب يــوم الغفران". وهو يطالب بحدود يسهل الدفاع عنها، تقوم نتيجــة تســوية جغرافية، ولا يقبل بفكرة العودة إلى حدود الرابع من حزيران عام ١٩٦٧.

وكانت النقطة العاشرة توضح أن السلام مع الأردن يمكنه أن يقوم علــى تواجد دولتين مستقلتين: إسرائيل وعاصمتها القدس، ودولــة عربيــة إلى الشرق. وكان بوسع الصقور أن يؤكدوا داخل الاتحاد العمالي أن وثيقــة "غاليلي" المتبناة عشية الحرب، لم تهمل بالكلية: وفي الواقع، فقد كانــت إحدى نقاط البرنامج الجديد، تتضمن أن جهوداً ستبذل لمواصلة عمليــة الاستيطان في الأراضي المحتلة، "وفق قرارات الحكومة التي تعطي الأولويــة لاعتبارات الأمن القومي". ولكن النقاط الأربع عشرة بمجملها تشكل دون أدنى شك انتصاراً للحمائم، وتخلياً عن المطالب المتطرفة التي ظهرت قبــل الحرب.

ولقد نشرت هذه النقاط الأربع عشرة بمحض الصدفة في اليوم الذي أعلن الطرف الآخر عن مطالبه في قمة الجزائر للقادة العــرب. فهــؤلاء يعتبرون النضال ضد الغزو الصهيوني مسؤولية تاريخية بعيدة المدى، تنطوي على الكثير من المحن والتضحيات. فوقف إطلاق النار ليس بالســلام، وإن السلام ليقتضي شروطاً كثيرة، منها شرطان أساسيان ومطلقان: انسحاب إسرائيل من جميع الأراضي المحتلة، بدءاً من القدس، واســتعادة الحقــوق الوطنية للشعب الفلسطيني بصورة كاملة.

مع ذلك، بدا أن السادات قد حقق، على العموم، انتصاراً في قمــة الجزائر، إذ إنها لم تعلن الحظر على إجراء مفاوضات مع إسرائيل، الأمــر الذي كانت قمة الخرطوم قد رفضته بصورة قاطعة عام ١٩٦٧.

صحيح أن البيان الختامي أعلن أن المؤتمر تكلل بالنجاح، ولكن العراق وليبيا كانتا قد قاطعتاه منذ البداية، كما وأن سورية لن تعتّم أن تقرر رفضها الاشتراك في مؤتمر جنيف: وإذن فالوحدة العربية لم تكن بكاملة. وبمرور الزمن، تنامى تصلب المتطرفين في رفض مقررات قمة الجزائر. فأعلنت إذاعة بغداد يوم الجمعة الموافق ٢١ كانون الأول عام ١٩٧٣ (وهو يوم افتتاح مؤتمر جنيف): "إن الجماهير لن تشعر بالتزامها حيال أنظمة الخيانة والاستسلام الممثلة في مؤتمر جنيف". وتساءلت إذاعة طرابلس: "هل يعتقد قادة الأمة العربية (أي السادات) أنها بلغت من الخنوع ما يمكنهم من المساس بكرامتها دونما خشية لغضبها؟".

وجرت "الانتخابات الخاكية" في إسرائيل في آخر عام ١٩٧٣. وقد أظهرت استطلاعات الرأي العام المنشورة في أيلول ١٩٧٣، أن النتائج لم تكن لتختلف إلا قليلاً، لو كانت الحرب لم تنشب. ففقد الاتحاد العمالي الذي يعاني من انقسامات عميقة، بعض الأصوات. وكان كل من غولدا مئير ودايان عرضة لانتقادات كثيرة داخل الحزب نفسه. فقد قيل إن أولى الهزائم العكسرية في بادئ الحملة كانت خطيرة، ولكنها لم تكن قاضية، وإن أسوأ المصاعب التي واجهتها إسرائيل قد نجمت من تشدد حاشية السيدة مئير المباشرة، ومن الأخطاء التي ارتكبتها في تقويم الوضع الدولي. ولولا مقتضيات الحملة الانتخابية، وضرورة الحفاظ على وحدة الحزب، لما كان من المستحيل أن يضطر كل من مئير ودايان لتقديم استقالته، إذ إنهما فقدا دعم الغالبية في حزبهما بالذات. ولم يكن أيضا بوسع تجمع الليكوود

أن يهنئ نفسه على نتائج الانتخابات: فإن كان حزب بيغن لم يستطع أن يهزم خصومه في مثل هذه الظروف المثالية تقريباً، فلن يتسنى له ذلك أبداً، إلا طبعاً، في حال تفجّر الاتحاد العمالي من الداخل.

وقد كانت الحملة مشوشة، لأن الناخبين لم يجدوا أنفسهم أمام خيارات واضحة. فكتب صحفي إسرائيلي يقول: "لا بد للذين يريدون دايان أن يشتروا أيضاً آلون. ولا بد للذين يريدون الأحرار أن يشتروا بيغن...". وفي غياب خيار واضح، لم يكن من الممكن أن تكون نتيجة الانتخابات حاسمة. فلم تنتهِ إلى تكليف واضح في سبيل سياسة محددة. فما من شك أن بيغن شعر بارتياح لعدم حصوله على مزيد من الأصوات. وإلا لكان اضطر في حال انتصاره لأن يقدم تنازلات في جنيف، خلافاً لوعوده الانتخابية. فإن انعدام الإجماع في إسرائيل سيضفي صعوبة كبرى على مهمة المندوبين الإسرائيليين إلى جنيف، بعد اجتياز المرحلة الأولى من المفاوضات. وسيستمر النقاش حول الحرب والسلم في إسرائيل. وقد يشتد حدة. ولا يسعُ مثل هذا الاستقطاب للرأي العام إلا أن يحد من حرية مناورة إسرائيل في منعطف خطير من تاريخها. فكتبت مجلة "الإيكونومست" البريطانية تقول: "إن من نتائج الانتخابات أنها منعت أي حكومة من اتخاذ القرارات الرئيسية التي تقتضيها مفاوضات جنيف. ولما كان من غير الجائز أن يستمر مثل هذا الوضع طويلاً، فهو يهدد إما بحرب جديدة وإما بانتخابات جديدة، وربما بالاثنتين معاً".

افتتح مؤتمر جنيف يوم الجمعة الموافق ٢١ كانون الأول، في جو من التفاؤل الحذر. وكان الرئيس نيكسون قد أعلن، بعيد الإنذار الكبير في تشرين، أن احتمالات المستقبل لم تكن يوماً مشجعة مثلما هي عليه اليوم. وأشار الدكتور كيسنجر في خطابه الافتتاحي إلى "قيام فرصة تاريخية للسلام". وكانت وشوشات واعدة تتصاعد من القدس وموسكو، حتى إن القاهرة تحدثت عن "شعاع أمل". وكان هذا التفاؤل يعود بالطبع إلى أن احتمالات السلام تبدو في أعقاب حرب ما، أكثر تألقاً دوماً. ويبدي الناس عموماً استعداداً لتقبل شروط كانت تبدو قبل الحرب مرفوضة بالكلية.

ولكن كانت هناك شكوك عميقة تتسرب وراء التفاؤل الرسمي، ومنذ البداية، بشأن نهاية مؤتمر جنيف. وكانت لهذه الشكوك أسباب كثيرة. ولكن يمكن ردّها بسهولة إلى قاسم مشترك: هل قيام سلام منفصل (أو تسوية) بين مصر وإسرائيل، أمر ممكن ودائم؟ وليس من قبيل الصدفة أن القسم الأول من المؤتمر خصص فقط لمصر وإسرائيل دون سواهما: لم يكن ذلك بالتأكيد بداعي فصل القوات. ولا تبدو الصعوبات، للوهلة الأولى، بمستحيلة: فإن أقر لمصر بسيادتها على سيناء، وإن وافقت مصر على مشروع فعال لنزع السلاح، عندها لم تعد تقوم إلا مسألة شكلية بشأن منطقة إسرائيلية منزوعة السلاح، ومسألة قطاع غزة ومسألة شرم الشيخ. فليس بين الخصمين من يرغب كثيراً في تحمل مسؤولية قطاع غزة (وإن كان كل منهما لا يصرح بذلك). وإذا فرضنا أن إسرائيل ستنسحب شيئاً فشيئاً من

سيناء، وأن المصريين أقروا بمبدأ نزع السلاح، فإن اتفاقاً بين البلدين يصبح ممكناً، بعد مساوَمات قاسية.

ومع ذلك فإن إسرائيل قد تقبل بصعوبة أن تنسحب من الأراضي المحتلة، إن لم تظفر إلا بهدنة. ولسوف تنشب الصعوبات الحقيقية حول هذه النقطة – هذا، ما لم تتوقف المفاوضات، طبعاً، قبل هذه المرحلة. وقد أكدت مصر لحلفائها أنها لن تبرم الصلح مع إسرائيل بأي حال، ما لم تنسحب إسرائيل من الأراضي المحتلة كلها، ويستعد الفلسطينيون حقوقهم الوطنية. ولا يمكن لهذه العبارة أن تعني رسمياً إلا زوال دولة إسرائيل. ولكن يجوز تأويلها بطرق أخرى كثيرة، وعلى كل حال يجوز من ناحية أخرى، الشك بصورة مشروعة في ولاء مصر الحقيقي لقضية حلفائها. فمصر تكاد تتحمل وحدها منذ ٢٥ سنة، عبء القتال ضد إسرائيل، في حين أن مشاعرها العروبية لا تبلغ في القاهرة العمق الذي تبلغه في سائر العالم العربي. ولقد حصل عبد الناصر والسادات، في صراعهما ضد إسرائيل، على تأكيدات كلامية لا حصر لها لتقديم الدعم، وعلى نصائح لم يكونا ليطلباها. ولكن مصر لم تتلق في اللحظة الحرجة إلا مساعدة لا تكاد تكون أكثر من رمزية. فلسورية والعراق مآخذ عميقة وقديمة على مصر. وهما تعتبران أن قيادة العالم العربي تعود إليهما شرعاً. وصرح القذافي مرات متوالية أن مصر منحطة وفاسدة. وأما الوداد بين مصر والجزائر فليس على أشده.

ويعتبر المصريون، من ناحيتهم، أن السوريين والعــراقيين أنصــاف برابرة، ولا يكنون للفلسطينيين سوى الاحتقار. ومع أن مصر تمتلك بعض السمات المشتركة مع البلدان العربية، فهي تتمتع بطبيعة خاصــة كــثيرة التباين. وقد ظهر تيار قوي على صعيد الرأي العام، يدعو إلى وضع المصالح المصرية في المرتبة الأولى. كانت حرب الأيام الستة صدمة خطيرة، فــأجمع الناس في مصر على القول بضرورة غسل عار ١٩٦٧ في ساحة القتــال، واسترداد سيناء. ولكن إذا تسنى لمصر أن تحقق هذه الأهداف، فلن تعــود تشعر بنفسها ملزمة بأن تكون البطل الأول للصراع ضد إسرائيل. وكانت الجيوش المصرية تتحرق لتقاتل من أجل الإسماعيلية، ولكنها أقــل تحرقــاً للقتال، بل للموت من أجل نابلس وطولكرم. وأما العسكريون المصريون، فلن يقروا بذلك علناً، وسيواصلون التأكيد في أحــاديثهم إلى أشــقائهم العرب، أن الهدف الأبعد يظل تحرير فلسطين برمتها. ولكنهم يوضــحون بأن ذلك يبقى مهمة جيل أو جيلين أو ثلاثة. وحتى ذلك الحين ستحدث تطورات كثيرة على ضفتي النيل والأدرن.

بعد عام ١٩٦٧ - وخصوصاً بعد موت عبد الناصر - كان علــى السياسة الإسرائيلية أن تهدف إلى قيام معاهدة منفصلة مع مصر، وتلك هي السياسة التي يجب اتباعها اليوم. ولكن الصعاب هائلة.

فمصر تعاني من فقر رهيب، وهي مرتبطة بقسط كبير بالمســاعدة المالية التي تقدمها لها العربية السعودية ودول الخليج الفارسي. وإن مصلحة هذه البلدان الكبرى تقوم لأسباب مختلفة، على اســتمرار الحــرب ضــد

إسرائيل، إذ هي تشكل بالنسبة إليهم ضمانة ضد التطرف في العالم العربي الذي يتهدد وجودهم. صحيح أن وضع السادات اليوم أقوى منه قبل الحرب، ولكن هذا قليل. فإن معاهدة مصرية - إسرائيلية لن تضع حداً للصراع الإسرائيلي - العربي: فقد تنشأ مجابهات أخرى، والخطر ماثل في جر مصر إلى خطة جديدة ضد إسرائيل، إذا ما خلق السوريون والفلسطينيون من جديد مناخاً حربياً، واستنجدوا بالتضامن العربي. وإذا فرضنا أن مصر قررت آنذاك التزام الحياد، فسيُشهّر بقادها في العالم العربي كخونة، ويُتهمون بالجبن، أو بما هو أسوأ من ذلك. وسيكون عندها صعباً على الحكومة المصرية في هذه الأحوال ألا تبدي من جديد تمسكها بالقضية العربية.

إن كان هذا الاتفاق مع مصر ينطوي على مخاطر جسيمة، فإن الاحتمالين الآخرين ينطويان على خطورة أدهى. فأحدهما يقوم على الاحتفاظ بكل شيء، والآخر على مواجهة المشكلة في صلبها، بالموافقة على تسوية يرضى بها العرب الفلسطينيون. إن المقارنة بين هذه الحلول ونتائجها المتوقعة، تجعل توجه إسرائيل نحو مصر ينطوي على قدر أكبر من التعقل. وسينطوي هذا التوجه على انقلاب نفسي جذري. فمصر عدوة إسرائيل منذ عام ١٩٤٨، ولكن طالما أن مصالح البلدين لا تتنافى بالضرورة، فإن احتمال قيام علاقات طبيعية، إن لم نقل صديقة، أمر لا يجوز استبعاده. لسوف يكون العالم العربي، في السنوات القادمة، مسرحاً لتبدلات سياسية كثيرة، مهما بدا ذلك اليوم بعيد الاحتمال. فليس

بمستحيل قطعاً، مثلاً، أن يأتي يوم تكسر فيه إسرائيل طوق العزلة الحالية، وتشارك في اللعبة السياسية في الشرق الأوسط، وتتحالف مع بلد عربي أو أكثر ضد بلدان عربية أخرى.

ولقد أشرنا بإيجاز إلى الخيار الثاني. فهو يعني مواجهة العاصفة برفضها أي انسحاب، بعد أن يكون فصل القوات قد أنجز. فإن بدا أن كل انسحاب إسرائيلي يشكل تفكيكاً تدريجياً للبلد، فمن الواضح أن خوض غمار الصراع الحالي مفضل على كل صعيد.

على كل حال، ستبقى إسرائيل وحيدة. وليس ثمة أي سبب للتساهل مع الرأي العام العالمي، إذ إن إقناعه أمر مستحيل. وترتكز هذه الفرضية، في نتيجة الأمر، على الاقتناع القائل بأن الولايات المتحدة لا يمكنها أن تضحي بإسرائيل، لأن ذلك يمس هيبتها. وإنه لمن المؤكد تقريباً أن هذه السياسة ستشعل حرباً جديدة، وربما في غضون بضعة أشهر، لأن السادات يتعرض اليوم في بلده لضغوط قوية جداً: فلا بد له من تحقيق بعض الأهداف، أو يعود إلى الحرب. ولسوف يكون الصراع طويلاً ومضنياً. ولكن إسرائيل، في النتيجة، تتمتع بحظ أوفر في الانتصار، لأنها تقاتل من أجل وجودها بالذات، وتلك ليست هي حال العرب.

وهناك من يقول إن تصرّف إسرائيل "بتعقل"، قد يقضي عليها. فالقوانين المتعارف عليها تبيح للقوى الكبرى أن تبتلع بلداننا بكاملها. ولكنها لا تجيز لبلد صغير مثل إسرائيل حدوداً يمكن الدفاع عنها. ويراد

لإسرائيل أن تحترم هذه القواعد غير المكتوبة، وتمتثل لرغبات الدول العظمى، وتتصرف كأوروبا الغربية، لتصل ربما إلى النتائج نفسها.

ولكن ماذا عساه يحدث لو أن إسرائيل تصرفت بصورة غير معقولة، كما يفعل منتجو النفط والإرهابيون العرب؟ فقد يثير هذا استنكار العالم، ويلوّح الروس بالتهديد، ثم تقطع بعض الدول علاقاتها مع إسرائيل، وتمارس واشنطن بعض الضغوط. ولكن من المحتمل أنه لن يحدث ما هو أسوأ من ذلك. فإن السنوات القادمة ستحمل بدون شك تبدلات سياسية واسعة في العالم. وقد تسبب انهيار أوروبا الكامل، أو على العكس من ذلك – وهذا أقل احتمالاً – بعث قوتها. وقد تنشب حرب بين الصين والاتحاد السوفييتي. وستخضع العلاقات الدولية في السنوات القادمة بصورة عميقة لشريعة الغاب. فإن لم تساير إسرائيل هذا التطور، فقد قضي عليها بصورة شبه مؤكدة. فلا بد لها إذن من أن تتصرف بقسوة وعلى نحو مفاجئ، وإلى حد ما، غير معقول.

إن هذه الصيغة الأكثر دقة لسياسة "التصلب"، لا يمكن استبعادها لسبب هام، وهو أن كل شيء ممكن في السياسة. ولكن لا يجوز المبالغة في تقدير فرص نجاحها. وهي تقلل من تبعية إسرائيل العسكرية والاقتصادية للولايات المتحدة، وتبالغ في تقدير الإرادة الأمريكية في مساعدة إسرائيل مستقبلاً.

هناك أخيراً احتمال الاتفاق مع الفلسطينيين، وهو الحل الأمثل على كل صعيد، لأنه يضرب وحده في عمق المشكلة. فلا بد من أن يتوصل الفلسطينيون والإسرائيليون إلى اتفاق يتضمن إنشاء دولة فلسطينية في ضفة الأردن الغربية، وقبول إسرائيل بعودة قسم من اللاجئين، واستيطان من لا يمكن استعادتهم في مكان آخر.وينطوي هذا الحل على مكاسب كبيرة جداً، ولا سيما مكسب وضع حد نهائي للصراع. ولكن ليس هناك ما يدعو للاعتقاد بأن المنظمات الإرهابية، فتح وجبهة التحرير الشعبية قد ترضى بحل من هذا القبيل. فهدفهم هو هو: تدمير "الدولة الصهيونية". ويرفض الفلسطينيون للإسرائيليين حق تقرير المصير، وهذا منطقي لأن الإسرائيليين لا يشكلون في نظرهم أمة. وهم يعنون بالدولة "الفلسطينية الديمقراطية والعلمانية"، التي سوف تحل محل إسرائيل، دولة عربية لن يكون فيها لليهود سوى الحق في دفن موتاهم في مدافنهم الخاصة. وإن الدافع العميق لفتح وجبهة التحرير الشعبية، ليس دافعاً ثورياً - اشتراكياً - أممياً، بل هو شوفيني. من هنا كان عبث المنطق التروتسكي الداعي إلى "اندماج إسرائيل في وحدة اقتصادية وسياسية في الشرق الأوسط، على أساس الاشتراكية". أن يكون هذا الهدف مقبولاً أم لا على المدى البعيد، فإنه هو على كل حال أمر مستحيل كل الاستحالة، ما لم يقم الاقتناع بأن الاشتراكية تعني القومية المتطرفة والتعصب الديني.

وقد يحدث، بتأثير من الاتحاد السوفييتي وضغط منه، أن ينتهي الأمر بفتح وجبهة التحرير الشعبية، إلى قبول فكرة إنشاء دولة فلسطينية في

الضفة الغربية من الأردن. وقد تضاف إليها غزة. فضلاً عن ذلك، فإن الغالبية الساحقة لسكان هذه الدولة الفلسطينية العربية المحتملة، قد لا تؤيد مواصلة الحرب، أية كانت مشاعرها حيال إسرائيل، لأن من شأن الحرب أن تجلب لبلدهم خسائر فادحة. ولكن دولة عربية فلسطينية قد لا تتمتع بمقومات الحياة الاقتصادية. وسترتبط بالبلدان العربية الأخرى وبالاتحاد السوفييتي. أما سياسة هذه الدولة، فسيمليها عليها المتطرفون، وليس العناصر المسالمة. وسيعتبرون الضفة الغربية منطلقاً لمواصلة الحرب ضد إسرائيل. ويجوز الاعتقاد بأن إنشاء دولة عربية فلسطينية سيشمل بالتأكيد تقريباً صراع نفوذ بين مختلف الأطراف الفلسطينية للسيطرة على الحكم. ولكن ههنا أيضاً ليس انتصار "حزب السلام" بالأمر المتوقع، وكذلك أيضاً تهدئة الإرهابيين في مستقبل قريب.

طالما أن أهدافهم لم تحقق كاملة، فإن تهدئتهم تعني خيانة مثلهم العليا. فإن أفضل ما يمكن توقعه من إنشاء دولة عربية فلسطينية هو ألا تقوم المجابهات بين إسرائيل وهذه الدولة (تدعمها البلدان العربية الأخرى والاتحاد السوفييتي) على مستوى حرب عامة، وأن ينتهي الأمر بالفلسطينيين إلى التسليم بوجود دولة يهودية.

إن مصير عرب فلسطين هو في قلب الصراع. وإن المسألة العامة لن تجد حلا له، ما لم تحل هذه المشكلة. وإن قوى أعظم حجماً قد حلت مشاكل من هذا النوع بصورة جذرية: فإن طرد الألمان من أوروبا الشرقية هو أقرب مثال يوفره التاريخ الحديث. ولكن هذه الحلول لا تجوز للبلدان الصغيرة. ههنا تكمن

المشكلة، وإن عقدها لتـثقل مسيرة مؤتمر السلام المتوقع. وفي هذه الظروف، لا بد، في الحديث عن "إمكانية حقيقية للسلام"، من التصميم على تضليل الرأي العام عمداً أو تجاهل المشكلة بالكلية.

إن كانت إمكانية سلام حقيقي بعيدة جداً، فثمة بالتأكيد اليوم (كما بعد عام ١٩٦٧) فرصة لحل التراع والتخفيف من احتمال نشوب قتال شامل. وتقتضي هذه السياسة الموافقة على المطالب المصرية الأساسية: انسحاب تدريجي للقوات الإسرائيلية من قسم كبير من سيناء، والإقرار بمبدأ السيادة المصرية على القسم الأكبر من سيناء. فإن لم تلبَّ هذه المطالب، فإن نشوب قتال في مستقبل قريب يبدو محتملاً، في حين أن كلاً من مصر وإسرائيل لا يمكنهما أن يحققا انتصاراً كاملاً.

وستكون النهاية المتوقعة سلاماً يفرضه العملاقان الكبيران، ولن يكون بالتأكيد لصالح إسرائيل. ويؤكد بعض الصحفيين منذ زمان بعيد أن الفرصة الفضلى، وربما الوحيدة، في الشرق الأوسط، تكمن ههنا. ذلك أن الخصوم الرئيسيين في التراع لن يتقبلوا هذه الفرصة نفسياً، إلا أذا أضعفوا عسكرياً واقتصادياً. وإن إسرائيل، إذ تعارض تسوية مع مصر، ترجح كفة الحل المفروض.

في المرحلة الأولى من مؤتمر السلام، حضر الكبار جالسين في مقاعدهم. ولكن ذلك لن يدوم على الأرجح، إذا ما نشب القتال من جديد، أو إذا استطالت المفاوضات إلى حد مفرط. فإن سياسة الولايات

المتحدة تجاه إسرائيل، سياسة متناقضة، فهي تشبه إلى حد بعيد موقف روزفلت إبان الأزمة التشيكية عام ١٩٣٨. فهي تريد إسرائيل قوية، ولكنها تطالبها في الوقت نفسه بتنازلات، لتحول دون قيام حرب جديدة في الشرق الأوسط، أقله مدة بضع سنوات. ويريد الاتحاد السوفييتي عودة إلى قرار الأمم المتحدة الصادر في تشرين الثاني عام ١٩٤٧، أي إنشاء دولة عربية فلسطينية يحتل فيها النفوذ السوفييتي المكان الأول. وإن هذا لهدف بعيد. وإن اتفاقاً مع الولايات المتحدة بهذا الصدد، غير متوقع في مستقبل قريب. فضلاً عن ذلك، فلا العرب الفلسطينيون ولا السوريون، ولا بأولى حجة العراقيون، برهنوا على نية طيبة بينة. ويواصل المتطرفون العرب رفضهم لوجود دولة يهودية، مهما تقلص حجمها، ويعتبرون قرار الأمم المتحدة الصادر عام ١٩٤٧ خالياً من الشرعية.

في هذه الظروف، فإن التصلب العربي يخدم الإسرائيليين، وقد لا يتسنى للاتحاد السوفييتي أن يدافع عن "تسويته" باقتناع كبير.

في الأوساط المتنفذة في العالم العربي، كحزب البعث في العراق وسورية، يسود الاعتقاد بأن تفكيك إسرائيل يجب أن يتم على مرحلتين. وإن النقطة الوحيدة التي يشوبها الشك هي الفترة المتوقعة بين نهاية المرحلة الأولى وبداية الثانية. ولقد حدد حسنين هيكل هذه السياسة في مقال له في الأهرام، خلال شباط ١٩٧١. تطرح هذه الفكرة أولاً تصفية "آثار عدوان عام ١٩٦٧"، ثم تصفية آثار "عدوان عام ١٩٤٨"، بإزالة دولة إسرائيل

بالكلية. ويرى مؤلف هذا المقال أن القادة العرب ارتكبوا خطأ إذ حاولوا أن ينجزوا المرحلة الثانية قبل التصدي للأولى.

وفي مقال آخر تناول فيه هيكل هذا الموضوع بعد حرب الغفران، تنبأ بوقوع حرب خامسة بل وسادسة، تزيلان من الوجود إسرائيل. وقد صرح الرئيس السادات، في خطاب ألقاه في ٢ حزيران ١٩٧١، مستوحياً الفكرة نفسها، "إن الصليبية العربية سوف لن تنتهي باستعادة الأراضي المحتلة، ولكنها ستدوم أجيالاً وأجيالاً". وأعلن في أول أيار من عام ١٩٧٢ في الإسكندرية أنه "لن يكون هناك سلام ولا حرب"، ما لم تُمح دولة إسرائيل بالكلية. وكثيرة هي التصريحات من هذا القبيل، وليس من شك أن القادة العرب يتحدثون عن إسرائيل بالجدية نفسها التي كان يصف بها كرومويل الإسبانيين "بالعدو الطبيعي والإلهي". ولكن الروح الصليبية، للأسف، ليست أبدية: فكثيراً ما لم تبلغ الحروب الصليبية أهدافها. وإن الذين يسعون إلى إرهاب أعدائهم، يجهلون في معظم الأحيان تأثير الزمن، الذي ينتهي دوماً إلى استتراف الوقائع والمقاصد البشرية سواء بسواء. فثمة حدود لتأثيرات التهديد. وطالما أن "الخطر الإسرائيلي" يسيطر على الوجدان العربي، فإن الوحدة ضد العدو المشترك مؤكدة. ولكن عندما يتقلص تهديد العدو، فإن التراعات الداخلية بين البلدان العربية والإيديولوجيات والشخصيات، وكذلك بين جميع العوامل التي كبتها "التهديد الصهيوني"، ستعود للظهور. وأن تصبح بعض البلدان العربية غنية إلى حد لا يصدق في السنوات القادمة، دون غيرها، أمر من شأنه أن يزيد

حدة الخلافات القائمة. ولسوف تزداد وطأة الظل السوفييتي في الشـــرق الأوسط، مما سيحدث تبدلاً في سلوك العرب. وإن المطالب المفرطة للبلدان المصدرة للنفط، ستزيد من نقمـــة الشـــعوب علـــيهم في العـــالم كلـــه. وسيضطرون عندها للدفاع عن ثرواتهم، بل عن وجودهم نفســـه، ضـــد أخطار تفوق إسرائيل بكثير، واقعية ودهاء، وهذا لا يعـــني أن إســـرائيل ستكون بمنأى من هجمات مجانين ومتعصبين.

يوم الجمعة الموافق ١٨ كانون الثاني ١٩٧٤، وفي الخيمة نفسها المقامة عند الكيلومتر ١٠١، حيث وقع قبل ذلك بشهرين على وثيقة الهدنة، وقـــع أيضاً كل من الجنرال دافيد اليعازر، رئيس أركان الجيش الإسرائيلي، والجنرال محمد عبد الغني الجمصي، اتفاقاً حول فصل القوات. فتقـــرر أن تســـحب إسرائيل قواتها إلى مواقع الغرب من مضايق متلا وجدي، وتقوم منطقة مصرية يتراوح عرضها بين ٨ و ١٢ كلم على ضفة القنال الشرقية، وتقام منطقـــة عازلة بين الجيشين تتراوح بين ٦و٨ كلم، تقيم فيها قوات الأمم المتحـــدة. وسيقلص بموجب هذا الاتفـــاق المصـــريون، إلى الشـــرق مـــن القنـــال، والإسرائيليون إلى الغرب من المضايق، قواتهم وأسلحتهم. وستحظر صواريخ أرض – جو في هذه المناطق. وقد جاء أن الاتفاق لا يجوز اعتبـــاره تســـوية نهائية، ولكن مجرد خطوة أولى على طريق السلام، وفق القرار ٣٣٨ الصادر عن مجلس الأمن. وأبرق دايان يقول إنه يعتبر الاتفـــاق "مرضـــياً". وأعلـــن السادات من جهته للصحفيين أن هذا الأمر حدث تاريخي يضع حداً نهائيـــاً

لفترة "اللاسلم واللاحرب". ولكنه أضاف: "إن مهمَّتنا لم ولن تنتهي طالما أن أراضينا لم تحرر بالكلية".

ولكنه في هذه الأثناء كان قد قبّل الدكتور كيسنجر على وجنتيه، وهو يدعوه "ليس صديقي وحسب، بل أخي". وقد جاء الاتفاق نتيجة شهرين من المفاوضات غير المجدية في جنيف، وأسبوع من الضغوط الدبلوماسية الكثيفة، حيث تنقّل الدكتور كيسنجر كالمكوك بين مئير المصابة بالزونا، والسادات الذي كان يشكو التهاباً في القصبات. ولم يكن التوصل إلى اتفاق بالأمر السهل. ولقد أشار كيسنجر بصورة عابرة إلى أن هذه المفاوضات كانت أطول مفاوضات خاضها في حياته. ولئن كان حمل الطرفين على الاتفاق حول نقطة ذات أهمية أساسية محدودة جداً، على مثل هذا القدر من الصعوبة، فماذا عساه يقتضي من الزمن العثور على أرضية مشتركة بشأن المشكلات الجوهرية؟ ولقد كان فصل القوات، من الناحية العسكرية، ضرورة ملحة، ذلك أنه إن كان لا يستطيع أن يحول دون نشوب القتال، إلا أنه يخفف من احتمال نشوبه مدة من الزمن. فقد كان كسب الوقت أمراً ضرورياً. بقي أن نرى ما إذا كان من الممكن استغلال هذا الوقت المكتسب..

دمشق ١٤ كانون الأول ١٩٧٧

القسم الثالث
مواقـف

مع مكسيموس الخامس في القارة الأمريكية[1]

ليس يخاف على أحد أن الاغتراب ظاهرة عالمية، كانت منذ القدم ومازالت تجتثّ من هنا وهناك الألوف والملايين من الناس لتـــــزرعهم في أرض جديدة، سعياً وراء الرزق والاطمئنان والآمال. وقد عمّـــت هـــذه الظاهرة العالم العربي، منذ ما يزيد على المائة عام، فسلخت عنـــه مئـــات الألوف من أبنائه، وكانت غالبيتهم العظمى من المسيحيين، بحيث أصبحت بعض الكنائس منشطرة إلى شطرين، قد يكون المغترب منهما أكثف عدداً وأحسن حالاً من المقيم.

من هذه الكنائس تلك التي يخدمها البطريرك مكسيموس الخـــامس حكيم، التي تركّز أضخم تجمّع لمغتربيها في القارة الأميركية، وعلى الأخص في المنطقة الجنوبية منها. ولم يزر قبلاً تلك البلاد أي بطريـــرك، باســـتثناء مكسيموس الرابع الصائغ، الذي قام سنة ١٩٥٥ بزيارة للبرازيل لم تتجاوز حدود بعض مدنها، ولم تَعدُ الشهر.

أما البطريرك الحكيم فقد صرح، منذ تسلمه دفة القيادة في كنيسته، أنه سيعمل على ربط الكنيسة الأم في الشرق العربي، بأبنائهـــا المغـــرتبين

(١)– نشر في مجلة "المسرة"، في شهر حزيران/ يونيو من عام ١٩٧٠.

المنتشرين في كل أصقاع الدنيا. فوضع لنفسه برنامج سفر مرحلي، من شأنه أن يتيح له، عاماً بعد عام، تحقيق هذا الارتباط الحيوي بين الأم والأبناء. وباشر تنفيذه في نطاق الوطن العربي حتى السودان، ثم قام برحلة طويلة، في صيف ١٩٦٨، إلى الولايات المتحدة وكندا. حتى كانت تلك الجولة الكبرى التي قام بها، في خريف ١٩٦٩، إلى كل من الأرجنتين والبرازيل وفنزويلا والمكسيك، ماراً في طريق عودته بالولايات المتحدة الأميركية. ولسوف تحمله جولات أخرى إلى غيرها من بلاد أميركا الجنوبية ثم إلى استراليا.

ليس من يجهل أهمية الجاليات العربية في العالم، لا سيما في القارة الأميركية. فقد شقّت، منذ عشرات السنين، طريقاً طويلة وصعبة، ليس كالأدب المهجري انعكاساً لها. كما أن العلاقات بين الوطن العربي الأم ودنيا الاغتراب أخذت تنمو وتتوطد في السنوات الأخيرة، فنشأت، بمبادرة بعض الأفراد، رابطات دولية جلّ مبتغاها السعي إلى إحياء تلك العلاقات وترسيخها وتوسيعها. وسارعت بعض الدول العربية إلى إحداث علاقات دبلوماسية مع البلاد التي قاسمتها أبنائها.

وما كانت الكنسية الأم، لتجهل الأمور هناك، وما يجري للمغتربين من المسيحيين العرب، إذ عليها أن تكون حيث أبناؤها. فكانت ككل أم سباقة إلى احتضانهم. وأوفدت إليهم من الشرق العربي كهنة وأساقفة، لحقوا بالقطيع إلى حيث ذهب، وأقاموا معه، يحاولون لمّ شمله والحفاظ على خصائصه الأصيلة وصقلها، دينية كانت أم قومية. وكانوا على اتصال

متقطع بالكنيسة الأم يطلعونها على أحوالهم بقدر ما يسمح لهم بذلك عظم المسافات وندرة المراسلات. وإذا بالمشكلات تتراكم وتتعاظم. وإذا بالتوأم المغترب لكنيسة الروم الكاثوليك مهدد بالذوبان في التنظيم الكنسي اللاتيني، وفي الحضارة الغربية الأميركية. فكان لا بد من القيام بعمل جدي وجذري وشامل، يضمن لتلك الكنيسة، بشقيها التوأمين، المقيم والمغترب، تعارفاً عميقاً وتماسكاً صحيحاً، يحققان بينهما التفاعل الخلاق المرجو، ويضمنان بالتالي انسجاماً حقيقياً لكلتا الكنيستين في واقعيهما الديني والاجتماعي.

وهل هناك وسيلة أجدى من المشاهدة الشخصية والمعاناة الذاتية، لمعرفة هذا الواقع وهذا الواجب؟ فكان لا بد للبطريرك من أن يضطلع بنفسه بمهام تلك المسؤولية، على ما فيها من مشاقٍ وأخطار. وما كانت الغاية من تلك الرحلة بخافية على أحد. وإنها لمزدوجة. فهي دينية وقومية، وكل منهما تكمل الأخرى.

فعلى الصعيد الديني، كان على البطريرك:

أولاً، أن يطّلع على الحالة الواقعية لكنيسته، من حيث الوجود الكهنوتي وفعاليته، ومن حيث عدد الكنائس وتوزيعها، ومن حيث التجمع المسيحي المهجري، وتفاعله مع الواقع الكنسي الشرقي، المحلي منه والأصلي.

ثانياً، أن يطّلع على نوعية العلاقات القائمة بين الأقلية المتمثلة في الكنيسة الشرقية، كهنة وعلمانيين، والغالبية المتمثلة في الكنيسة اللاتينية بشقيها، المحلي منه والروماني.

ثالثاً، أن يستطلع مع كبار المسؤولين الكنسيين هناك، من لاتين وعرب من جهة، ومع عمدة الجالية العربية من جهة ثانية، إمكانيات الارتفاع بالحالة الراهنة، إلى أقصى ما يمكن الارتفاع إليه في شتى المجالات، من ذلك تحرير كنيسة الاغتراب من تبعية الإدارة اللاتينية، وتحقيق الاكتفاء الذاتي، بشرياً وإدارياً ومالياً، وربطها بالكنيسة الأم، أي بالبطريركية في الشرق العربي.

رابعاً، أن يسعى إلى تنظيم الخدمة الروحية تنظيماً محكماً ومدروساً، يتجاوب مع احتياجات المؤمنين المغتربين أولاً، ومع التزاماتهم تجاه كنيستهم الأم ثانياً.

من الواضح أن هذه الأهداف الدينية لزيارة البطريرك، ترمي إلى تحقيق وحدة كنيستنا في الشرق العربي والمهجر، فيسهل التجاوب المطلوب من الكنيسة المغتربة والمقيمة مع التزاماتها سواء في البلاد العربية أو خارجها.

أما **على الصعيد القومي**، فكان على البطريرك:

أولاً، أن يذكي في نفوس المغتربين بين العرب، من مسيحيين ومسلمين على السواء، جذوة المحبة التي تربطهم بالوطن العربي الأصيل.

ثانياً، أن يبسط لهم حقيقة ما تتعرض له البلاد العربية من تآمر صهيوني استعماري، يهدف إلى ضربها، ليس فقط في اقتصادياتها وثرواتها البشرية وآمالها الكبرى من تحرر وتقدم ووحدة، بل أيضاً وخصوصاً في مصيرها ووجودها.

ثالثاً، أن يعرّف العرب المغتربين حقيقة القضية الفلسطينية، وهو من أدرى الناس بخفاياها ونتائجها، لا بقصد الهدف الدعائي، بل بقصد الدعم العملي، لكي يشعر المغتربون العرب بثقل الواجب الذي يلتزمون به تجاه بلاد يدينون لها بالحياة، وهي تعاني اليوم، من جراء اتساع سرطان الصهيونية، ما قد يفقدها الحياة، فيهبّون إلى نجدتها، معنوياً ومالياً واقتصادياً وسياسياً، ولهم من الوزن الاجتماعي والاقتصادي في بلاد الاغتراب ما يمكنهم من تقديم مثل هذا الدعم الحيوي.

رابعاً، أن يعرّف الرأي العام الأميركي حقيقة القضية الفلسطينية، من زاويتها الإنسانية بالدرجة الأولى، على أنها قضية شعب آمن محب للسلام، سُلخ عن أرضه واغتيلت حياته وكرامته على يد شعب آخر، ما عرف، عبر تاريخه الطويل المرير، راحة وطمأنينة كاللتين عرفهما في طول البلاد العربية وعرضها..

خامساً، أن يلفت نظر العالم المسيحي إلى أن الملايين العشرة من العرب المسيحيين، محرومون قسراً من حرية الحج إلى الأماكن المقدسة، التي هي في قلب ديارهم، والتي يفخرون بكونهم أصحابها وحرّاسها الشرعيين.

وهذا الحرمان يعانيه أيضاً عشرات الملايين من العرب المسلمين، فيشعرون به بقدر ما عندهم من الإكبار لثالث الحرمين. بهذا الحرمان الديني والإنساني، الذي ينغّص حياة العرب المسيحيين والمسلمين، لا يشعر الأوروبيون والأميركيون، إذ تسمح لهم الدولة الصهيونية بزيارة الأرض المقدسة، وتوهمهم بأنها تحترم الحرية الدينية.

وكان على هذا الجانب القومي من الزيارة أن يبرز بصدق وبقوة، ويكوّن **دعوة صريحة للمغتربين العرب**:

أولاً، إلى وعي حقيقتهم، أصلاً وكرامة، وإذن إلى إعادة النظر في وجودهم كمغتربين عرب، بحيث يسعون إلى توحيد كلمتهم وضم صفوفهم وتنظيم مجهودهم القومي، إعلامياً واقتصادياً وسياسياً في بلاد الاغتراب، متجاوزين بذلك كل تفرقة إقليمية ودينية وسياسية.

ثانياً، إلى تجديد ارتباطهم بالوطن العربي الأصلي، ديناً ولغة واتصالاً ودعماً، على ضوء الواقع القومي المصيري الراهن، غير قانعين بشهقات الحنين المتصاعدة من نغمات تسحّها حناجر فيروز وأم كلثوم وصباح فخري.

ثالثاً، إلى تجديد ارتباطهم بأوطانهم الجديدة، أمانة وعلماً وعملاً، بحيث يعملون على تحرير المسؤولين عن مقدراتها، من الدعاية والسيطرة الصهيونيتين، ويسهّلون عليهم الوقوف إلى جانب الحق العربي في الصراع الدولي القائم.

على ضوء هذه الأهداف الخطيرة، خطط البطريرك لزيارته. ذلــك بأن من كان في مستوى مسؤوليته الجسيمة، ومن عايش الظروف المصيرية الراهنة التي تمر بها البلاد العربية، لا يمكنه إلا أن يزور الجاليــات العربيــة كبطريرك عربي، حاملاً المسؤولية كاملة على الصعيدين الديني والقــومي، ولقد فعل. وكان عارفاً بما قد يكلفه ذلك، وما تردد. فعل ذلك قبل السفر أولاً، عندما كتب للجالية في الأرجنتين وقال:

(سآتيكم بطريركاً عربياً، لأدعوكم إلى الالتزام بالأمانتين الكبيرتين: الأمانة الدينية الشرقية، والأمانة القومية العربية). وفعل ذلك طوال جولته، وقد بدأها بالأرجنتين. فكان التجاوب رائعاً بينه وبين أفراد الجالية هناك، على اختلاف نزعاتهم ومذاهبهم وأقطارهم. فكانت زيارته للأرجنتين فاتحة لمسيرة دينية وقومية، انطلقت من بوينس آيرس وانتهت بنيويورك، مــروراً ببرازيليا وكراكاس ومكسيكو وواشنطن. لكأني بتيار خفي جارف فجّر ما في المغتربين العرب من ترسبات دينية وقومية أذابت، في بوتقة الإيمان بالله والعروبة، الاختلافات الجانبية والكثيرة، من نفســية وإقليميــة وطائفيــة وتاريخية، التي ما زالوا يعيشون في نطاقها، وسبكتهم في وحدة متماســكة قوية، في سبيل ملاقاة "البطريرك العربي"، زعيماً لهم روحياً وقومياً، جاءهم من الأرض الحبيبة، بعد طول حرمان وخذلان وترقب.

ولقد بدر من الجماهير المحتشدة في المطارات والكنائس والأنديــة، وحتى في البيوت الخاصة والفنادق، من الحماس والاندفاع ومظاهر المحبــة والاحترام، ما يدعو إلى الكثير من الدهشة والإعجــاب، حــتى ليخــال

الإنسان نفسه أمام جماهير عربية، ليس فقط لم يمض على إقامتها في بوينس آيرس وكراكاس وسان باولو عشرات السنين، بل لم تغادر يوماً دمشق و حلب أو بيروت أو القاهرة...

وما كان هؤلاء العرب بمنسلخين عن مجتمعاتهم الجديدة، بل كانوا رواداً فيها، على ضعة المنطلقات التي بدأوا منها حياة جديدة ما هيئوا لها، فجابهوها عزّلاً إلا من ذلّ فرض عليهم، ومن إيمان جبلوا به. وما نسوا ما كانوا، لكنهم كانوا بحاجة إلى من يذكرهم بما يجب أن يكونوا.

واندفعوا كلهم، على تفاوت شفّاف في حماستهم، رهن بأقدميتهم في بلاد الاغتراب، يضفون على الزيارة طابعاً رسمياً وشعبياً، من شأنه أن يأتي بنتائج طيّبة على الصعيدين الديني والقومي. فسعوا لدى السلطات الحكومية إلى إعلان البطريرك ضيف شرف على الدولة، وغالباً ما وفقوا. ولكن سعيهم إلى إبراز الجانب الشعبي من الزيارة، عبر الولائم الضخمة والندوات التلفزيونية والمؤتمرات الصحفية والمحاضرات في الأندية، وكذلك عبر الصلوات الاحتفالية تقام في كبريات الكنائس الشرقية واللاتينية، بحضور كبار المسؤولين، من كنسيين ومدنيين وعسكريين، هذا السعي كلل بنجاح كبير.

وما كان عنصر عربي مرموق، مسيحي أو مسلم، دبلوماسي أو عادي، ديني أو مدني، ليغيب عن المشاركة في التظاهرات الدينية والاجتماعية والقومية الشاملة. وكان الجميع، في رغبتهم الصادقة في تكريم

"بطريركهم"، يصرون على تنظيم برامج لا يراعون فيها حدود الطاقات البشرية، ناسين ومتناسين أن البطريرك قادم من زيارة مرهقة سبقت، وذاهب إلى زيارة قد تكون أشهد إرهاقاً...

إلا أن الحماسة التي كان يقابل بها المغتربون العرب البطريرك، غالباً ما أذابت، وكأنه السحر، تعباً ما كان ليخفيه على مرافقيه، هو الذي عرف بقدرته الخارقة على الاحتمال...

وفي الواقع، كان من العسير على غيره أن يحتمل، طوال ثلاثة أشهر تميّزت بالعطاء والعنت والإرهاق، ما احتمل هو بنشاط وهدوء وصلابة أعصاب وبشاشة وجه وحضور ذهن ومرونة. فما رفض لقاء، وما ضنّ بكلمة. وكانت اللقاءات كثيرة ومتنوعة. فترددت كلماته في رحاب الكنائس الفخمة، والبيوت الخاصة والسفارات العربية والأجنبية، وأندية الفدائيين... وكان ما يقوله بسيطاً غاية البساطة، وخطراً غاية الخطورة، وفيه دعوة صريحة ملحة إلى الاحتفاظ بالأمانة الدينية والقومية ناصعة، وإلى المحافظة عليها بمسؤولية. وما كانت كلماته، في السر والعلن، لتنسى أحداً أو تستثني أحداً. فيطالب أبناءه المغتربين بان يبقوا كمؤمنين، مسلمين ومسيحيين، مخلصين لله. ذلك بأن الغرب تغذى بما أمدته به بلادهم من قيم وعلوم، عبر التاريخ البشري كله. فليس لهم أن يتخلّوا عن تراث روحي عظيم، ما أحتاج الغرب إليه يوماً مثل احتياجه إليه اليوم.

وكان يطالبهم، **كمسيحيين شرقيين**، بأن يظلـوا لكنيسـتهم الأم مخلصين، أرثوذكسيين كانوا أم كاثوليك. فتمدّهم دوما بلاهوت وطقوس ونظام كنسي يحيون بها. وتحمل إلى الكنيسة في الغرب حلولاً للكثير مـن المشكلات الصعبة التي تمزقها. ويمدّونها هم بدعم معنوي ومادي وفكـري لتكون على مستوى مسؤولياتها الجسام في بلادها الأصلية.

وكان يطالبهم أخيراً **كعرب مغتربين** بأن يتحرروا من مركب نقص ورثوه أيام فقر وتشرد، ويقفوا معتزين بمنشأ عربي كريم. وينطلقوا في البذل والتنظيم، تضامناً مع إخوة لهم يعانون في بلادهـم الأصـلية مشـكلات مصيرية ضخمة، قد تحول دون تطلعاتهم المشروعة، لا إلى الحرية والعدالـة والوحدة فقط، بل إلى الحياة أيضاً.

وما كان البطريرك ليكتفي بترديد هذه الكلمات مئات المـرّات في مختلف المناسبات. بل هو يريد لها أن تبقى محفورة في الأسماع والأذهـان، وأن تواصل عملها بعد غيابه. فما أن تحطّ طائرته في بلد جديد، حتى يوافي من ودّع من أبنائه برسالة يشحنها بوصية له أخيرة، يكثف فيها كل محبته وإدراكه لمسؤولياته.

منها تلك "**الرسالة المنهاج**" الـتي وافى بهـا الجاليـة العربيـة في الأرجنتين، حال وصوله إلى البرازيل، والتي أراد "للجريدة السورية اللبنانية" في بوينس آيرس، إن تحملها إلى جميع المغتربين في طول البلاد وعرضـها، ومما جاء فيها:

"يطيب لنا أن نلتقيكم أنتم حملة الكلمة، لتنقلوا كلمتنا اليوم إلى جميع أبنائنا العرب المقيمين في الأرجنتين، على اختلاف أديانهم وطوائفهم ونزعاتهم. لقد غادرناكم منذ أيام فقط. ولكنكم في القلب منا وفي الفكر مقيمون. لأنا قدمنا الأرجنتين متسائلين، وغادرناها معجبين. قد يظن البعض أن إعجابنا هذا يعود إلى ما غمرتمونا به من حفاوة وتكريم، وأنه يعود إلى ما لمسنا لدى الجميع من محبة متبادلة وتفاهم جدّي وتعاون صادق. وإننا لأول من يعلن ذلك. إلا أنه يسرنا كثيراً أن نعترف بأنه، إن كان لنا ما يرفع رأسنا عالياً بكم، فهو أولاً وآخراً، ما برهنتم عليه طوال اغترابكم من أصالتكم الإنسانية، وقوتكم الخلقية، وأمانتكم القومية. جئتم إلى بلاد الاغتراب، ضعفاء، محتقرين، ضائعي الهوية، حتى باتت كلمة "تركو" تصنفكم ذلك التصنيف المهين. وإذا بكم بعد سنوات قليلة، تقفون أقوياء، أقوياءَ القلب والساعد والإيمان، تفاخرون الدنيا بهويتكم الأصلية، عرباً مؤمنين جاؤوا أرضاً جديدة فأغنوها بوجودهم، وما أفقروا أرضهم الأم بغيابهم، لأنهم ظلوا أوفياء لها وفاءهم لله.

"هذا ما وجدناكم عليه، وهذا ما ملأنا اعتزازاً بكم. وأنا لنشكر لكم هذا الافتخار بكم تقدمونه لنا كأثمن ما تكون الهدية. نشكر لكم ذلك ونهنئكم به.

"ولئن كان لنا من رغبة نبديها لكم صريحة ملحة فهي أن تسعوا كلكم، طوائف وأندية وأفراداً، نحو تحقيق المزيد من التفاهم والتعاون والمحبة، ليكون لكم عمل مشترك يزيدكم قوة إلى قوة، ويعمق أمانتكم

لأوطانكم الجديدة ووطنكم العربي الأصلي. ولقد سبق لنا أن ذكرناكم مسؤولياتكم الجسام تجاه وطنكم العربي. وإنه ليسرنا أن نؤكد أمام الملأ بأننا لم نجد بينكم من ينكر أصله، ولكنا لا نريد لأحدكم أن ينساه أو يتناساه. وكلكم تعلمون أن البلاد العربية تمر في هذه الأيام بأقسى محنة وامتحان عرفتهما عبر تاريخها الطويل. وإنها لفي حاجة ماسة إليكم، كلمة مسموعة واقتصاداً قوياً ومالاً مبذولاً. وإن لهذه الأوطان عليكم حقاً لازما. وفخركم كل فخركم في تبنّيكم إياه كاملاً. وإلا، فلا كلام يغفر نسيانا، ولا مال يغسل عاراً".

وما بقيت كلمات البطريرك هذه، المقولة أو المكتوبة، دون صدى. بل لاقت تجاوباً رائعاً في أوساط المغتربين، على اختلاف نزعاتهم السياسية، ومذاهبهم الفكرية، ومعتقداتهم الدينية. ولشد ما كان يؤثّر في مستمعيه إصراره على ضرورة الكف عن الكلام الكثير، والسعي إلى العمل الصامت المنظم الدؤوب. كذلك لم يبق الرأي العام الأميركي جامداً أو لا مبالياً بإزاء تصريحات اتسمت بالترفع عن إي إسفاف أو تطرف، صادرة عن إنسان عايش المشكلة الفلسطينية، وعاشها بقلبه وأعصابه ومصير أبنائه، طوال خمس وعشرين سنة، في قلب فلسطين المحتلة، فعرف كيف يخاطب عقولاً غربيّة شحنت بدعاية صهيونية مدروسة. وشمل هذا التجاوب جميع المسؤولين الذين تحدث إليهم البطريرك، وكانوا نخبة، وكانوا كثرة. منهم رؤساء جمهوريات، وقادة جيوش، وحكام ولايات، ومحافظو مدن، وعُمَد جامعات، وسفراء دول. وقد اتضح أن الذي مهد لهذا التجاوب، هو ما

لمسه البطريرك لدى جميع المسؤولين من محبّة للجالية العربية. ولشد ما كان اعتزازه عظيماً إذ يسمع المسؤولين يشيدون بالجالية العربية، وبانسجام أفرادها الرائع مع السكان الأصليين، وباحترامهم القوانين المرعية، وبإخلاصهم ونشاطهم وإسهامهم القيّم في تطور البلاد وتقدمها.

وطبيعي ألا تقف الصهيونية مكتوفة الأيدي، وهي تملك في تلك البلاد ولا سيما في الأرجنتين، ناصية الإعلام والاقتصاد. ولشدّ ما أثارها تركيز البطريرك الملحاح على أمرين هما من ادعى الأمور إلى لفت الرأي العام الأميركي إلى الحق العربي. وكان الأول، في دعوته القوية إلى ضرورة التمييز، دوماً وجذرياً، بين الصهيونية كحركة سياسة استعمارية عدوانية، والشعب اليهودي الذي لا يريد به الشعب العربي، المسيحيّ والمسلم، سوى الخير. أما الثاني فإبراز الناحية الدينية من القضية الفلسطينية: فالأماكن المقدسة المسيحية ترزح تحت الاحتلال الإسرائيلي، وذلك يحول دون وصول الملايين من العرب المسيحيين إليها.

وحاولت الصهيونية التصدي للبطريرك:

تصدت له إعلامياً في الأرجنتين، فما وُفقت إلا قليلاً. فهناك المنافسة بين وكالات الأنباء العالمية، المسارعة إلى إبراز تصريحات للبطريرك، فاقت جرأة وعنفاً ووقعاً، ما يعجز مجهود الجالية المتضافر عن

نشر بعضه، على عشرات الألوف من الدولارات المقدمة ثمناً لنشره... وهناك أيضاً بقية من كرامة ومن حرية في أوساط الصحافة والتلفزيون. إلا أنه لوحظ أن الحراسة شددت على شخص البطريرك في الفنادق والكنائس والأندية، وحتى في الزيارات الخاصة. أما في البرازيل، فقد سعت الصهيونية إلى وسيلة أخرى أشد فتكاً تحارب بها البطريرك، فلجأت إلى... إغفاله وتجاهله. وإذا بالبطريرك، وهو في عاصمة عواصم الجاليات العربية، ساوباولو، يكاد لا يذكر عنه خبر أو تنشر له صورة في جريدة أو على شاشة. إلا أن الحملة اشتدت في فنزويلا حيث نشطت الجالية العربية في ثلاثة أيام نشاطاً مذهلاً، أثار المزيد من نقمة الصهيونية. فعمدت إلى حيلة "ذكية"، إذ دعته إلى ندوة تلفزيونية أشرف عليها مذيعان يهوديان، وبُثت مباشرة من القنال الخامس المعروف بانحيازه إلى إسرائيل، فكان أن سمع الناس ليلتئذ، ومن شاشة صهيونية، صوت الحق العربي، جريئاً واضحاً، يأتي من إنسان وضع مصلحة الله والحق فوق كل مصلحة. فدُبجت إذ ذاك المقالات في الصحف في حملة قوية على البطريرك، ممهورة بتوقيع السفير الإسرائيلي بالذات، واستمرت الحملة حتى اتضح فيما بعد أنها استطاعت أن تحول دون لقاء كان شبه مقرر بينه وبين الرئيس الأميركي.

ولقد اتسعت هذه الحملة بعد عودته إلى البلاد العربية، حتى شملت الولايات المتحدة من أقصاها إلى أقصاها، وقد جُنّدت لها إمكانيات ضخمة من التلفيق والرشوة، تستهدف مسخ البطريرك في المحافل الدولية والشعبية،

السياسية منها والكنسية. وقد لا تكون نجت من شظاياها بعض الأوساط العربية...

أما الجانب الديني من الزيارة، فليس كذاك إشراقاً وآمالاً. فالنزاهة والصدق يقتضياننا اعترافاً مريراً. والتفاوت شاسع، لا بل مرعب، بين حالة الجالية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية من جهة، وحالتها الدينية في نطاق كنيستنا من جهة أخرى.

صحيح أن كنيستنا هناك تحظى بمحبة السلطات اللاتينية المحلية. ولكن ما هي عليه من تفكك وانحطاط، يجعل المراقب النزيه يعتقد أن ما طبع عليه المغتربون العرب من رسوخ الإيمان وبسطة يد، قد يفسر وحده هذه المحبة، كما قد يفسر تشبثها العنيد بتبعيتنا لها...

وإن الحقيقة لتقتضينا أن نعترف بأن الوجود الكهنوتي هناك يشبه أن يكون منعدماً، بسبب العزلة الرهيبة التي تفرضها على الكهنة مسافات تكاد تكون خيالية، وأوضاع حياتية اجتماعية جد قاسية. هذا إلى جانب ندرة الكهنة وارتفاع معدل العمر بينهم ارتفاعاً ملحوظاً مقلقاً. ويستتبع هذا الوضع الكهنوتي، حتماً، وضعاً كنسياً مفككاً هزيلاً، سواء من حيث أماكن العبادة، وهي، إلا ما ندر، فقيرة صغيرة، مخزية، أو من حيث المشاريع الدينية الاجتماعية، الخيرية منها والتعليمية، وهي... معدومة على الإطلاق.

والحقيقة عينها تقتضينا الاعتراف أيضاً بأن ميل كاثوليكيينا العرب إلى الذوبان في الكنيسة الكاثوليكية اللاتينية، أجهض، أو كاد، محـــاولات جبارة قامت هنا وهناك، ما كانت نتائجها الظاهرة بمســـتوى التضـــحية القاسية والطويلة والنبيلة التي غذتها ورافقتها.

فإذا ما لوحظ أن الكنيسة اللاتينية هناك، والمحافل المختصة في روما، ما زالت تصر على إبقاء الحال طويلاً على ما هي عليه الآن من تبعية لها، وتفكك في الداخل وانفصال عن الخارج، حينئذ يبرز واضـــحاً فاضـــحاً الخطر الذي يتهدد كنيستنا في المهجر، ومن ورائها الكنيسة الأم في الوطن العربي.

أما الاستقلال الذاتي والاعتماد على النفس، فقد أتيا، والحق يقال، بالمعجزات في الكنيسة العربية الأرثوذكسية في أميركا الجنوبية. فـــإن مـــا يشاهده المرء هناك، حتى ولو كان عابر ســـبيل، ليـــدعو إلى الإعجـــاب والاعتزاز والتفاؤل. فالوجود الكهنوتي لامع نشيط جـــذاب. والكنـــائس ترتفع في كل مدينة، جميلة فخمة منظمة. والرعايا أشبه بخلايـــا النحـــل، حول كهنتها وأساقفتها، عطاء وعملاً ومشاريع اجتماعية دينية. تبـــدأ في الكنائس ترنيماً وتنظيماً، وتنتهي بالعمل الاجتماعي في المدارس والميـــاتم وبيوت العجزة.

ولقد حدث بين الكنيسة الأرثوذكسية والبطريرك لقاءات كانـــت، في كثرتها وصفائها وصدقها، قمة في روح مسكونية تبشّر بعهـــد جديـــد

وأمل كبير. فلا مقارنة إذن، وإنما اعتراف بواقع يملأ القلب فخراً وفرحاً، على أسى، وشكراً للرب جزيلاً، لما أنعم به على الكنيسة الأرثوذكسية الشقيقة في المهجر، من نموّ وتنظيم.

ويبقى التنظيم الآخر، ذاك الذي يجب أن يأتي كنتيجة حتمية لجولة طويلة وخطيرة، ما كانت لتتم لولا ما ستفضي إليه من تخطيط جديّ ينسجم مع أهدافها الدينية والقومية.

فلعل الأيام القادمة تحوّل الجولة في أمريكا، إلى جولات مع التفكك الكنسي والسرطان الصهيوني.

مع المطران ايلاريون كبوجي

I– عيدك بالأمس سيدي، لا غداً(*)

إيلارويون! سعيد!.

اسم أول أُسقفٍ قديس حمل هذا الاسم ، وطواه الزمن منذ ستة عشر قرناً. وكان من غزّة بالذات.

إسم أوّل أسقف عربيّ يُعتقل في معتقل اللاّحقّ واللاّ شرعيّة الدوليّين: إسرائيل!.

وهو من سورية بالذات.

وفي الحادي والعشرين من تشرين الأوّل، تقام ذكرى الأُسقف القديس.

سوف تحيي، سيدي، هذه الذكرى، في سجنك..

وسوف يحييها أصدقاؤك من رجال الكنيسة والمؤمنين، صلاة يدقّون بها أبواب السماء، سائلين لك الحريّة.

ولكن العيد عندي، سيّدي، بالأمس، لا غدا.

(*)– نشر في مجلة (صوت فلسطين) عدد ٨٢ تاريخ ١٩٧٤/١١/١

أخشى ما أخشاه، سيّدي، أن يطلق سراحك،

فتصبح بطلاً.... وتموت!

العيد عندي، سيّدي، أن تبقى في سجون إسرائيل.

العيد عندي أن ترفض الإبعاد ووهم الكرامة والحرية الذي يرافقه

كان العيد يوم قالوا اعتقل أُسقفٌ عربيّ في القدس.

إلى اليوم، لم تزل أعظم أعياد المسيحيّة، ذكرى اعتقال من ظن اليهود في قتله، منذ ألفي عام، انتصاراً لهم.

كان العيد الأكبر يوم نزل الله إلى الإنسان واعتلى صليباً، لا كرسيّاً ذهبيّاً.

كان العيد عندي، سيدي، يوم بلغني أمر اعتقالك.

لا يهمّني السبب، ولا أعير الاتّهامات الموجّهة أيّ وزن.

المهمّ والعظيم أنّك اعتُقلت.

قبلك، قاوم الصهيونيَّة كهنة وأساقفة، فقُتِل منهم من قُتِل، وأُبعد منهم من أُبعد.

ولكن باعتقالك دخل الصراع مع الصهيونيّة مرحلة جديدة هي مرحلة المحكّ.

ذلك هو إنجازك الأكبر، سيّدي.

لن تُحرِّر من سجون إسرائيل ألوف المعتقلين الذين سبقوك على الدرب.

ولن تُعيدَ الحياة إلى الألوف من الشهداءِ الذين يعبّدون لنا دروب الحياة والكرامة.

ولن تعيد الأرض إلى مئات الأُلوف الذين اقتلعوا من أرضهم وذُرّوا كالرماد في العاصفة.

لن تفعل شيئاً من هذا، وليس هذا ما يُطلب منك.

ولكنك أَنجزت الكثير، وستنجز الأكثر، إن طال اعتقالك.

ذلك، سيدي، بأنّك أصبحت مِحكّاً:

من يصمت عن اعتقالك... متواطئ!

ومن يتجاهله... شيطان أخرس!

ومن يؤيّده... خائن!

ذلك هو إنجازك سيّدي.

قبل اعتقالك اعتصم العدد الأكبر، وما زالوا، في جدران لاهوت أفيونيّ يبرر كلّ غيابٍ عن الأرض!

وقبل اعتقالك، مارس الكثيرون، وما زالوا، فصاماً بين السياسة والدين، يحاربونه في ما يمسّ مصالحهم الطبقية والماليّة المتوارثة!

اعتقالك، سيّدي، جاء محكّاً لكل هؤلاء ولألوف أتباعهم من رجال دينٍ ومؤمنين.

اعتقالك جاء محكّاً للكنيسة العربيّة كلّها، لتقول بصراحة حاسمة ودون تردّد موقفها النهائي والأساسي من الصهيونية.

وفي أعلى الهرم، جاء محكّاً لروما نفسها، لأنّنا ننتظر منها، بعد اليوم، موقفاً أكثر وضوحاً وجذريّة حيال الصهيونية.

غداً عيدك، سيّدي؟

لا، فالعيد أن تبقى حيث أنت، لتُكره المختبئين في أوكار الخوف أو التواطؤ أو الجهل، بل والتجاهل، على الخروج إلى النور والحقيقة.

فليس في الأسقفية ما يتنافى والإقامة في السجون، دفاعاً عن الحقّ والأرض والإنسان.

وهل كان في المسيح العَظيم ما يتنافى ودفاعه عن الحقيقة في وجه الزيف الفريسيّ والتلموديّ؟

فهل تراك خيراً من معلمك، سيّدي؟!

غداً عيدك، سيّدي؟

أجل غداً، عندما يكثر أمثالك في صفوف المقاومة الشاملة،

وعندما يكثر أمثالك في سجون إسرائيل.

عندها قد يستيقظ الشرق والغرب بأَسره

ونحتفل بعيد الأعياد،

عيد القيامة الجديدة في فلسطين الجديدة.

أما زال عيدك غداً، سيّدي؟

II- عندما يصبح إنسان سؤالاً (*)

الإنسان سؤال. هذا بديهيّ.

أمّا أن يصبح إنسانٌ ما سؤالاً، فذاك هو السؤال.

وذلك هو إيلاريون كبوجي.

في سجون إسرائيل، آلاف المعتقلين يبشّرون بالرجاء،

ولكنّهم ليسوا سؤالاً.

وعلى دروب فلسطين،

وعلى الدروب المؤدّية إلى فلسطين،

آلاف الصلبان، تبشّر بالقيامة،

ولكنّها ليست سؤالاً.

الكبوجي سؤال.

سؤال، يطرحه بعضهم، إذ يقول:

أَمن الممكن أن يكون أُسقف.. مقاوماً؟!...

(*) **نشر في جريدة (الثورة) بتاريخ ١٩٧٤/١٢/٢٢**

وسؤال، أَطرحه أَنا الكاهن، وأُلحّ:

أَمن الممكن أَلاّ يكون أسقف في فلسطين.. مقاوماً؟!...

بعضهم يريد الأُسقف:

للولائم.. تتخمه، فيزدرد فيها ذاته...

وللكرسيّ.. لا يتخلّى عنه أحدٌ، إلاّ محمولاً..

وللمال.. ما سجد له أحدٌ، إلاّ وعاد يدبّ على الأرض...

وللكلمة المسالمة الفارغة... لا تُريح قائلها، ولا تُقنع سامعها...

وللصلاة... تكلّف الله بمهمة إنقاذ الإنسان ممّا يعاني من ظلمٍ وامتهانٍ وتشريدٍ وقتل...

ونحن.. نحن نريده للإنسان، لأنّه لله.

لذا كان الكبوجي سؤالاً إلا عند بعضهم...

وهو عندنا جواب!

ولكم كنا نودّ لو استثار هذا الإنسان – الجواب.. الأجوبة لدى الكثيرين:

لدى روما أوّلاً،

ليس فقط بعد صدور الحكم، بل مُنذ اعتقال الأُسقف العربيّ...

وروما عرفت كيف تقاوم النازيّة، وكيف تدافع عمّن قاومها، من أمثال الكردينال الفرنسي سالييج..

ولدى الكنيسة الغربيّة ثانياً،

تلك التي ذاقت في المئات من كهنتها وأساقفتها طعم الإذلال والموت في المعتقلات النازيّة،

وهي تتجاهل اليوم اعتقال أُسقف عربيٍّ،

فيما بعض أبرز مسؤوليها يستصرخون الضمير العالميّ من أجل الإنسان في أميركا اللاتينيّة وإيرلندا، وجنوب أفريقيا، وفييتنام...

ولدى الكنيسة العربيّة خصوصاً،

تكتفي بالتصريحات الصحفية، والصلوات...

فيما كنّا نرجو منها... متعاونة مع الحكومات والهيئات العربيّة...

حملةً واسعةً وشخصيّة لدى شقيقاتها: الأُوروبيّة، والأفريقيّة، والأميركيّة، لبسط الحقائق بشأن الصراع العربيّ – الإسرائيليّ!

والمُعتقل هو أُسقفُ القدس بالذات، قلب العالم المسيحيّ بأَسره..

المطران كبوجي سؤال...

بل هو كتلة أسئلة،

تنتظر الجواب السريع،

قبل أَن يخرج من السجن، ويصبح مجرّد بطل.

III- واخجلتاه من كبوجي (*)

أيكون دخل السجن ليطالب العرب بإطلاق سراحه!؟

أم تراه دخله، لنقيم له المهرجانات، ونكرّس بطولته على الملصقات وصفحات الجرائد؟!

ما أكثر ما نتعاطى من أفيون!

حتى الثورة لدى من يفترض فيهم أن تكون حياتهم اليوميّة ثـورة، أصبحت أفيوناً نتعاطاه صلواتٍ واحتجاجاتٍ وقصائد، بل وتعاويذ نستعيد بها شهادة النضال.

في هذه الأثناء، يهدر العرب، هيئات وحكومات وكنائس، فرصة، لو تسنّى لإسرائيل أن يحدث لها معنا ما يشبهها، لما كانت تورّعت عـن "شرائها" بالملايين..

أُسقفٌ عربيٌّ يُعتقل، في فلسطين بالذات، وأُسقف القدس بالذات، هذا أمر كان يكون من نسج الخيال، لو لم يقع.

فكانت الصدمة – الدهشة، تستولي علينا نحن العرب، وتقعدنا عن العمل الحقّ، تفتح أفقه هذه الفرصة بالذات، في وقت باتت فيـه الثـورة

(*) نشر في مجلة (صوت فلسطين) العدد ٨٥ – بتاريخ ١٩٧٥/٢/١

الفلسطينية تستثير اهتمام العالم بها، وباتت فيه الشخصيّة العربيّة تنتزع شيئاً فشيئاً احترام عالم لا يحترم إلا القويّ!

وكان أن ترجمنا .. الصدمة تلك.. كلمات، وليتنا اكتفينا...

بل ترجمناها.. مطالبة ملحّة بالإفراج عن الكبوجي...

وا خجلتاه من الكبوجي !

واخجلتاه من آلاف المعتقلين، من نساء وجال، في سجون إسرائيل!

واخجلتاه، خصوصاً، من الفدائيّين يستشهدون داخل الأرض المحتلة، يطالبون به زميل نضال!

ترى، لو كان اعتقل، في بلدٍ عربيّ صغير، أصغر حاخام، في أصغر قرية عربيّة، أما كانت إسرائيل أقامت الدنيا في ساعات قليلة؟

والكبوجي في السجن منذ خمسة أشهر!!

وكان علينا أن نطرح السؤال على الكنيسة في الغرب، بشأن اعتقال أُسقف عربيّ.

ولسوف يأتي يوم تطرح فيه هي علينا السؤال حول صمتنا هذا!

فالرأي العامّ المسيحيّ في الغرب، كما في الكنائس الأميركيّة والآسيوية والأفريقية التي كان للغرب يد في إنشائها، لم يحرك ساكناً، ولم يصدر عن مسؤوليه الكنسيّين أي تصريح حول اعتقال الأسقف العربيّ.

وقد يكون صدر تصريحٌ ما بإدانته!

وللكنيسة، في هذه القارات، شئنا أم أبينا، رأي وتأثير!

وقد تقول أحياناً بشأننا نحن العرب –إلاّ في ما ندر– ما يستشف منه تأثيرٌ يهودي، بل صهيونيّ!

والخطأ في ذلك ليس خطأها، ولا خطأ إسرائيل.

بل خطأنا نحن العرب، نتعاطى أفيون الكلمة نخدّر بها أنفسنا، في حين تحقن إسرائيل دماغ الغرب، المكبّل بعقدة الذنب حيال اليهود، بإعلامٍ مدروس، مكثّف ومنتظم.

وكانت قضية الكبوجي فرصة القرن.

فرصة للقضية الفلسطينيّة، يتوهّج بها وجهها القوميّ والإنسانيّ على مرأى من أقطاب المسيحيّة في العالم.

وفرصة للكنيسة العربيّة تتصالح بها مع نفسها.

وفرصة للحكومات العربيّة تتصالح بها مع الكنيسة العربيّة.

وفرصة للكنيسة الغربيّة تتصالح بها مع الحقيقة والعدالة، وتسهم في مصالحة الغرب مع الحق العربيّ.

لا، لست بصدد استبدال أفيون الكلمة بأفيون الوهم.

تلك هي لغة الواقع، كما أقرأها وأسمعها.

فقد كان علينا أن ننظّم حملةً شخصيّة وعالمية، تتّصل بجميع أساقفة العالم أو، أقلّه، بأبرزهم نفوذاً، وبأهمّ الهيئات الكنسيّة في الغرب، لبسط حقائق الصراع العربيّ الإسرائيليّ.

كما كان علينا أن نوجّه دعوات لأبرز هذه الوجوه والهيئات، لزيارة العالم العربيّ، والالتقاء بأبنائه كلّهم، سواء في المؤسسة الرسميّة أو في الشارع والدكّان والمخيّم والحارة.

وبعدها، كان علينا أن نظل على اتصالٍ منظّم ومنتظم بجميع هؤلاء.

وعندها، وعندها فقط، كانت ولدت المفاجآت.

ولكن قبل هذا وهذا وذاك، ولنقلها صريحة.

كان على المسؤولين في الكنيسة العربيّة، والثورة الفلسطينية والحكومات العربيّة، أن يتنادوا ويجلسوا، لأيّام، بل لساعات، حول طاولة واحدة، وتحت سقفٍ واحد للتباحث معاً، وعلى هذا الصعيد بالذات، بشأن الحقّ الواحد، والإنسان الواحد، والأرض الواحدة، والمصير الواحد.

وعندها، كنّا نكون على درب المفاجأة الكبرى: المصالحة مع الذات...

وتلك هي المشكلة.

لغيري أن يقول إني أحلم.. أو أهذي!

ما لم تكن الفرصة قد فاتت...

بإنتظار كبوجي آخر!

مع المطران يوسف طويل

في معقل الصهيونية الأكبر: الولايات المتحدة الأميركية[1]

الحرب ضد الصهيونية متعددة الأوجه والجبهات.

هي حرب سلاح... وحرب إعلام...

هنا على الجبهات العربية... وهناك في الأراضي المحتلة... وهنالك عبر العالم كله، حيث الإعلام الصهيوني يهيمن، مدعوماً بشبكة مركزة من القوى السياسية والاقتصادية، وبالعديد العديد من العملاء.

وقد لا نغالي إن قلنا إن إحدى أكثر هذه الحروب تعقيداً، تلك التي تواجه الصهيونية في معقل قوتها وسيطرتها الاقتصادية والإعلامية، نعني به الولايات المتحدة الأميركية.

شاءت الظروف أن يعين منذ أربع سنوات، أسقف من دمشق، هو المطران يوسف طويل، مسؤولاً عن الروم الكاثوليك من أبناء الجالية العربية هناك.

---

(١)- نشر في "النشرة البطريركية" في شهر كانون الثاني/ يناير عام ١٩٧٤.

وبلغنا أنه قام "بنشاط ما" أثناء حرب تشرين التحريرية.. فكتبنا إليه مستفسرين، ومبدين له الرغبة في اطلاع الرأي العام العربي على وجه هذا النشاط. فجاء الجواب: رسالة مرفقة بمجموعة من الوثائق، منها ما هو مكتوب بخطه، ومنها ما هو صادر عن ديوانه، أو عن ديوان أحد الأساقفة هناك، ومنها ما هو صادر باسم مؤتمر الأساقفة العام في الولايات المتحدة... وكلها ممهورة بتواقيع أصحابها.

سوف نستنطق هذه الوثائق، أو بالأحرى نتركها تنطق بنفسها عن نفسها، الواحدة تلو الأخرى، وفق الظرف الزمني الذي أملاها.

كما سنتركها خصوصاً تنطق عن إيمان إنسان عربي، عرفته دمشق في أعقاب نكسة حزيران يداوي جراحها بحنو الأب والأخ، وتعرفه اليوم واشنطن يواجه الصهيونية في معقلها بالذات، بإيمان المناضلين الحقيقيين.

نبدأ أولاً بالرسالة الشخصية التي أرفق بها الوثائق، تضعنا في الجو النفسي الخاص، وفي إطار المواجهة العامة... والرسالة مؤرخة في ١٩٧٣/١١/٣٠:

"... كم كنت أتمنى أن أكون بينكم في هذه الأيام التي مرّت على البلاد لأشارك بقدر ما أستطيع في خدمة بلادي. ولكن شاءت العناية الإلهية أن أكون على جبهة أخرى، حيث لا يقل النضال عنفاً بأقوى وأمضى سلاح، ألا وهو سلاح الحق. وأجمل ما رأينا في هذه المعركة هو وحدة الصف العربي في الأوطان وخارجها.

"فالعرب في كل مكان، كانوا مرفوعي الرأس يعملــون جنبــاً إلى جنب. هذا ما شهدناه ونشهده كل يوم، في سائر أرجاء الولايات المتحدة الأميركية.

"أرسل إليكم جانباً من النشاط الذي قمنا به في ســبيل القضــية العربية. فمنذ عدت من دمشق وأنا أنتقل من مدينة إلى أخرى. وقد بدأنا الحملة في الأسبوع الأول من اندلاع الحرب في الشرق الأوسط، وتجاوب معنا كهنتنا، بل كل الكهنة العرب وأصدقائنا وأبنائنا في مختلف الرعايــا: بدأنا في مدينة ملووكي ثم في بوسطن ثم في واشنطن.

"لا أستطيع أن أقول لك ثقل الضغط الفظيع الذي يوقعه الجانــب الصهيوني بالهيئات الكاثوليكية، من كرادلة ومطارنة وكهنــة وراهبــات ورهبان ومدنيين. ويروى أن أحد الكرادلة كان عائداً من روما في منتصف تشرين الأول،وكان في انتظاره وفد صهيوني يقوده أحد الكهنة. وحالمــا نزل من الطائرة قالوا له: "إننا ننتظر منكم تصريحاً". وكان التصريح بيدهم مكتوباً على الآلة الكاتبة وينقصه إمضاء. والحمد لله لم يتسرع بالإمضاء، وكنا في انتظاره لاستقباله بعد ساعات. فشكونا له من تصــرف بعــض المسؤولين، فروى لنا القصة. أما الكاهن الذي كان يتزعم الوفد، فقد جاءه تلفون من أحد الكهنة أصدقائه يقول له: "ألا ترى أنك بتصرفك هكــذا تجرح المطران طويل الذي هو عربي من دمشق، المدينــة الــتي ضــربت بالقنابل"؟ فما كان منه إلا جاء واعتذر وقال إنه لم يكن واعياً للموضوع وقد غرّر به.

"وأعتقد شخصياً كما يعتقد كثيرون أن البيان الذي أصدره مؤتمر المطارنة الأمريكيين في واشنطن، إنما يعد انتصاراً عظيماً ونقطة تحول في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية بأمريكا. ويسرنا أن نذكر بأن البيان قد صدر مساء عيد القديس يوحنا فم الذهب ابن سوريا البار".

نحن إذاً أمام عملية مواجهة شاملة، ومتعددة الجوانب، أملى مراحلها حس قومي سليم، يلتقط إشارات الأحداث فيتأثر بها، ويؤثر فيها.

المرحلة الأولى: كانت موقفاً نستطيع أن نسميه عادياً ومألوفاً، هو موقف أسقف عربي مسؤول عن قطاع ما من الجالية العربية المسيحية، المنتشرة في أرجاء الولايات المتحدة الأمريكية.

كانت الخطوة الأولى: في هذا الموقف، نداء وجهه الأسقف العربي، عبر الكنائس التابعة له، إلى الكهنة والمؤمنين، بتاريخ ١٤ تشرين الأول، يؤكد فيه على قدسية القضية العربية، ويستنهض الضمير المسيحي وهمة المسيحيين لخدمة الحق والعدالة، فيقول:

"إن الحرب الدائرة الآن في الشرق الأوسط، وما تجرّه وراءها من مواكب الحزن والشقاء، لا يمكنها أن تتركنا جامدين. فنحن أميركيون، ولكننا ننتمي بأصلنا إلى هذه البلاد حيث لنا روابط عائلية، قريبة النسب أو بعيدته. لذا وجب علينا أن نتعاطف ونتضامن معها في أوقات المحنة هذه. نسأل الرب أن يمن بالسلام على هذه الربوع الغالية علينا، التي وطئتها قدماه.

"ولكن السلام الذي لا يرتكز على العدل والكرامة هو وهم سلام، سوف يسبب استمرار النزاعات، إذ ينشئ بؤر تفجر أخرى تهدد السلام العالمي.

"ذلك أن ما يكمن في أصل النزاع الحالي بين العرب والإسرائيليين، هو ظلم أساسي لم يمحَ أبداً، وأودعه الضمير المسيحي غياهب النسيان. إنه الظلم الذي حل بثلاثة ملايين من الفلسطينيين العرب، مسيحيين ومسلمين، طردوا خلافاً لكل حق، من أرضهم وديارهم، دون الحق لهم بالعودة إليها، في حين يُعترف ليهود الاتحاد السوفييتي بالحق في استيطان فلسطين، وفي العيش على أرض لم يولدوا فيها.

"منذ ربع قرن والفلسطينيون يقرعون بانتظام، بواسطة الشعوب العربية، أبواب الأمم المتحدة، يطالبون بالعدل، فلا ينالون سوى تصريحات تظل حبراً على ورق. وتفاقمت المشكلة بمشكلة الأراضي التي احتلها الإسرائيليون، والتي يرفضون أن ينسحبوا منها، متحدّين بذلك قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ الصادر في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٧، والتي يحاولون ضمها إلى الأراضي التي احتلوها قبل ذلك، مضخمين بذلك عدد النازحين.

"وإنه ليحق للفلسطينيين أن يعودوا إلى أرضهم وأن يعيشوا على أرض أجدادهم، أسوة باليهود، وإن هذا لحق مقدس لا يستطيع أحد أن ينتزعه منهم، ولا يستطيع أي انتصار إسرائيلي محتمل أن يلغيه.

"لقد آن الأوان للضمير المسيحي، الذي تنصل كلياً إلى اليوم من هذه المشكلة، ومن الوجود المسيحي في الأماكن المقدسة، لقد آن له أن

يتحسّس هذه القضية الخطيرة ويدركها في كل أبعادها، ومضامينها، لــئلا يكرر الأخطاء السالفة، ويتسبب في استمرار التراعات.

"يجب قبل كل شيء أن نميز بحزم بين اليهودية من حيث هي دين، والصهيونية من حيث هي حركة سياسية. فإنه من الواضح أن جميع اليهود ليسوا بصهاينة، وأن جميع الصهاينة ليسوا يهوداً ديّــنين. والخلــط بــين اليهودية والصهيونية، خلط بين الدين والسياسة، ينطوي على اتهام العرب باللاسامية، الأمر الذي لم يعرفوه عبر تاريخهم كله، إذ إنهم ساميون هــم أيضاً وأبناء إبراهيم من صلب اسماعيل. وهذا الأمر ينطوي أيضــاً علــى استغلال الدين في سبيل غايات سياسية، ذات مطامع توسعية تتحقق على حساب البلدان العربية. إن لفي ذلك إفساداً للدين نفسه.

"ما من مكان في الدنيا تستطيع فيه الكنيسة أن تبقى غريبة أو محايدة حيال مستلزمات العدالة والمحبة، دون أن تنكــر ذاتهــا وتتنكّــر لشــريعة مؤسسها. فما قولنا في هذه البلاد التي وطئتها قدما إلهنا وقدّستها دمــاؤه، أراقها من أجل خلاص البشرية؟ فهو أيضاً كان فقيراً، وكــان لاجئــاً، و لم يكن له حجر يسند إليه رأسه. ولكنه أشفق على الجماهير، وكسّــر الخبــز ليقدم لها ما تأكله، ولسوف يديننا على موقفنا حيال أصغر أصاغر إخوته.

"إننا نؤيد السلام في الشرق الأوسط. ولكنا نريده سلاماً يقوم على العدل والكرامة.

"نناشدكم الصلاة من أجل هذا الهدف، أيهـا الأبنـاء الأحبـاء، مستمدين من الرب عليكم وعلى أسركم غزير بركاته".

تلك كانت الخطوة الأولى من الموقف الأول:

وجاءت الخطوة الثانية: نداء أملته عليه حرب تشـرين بالـذات، وجهه بتاريخ ١٨ تشرين الأول، عبر الكنائس أيضاً، إلى جميع المـؤمنين، يسألهم فيه المشاركة بالمال والدم، مع إخوة لهم في الوطن الأم، يـدافعون عن الحق والإنسان:

"كنا حدثناكم في رسالتنا الأولى عن حزننا العميق حيال الحـرب الدائرة في الشرق الأوسط، وناشدناكم الصلاة معنا، كي يحقق الـرب في ربوعه سلاماً دائماً يقوم على العدل والكرامة الإنسانية والمحبـة. واليـوم نسألكم باسم الرب وباسم المحبة المسيحية، أن تؤلفوا على الفور لجاناً لجمع المساعدات للضحايا. إن مساعدة إخوتنا في المحنة أعظم قيمة لدى الـرب من الصيام. نسألكم إذن أن تكونوا أسخياء، فتنقذوا أناسـاً حيـاتهم في خطر، وتنالوا بذلك الصفح عن خطاياكم.

"إن الحاجة إلى الدم في سورية ملحة. فمن استطاع فليهب دمه في مراكز الصليب الأحمر، محدداً أنه يخص به ضحايا الحرب في سورية.

"ونحن واثقون، إذ نبرهن على محبتنا للجميع دون استثناء، أننا نقدم محبتنا للمسيح نفسه، وهو سيقول لنا يوم القيامة: "تعالوا إلي يا مبـاركي

أبي...كنت مريضاً وسجيناً فزرتموني... لأن كل ما صنعتم إلى أحد إخوتي هؤلاء الصغار، فإلي أنا صنعتموه".

"ونسألكم أيضاً أن تكتبوا أو تبرقوا إلى رئيس وأعضاء الكونغرس، مطالبين بوقف فوري لإطلاق النار، وإقامة سلام عادل في الشرق الأوسط، يأخذ بعين الاعتبار حقوق الشعوب العربية. فلقد آن الأوان ليحل السلام في هذه الأراضي التي قدسها الرب".

هذا الموقف الأول سميناه عادياً، لأنه لا يتجاوز المألوف من المواقف الإنسانية.

ثم جاء الموقف الثاني...

رسالة وجهها بالبريد، بتاريخ ١٣ تشرين الأول، إلى ستين شخصية كنسية، على رأسهم الكاردينال "كرول"، رئيس مؤتمر الأساقفة في الولايات المتحدة. وهي تؤكد على الحق العربي، وتندد باستهتار إسرائيل بالإنسان والقيم والهيئات الدولية، كما تبيّن ضرورة الفصل بين اليهودية والصهيونية.

تقول الرسالة:

"اسمحوا لنا أن نؤكد لكم، بالنسبة إلى الحرب الرهيبة الدائرة الآن في الشرق الأوسط أن أي سلام لا يقوم على العدالة والمحبة، هو سلام

فاشل، سوف يسببّ استمرار النزاعات، محدثاً المزيد من بؤر التفجير الـــتي تهدد السلام العالمي.

"ذلك أن ما يكمن في أصل النزاع الحالي بين العرب والإســـرائيليين، هو ظلم أساسي لم يمحَ أبداً، وأودعه الضمير المسيحي غياهب النسيان. إنـــه الظلم الذي حل بثلاثة ملايين من الفلسطينيين العرب، مسيحيين ومسلمين، طردوا خلافاً لكل حق، من أرضهم وديارهم، وحرموا حق الرجوع إليها، في حين يعترف ليهود الاتحاد السوفييتي بالحق في اســـتيطان فلســـطين وفي العيش على أرض لم يولدوا فيها.

"منذ ربع قرن والفلسطينيون يقرعون بانتظام، بواسطة الشـــعوب العربية، أبواب الأمم المتحدة، يطالبون بالعدل، فلا ينالون سوى تصريحات تظل حبراً على ورق. وتفاقمت المشكلة بمشكلة الأراضي الـــتي احتلـــها الإسرائيليون، والتي يرفضون أن ينسحبوا منها، متحدّين بذلك قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢، والتي يحاولون ضمها إلى الأراضي التي احتلوها قبـــل ذلك، مضخمين بذلك عدد النازحين.

"وإنه ليحق للفلسطينيين أن يعودوا إلى أرضهم وأن يعيشوا علـــى أرض أجدادهم، أسوة باليهود. وإن هذا لحق مقدس لا يستطيع أحـــد أن ينتزعه منهم، ولا يستطيع أي انتصار إسرائيلي، إذا حدث، أن يلغيه.

"لقد آن للضمير المسيحي، الذي تنصل كلياً إلى اليوم مـــن هـــذه المشكلة، ومن الوجود المسيحي في الأماكن المقدســـة، لقـــد آن لـــه أن

يتحسس هذه القضية الخطيرة ويدركها في كل أبعادها ومضامينها، لئلا يكرر الأخطاء السابقة ويتسبب في استمرار النزاعات.

"من ناحية أخرى، يجب الفصل بحزم بين اليهودية من حيث هي دين، والصهيونية من حيث هي حركة سياسية. فإنه من الواضح أن جميع اليهود ليسوا بصهاينة، وأن جميع الصهاينة ليسوا يهوداً دينين. والخلط بين اليهودية والصهيونية، خلط بين الدين والسياسة، ينطوي على اتهام العرب باللاسامية، الأمر الذي لم يعرفوه عبر تاريخهم كله، إذ إنهم ساميون هم أيضاً، وأبناء إبراهيم من صلب إسماعيل. وهذا الأمر ينطوي أيضاً على استغلال الدين في سبيل غايات سياسية، ذات مطامع توسعية، تتحقق على حساب البلدان العربية. إن لفي ذلك إفساداً للدين نفسه.

"ما من مكان في الدنيا تستطيع فيه الكنيسة أن تبقى غريبة أو محايدة حيال مستلزمات العدالة والمحبة، دون أن تنكر ذاتها وتتنكر لشريعة مؤسسها. ولذا فنحن نشجب بشدة القصف الإجرامي للسكان المدنيين الذين يعيشون في المدن. إننا نؤيد السلام في الشرق الأوسط، غير أننا نؤيد سلاماً حقيقياً، يقوم على العدل والمحبة والكرامة الإنسانية".

وتوالت الأجوبة، وكان أولها جواب الكاردينال "كرول" نفسه، مؤرخاً في ١٧ تشرين الأول، وهذا نصه:

"طالعت بتقدير بالغ رسالتكم الطيبة الصادرة في ١٣ تشرين الأول ١٩٧٣، بشأن ندائكم الشامل من أجل السلام.

"لقد كنا شديدي الاهتمام، في الوقت الذي شجبنا فيه الحرب والعنف، وطالبنا بوقف إطلاق النار الفوري، بأن نعبّر عن حرصنا على رغبات الإسرائيليين في الحصول على حدود آمنة، وعلى رغبة الشعوب العربية في تحرير الأراضي التي أخضعت للاحتلال العسكري منذ ١٩٦٧، سواء بسواء.

"أبعث برسالتكم إلى الأمانة العامة للاحتفاظ بها في الأرشيف. وأرجو أن تعتبر نفسك حر التصرف في اطلاع سائر الأساقفة على وجهات النظر التي أطلعتني عليها. وقد دافعت من جهتي في السر والعلن عن حق العرب، لا سيما العرب المسيحيين، في العودة إلى أرضهم ومسقط رأسهم".

كان ذلك هو الموقف الثاني

ثم كان الموقف الثالث... وكان هو الحاسم!

بلغ سيادته أن أحد الأساقفة الأميركيين حضر مؤتمراً جمعت فيه التبرعات لإسرائيل. فاتفق مع مطران عربي آخر هو سيادة المطران فرنسيس زايك، رئيس الطائفة المارونية، ووجها على الفور رسالة احتجاج شديدة اللهجة إلى الكردينال "كرول" نفسه، بصفته رئيس مؤتمر الأساقفة، بتاريخ ٢٠ تشرين الأول، وطالبا فيها بإدراج قضية الشرق الأوسط في جدول أعمال المؤتمر، وكان سيعقد دورته السنوية بعد ذلك بأيام قليلة.

تقول الرسالة:

"إن المواقف التي اتخذها بعض المسؤولين الكنسيين الأعلين من التراع الحالي في الشرق الأوسط، تلقينا في دوامة الحيرة، نحن وأبناءنا المتحدّرين من أصل عربي. فإن الأصوات التي كانت بالأمس تندد بالحرب الفيتنامية، تتبنى اليوم علناً وتبارك تجمعات تجبى فيها المساعدات لإسرائيل. **أو تكون حياة العرب أقل قيمة في نظر الله من حياة سائر البشر؟ وهل لم يعد الإنجيل دعوة سلام لجميع الناس؟.**

ثم هل أنتم على يقين من أن العرب هم المعتدون الحقيقيون؟ إن العالم أجمع يعرف أن الإسرائيليين هم الذين طردوا ثلاثة ملايين عربي فلسطيني من أراضيهم وديارهم، دون أي حق بالعودة، ليحلوا محلهم يهوداً جاؤوا من أطراف الدنيا ويقيموهم على أرض لم يولدوا فيها. أليس هذا ظلماً فاضحاً؟ أوليس الإسرائيليون هم الذين يرفضون إخلاء الأراضي التي احتلوها في أعقاب حرب ١٩٦٧، برغم قرار الأمم المتحدة الصادر في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٧؟ بل أوليسوا هم الذين يسعون إلى ضم هذه الأراضي إلى الأرض التي احتلوها سابقاً؟ مضيفين بذلك عدداً جديداً من النازحين إلى بلاد فقيرة تضيق أصلاً بسكانها؟ أوليست إسرائيل هي التي تقصف السكان المدنيين الآمنين وتضرب بالنابالم القوات المحاربة؟

إننا بصفتنا عضوين في المؤتمر الوطني للأساقفة الأميركيين، نحب أن نرى السلطة الكاثوليكية التي تدافع بحق عن العمال في المصانع والمزارع ضد مستغليهم، ترفع صوتها عالياً، تماماً كما فعلت إبان حرب فييتنام، طالما أن حكومة الولايات المتحدة وضعت نفسها بصراحة في صف

إسرائيل. فإنه لا يجوز للقوة أبداً أن تعلو على الحق. كما أنه لا يجوز أن يقال في ما بعد إن مؤتمر الأساقفة الكاثوليك في هذا البلد لم يعمل من أجل السلام، وإنه اعتصم باللامبالاة، أو إنه اتخذ موقفاً غير مشرف من النزاع الحالي.

"نود أن نلفت باحترام انتباه زملائنا الأساقفة الذين قد يجهلون كل شيء عن المشكلة القائمة، إلى ضرورة الامتناع عن أي تصريح أو موقف، اللهم إلا توجيه نداءات من أجل سلام قائم على العدل، كما فعل في الآونة الأخيرة قداسة البابا بولس السادس. ففي مؤتمر الأساقفة، اسقفان عربيان، أحدهما من دمشق بالذات، المدينة التي تعرضت للقصف الوحشي منذ أيام. ثم إن هنالك ثلاثة أساقفة عرباً من الطائفة الأرذوكسية، ناهيكم عن مئات الألوف من العرب، المسيحيين وغير المسيحيين، الذين هم مواطنون أمريكيون، يجب علينا أن نبدي الاحترام والتعاطف نحوهم، دون أن ننكرهما على الآخرين.

"سوف نكون شاكرين لكم إن أدرجتم هذه القضية في جدول أعمال الدورة القادمة للمؤتمر الوطني، التي تعقد في واشنطن في تشرين الثاني القادم".

أما رد الكردينال فاتخذ شكل لجنة زارت الأسقف العربي، وأجرت معه ومع لجنته الخاصة مباحثات أدرجت على أثرها قضية الشرق الأوسط في جدول أعمال المؤتمر...

وانعقد المؤتمر في النصف الأول من شهر تشرين الثاني، وحضره ما بين (٢٥٠) إلى (٣٠٠) أسقف وكردينال، وعدد كبير من الكهنة والراهبات والعلمانيين ورجال الصحافة. وأجريت المناقشات... وتكلم الكثيرون، ودعي المطران يوسف طويل، فقال في ما قال:

"لم يناصب العرب قط اليهود العداء عبر تاريخهم الطويل، بل كان اليهود، عندما يُضطهدون في الغرب، يلجأون إلى بلاد الشرق حيث يعيشون بسلام مع العرب الذين هم ساميون مثلهم وأولاد إبراهيم.

"وقد ظهر العداء بعد أن طرد اليهود عرب فلسطين، مسيحيين ومسلمين، ومنعوهم من العودة إلى منازلهم وأراضيهم عقب سنة ١٩٤٨، حيث بلغ عددهم حوالي مليوني لاجئ.

"والحرب التي تدور رحاها اليوم، وكل الحروب التي سبقتها في الشرق الأوسط، إنما نتيجة اغتصاب بلاد فلسطين من سكانها الأصليين. ولن يكون هناك سلام في المنطقة ما لم يعطَ الفلسطينيون حقوقهم كاملة، ويجلُ الإسرائيليون عن الأراضي العربية التي احتلوها سنة ١٩٦٧، وفقاً لقرار الأمم المتحدة الصادر في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٦٧. وقد شهدت بنفسي إذ ذاك سيل اللاجئين يتدفق على دمشق، حتى بلغ عددهم المئة ألف في بضعة أيام، فاضطررنا إلى إيواء قسم منهم في مدارسنا وأديارنا، مقدمين لهم الكسوة والطعام لمدة أربعة أشهر.

"ومدينة القدس هي أرض عربية احتلتها إسرائيل سنة ١٩٦٧، ويجب أن تعيدها إلى الأردن. وجدير بالذكر أن لجنة أردنية أوفدت في العام الماضي برئاسة قاضي قضاة عمان وعضوية ثلاثة مطارنة، أحدهم روم كاثوليك، والآخر لاتيني والآخر روم أرثوذكس، وأحد العلماء، وقابلت بعض المطارنة في هذا البلد، وتكلمت عن تهويد القدس وعن نزوح أهلها، وعن نقص السكان المسيحيين، الذين تضاءل عددهم اليوم إلى ما دون العشرة آلاف، بعد أن بلغ خمسة وعشرين ألفاً قبل حرب حزيران سنة ١٩٦٧، حتى بات يخشى على المطارنة أن يصبحوا بلا رعية، وعلى بيت لحم وكنيسة القيامة أن تصير نظير المتاحف، كما آلت إليه الحال في قرية عين كارم مسقط رأس يوحنا المعمدان، التي كانت عامرة بسكانها المسيحيين، فنزحوا عنها جميعهم، فبات لا يفتح المقام إلا إذا قدم حجاج".

وحدث ما لم يكن متوقعاً: وافق المؤتمر بالإجماع على نص قرار يكشف أمام الكنيسة الكاثوليكية في الولايات المتحدة الأمريكية حقائق جديدة ومذهلة، ويضع جميع الأميركيين، ولاسيما الكاثوليك الذين يبلغ عددهم خمسين مليوناً، أمام مسؤوليات جديدة وخطيرة.

يقول هذا القرار التاريخي الصادر في ١٣/١١/١٩٧٣:

قرار المؤتمر الوطني للأساقفة الكاثوليك في الولايات المتحدة الأميركية حول الشرق الأوسط:

"إن النزاع في الشرق الأوسط مزيج معقد من عوامل سياسية وعسكرية واقتصادية ودينية. ونحن، بصفتنا أساقفة الكنيسة الكاثوليكية في الولايات المتحدة، نتحدث عن هذه القضية، من حيث إننا رعاة تعنيهم الأطراف المعنية مباشرة. وإنا لنسعى إلى تقديم توجيه للأميركان الكاثوليك حول هذه القضية، وتحديد ما يمكننا فعله، حتى عن بعد، لنساهم في حل هذه المسألة الأليمة جداً، حلاً عادلاً، سليماً ودائماً.

"إزاء قضية تحطمت دونها جهود الرجال مدة سنوات، نبسط أفكارنا، دون أن ندعي صياغة حل نهائي لها. إنما نحن نسعى لإلقاء الضوء على العوامل التي نعتقد أنها تشكل طريقاً نحو الصلح والسلام والعدل في الشرق الأوسط. وإنه ليجب أن يُنظر إلى هذه القضية من مستوى عالمي ومحلي.

"أولاً، نحن مدعوون لملاحظة الأخطار العظيمة التي ينطوي عليها هذا النزاع. فهو ينطوي على إمكان نشوب حرب أوسع، بل حرب نووية، بسبب الموقع الاستراتيجي الذي تحتله هذه المنطقة في العالم، وبسبب العلاقات القائمة بين القوى النووية الكبرى، وبين الأطراف المعنية. إن حرباً كهذه يجب ألا تحدث، مهما كان. ونحن نعتقد أننا نعبّر عن مشاعر الشعب في كل مكان، عندما نذكر بالكلمات التي قالها يوحنا الثالث والعشرين، في ما يشبه هذا الظرف: "**إنه يكاد ألا يكون ممكناً أن نتصور أن الحرب، في هذا العصر النووي، يمكن استخدامها كأداة لتحقيق العدالة**". (**السلام على الأرض، ١٢٧**).

"ثانياً، إن جذور النزاع قائمة في المنطقة. إن هذه الأسباب يجب أن تزول، إن كان الشرق الأوسط يريد السلام، وإن كان العالم يريد أن يكون في مأمن من حرب أوسع. إن تاريخ هذه المنطقة هو سلسلة من المطالب والمطالب المضادة، التي لم تُستجَب أبداً على نحو مُرضٍ. إنا لنأمل أن تستطيع الأطراف المعنية أن تتخطى هذا الماضي المضطرب المعقد، وأن تتحرك باتجاه بداية جديدة لجميع شعوب الشرق الأوسط. ونحن نعتقد أن جميع الأطراف تمتلك مطالب محقة، قد لا يكون تحقيقها كلها على نحو كامل، ولكن يمكن تحقيقها كلها بصورة جزئية.

"بدلاً من أن نكرر الماضي، نريد أن نتبين معنى اللحظة الحاضرة: فإن مجموعة من القوى الدولية والمحلية أحدثت وضعاً يبدو فيه أن جميع الأطراف على استعداد لأن يقدموا بعض التنازلات، ويختبروا صيغاً جديدة، ويقوموا بخطوات يرجى منها التوصل إلى تسوية معقولة.

"إلا أن الطريق إلى مثل هذه التسوية طويلة، خطيرة ومعقدة. ونحن لا يخامرنا أي وهم بشأن صعوبات هذه المهمة التي يواجهها جميع الأطراف. ولكننا نجد في تاريخ المنطقة وفي المحاولات المتوقعة من أجل حل سلمي، عوامل نعتقد بأنها أساسية بالنسبة إلى التقدم المرتقب. ونحن نود في قرارنا هذا أن نلفت الانتباه إلى هذه العوامل، مبينين الحجج التالية للأطراف المعنية.

"إننا نطالب بحل سياسي شامل، يأخذ بعين الاعتبار النقاط التالية:

١-الاعتراف بحق إسرائيل في البقاء كدولة ذات سيادة، ضمن حدود آمنة.

٢-الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني: وهذا يعني في نظرنا، أنه لا بد من اشتراكهم في أية مفاوضات، ولا بد من التسليم بحقهم في إنشاء دولة لهم، ولا بد من التعويض عليهم ما فقدوا في الماضي. أما هذا التعويض فيجب أن تقوم به ليس فقط إسرائيل، بل جميع أعضاء الجماعة الدولية المسؤولة عن قرار التقسيم الصادر عام ١٩٤٨.

٣-التسليم بقرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، ذي الرقم ٢٤٢ الصادر في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٧، أساساً للمفاوضات بين الأطراف المعنية بهذا النزاع.

٤-الاعتراف بالحاجة إلى مواصلة الضغط واستمرار التدخل الدبلوماسي المسؤول من قبل الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة. ونحن نعتقد أن هذا الأمر يمكن أن يتم فعلياً، إذا كان عمل كل من هاتين القوتين الكبريين، منسجماً مع مساعي الأمم المتحدة في المنطقة.

٥-استمرار الثقة في الأمم المتحدة دبلوماسياً، وفي جهازها الساهر على السلم.

٦-الاعتراف بالوضع الفريد لمدينة القدس، وبمعناها الديني الذي يتخطى مصالح أي من التقاليد. ونحن نرى من الضروري توفير الوصول إلى المدينة، عبر صيغة من الضمان الدولي. ثم إن طابعها من حيث إنها تخص جماعات دينية متعددة، وتوفر لجميع المواطنين فيها حماية متساوية لحقوقهم المدنية والدينية، هذا الطابع يجب أن يُضمن لها باسم العدالة.

"إننا، إذ نقترح هذه الأفكار، نسعى لأداء مهمتنا في خدمة العدل والسلام. ونسأل جميع ذوي النيات الطيبة، من رجال ونساء، أن يعتبروها وفقاً للروح الذي أملاها، على أنها إسهام من أجل تحقيق المصالحة في الشرق الأوسط، والسلام في العالم. ونضرع إلى رب السلام أن يبارك جهودنا ويبارك الشعوب والحكام الذين يعملون من أجل السلام".

لا ريب في أن هذا القرار لا يرضينا نحن العرب.

ولكن لا بد لنا من أن نعترف بأنه، شئنا أم أبينا، يشكل منعطفاً تاريخياً في كنيسة الولايات المتحدة. ذلك أن مواقع الرأي العام هناك، والمسلمات الناجمة عنه في صفوف السلطات الكنسية المحلية، والصعوبات الهائلة التي تواجه من يريد زحزحتها قليلاً، كلها أمور يصعب، بل يستحيل علينا تصورها.

لذا رأينا أن نترك للمطران يوسف طويل نفسه، أن يختم لقاءنا هذا معه في مسيرة نضاله، بالكلمة التي يحدثنا فيها، بصدقه وبساطته المعهودين،

عما كان يستبد به من شكوك في جدوى مبادرته، يوم قرر القيام بها، وعما لقيه من تقبل مدهش للحق يعرض بوضوح وموضوعية، وعما يغمره الآن من سعادة، هي سعادة الإنسان الذي أدى الواجب بأمانة، حيال بلاده وبني قومه...

يقول سيادته:

"كان قرار مؤتمر المطارنة الأميركيين المنعقد في واشنطن بين ١١-١٦ نوفمبر، حول قضية الشرق الأوسط مفاجأة للجميع. فقد قال أحد الأصدقاء: لم أكد أصدق حين وقع نظري على هذا النبأ العظيم في الصحف - وأضاف: لقد تلقيت تليفونات من أصدقاء كثيرين يزفّون إلي هذه البشرى، كما نقلتها بدوري إلى أصدقاء كثيرين. ففي الوقت الذي كانت فيه كثير من المجلات الكاثوليكية تمالئ إسرائيل وتطرئها مدحاً، وتشبع العرب قدحاً وذماً، صدر فجأة القرار في ١٣ نوفمبر، يطالب بحقوق الفلسطينيين، ويدعو إسرائيل إلى الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة، ويناشد كلاً من حكومتي الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفييتي، بالكف عن تقديم المساعدات الحربية لكلا الطرفين، لإحلال السلام العادل والدائم في المنطقة...

عندما طلبنا إدراج قضية الشرق الأوسط في جدول أعمال المؤتمر، كنا نكاد أن نكون مقتنعين بأن شيئاً جديداً لن يحدث، وأن الرد سيكون بشكل تملص نظيف من المسؤولية بحجة أن الموضوع سياسي لا مكان له

في أعمال المؤتمر. إلا أننا أخطأنا الظن. وفي يوم ٣٠ أكتوبر إذ كنت أحضر مؤتمر أكليروس الطائفة بمدينة ملووكي، طُلبتُ تلفونياً من بوسطن، وإذا المتكلم كاهن صديقي يخبرني "بأن الكردينال يوفد لجنة للتباحث معكم حول القضية قبل انعقاد المؤتمر، وأنه كلف بدراسة الموضوع وتقديم بيان شامل عنه لآباء المؤتمر، ولذلك فهو يرغب في الاجتماع بي قبل وصول اللجنة".

"واجتمعنا ودرسنا القضية دراسة كاملة واضعين النقاط على الحروف، وخرجنا متفقين تمام الاتفاق - وكانت اللجنة مؤلفة من سكرتير المؤتمر الذي يضم حوالي ٣٠٠ مطران، واسمه المطران "روش"، والكاهن "بريان" الذي تدارسنا معه القضية، وكاهن آخر هما على طرفي نقيض. وضمت اللجنة أيضاً السيد وليم بارودي، وهو من ألمع أبناء طائفتنا في واشنطن. ومن جهتنا حضر معنا الأب يوحنا حداد وفرانك ماريا، رئيس لجنة مشكلة الشرق الأوسط واللاجئين العرب للروم الأرثوذكس، وكلٌّ من الدكتور جورج لطفي من أبناء دمشق ومن أطباء بوسطن اللامعين، وكذلك الدكتور أنطون صهيون ممثلاً للفلسطينيين. وتبودلت وجهات النظر بكل صراحة، وأحياناً بعنف، وخرجنا مقتنعين بأن شيئاً جديداً سيحدث. وعلمنا فيما بعد أن سكرتير المؤتمر لم يكن في البدء مقتنعاً بوجهة نظرنا، وأسرّ برأيه إلى السيد وليم بارودي بقوله: لا شأن لنا بهذا الموضوع السياسي. فأجابه السيد بارودي على الفور: "أوافق معك شرط أن تنهوا أعمال "لجنة السلام العادل" التابعة للمؤتمر وتشطبوها من مجموعة

نشاطاته". فكان هذا الرد بمثابة تيار كهربائي سرى في نفس سكرتير المؤتمر الذي أطرق قليلاً ثم قال: "الحق معك: يجب أن نصدر القرار".

"وتشكلت لجنة لصياغة القرار المزمع طرحه علـــى التصـــويت في المؤتمر، قوامها ستة أعضاء، من بينهم ثلاثة أصدقاء لنا، منهم السيد ولـــيم بارودي. وسبق التصويت عرض رائع للقضية كلها من جانب الأب هـــير برايان، صفق له الآباء طويلاً. وبعد قراءة نص القرار، دعيت إلى الـــتكلم من قبل الكردينال "كرول" رئيس المؤتمر، فألقيت كلمتي، وكـــان عـــدد المطارينة ٣٥٠ قادمين من جميع أنحاء الولايات المتحـــدة، بالإضـــافة إلى جمهور من المراقبين من كهنة ورهبان وراهبات ومراسلي الصحف.

"وطرح مشروع القرار مباشرة بعد الكلمة التي ألقيتها، فنال التأييد المطلق وتلاه تصفيق طويل، مما جعلني أكاد لا أصدق بصـــري وسمعـــي. فالقرار الخاص بحرب فييتنام عدّل مرات ومرات، وفي كل مرة كان يناقش مناقشة حادة، بعكس مشروع القرار الخاص بالشرق الأوسط، الذي نال التأييد المطلق مرة واحدة. وغير خاف على أحد ما لهذا القرار من أهمية، إذ يلزم خمسين مليوناً من الكاثوليك تجاه قضية الشرق الأوسط، ويعتبر نقطة تحول في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية في هذه البلاد، كما قال لي أحد كبار الأساقفة. فلأول مرة يقف مطران عربي أمام هذه المجموعة الكـــبيرة مـــن المطارنة الأمريكيين، ليشرح لهم ببساطة ووضـــوح ملابســـات القضـــية وأبعادها السياسية والدينية، على ضوء مبادئ الحق والعدالة. وبعكس بيان اللجنة الفرنسية الذي أحدث ضجة كبرى وأثار موجة من الاحتجاجات

في كل المحافل والأوساط الدينية والسياسية، فقد جاء هذا البيان يعـــرض الموضوع من الناحية الواقعية وعلى ضوء المبادئ الإنجيلية.

"وكثيراً ما أقول في نفسي: كل شيء ابتدأ برسالة احتجاج علـــى تصرف شاذ. فلو أني سكتّ لأدّى سكوتي إلى تفاقم الضرر في الرأي العام الكاثوليكي تجاه القضية العربية. أجل إن هذه الشرارة الصغيرة أضـــرمت هذه النار العظيمة. فلو قدّر لي أن لا أقدّم لبلادي إلا هذه الخدمـــة مـــدة إقامتي في أميركا، لاعتبرت نفسي سعيداً بأني قمت بقسط من الواجـــب المترتب علي نحو بلادي وبني قومي".

أفلم يقل أحد الأمثال:

بدل أن تلعن الظلام... حاول أن تشعل ولو شمعة؟!..

أمام قنصلية إسرائيل في بوسطن

التاريخ: ٢٠ كانون الأول ١٩٧٣، الساعة الثانية بعد الظهر.

المكان: بوسطن، أمام قنصلية إسرائيل...

حشد صامت يقف حاملاً لافتات ضخمة كتبت عليها عبارة واحدة: "العدالة للفلسطينيين". على رأس هذا الوفد كاهن أميركي يدعى الأب جيمس كنج، وعربي فلسطيني اسمه شريف الموسى، وفتاة أمريكية يهودية. الجميع على موعد مع قنصل إسرائيل.. في صفوف التظاهرة الصامتة كهنة كثيرون وراهبات ويهود مناوئون للصهيونية. وكالات الأنباء والتلفزيون ترافق هذه التظاهرة منذ بدء تحركها.

كان هذا الحشد قد طلب يوم العاشر من الشهر نفسه مقابلة مع قنصل إسرائيل في بوسطن، ورفضت يومها المقابلة. وكان ذلك اليوم يصادف ذكرى مرور خمسة وعشرين عاماً على إعلان شرعة حقوق الإنسان.

وفي تمام الساعة الثانية بعد الظهر، قابل الكاهن والفلسطيني والفتاة اليهودية القنصل الإسرائيلي، باسم الحشد المتجمهر في الخارج، وباسم

عشرات الألوف من مؤيديهم، الذين كانوا قد وقعوا على عريضة احتجاج مرفوعة إلى غولدا مئير، حملها إلى القنصل هؤلاء الثلاثة. وقدّمت العريضة، وكان يرافق القنصل حاخام بوسطن بالذات، وقد دار بينهما من جهة، وبين وفد الاحتجاج من جهة ثانية، حوار عنيف نقلته يومها جميع وكالات الأنباء في بوسطن، واستمع إليه المشاهدون على شاشة التلفزيون في بوسطن مرتين تلك الليلة.

في أول المقابلة تلا الأب كنج نص العريضة الموجهة إلى غولدا مئير. **فأجاب القنصل بهجوم شخصي على المطران يوسف طويل**، متهماً إياه بالتحريض على هذه التظاهرة الاحتجاجية. ثم اتهم سورية بنقض اتفاقيات جنيف الخاصة بمعاملة الأسرى. فكان من الأب كنج أن أجابه بأن هذه اتهامات لا تستند إلى براهين، بينما جميع وكالات الأنباء نقلت الوقائع عن القصف الوحشي لمدينة دمشق وعن قتل إسرائيل لمئات من السكان المدنيين، فضلاً عن تشريدها للآلاف من سكان قرى الحدود.. وهكذا استمر الحوار عنيفاً بين أخذ ورد، إلى أن هاجم القنصل الفتاة اليهودية متهماً إياها بخيانة شعبها ودولتها إسرائيل!!! وأجابته بأنها لا تسمح له بأن يعتبرها إسرائيلية، إذ إنها أميركية وحسب، ثم هي إنسانة ترفض الظلم أنى كان وأياً كان مرتكبه، وإنها لا تستطيع أن تسكت حيال ما ترتكبه إسرائيل من ظلم بحق الشعب الفلسطيني والشعوب العربية.

وأخيراً وضع الأب كنج نص العريضة على مكتب القنصل، مؤكداً له أن تصرف إسرائيل لا يماثله إلا تصرف النازية الهتلرية...

وقد جاء في العريضة:

"إلى رئيسة مجلس الوزراء غولدا مئير

"إن الشرعة العامة لحقوق الإنسان الصادرة عن الأمم المتحدة، تؤكد في البند الثاني من المادة ١٣: "إن لكل إنسان الحق في مغادرة أي بلد، بما فيها بلده، وفي العودة إلى هذا البلد". ومع أن إسرائيل تتذرع دوماً بهذا الحق في ما يتعلق بيهود روسيا، فإن تنكرها لحق الفلسطينيين، من مسيحيين ومسلمين، في العودة إلى أرض آبائهم - وذلك برغم الجهود المتكررة التي تبذلها الأمم المتحدة لدعم هذا الحق - يعتبر تطبيقاً متحيزاً للشرعة العامة، يحرم الشعب الفلسطيني حقوقه المشروعة، ويحول بالتالي دون تحقيق سلام عادل في الشرق الأوسط. ونحن نطالب إسرائيل باحترام حقوق الإنسان إزاء الشعب الفلسطيني".

هذه العريضة، كان المطران يوسف طويل قد أرسلها إلى جميع كهنته وأصدقائه في الولايات المتحدة، وأرفقها برسالة يسألهم فيها تلاوة هذه العريضة في الكنائس والمحافل العامة، والسعي إلى الحصول على أكبر عدد من التواقيع، لتجمع وترفع إلى غولدا مئير عن طريق قنصلية إسرائيل في بوسطن. وكانت رسالة سيادته تشدد على ضرورة اتخاذ موقف عملي يمليه الوجدان المسيحي والإنساني والقومي معاً، مردداً كلمة أحد أشهر كتاب أميركا، وهو إدموند بورك، إذ يقول: "**كل ما يحتاج إليه الشيطان لينتصر، هو أن يمتنع الأشخاص الطيبون عن أي عمل**"...

ولم يمتنع هؤلاء الطيبون عن العمل، وكانوا كثيرين...

أما رأي سيادته بكل ذلك، فلا بأس أن يضطلع عليه أصدقاؤنا القراء، إذ يقول في رسالة له في ٣١ كانون الأول ١٩٧٣:

"صدقوني إن عدم الاكتراث بهذه الأمور، قد يكون مريحاً أكثر، لأنه لا يعرّض للانتقاد والمواجهة. ولكن نصرة الحق والمظلوم هي من المبادئ الأساسية التي تعلمنا إياها الكتب المقدسة، ويمليها علينا وجداننا الإنساني والقومي، ونحن لا نريد أن نتنكر لها، مهما كان الثمن... والواقع أننا نلحظ تطوراً في الرأي العام الأميركي الذي بدأ يتحول رويداً رويداً نحو العرب، لاسيما بعد أن شعر بأزمة النفط، التي يكابد منها الشعب برمته، وأخذ يشكو بمرارة، وهو يعزو أسبابها إلى إسرائيل، وقد أخذنا نسمع بعض سائقي الشاحنات يقولون: "أنا لا أحب اليهود، ولكني أحب النفط"....

مع أسرة الرعية الجامعية خلال حرب تشرين

القداس والحرب(١)

من كان يتوقع السادس من تشرين؟!

ومن كان يحلم بما حدث فيه وبعده؟

أمران كانا في حكم المستحيل! أكانا حقاً في حكم المستحيل؟... ما حدث لم يكن حلماً، بل واقعاً عاشه كل إنسان عربي، فبُعث إنساناً جديداً، من أعماق، هي والتاريخ واحد.

هذا الجديد يلفّ أسرة الأمة كلها من محيطها إلى خليجها، ما كان لأسرة الرعية الجامعية، وهي في دمشق — ودمشق يومها عادت نارا ونوراً.. — إلا أن تعيشه، كما كل عربي، إشراقة ذهول، ورؤية يقين، وتدفق عطاء.

عاشته الأسرة في المستشفيات العاملة، عناية بأجساد بعثت الروح في الأمة...

---

(١) نشرت في مجلة بطريركية الروم الكاثوليك/ شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٧٤، وفي مجلة "المسرّة"، عدد كانون الثاني ١٩٧٤.

وعاشته في المعامل، وفي بيتها بالذات، مجهوداً متواضعاً يزيد من إنتاج يمدّ البلاد بأسباب النصر.

وعاشته صلاة استعادت الجلجلة والقيامة، عبر الجولان وسيناء...

وكانت تلك الصلاة حقاً تجربة فريدة، بالنسبة إلى البيئة الدمشقية على الأقل.

كان الناس يلتقون مساء كل أحد، كما في كل كنيسة، في بيت الأسرة، للقداس الأسبوعي العادي. وإذا بأسرة الرعية تستجيب، بعفوية مطلقة، للنداء ينبع من الأعماق، فتفتح فكرها وقلبها وبيتها... للحرب، وتزجّ بها ذبائح سخية من الفداء العربي، على هيكل مَن ذبيحتُه رمزٌ لكل فداء.

أحرب وقداس؟!.

أجل، تعانقا، بعد إذ كانا يبدوان متباعدين كالنقيضين. فاحتضن القداس الحرب، وأحيت الحرب القداس.

لم يعد القداس قداساً كما ألفه الناس. لم يعد طقوساً.. وكلمات... ومواويل... وإشارات! بل أصبح، بل عاد محرقة فداء، فيها حق مقدس اسمه الأرض والإنسان، يصان بالسلاح، وفيها "يراق دم زكي" "من أجل الكثيرين".

وبعفوية مدهشة تمّ كل ذلك.

منذ اليوم الأول للحرب، أدرك بعض أفراد الأسرة أن الأمر يعنيهم إلى أبعد حد. وانطلاقاً من إيمانهم بقدسية القضية العربية، عملوا على الجمع بين هاتين القمتين، قمة الحياة المسيحية: القداس، وقمة التاريخ العربي الحديث كله: حرب تشرين. فاجتمعوا نفراً قليلاً من شبان وشابات، يستلهمون الإنجيل والأحداث في آن واحد، ويصوغونهما آيات وصلوات يشاركون بها غيرهم من المؤمنين، في صلاة، هي في حقيقة الأمر، تجديد لصِلات تشدهم إلى يسوع والإنسان معاً.

وما كان بالطبع لتقويم أو ترتيب طقسي أن يجمّد هذه الاندفاعة من الحياة. أفما قال يسوع: "إن السبت جعل للإنسان"؟!.

كان الهيكل طاولة عادية، وقف وراءها الكاهن وجهاً لوجه في ملاصقة تامة مع الصفوف الأمامية من المصلين... والتزم في "العظة الإنجيلية"، بعد الأخذ برأي هؤلاء، باللغة المحكية... وأتاح لشاب وفتاة أن ينقلا الكأس والصينية من مؤخرة الكنيسة إلى الهيكل عبر الممر الرئيسي، بينما كان بعضهم يجهرون بنياتهم الشخصية، بعفوية كلية، كان الشبان البادئين بها. واختير من الإنجيل آيات مناسبة، ومن الحياة وقائع يومية، وتليت الآيات الإنجيلية، تلاها شاب أو فتاة، وترجمت الوقائع صلوات مكتوبة، يجهر بها الجميع، بصوت واحد أو مناوبة. وكان يجمع بين هذه وتلك محور رئيسي يستقطب كل أسبوع التفكير والتأمل والعظة والصلاة.

- **وقائع وآيات:**

كان المحور الأول **الفداء**، شرطاً أساسيا من شروط المعركة، تخوضها الأمة العربية من أجل الحق والحياة. يقابله في الإنجيل قول يسوع: أن "ما من حب أعظم من أن يبذل الإنسان نفسه فداء عن أحبائه". وكان المحور الثاني: **ولادة الإنسان العربي الجديد**، من حيث هو الرجاء الأكبر المرتقب. يقابله في الإنجيل قول يسوع: "إن لم تمت حبة الحنطة بقيت وحدها، وإن هي ماتت أتت بثمر كثير". وأما المحور الثالث فكان **المشاركة**، موقفاً أوحد يتوجب اتخاذه على كل إنسان ينشد الحق، ولا سيما الإنسان العربي. يقابله في الإنجيل حدث الصلب....

وهكذا كل أسبوع... من محور حضور يسوع في الإنسان، وسيما الإنسان المعذب والمظلوم، إلى محور انغراس سيف المحبة في قلب المؤمن، قوة انعتاق وإعتاق.. إلى محور **"سهر"** المؤمن حتى النهاية، بالقرب من يسوع في... جبل زيتون اتسع واتسع حتى شمل، بعد القدس وفلسطين، مصر وسورية والأردن ولبنان، وفييتنام وإيرلندا، وكمبوديا والتشيلي وجنوب إفريقيا، بل العالم كله... حيث المسحاء يتجرعون "الكأس" "من أجل الكثيرين...".

وبِتكيّف التأمل والصلاة أسبوعياً، مع الأحداث والإنجيل، كانت الطلبات المألوفة في بدء القداس وقبيل كسر الخبز، تتغير تلقائياً، لتحل محلها طلبات تنبض بنبض الحياة والأمل والقلق في قلوب الناس وبيوتهم، وفي

شوارع المدينة وساحة المعركة، والكل يُختم بتأمل يعقب كسر الخبز، يتلوه شاب أو فتاة، يضيف به إلى رؤية المجموعة وحبها، شحنة من إيمانه وحبه.

وينطلق الجميع بسلام الرب وفرحه...

بذلك صاغ الجامعيون إنجيلاً مذهلاً بنبضه وحضوره، عاشوا بنوره حقيقة الحرب ذبيحة فداء، وواقع الموت مولداً للإنسان المرتقب، الإنسان العربي الجديد.

- **صلوات حية**

من هذه الصلوات، وميض من حضور الرب اليوم، متمثلاً في المقاتل العربي حاملاً صليب سلاحه:

يا رب، ذات مرة رأيت جندياً يتقدم رفاقه، سلاح حديدي على كتفه... فتمثّلتَ لي تتقدم الجموع، وصليبك الخشبي يثقل كاهلك، وأنت صامت.

فلأجل أن يحمل كل منا صليبه بصمت ويتبعك بشجاعة نصلي: **يارب ارحم.**

وسائراً على دروب الفداء:

يا رب، في هذا الأسبوع، كان حضورك شاملاً. لقد التقيتَ الكثيرين منا على درب الفداء.

اجعل يا رب من درب الفداء هذا درب خلاص لنا، خلاص من فرديتنا، وخلاص من عزلتنا: **استجب يا رب.**

يموت ليهب الحياة..

يا رب، لقد أعطيتَ ذاتك من أجل الإنسان.

واليوم لنا إخوة كثيرون يعطون ذواهم من أجل تحرير الإنسان العربي.

نسألك يا رب أن تكون عوناً لهم في الدفاع عن الحق والإنسان: **استجب يا رب.**

ويغمر الوجود بالحب...

يا رب، قبل أسابيع كنا نشك في وجود الحب، نشك في كل إنسان من حولنا.. واليوم بتنا نعيش في فضاء من الحب، الحب الذي أفاضه علينا إخوتنا المقاتلون، فاجعلنا ندرك يا رب، أننا أخذنا كثيراً، وعلينا أن نعطي بالمقابل: **استجب يا رب.**

ويدعو الناس للمشاركة...

يا يسوع، نعود من جديد لنلتقي حول ذبيحتك في وقت تحولت فيه أرضنا إلى مذبح، حيث يرتفع لنا إخوة ليلتقوا معك في ذبيحتك على الصليب.

نسألك يا رب ألا نبقى "متفرجين" على هذه الذبيحة، بل أن نشارك فيها: **استجب يا رب.**

في عطاءٍ به وحده يُقيّمُ الإنسان...

يا يسوع، صليبك مقياس العطاء... عندما نقف أمامه نشعر بصغرنا...

واليوم ازداد عدد الصلبان، وازداد عدد الذين يبذلون أنفسهم من أجلنا...

نسألك يا رب أن تكون هذه الصلبان ناقوساً يدفع كلاً منا إلى العطاء: **استجب يا رب.**

ومن هذه الصلوات أيضاً، دعوة ملحة للولادة الجديدة.

تكون على الصعيد الشخصي:

- انعتاقاً من الذات:

يا رب، بالأمس فقط، ومع بدء المعركة، كنت أهتم بإرضاء أناي فقط. ولكنك جعلتني أدرك أن لا حق لي في التفكير بنفسي في هذا الوقت العصيب. جعلتني أكتشف ذاتي الحقيقة: **لقد ولدت من جديد بين طلقات المدافع وضلوع الجنود والشهداء.** لقد تحررت من أناي، وبتُّ أفكر بالإنسان الذي يخترق جسده الرصاص وهو صامد خلف سلاحه ليحمينا.

فلأجل أن يكتشف كل منا ذاته، ويتحرر من أناه نصلي: **يا رب ارحم.**

- **وتجاوزاً لكل أسباب الهروب:**

يا رب، على جبل الزيتون، كانت أعين التلاميذ ثقيلة... حتى إنهم ناموا... وما أكثر ما كان يثقل أعيننا حتى اليوم: اللامبالاة، الاستهتار، الغضب، الحزن، الخوف، الأنانية، الحقد...

نسألك يا رب أن تساعدنا على تجاوز كل ما يمكن أن يدفعنا للنوم، لنستطيع أن "نسهر" معك ومع جميع الساهرين على حياة البشر وكرامتهم: **استجب يا رب.**

- **وقتلاً للرئاء...**

يا يسوع، كنت ناصعاً في صداقتك، صادقاً في وفائك...

ونحن نُغرق أنفسنا في بحر من العبودية والمذلة، بادعاءات المحبة والصداقة. ونحرق حتى قطرات الماء استغلالية وكذباً وحقداً.

فلأجل أن نتحرر من كذبنا واسغلاليتنا وحقدنا نصلي: **يا رب ارحم.**

– وانفتاح عقل وقلب على الآخرين:

يا يسوع، لقد دام هطول المطر يومين متواصلين. لم يكن لهم مأوى سوى خيمة يحتمون بها... ولكنها لم تحمهم من الأمراض التي فتكت بهم من جراء البرد. ولم يكن لهم دواء! هذه المشاهد يا يسوع تملأ بلادي، وأنا لا أحس بها، لأني في منزلي الحجري الدافئ... فهل في ذلك يا رب إثر للمحبة التي مارستها في حياتك؟ فافتح، يا رب، عيوننا وأذهاننا وقلوبنا، لنرى ونفهم ونعيش المحبة بصدق. آمين.

وتكون على صعيد الجوار القريب:

– اكتشافاً متبادلاً بين غرباء الأمس...

يا رب، صفارات الإنذار جمعتنا في ملجأ واحد. فوجئتُ بوجوه لم أكن أعرفها. عرفت فيها فيما بعد إخوة لي. شعرت ونحن نواجه خطراً واحداً بحاجة كل منا للآخر، وعرفت، يا يسوع، أنك كنت ذلك الطفل المذعور، ذلك العاجز المحتاج إلى من يتكئ عليه. عرفتك في جميع... جيراني!.

فلكي يعرف كل منا الآخر نصلي: **يا رب ارحم**.

– ومصالحة جذرية بعد جفاء...

يا رب، كل صباح كنتُ أرى جنوداً كثيرين في الطريق. لم يكن لهم أي مكان في نفسي. لكنهم الآن يمنحوني حياتهم بدون مقابل. فمن أكون بالنسبة إليهم؟ ومن هم بالنسبة إلي؟ هل كنت تشير إليهم حين كنت تحدثنا عن القريب؟

فلأجل كل من دافع ويدافع عن الإنسان والوطن نصلي: **يا رب ارحم**.

- **وابتهالاً من أجل كل أم يعيش ابنها الفداء...**

أيتها العذراء، ماذا قلت لأعداء ابنك حين أخذوا منك يسوعك؟ لقد آثرت الصمت، لأن يسوع كان طريق الحق والحياة وواهب الحياة لكل الأجيال. فكما أنك تقبلت السيف الذي اخترق قلبك، نطلب إليك أن تساعدي كل أم على تقبّل صليبها، فتعرف أن ابنها مسيح آخر، يُصلب من جديد لفداء الكثيرين...

فلأجل أن تتشبه بك كل أم، نصلي: **يا رب ارحم**.

وتكون على صعيد الجوار الأبعد:

- **إعجاباً بتضحية الآخرين:**

يا رب، أكياس القمح كادت تحترق. لكن إخوتنا أبوا أن نبقى بلا خبز، فتجندوا تحت خطر القصف، ونقلوا هذه الأكياس في ساعات.

نسألك يا رب أن نكون جميعاً وفي جميع الظروف، على هذا المستوى من التضحية: **استجب يا رب**.

- **ودعوة للتشبه بهم:**

يا رب، نكران الذات وحده يحقق المعجزات. فإنزال الذخيرة من السفينة كان في السابق يحتاج لأيام. لكنه تم خلال ساعات معدودة...

نسألك يا رب أن نعيش جميعاً هذا النكران للذات أسوة بإخوتنا: **استجب يا رب**.

– ورغبة في العطاء على مثالهم...

يا يسوع، "سيفك" مؤلم، لأنه سيف محبة وعطاء. فَهِم أبناء القطر بفطرتهم تلك المحبة، فهبوا لضم جهودهم إلى جهود إخوتهم العمال في أحد معامل المعلّبات. ورفعوا بذلك الإنتاج من (٧٠٠٠) علبة إلى (٢٢٠٠٠) علبة في اليوم الواحد!.

نسألك يا رب أن تبارك هذه الجهود كلها، لتدوم علينا نعمة الاستمرار في العطاء: **استجب يا رب.**

– وإرادة انعتاق من الذات في سبيل عطاء أوسع...

يا يسوع، تلميذك بولس قال: إن من تجند لا يرتبك بأمور الحياة ليخدم الذي جنده. ونحن إذ نسمع هذا الكلام، نتذكر إخوة لنا في مكان ما من القطر، توافدوا تحت الخطر ليزيلوا الأتربة المتراكمة بفعل القصف الجوي على مهبط المطار، فأزالوها في ساعات، وكان مثل هذا العمل يستغرق أياماً...

نسألك، يا رب، أن نكون جنوداً لك في عطائنا، ولا نعود نرتبك بأمورنا الذاتية: **استجب يا رب.**

– وتطلعاً صادقاً إلى تحمل المسؤولية.

يا رب، في ساعة النصر، نحن نندفع إلى المقدمة ليكون لنا نصيب من الفخر. أما في الأزمات فإننا نتأفّف وننسحب ونكيل التُّهم لغيرنا... أما أنت يا يسوع فتندفع حين ينهزم التلاميذ، لتكون طليعة تظهر وجه الفداء في الإنسان.

فلكي نشارك بصدق في وجودنا الإنساني، ونشعر بارتباطنا الصميمي بمجتمعنا العربي، فنتحمل مسؤولية كلّ ما يحدث فيه، ونندفع لدعم إيجابياته كلها، وللإسهام في معالجة سلبياته كلها، نصلي: **يا رب ارحم.**

- وانسلاخاً حراً حتى عن الأهل في سبيل الحق والإنسان...

يا رب، أنت هو القائل: "من أحب أباً أو أماً أكثر مني فلا يستحقني"...

كثيرون، يا رب، فهموا هذه الكلمات على حقيقتها، فلم يعد غريباً أن نشاهد شبّاناً يتطوعون بملء حريتهم، ومنهم أحد إخوتنا في أسرة الرعية الجامعية، للاشتراك في معركة الدفاع عن الوطن والحق، تاركين وراءهم آباءهم وأمهاتهم.

نسألك، يا رب، أن نفهم جميعاً كلمتك، كلمة الحق وأن نعمل بها: **استجب يا رب.**

- وسؤالاً إلى الرب للتشبه الأمثل به...

يا رب، هل حقاً لك دور في حياتنا، أم ترانا نكتفي بالكلمات الرنانة؟

ما أحوج عالمنا اليوم إلى أناس ثابتين يشهدون لك يا يسوع. إنه الكاهن، ذلك الإنسان الذي، إذ يذكرنا دوماً بك، يُنبّهنا إلى أن هناك من يترك العالم ليحمل صليبك ويكوي نفسه بنار المحبة والعطاء، كي يبذلها للناس بجرأة وصدق.

فلأجل أن تحيا يا يسوع في كل منا، فيكون كاهناً، مهما كان الثوب، نصلي: يا رب ارحم.

<u>وتكون على صعيد الوطن العربي والعالم:</u>

- **ابتهاجاً بالتضامن بين فقراء العالم:**

يا رب، أراك متجسداً في أُمّتي، وقد قلت: "متى اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي أكون بينهم". ومن لا يريد أن يكون مع الرب؟.. مغاوير من المغرب، مدرعات من العراق، لواء من الأردن، مساعدات طبيّة من لبنان وكوبا وباكستان وبنكلادش، شحنات الشاي والبطاطا من دول أكثر فقراً وحاجة منا.. أرى في كل هؤلاء يا رب، وجوه من زاروك في مذودك، وقدموا لك ما تملك أيديهم.

فمن أجل هؤلاء جميعاً نصلي: **يا رب ارحم.**

- **وتضامناً مع الأحرار في العالم...**

يا رب، لقد قلت لتلاميذك "اسهروا وصلوا معي". لكنهم ناموا وتركوك تواجه مصيرك وحيداً. ونحن اليوم، يا رب، إذ نحدّق في العالم من حولنا، نرى أن جبل الزيتون قد اتّسع كثيراً.. إنه العالم بأسره، إنه العالم الثالث المتخلف، إنه عالمنا العربي.. ومسحاؤنا فيه اليوم كثيرون... فما أكثر المعذبين والجرحى والمضطهدين والجياع والمرضى والسجناء والفقراء والمناضلين ... لكننا نحن تلاميذك، يا رب، غفونا... فلأجل أن نسهر مع جميع مسحائنا على جبال زيتوننا، نصلي: **يا رب ارحم.**

- **ودعوة لإزالة التفاوت في العالم...**

يا محب البشر، كان عدد الجائعين في العالم سنة ١٩٣٨ يمثل ثلث البشرية. أما اليوم فأصبح يساوي الثلثين. والتفاوت آخذ في التزايد بين الشعوب الفقيرة والدول الغنية... نسألك، يا رب، أن تسيّر خطى

المسؤولين في العالم ليجنبوه كوارث المجاعات والأمراض والحرمان والحقد القتّال والظلم الأعمى... **استجب يا رب.**

- ودعاء من أجل إعلاء الإنسان واحترامه...

يا رب، (٥٥٠) مليوناً من البشر يمكن إنقاذهم من الملاريا، بتخصيص مبلغ لا يتجاوز (١٥٠) مليون ليرة سورية. ولكن هذا المبلغ، يا رب، "غير متوفر"... برغم كل أموال الدنيا، مع أنه لا يساوي إلا جزءاً واحداً من ثلاثة آلاف جزء في ميزانية تسلح إحدى الدول الكبرى...

فعلّمنا، يا رب، وعلّم قادة العالم أن الإنسان هو أغلى ما في هذا الوجود، الإنسان الذي أحببتَ وصادقت ومن أجله متّ: **استجب يا رب.**

- وابتهالاً من أجل القادة العرب وقادة العالم كله.

يا رب، نسألك من أجل قادتنا وقادة الأقطار العربية، وقادة العالم أجمع... نسألك أن تكون النبراس الذي يضيء أذهانهم وخططهم، ليعرفوا:

أين الحق، وكيف يُعدَل به.

وأين الحرية، وكيف تؤخذ،

وأين السلام، وكيف يستتب،

وأين الإنسان، وكيف يقيّم: **استجب يا رب.**

- وسؤالاً من أجل عودة الضمير إلى العالم.

يا رب، بعض الشعوب الغنية تشكو اليوم من البرد، وتثور ثائرتها على الملايين من البشر، كانت هي بالأمس قد حكمت عليهم بكل برود وراحة بال، بالتشرد والضياع، والتلف فقراً وذلاً وحقداً.

نسألك، يا رب، أن تعيد إلى العالم ضميره الضائع، وأن تغمر قلوب الجميع بدفء الوعي الصادق، والحقّ المستعاد والكرامة المصونة: **استجب يا رب.**

تجربة روحية بعيدة الأثر

تلك بعض صفحات للإنجيل جديدة، كتبتها أسرة الرعية الجامعية بدمشق، وسجّلتها تجربة روحية لا يدرك بعدها وعمقها إلا من عاشها معها، تألقاً حول يسوع، واستنطاقاً صادقاً للأحداث، وشركة صلاة حول مائدتي الكلمة والخبز.

وهكذا كانت منذ حرب تشرين، وما زالت، تحيا القداس وتُحييه، مع جماعة من المؤمنين، جاؤوا من أحياء مختلفة، ومن مستويات فكرية واجتماعية متفاوتة.

ولقد كانت هذه التجربة ولا شك إحدى النتائج... المغمورة جداً لحرب بدّلت الكثير الكثير من المفاهيم والموازين في العالم...

ولكنها، في دنيا الروح، نتيجة لا يستهان بها، لأنها، في ما يبدو، لم تكن ضئيلة الأثر على شباب متعلم ومثقف، وجد أخيراً، بعد تمزق وضياع، الطريق إلى ذاته في نار الحرب، ونور المسيح.

وبعد، أَولَسنا جميعاً على هذا الطريق؟

دمشق ١٩٧٣/١٢/٨

يقينان وسؤالان[1]

إخوتي في الأرض والمصير،

في كل لقاء نقف إجلالاً للشهداء... هذا المساء أود أن نقف إجلالاً أيضاً للسجناء في الأرض المحتلة...

يوم طلب إلي أن أتحدث إلى إخواني العرب من فلسطين وسواهم، شعرت بحيرة كبيرة. ماذا عساني أقول في هذه الفترة الدقيقة جداً، وفي مشكلة يحار فيها الكبار والصغار؟ لم أشأ لحديثي أن يكون سياسياً صرفاً. لم أشأ له أن يكون فلسفياً صرفاً. و لم أشأ له أن يكون دينياً صرفاً. حاولت وسأحاول الآن أن أشير إلى بعض النقاط الرئيسية، أو التي أعتبرها أساسية، وإني لأستهدف من الإشارة إليها عملاً مجدياً. فالكلام أتخمنا. وكنت دائماً أطمح في عمل مجد، وفي نطاق محدد سوف أشير إليه أثناء حديثي.

من هنا كان العنوان "يقينان وسؤالان":

---

(١)- محاضرة ألقيتها، في نطاق الموسم الثقافي الثالث لجيش التحرير الفلسطيني، في مركز "حلوة زيدان" في "مخيم فلسطين" بجوار دمشق، في شهر حزيران من عام ١٩٧٨.

قد يبدو من باب المفارقة أن أتحدث عن يقين أو عن يقينين في موضوع يبدو اليوم وكأنه أرض من رمال متحركة.

هل من يقين اليوم بشأن القضية الكبرى، قضية فلسطين، ومن خلالها قضية الصراع العربي الإسرائيلي؟ هل من يقين، وهل هناك يقينان بدلاً من يقين واحد؟

وبعد اليقينين، أجدني أقودكم إلى سؤالين، أود لهما أن يقودانا جميعا إلى موقف عملي، وإلى إجراء مجد حاولت من سنوات أن أحث عليه، سواء في اللقاءات الشخصية، أو في بعض المقالات التي كتبتها، لا سيما عندما تحدثت عن صديقي وأخي المطران هيلاريون كبوجي في "صوت فلسطين".

منطلقي بالنسبة للفقرة الأولى، تلك التي تتعلق باليقينين، أو بما أسميه أنا اليقينين، منطلقي منطلق مواطن عربي.

ويأتي، بنتيجة حتمية، منطلق آخر أبدأ به الفقرة الثانية التي أسميتها "سؤالان"، هو منطلقي ككاهن عربي.

فأنا كاهن، وأنا مواطن عربي، وأريد أن أحيا كهنوتي من خلال عروبتي. وعروبتي، اليوم تواجه أوج صراعها مع العدو الصهيوني. ولي بالتالي موقف واضح لابد لي من أن أعبر عنه، أو بالأحرى لا بد لي من أن أواصل التعبير عنه.

اليقين الأول:

هو طبيعة الصهيونية بالذات. طبيعة الصهيونية طبيعة سرطانية، نعرفها كلنا. قرأنا عنها كلنا، ونلمس نتائجها كل يوم كلنا. طبيعة الصراع بين الصهيونية والأمة العربية، طبيعة صراع إنسان حي مع سرطان دخيل. موقفي اليوم عام ١٩٧٨، هو بالتمام موقف كاتب عربي من القدس، هو نجيب عازوري. فقد كتب، منذ عام ١٩٠٥، في كتاب نشره بالفرنسية في باريس بعنوان (يقظة الأمة العربية)، كتب منذ ذلك الحين يقول بالحرف الواحد: "**تبرز في هذه الآونة الأخيرة ظاهرتان خطيرتان متناقضتان، هما يقظة الأمة العربية، وسعي اليهود الخفي لإعادة ملك إسرائيل القديم على نطاق واسع. إنه مكتوب لهاتين الحركتين أن تتصارعا باستمرار، حتى تتغلب الواحدة على الأخرى. وعلى نتيجة هذا الصراع النهائية، يتوقف مصير العالم**". لكأني أسمع نبياً يخاطبنا من سحيق الأزمان. "ظاهرتان خطيرتان، متناقضتان، تتصارعان باستمرار، حتى تتغلب الواحدة على الأخرى. وعلى نتيجة هذا الصراع النهائية، يتوقف مصير العالم". ما قاله نجيب عازوري، يجد صدى له واضحاً، في ما كتبه ويكتبه الصهاينة، وعلى رأسهم بن غوريون. في آخر كتاب صدر للصحفي محمد حسنين هيكل، نقرأ على الغلاف بالذات، على غلاف

الصفحة الأولى بالذات، هذه العبارة لبن غوريون: "لا حل، الأرض واحدة، وطالبها اثنان".

هذا الموقف – الصراع، لمسنا نتائجه منذ عشرات السنين، ونلمسها اليوم أيضاً. فالتاريخ أثبت صحة ما قاله نجيب عازوري. وموقف الكيان الصهيوني يثبت يوماً بعد يوم صحة ما قاله هذا المفكر العربي. ويثبت أيضاً، يوماً بعد يوم، صحة ما جاء على لسان وقلم مؤسسي الكيان الصهيوني، وعلى رأسهم هرتسل وبن غوريون.

السؤال المطروح الآن بإزاء هذا اليقين: هل يمكن لهذا الصراع أن ينتهي؟ وبعبارة أوضح: هل يمكن لإنسان أن يتعايش مع سرطان؟ حتماً، الجواب كلا.

اليوم نفاجأ، ومنذ فترات، بما يسمى الحل السلمي العادل. المؤسسات الدولية أقرت ما يمكن أن يكون الحد الأدنى، مما يمكن أن يشكل حلاً للقضية الفلسطينية، أو لقضية الصراع العربي الإسرائيلي. ويبدو أن هناك ما يشبه الإجماع حول الموافقة على هذا الحد الأدنى. هل يمكننا أن نتصور أن هذا الحد الأدنى يشكل بالفعل حلاً عادلاً ودائماً لهذه المشكلة؟ أنا شخصياً، أقولها بكل بساطة وصراحة: لا أتصور، أقولها كإنسان عادي، ليس له أي صفة سياسية. أقولها من منظاري الخاص. أقولها من استنتاجاتي الشخصية، من تحليلي للأمور، من قراءتي للأحداث، من محاولتي تقصي حقيقة طبيعة الصهيونية، وأجدني مضطراً لأن أقول:

أتمنى لو يكون هناك حل عادل وشامل، يضمن الحد الأدنى مما يمكـــن أن يكون الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني. ولكني شخصـــياً لا أتصـــور ذلك، أي إني لا أتصور إمكانية تعايش مع الكيان الصهيوني.

وفي الطرف الأقصى، ما قام به الرئيس السادات، تلك التي أسميـــت "بالمبادرة"، والتي يعول عليها البعض، ليس فقط في حل للقضية، بـــل في إمكانية إنشاء علاقات طبيعية مع إسرائيل.

هذا الحد الأقصى، أجدني بإزائه أكثر حيرة مـــن صـــديق أنـــور السادات بالأمس، محمد حسنين هيكل. عبر كتابه كله (حديث المبادرة)، وهو آخر ما كتبه، لا يني محمد حسنين هيكل يردد: "أنا حائر"، حائر إزاء هذه المبادرة، لا أفهمها. لا أفهم دوافعها ولا أعرف أبعادها، أنا حائر.

وأنا كمواطن عربي حائر، لا يمكنني أن أتصور إمكانيـــة تعـــايش طبيعي مع سرطان اسمه الكيان الصهيوني.

قد يكون هناك حل مؤقت. ولكنه سوف يُسخَّر لصـــالح التوســـع الصهيوني. وقد جاء هذا في كتاب صدر عام ١٩٧٤ في بريطانيا بعنـــوان "Confrontation" أي "المجابهة". وترجم هذا الكتاب فوراً إلى الفرنســـية تحت عنوان "حرب الغفران الحقيقية". وقد أرسل لي أحد أصدقائي مـــن الكهنة الفرنسيين نسخة منه. في آخر فصل منه، وهو بعنوان "احتمـــالات المستقبل"، يستعرض الكاتب –وهو مدير مركز أبحاث التاريخ الحـــديث

بلندن، واسمه والتير لاكور، وهو معروف على أنه يهودي وصهيوني- هذه الاحتمالات، ويقول إنه أمام إسرائيل احتمالان:

الاحتمال الأول:

وهو يأتي في منطق الكتاب بكامله، حرب خامسة تشنها على العرب، وتسحقهم فيها لتفرض عليهم ما تريد. والكتاب كله موجه للقارئ الغربي، لكي يقتنع بأنه لا بد من حرب خامسة. وأن الحرب الخامسة ضرورية لإنقاذ العالم من العرب، ولإنقاذ الحضارة الغربية من العرب.

هذا احتمال...

أما الاحتمال الثاني:

فهو أن تكسر إسرائيل طوق العزلة السياسية وتدخل في حوار مع مصر بالذات، على أمل أن تنشئ مع مصر بالذات يوماً ما، لا حواراً وحسب، وإنما أيضاً تحالفاً، وقد جاء بالحرف الواحد قوله: "تحالف ضد إحدى الدول العربية أو بعضها".

وقد كتب هذا عام ١٩٧٤. إذن أقول: هل يمكن أن نتعايش مع السرطان الصهيوني؟ أنا شخصياً، كمواطن عربي ليس لي أية صفة سياسية، أقول: لا أتصور. وكل ما يمكن أن يكون هناك، هو مجرد ألعوبة، مناورة تدمر العالم العربي قسماً بعد قسم، لكي تفرض سلطة الصهيونية على

المنطقة كلها، ولكي تقوم إسرائيل بالدور المرسوم لها، أو الــذي رسمتــه لنفسها.

هذا يقيني الأول.

يقيني الثاني:

نسمع دائماً من يقول، وكلنا يقول: سنحرر فلسطين، وهذا مطلب مشروع. إنما اسمحوا لي أن أقول: إن لم نحرر أنفسنا من أنفســنا، فلــن نستطيع يوماً أن نحرر فلسطين.

بل اسمحوا لي أن أقول: إن لم تحررنا فلسطين، فلن نحرر يوماً أنفسنا من أنفسنا أيضاً.

فلسطين تبدو في الأفق هدفاً، في نظري فلسطين هي البداية.

تبدو في الأفق فلسطين مجرد غاية. فلسطين في نظري محــرك، إن لم تكن هي المحرك والكاشف والدافع، فلسطين ستبقى غاية لــن نطالَهــا إلى الأبد. المشكلة ليست مشكلة أرض. المشكلة مشكلة إنســان. وإنســاننا العربي يبحث عن هويته. وإن لم يكتشفها من خــلال معاناتــه للقضــية الفلسطينية بالذات، أخشى أن لا يكتشفها يوماً.

إنساننا العربي، بالإضافة إلى بحثه عن هويته، مرهق، مرهق بأثقــال تاريخية رهيبة. إنساننا العربي مرهق نفسياً، مرهق ثقافياً، مرهق اجتماعياً، مرهق سياسياً، مرهق إقليمياً.

إنساننا العربي لا يكاد يقف على قدميه، إلا القلة القليلة منه، الـــتي ترى المستقبل برؤية حاضرة. التي ترى فلسطين حاضرة أمام عينيها، وتبذل الدم رخيصاً في سبيل ما هو ماثل أمام عينيها، لا في سبيل ما هو خاف في مستقبل بعيد بعيد.

هذا الإنسان الذي لا يكاد يقف على قدميه، وقف في حرب تشرين التحريرية. فوقفنا معه إلى حد ما والحمد لله. وكانت تلك وقفة أعـــادت إلينا شيئاً من الثقة بأنفسنا. حررتنا إلى حد ما. لكننا لا نـــزال مكـــبلين، مكبلين بتاريخ مثقل، ومكبلين بحاضر أيضاً مثقل. مكبلين بحاضر أشخصه بعبارات هي التالية:

هناك التجزئة الإقليمية. الوطن العربي الكبير مجزّأ كأعضاء جســـد واحد مزروع أشلاء.

وهناك التجزئة الطائفة، والتجزئة الطائفية ليست فقط تجزئة تصنيفية بين فئات الناس، ولكنها قابعة في الأعماق، تنشرنا في الأعمـــاق: هاهنـــا المشكلة، بحيث أننا قلما نتعرف على بعضنا البعض كعرب، إلا من خلال عدسة الطائفية. يؤسفني أن أقول هذا. ولكنني آليت على نفسي هذا المساء أن أتحدث بمنتهى البساطة والصراحة، لأنني أحب. أحب إنساني، أحـــب بلدي، أحب فلسطين، ولا يمكنني في الحب أن أكذب.

وهناك التجزئة السياسية. ولكم من تمزقات عانينا منها في الماضي. ولكم من تمزقات جديدة طرأت علينا منذ سنوات ولا تزال تتكرر يومـــاً

بعد يوم. التجزئة السياسية تواجهنا في كل قضايانا، تواجهنا في كل مجموعاتنا، وها هنا أيضاً المشكلة، حتى أننا بتنا نقول في مزاح مرير: اتفق العرب على أن لا يتفقوا.

وهناك التجزئة العقائدية أيضاً. ضمن الحزب الواحد انقسامات، ضمن الفئة الواحدة انقسامات، وانقسامات تولد انقسامات أخرى.

التجزئة العقائدية الكبرى التي كنا نعاني منها، انفصال سورية عن العراق والعراق عن سورية. نشكر الرب أننا خرجنا منها. أرجو أن نكون خرجنا منها نهائياً. أرجو أن نكون خرجنا منها نهائياً.

وهناك التجزئة النضالية أيضاً. كلنا متفقون على مواجهة عدو واحد، ولكن كيف نواجهه؟ كيف نواجه هذا العدو بنضال مشترك؟ هل حقاً نضالنا مشترك؟ ما طرأ منذ سنوات لا يؤكّد، بل ينفي أن هناك حقاً نضالاً مشتركاً.

وغالباً ما تحول الأخ إلى عدو، وكثيراً ما غاب العدو في الأفق، ووقف متفرجاً من علُ يبتهج ويحرض ويواصل التفرج حتى لا ننتهي من خلافاتنا واقتتالاتنا. وأشير بصورة خاصة، بما أنني بين أخوة فلسطينيين، إلى الانقسامات القائمة داخل صفوف المقاومة. يؤلمني أنا كعربي، عندما أعرف أن فيتنام استطاعت أن توحد صفوفها وراء زعيم واحد، وأنها، على قلة عددها وعلى فقر إمكانياتها، استطاعت أن تركّع أكبر دولة عسكرية

واستعمارية في العالم. ونحن نتفنن في اختلاق زعامات، وفي اختلاق جماعات تتناحر، والعدو واقف يتفرج.

أرجو ألا يحرج أحد بما أقول.

وهناك التجزئة القومية التي نراها اليوم خطراً يتهددنا، وخطراً أرجو أن لا نقلل من شأنه. كلنا يعرف أن العالم العربي لم يأخذ بجدية كاملة مفهوم القومية العربية إلا منذ سنوات قليلة، وأن مصر بالذات، وهي تشكل الثقل الأكبر في العالم العربي، كانت، إلى سنوات خلت، تنادي بالفرعونية، ولا تنادي بالقومية العربية. كان هنالك قلة من المثقفين يجرؤون على التلفظ بكلمة قومية عربية، إلى أن جاء الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وأدخل في صميم الدستور المصري بنداً يؤكد بأن الشعب المصري جزء من الأمة العربية. ولكننا نلاحظ منذ وفاة جمال عبد الناصر أن الأمور أخذت تتجه باتجاه كان يثير شيئاً من الارتباك، أما اليوم فبدأ يثير كثيراً من الشكوك.

قد يقول بعضكم أو بعض الناس، أيمكن لفرد، هو الرئيس أنور السادات، أن يغير مجرى أمة بكاملها لسنوات قادمة، أو للمستقبل كله؟ بالتأكيد سؤال كهذا يفترض جواباً نافياً: لا يستطيع فرد أن يوجه أمة بكاملها توجهاً معاكساً لتوجه أصيل فيها. إنما السؤال المطروح هو هذا: هل حقاً لدى الجماهير المصرية، ولا سيما لدى المثقفين المصريين، الاقتناع العميق بأنهم جزء لا يتجزأ من الأمة العربية؟ أشك في ذلك. من هنا

خطورة الخطوة التي يقوم بها الرئيس أنور السادات، وما قد يترتب عليها من استغلال رهيب وذكي من قبل الكيان الصهيوني، وما قد ينجم عنها من حيث علاقات الشعب المصري بسائر العالم العربي. أنا شخصياً، كعربي، أخشى أن يكون لمبادرة الرئيس أنور السادات نتائج سوداء على علاقة الشعب المصري بالشعب العربي. في كافة أرجاء الوطن العربي، ويبقى أملي بأن يقوم هناك من يقول "لا"، بشتى الوسائل، لكي يعيد الأمور إلى نصابها.

المشكلة، كما قلت، ليست مشكلة أرض، بل هي مشكلة إنسان، هذا الإنسان الممزق المبعثر إلخ...

ويبقى أن الهدف الرئيسي هو إسرائيل والصهيونية. ماذا نفعل؟

كلنا يعرف ماذا يجب أن نفعل. ولكن المشكلة أننا، إلى اليوم، لم نستطع أن ننفذ ما نعرف. كلنا يقول إنه يجب أن نضع على الرف خلافاتنا، أية كانت، ونتوجه كلنا ضد العدو الصهيوني، ونسخر ضده جميع طاقاتنا. وإلى اليوم للأسف، لم نستطع أن نترجم هذا الاقتناع إلى عمل واقعي حازم. لماذا؟ أترك للخبراء في مختلف الشؤون العلمية والسياسية والإنسانية والاقتصادية إلخ... أن يقرروا أسباب عجزنا عن وضع خلافاتنا على الرف، وجمع طاقاتنا كلها، والتوجه إنساناً واحداً نحو عدونا المشترك.

من هنا أقول إن الخطوة الأخيرة التي فوجئنا بها، والتي نجم عنها ميثاق العمل المشترك بين العراق وسورية، والتي مهدت لعقد مؤتمر القمة العربي في بغداد، أقول إن هذه الخطوة قد تبشر بتفاؤل كبير، أو قد تسمح بتفاؤل كبير بالنسبة إلى المستقبل. دون أن نغفل قيمة الخطر الذي يتهددنا، من جراء انسلاخ مصر على يد الرئيس السادات، عن الوطن العربي.

بالطبع هناك اعتبارات نسمعها كثيراً. كثيرون يقولون: الأمة العربية مكتوب لها حتماً أن تنتصر يوماً على إسرائيل. أنا لا أؤمن بالمكتوب. أنا أؤمن بالفعل الإنساني. أعرف أن الله موجود، وأنا كاهن، أي إن مبرر وجودي هو إيماني بالله في خدمة الإنسان. ولكنني أعرف أن الله سخرني كإنسان على هذا الوجود. لي فعل أقوم به. فعندما يقال أمامي: مكتوب لأمتي العربية أن تنتصر يوماً ما على إسرائيل، أرد بأن هذا الحكم من باب الغيبيات. أتمنى ذلك ولكنني، من منطق علمي، أقول هذا من باب الغيبيات.

هناك من يقول إن في العالم العربي عمقاً جغرافياً تعجز إسرائيل عن احتلاله. وهناك من يقول إن في العالم العربي تسارعاً تقنياً لا بد أن يلحق بالتقدم التقني في إسرائيل. وهناك من يقول إن الأموال العربية كفيلة بأن توفر القدرة لمواجهة إسرائيل مهما استشرى بطشها، ومهما طال أمد وجودها.

هذه اعتبارات من داخل العالم العربي.

وهناك أيضاً اعتبارات أخرى تتعلق بالعالم غير العربي، يستوقفني منها اعتباران فقط.

هناك من يقول: والرأي العام العالمي، ماذا تصنع به؟ ثم هناك وحدة حركة التحرر العالمية، ماذا تصنع بها؟ أيضاً أجيب ضمن حدود معلوماتي وتصوراتي... وأتمنى أن أكون مخطئاً بالنسبة للاعتبارات المتعلقة بالعالم العربي، من عمق جغرافي وكثافة سكانية وتسارع تقني وتوفر أموال، أقول أولاً، إن منطق الواقع ولغة الواقع اللذين نعيشهما منذ سنوات وإلى اليوم، لا يسمحان لي بأن أعتمد على هذه الاعتبارات مستقبلاً، فالماضي لا يشكل ضامناً للمستقبل.

ثانياً: إن لغة التاريخ تحدثني عن أمم صغيرة جداً، فرضت وجودها على أمم كبيرة جداً، واحتلت أراض شاسعة جداً، كانت تعود لهذه الأمم، بعد أن أبادتها أو كادت.. لثماني سنوات خلت، كنت أمين سر للبطريرك مكسيموس الحكيم، فاصطحبني معه في جولة إلى أمريكا الجنوبية والشمالية حيث قضينا ثلاثة أشهر، منها شهران في البرازيل والأرجنتين وفيترويلا. وعندما زرت البرازيل كانت فلسطين والوطن العربي ماثلين في كل لحظة أمام عيني كالكابوس. أقولها بمنتهي الصدق، كالكابوس. حيثما أذهب، كنت أسمع أولاً اللغة البرتغالية، وأرى بصمات الحضارة البرتغالية قائمة إلى اليوم، وأرى ما تبقى من السكان الأصليين قابعين في مناطق حول المدن الكبرى، أربأ بالحيوانات أن تسكنها. حتى أني طلبت مرة من صديق مغترب بأن يرافقني في جولة في أحد هذه الأحياء، فقال لي: "لا أنصحك

بذلك، ولا أجرؤ على الذهاب معك إلى هذه الأحياء". صدقوني كانت فلسطين والوطن العرب ماثلين أمام عيني. كنت أقول لنفسي، تُرى، ما جرى لسكان البرازيل الأصليين، ولسكان الأرجنتين الأصليين، ألا يمكن أن يجري لنا نحن العرب؟ هل هذا مستحيل؟ وما كنت أجرؤ على أن أقول نعم إن هذا مستحيل. ومنذ أشهر صدر عن وزارة الثقافة في القطر العربي السوري كتاب بعنوان "هل العالم الثالث في طريق مسدودة؟"، وهو لكاتب غربي، وقد جاء في الصفحات الأولى منه:

"إن الصدمة التي نشأت، في أمريكا، نتيجة التأثير المترافق للمجازر والأمراض الوافدة من أوروبا، وفقدان الأراضي المستولى عليها لصالح الأوروبيين، قد تسببت في زوال، لا الحضارات السابقة لكولومبس وحسب، بل أيضاً السكان الذين بنوها. وبحسب الأبحاث الحديثة نسبياً التي قامت بها مدرسة "بيركلي"، فإن سكان أمريكا الوسطى والجنوبية، وقد كانوا يعدون ما بين (٨٠) و (١٠٠) مليون حوالي عام ١٥٠٠، أضحوا (١٠) ملايين فقط حوالي عام ١٦٥٠. وفي وسط المكسيك كان الهبوط أكثر حدة: إذ انتقل السكان من (٢٥) مليون عام ١٥٠٠ إلى مليون واحد عام ١٦٠٥".

لم يرحلوا، أبيدوا. قد أُتهم بالإغراق بالتشاؤم. وقد يقول بعضهم: لا تستطيع إسرائيل، فيما لو استمرت في بطشها، أن تبيدنا. ولكنها بالتأكيد ستهجّرنا. وما حدث لأهلنا في فلسطين، قد يحدث أيضاً في وقت آخر خارج حدود فلسطين، تماماً كما حدث في مرتفعات الجولان وفي سيناء.

إذن لي حيال هذه الاعتبارات، تحفظات مستمدة مما يتوفر اليوم للكيان الصهيوني من إمكانيات علمية وتقنية ومالية، وعسكرية، وفي المقابل، مما يتوفر لنا من شتى مظاهر التجزئة، ومما نعاني من هجرة في الأدمغة، ومن سوء استثمار للأموال العربية الطائلة.

هل ما يحدث اليوم، وما حدث بالأمس، على صعيد هذه الاعتبارات، اعتبارات العمق الجغرافي والكثافة السكانية والتطور التقني وتوفر الأموال يبرر تفاؤلاً أكبر للمستقبل؟ أتمنى ذلك. إنما اسمحوا لي أن أبدي شكوكي.

وعلى صعيد الاعتبارين اللذين أشرت إليهما، وهما الرأي العام العالمي ووحدة حركة التحرر العالمية، أقول: الرأي العام العالمي لا يدين إلا للقوة. الرأي العام العالمي يحترم القوي ويحتقر الضعيف. قبل حرب تشرين كان يحتقرنا. بعد حرب تشرين بأيام قليلة أتيح لي أن أسافر إلى فرنسا، وأن أنزل بالدير نفسه الذي تعودت النزول فيه منذ عام ١٩٥٥. ولمست لمس اليد منذ اللقاء الأول مع الكهنة المقيمين فيه كم تغيرت الأمور. كنت فيما مضى ألمس لديهم احتقاراً لا لي، ولكن لمن أمثل، لأمتي. وليلتها لمست لا احتراماً وحسب، بل إعجاباً أيضاً. وقد قضيت فيما بينهم ثلاثة أسابيع كانت من أجمل أيام حياتي، لأني قضيتها في جو من الحوار الهادئ، الذي كان يكتنفه احترام، بخلاف ما كان يحدث لي في الماضي. فالرأي العام العالمي، بالرغم من كل إمكانية استثارته، لا يدين، في نتيجة الأمر، إلا للقوة. وهو يحترم القوي. ونحن اليوم نبدو له ضعفاء. استرددنا بعض

القوة في نظره، إثر حرب تشرين. ولكن أخشى، إن استمر خروج السادات ومصر من نطاق العالم العربي، أخشى أن تعاد المأساة، ونكتشف من جديد أننا ضعفاء، وأن العالم بات يحتقرنا من جديد. هذا فيما يتعلق بالرأي العام العالمي، وسأعود إلى هذه النقطة في الفقرة التالية من حديثي.

أما فيما يتعلق بالاعتبار الآخر، وهو وحدة حركة التحرر العالمية، اسمحوا لي أن أقول إن لغة المصلحة أيضاً قد تلعب دوراً في هذه الوحدة. وقد تفصم ما جمعته بالأمس. أنا أتساءل منذ أشهر ما الذي حدث لكي تواجه حركة التحرر الأريتيرية اليوم كخصم، من كان بالأمس صديقاً ومعاوناً لها؟ أتساءل... إن وحدة حركة التحرر العالمية أيضاً تخاطبنا بلغة المصلحة. والمصلحة قد تكون اليوم معنا، وقد تنقلب علينا غداً.

إذن يقيني الثاني أوجزه بكلمة:

مصيرنا بيدنا، مستقبلنا بيدنا، فلسطين بيدنا، إن استطعنا أن نحرر أنفسنا، أن نساعد بعضنا البعض على تحرير بعضنا البعض مما يثقلنا كلنا. أتوقف عند هذه النقطة بالنسبة للفقرة الثانية، لكي لا أبدو لكم كاهناً يعظ في الكنيسة ويقول: يجب أن نفعل كذا وكذا.

وأنتقل إلى الفقرة الثانية من حديثي.

قلت بادئ ذي بدء سأنطلق في الفقرة الأولى من موقع المواطن العربي، وفي الفقرة الثانية من موقع الكاهن العربي. أيضاً لا تخافوا: لن أعظ.

في مواجهة السرطان الصهيوني، على كل إنسان، أية كانت مسؤوليته، في الأعلى أم في الأدنى، أن يؤدي دوراً ما. ولا يحق لأي إنسان أن يقول أنا فعلت ما استطعت، ولن أفلح. أترك لغيري المهمة. علينا أن نواصل الدرب. وبدوري سأحاول هذا المساء أن أقول بعض الشيء في هذا المجال.

هناك مساحة حاولت ككاهن عربي أن أتحرك من خلالها، لكي أواصل الحياة والتعايش مع قضيتي. هذه المساحة هي مساحة الإعلام والحوار. وحول هذه المساحة بالذات سأطرح السؤالين التاليين:

١- هل فعلنا كلنا ما بوسعنا، حيال هذا الخطر الماثل والمصيري؟

٢- ماذا عسانا نفعل؟

هل فعلنا كلنا كل ما بوسعنا؟ وماذا عسانا نفعل؟

حول السؤال الأول، إذ أتحدث عن ميدان الإعلام والحوار: لا أنسى بالطبع حوار السلاح. كان قائماً قبل الحرب في الأربعينات. كان قائماً عبر ثورات متكررة على أرض فلسطين بالذات. واستمر حوار السلاح إلى اليوم.

وهناك حوار الدبلوماسية والسياسة مع المراجع الدولية. حوار مضن يبدو أننا قطعنا فيه شوطاً لا بأس به، ولا شك أن المصالح النفطية لعبت فيه دوراً كبيراً. ولكن السياسة مصالح، وعلينا أن نستغل المصالح. ونحمد الله

أننا استطعنا إلى حد ما، أن نطوق إسرائيل في عزلة سياسية كبيرة، وإن كانت استطاعت أن تخترقها في اتجاه أكبر دولة عربية.

وهناك أيضاً حوار المصالح الاقتصادية مع البلدان الأخرى، وقد ساعد الدول العربية على الدخول في صداقات جديدة مع العديد من الدول. وهذا أيضاً مكسب كبير لا يحق لنا أن نغفله.

كما وأن هناك حوار التقارب الإيديولوجي مع بعض البلدان، ولا سيما مع البلدان الشرقية. الحوار الإيديولوجي أيضاً هام جداً. ليس هناك من يغفله أو ينكره. ولكننا نعلم أن المصالح قد تفاجئنا فيه بانقلابات لا نتمناها.

فما الذي ينقص بعد حوار السلاح وحوار الدبلوماسية وحوار الاقتصاد وحوار التقارب الإيديولوجي؟

في رأيي -وأرجو أن أكون مخطئاً- هناك أمران، أعتقد أننا قصرنا فيهما بعض الشيء، إن لم أقل قصرنا فيهما كثيراً: الحوار مع المثقفين في نطاق الكلمة المكتوبة، والحوار مع الكنيسة الغربية. قصرنا في هذين المجالين. وإليكم بعض الأفكار والخواطر بهذا الشأن.

الفراغ العربي في نطاق الكلمة المكتوبة عن قضيتنا، فراغ رهيب، لا يلمسه إلا من يغادر الوطن العربي، ويحاول أن يكتشف ما يكتبه العرب عن قضاياهم. إن قلت لكم إنني لا أكاد أجد ما كتب، منذ الصراع الأول مع إسرائيل أو الصهيونية إلى اليوم، لا أكاد أجد ما يجدر ذكره، صدقوني،

وأقولها بحرقة. فراغ رهيب جعلني، منذ سنتين إذ كنت بباريس يومها، مريضاً أقضي وقتي بمطالعات متواصلة، يحمل لي فيها الشباب العرب كتباً ومجلات، أمني النفس بكتابة مقال بعنوان، "يا مثقفي العالم العربي انتحروا"، "لا" "اتحدوا"، بل انتحروا. كنت أتمنى أن أجد مقالاً بقلم عربي يخاطب المثقفين الغربيين، بلغة علمية، موضوعية، هادئة. ولكني لم أكن لأجد المقال.

في مواجهة هذا الفراغ العربي، هناك غزو ثقافي صهيوني واضح. أذكر يوماً كنت أشاهد فيه فيلماً في باريس، وقد عرض قبله فيلم وثائقي عن الطرود البريدية الملغومة، لم يستغرق عرضه أكثر من عشر دقائق. وإذ بي أفاجأ بصورة واحدة خلال الفيلم، تتحدث أيضاً عن طرود بريدية ملغومة اكتشفت في تل أبيب. صورة عابرة علقوا فيها على وحشية الإنسان العربي، وطوي الموضوع طبعاً. لم أتحدث إلى الحضور في الصالة، ولكني استطعت أن أتصور ما عسى أن يكون رد فعل المشاهد الفرنسي أو الأجنبي الجالس في القاعة. وفي المساء نفسه كنت أشاهد وزملائي الكهنة على شاشة التلفزيون فيلماً عن مصر، عرض في ثلاث حلقات، يبرز الحضارة المصرية القديمة والواقع المصري الراهن. وقد أوضح التلفزيون الفرنسي أن الفيلم تم بالتعاون مع الحكومة المصرية. وكان مخجلاً. فهو لم يبرز في مقابل معالم الحضارة المصرية القديمة الرائعة جداً، سوى الوجوه السلبية من حياة الشعب المصري اليوم من قذارة وغوغائية إلخ.

وكأني بهم يقولون: مصر كانت قديماً، أما اليوم...

هذه المقارنة قامت في ذهني، ولا بد لها من أن تقوم في ذهن المشاهد الغربي.

وإني لألاحظ منذ سنوات أن الغزو الثقافي الصهيوني للمجتمع الغربي، يزداد ضراوة سنة بعد سنة. لا يمكن لإنسان أن يدخل مكتبة فرنسية في باريس، ويقصد الرف الذي يتعلق بالصراع العربي الإسرائيلي، إلا أن يجد صفاً كثيفاً من الكتب التي ألفها بعض مؤسسي الصهيونية، أو بعض رؤسائها اليوم أو بعض مسؤوليها، وكذلك الكثير من المثقفين الغربيين. وعبثاً نبحث عن كتاب واحد، وضعه كاتب عربي واحد. وجدت يوماً كتاباً واحداً بالفرنسية، بقلم كاتب تونسي، وهو يعالج بنية الشخصية العربية فقط. أما ما يتعلق بالصراع العربي الإسرائيلي، فلا شيء.

إذن هناك فراغ رهيب في هذا المجال.

وأصل إلى الحوار مع الكنيسة الغربية. هذا أيضاً لا بد له من أن يقوم. وها هنا فراغ كبير.

عندما أقول الكنيسة الغربية، أعني الكنيسة في أوروبا كلها. وأعني أيضاً الكنيسة في أمريكا الجنوبية والشمالية والوسطى. الكنيسة الغربية ناءت طويلاً باللاسامية. وهي إلى اليوم تعاني من عقدة الذنب حيال اليهود، وهي بالتالي مهيأة نفسياً لقبول الادعاءات الصهيونية والمشروع الصهيوني. بل لنذهب أبعد من ذلك.

نلاحظ منذ سنوات بعض المسؤولين في الكنيسة الغربية، يؤخذون شيئاً فشيئاً بنظرية الصهيونية، بحيث أنهم يكادون يدخلون تعديلاً جذرياً على اللاهوت المسيحي، حتى إن بعضهم لا يتورع عن القول بأن الوعد القديم الذي يقال إنه أعطي للشعب العبراني، يتحقق اليوم في دولة إسرائيل. وإني لأتساءل ككاهن ، مع العديد من الكهنة الغربيين وغير الغربيين، كيف يمكن التوفيق بين اللاهوت المسيحي وهذه النظرية؟ فهناك ما يشبه الهرطقة العقائدية. ولكن المنزلق أمام أعيننا. ونحن لا نخاطب الكنيسة الغربية، لماذا؟ من هنا أنني أحاول، كلما قصدت عاصمة أو مدينة غربية ما، أن أدخل في حوار شخصي مع بعض المسؤولين. وقد طلبت يوماً مقابلة رئيس أساقفة باريس، وكنت قبلها بأشهر قليلة كتبت له رسالة، احتجاجاً على ما جاء في كتاب له حول موقفه من اليهود. فالكتاب مشحون بإشارات المودة والمحبة والتعاطف مع اليهود. ولكن ليس فيه أية إشارة إلى الإنسان العربي ومعاناته. حتى أنه يقول فيه إنه زار القدس عام ١٩٧١، وهناك، من على جبل الزيتون، شاهد، كما يقول بالحرف الواحد، تشرد الشعب اليهودي، ومجازر بيافرا، ومأساة تشيكوسلوفاكيا، واحتلال السوفييت لبراغ، وأخيراً ضحايا الطرقات في العالم... أما الإنسان العربي، أما مئات الألوف من سكان فلسطين الأصليين، أما القابعون في المخيمات فلم يرهم.

كتبت له يومها محتجاً، وبعد عشرة أيام جاءني جوابه، كان جواباً ملطفاً فيه بعض الاعتذار المبطن. ولما قصدت باريس طلبت مقابلته. عرّفت

نفسي هاتفياً على أني كاهن عربي من دمشق، أريد مقابلة رئيس الأساقفة. وعرفت فيما بعد أن رئيس أساقفة باريس لا يطاله إلا القليل من النـــاس. وفوجئ أصدقائي من المثقفين الفرنسيين، عندما علموا أنني قضـــيت معـــه تماماً إثنتي عشرة دقيقة، استطعت خلالها أن أجعله يقول مـــرتين "بـــدل إسرائيل"، فلسطين المحتلة.

ويومها دعوته لزيارة سورية. قلت له: تحكم عن بعد، ولا تعـــرف الحقيقة إلا من زاوية واحدة. باسمي الشخصي، أدعوك لزيارة دمشق. وفي دمشق سأتولى أمر اجتماعك بعدد من المسؤولين السوريين والفلسطينيين. فأبدى بعض التخوف، ثم وافق على أن يأتي بصورة متخفيـــة. وقابلـــت يومها عدداً كبيراً من المثقفين الفرنسيين، والغربيين المقيمين في فرنسا، منهم مؤلف كتاب "الساعة الخامسة والعشرون". وكان لقائي به فرحة نـــادرة لي. دعوته أيضاً لزيارة سورية. وفوجئت بأن هذا المثقف الكـــبير يعـــرف "يقيناً" أن سورية "محتلة" من قبل السوفييت. قلت له: "فيرجيل جيوجيو" واثق من أن السوفييت يحتلون سورية؟ أإلى هذا الحد، بالرغم من حبـــك للعرب، وبالرغم من تبنيك لقضايانا، أنت مخطئ في معلوماتك عن وضعنا الحقيقي؟

اسمحوا لي أن أقرأ لكم فقرة صغيرة من مقابلتي لـــه، لأني يومهـــا سجلت بالحرف الواحد ما دار بيني وبينه. وقد تريحكم هذه القراءة قليلاً. يوم اتصلت به هاتفياً، قالت سكرتيرته: من المتحدث؟ قلت لها كاهن عربي من دمشق. وكان أن حددت لي مكان وزمان المقابلة. فقصـــدت هـــذا

المكان. فإذا بي أمام بناء ضخم فيه قاعة كبيرة، أقيم فيها معرض لكتب المقاتلين القدامى - قاعة كبيرة جداً، فيها عدد كبير من الطاولات، جلس وراء كل طاولة كاتب وأمامه كتبه. يتحدث إليه الناس، يشترون الكتب ويطلبون منه التوقيع عليها. فتجولت في القاعة. وإليكم ما جرى بيني وبينه، كما دونته يومها في مذكراتي:

"بحثت عن مؤلف الساعة الخامسة والعشرين. وجدته كما تصورته: وجه وسيم بعض الشيء، لا بقسماته، بل بشفافيته. ونظرته الحادة التي تخترق الحجب. مررت أمامه دون أن أحييه أولاً، لأراقب بعض حركاته وطريقة تحدثه إلى الناس. الابتسامة لا تفارقه. وفي نبرة صوته تواضع بدا لي لأول وهلة أنه لا يخلو من التصنع.مررت أمامه مرة واثنتين وثلاثاً. لم ينتبه لي. كنت يومها باللباس المدني التام ثم تقدمت إليه من خلفه، ووضعت يدي برفق على كتفه، وهمست في أذنه: صباح الخير أبونا. هو كاهن منذ عام ١٩٦٥. التفت ناحيتي والابتسامة نفسها على شفتيه. قال: صباح الخير يا صديقي. قلت: أنا الكاهن العربي القادم من سورية. فوقف بقامته المديدة وغمرني بيديه، وقال بلهجة اخترقت أعماقي: آه يا أبت، قلبي معكم. قل لي كيف الحال في دمشق؟ كان ذلك بعد حرب تشرين التحريرية مباشرة. كيف الحال في دمشق؟ لم ينتظر الجواب بل أجلسني بالقرب منه، بعد أن سأل إحدى السيدات الجالسات بقربه أن تخلي لي مكانها. لباسه الكهنوتي والصليب على صدره يضفيان عليه مسحة من المهابة والغرابة معاً، في هذا الجو. عاد إلى السؤال نفسه، وكان ممسكاً بيدي بكلتا يديه، يحدق بي كمن يحدق بابن له

ضائع استعاده. لهفته هذه أذهلتني. حدثته عن دمشق بسرعة، وانتقلت إلى تأثري بمؤلفاته، لا سيما بأوسعها شهرة "الساعة الخامسة والعشرون" إلخ...

أخيراً سألته مقابلة شخصية طويلة، فقال: حدد الوقت الذي تشاء، فوقتي لك. فاتفقنا على موعد في اليوم التالي، في التاسعة صباحاً، في منزله..."

اسمحوا لي أن أتلو عليكم فقرتين فقط من هذه المقابلة:

"فتح لي الباب بقامته المديدة ووجهه الصافي وعينيه النافذتين. كان يبتسم. غمرني، ثم أمسك بيدي واقتادني إلى الصالون وهو يقول: أنا سعيد بالاجتماع بك، والتحدث معك عن بلادك.. سألني بلهفة أدهشتني عن القضية الفلسطينية... عن الحرب الأخيرة... عن الوضع في سورية إبان الحرب... عن معارك الجولان. آثرت أن أجيب بإيجاز كبير لأساله عن ذاته وعن مؤلفاته، لأعود بعد ذلك إلى الأسئلة الكبرى التي طرحها، بعد أن أكون أشبعت فضولي، وأشبعت بعض الشيء شيئاً مما قد يكون غروراً لديه. حدثني عن مؤلفاته.. إلخ ثم انقلبنا إلى الحديث عن العالم العربي وعن القضية الفلسطينية. وجهه المشرق غاب، وحل محله وجه كئيب... حتى صوته انخفض قليلاً.. شد على يدي وسألني بلهفة: حدثني عن سورية.. ماذا يجري هناك؟ وكيف كنتم أيام حرب تشرين؟ وكيف تعيشون الآن حرب الجولان وجبل الشيخ؟

"حدثته ببساطة عما جرى.. عن موقف الناس... عن الانقلاب العجيب في نفوس الجميع، حتى بات أحدهم لا يعرف نفسه، والجميع لا يعرفون أنفسهم، وكأني بنا استبدلنا ببشر آخرين. أمحى كل استرخاء، وكل يأس، وكل شماتة.. من الأعماق بزغ إنسان جديد يعيش الكرامة موتاً وحرية عطاء مذهلة. حدثته عن نشاط الشباب أثناء الحرب، في المعامل، في المستشفيات... عدت به إلى جذور القضية كلها.. القضية: قيام إسرائيل بالذات. أعربت له عن الألم الذي يستبد بي إذ أرى اللاهوت والتاريخ يُسخَّران لتزييف الحقيقة المسيحية، وإقامة دولة دخيلة على أنقاض حضارة وشعب بأسرهما، دولة تهدد حتى الشعوب المجاورة بالانقراض، أو أقله بتحويلها إلى قطعان تائهة تحت خيام اللجوء، وسط الحقد والحرمان والغضب... حدثته عن رغبتي في مقابلة بعض المسؤولين الكنسيين وغيرهم في فرنسا. كما حدثته عن زيارتي للكاردينال مارتي رئيس أساقفة باريس. شجعني على متابعة هذه الاتصالات. ولما جئت على ذكر الأب ريكيه، (وهو كاهن يتبنى الصهيونية وكأنها قضية حياته، وقد عرفت فيما بعد أن له جذوراً نفسية تربطه مباشرة باليهود، لأني قابلته مطولاً، واستطاع الصهاينة أن يستغلوا هذه الجذور، ويشبعوها، ثم يحتضنوه ويسخروه للدعاية لهم).

"إذن لما جئت على ذكر الأب ريكيه. قال: "يا له من إنسان مقيت، يبيع إيمانه وضميره لقضية ظالمة. وهو ليس الوحيد الذي يفعل ذلك.."

قلت له إني أوجه الدعوة لكل من ألتقيهم لزيارة البلاد العربية، وبالمناسبة أتمنى لو يزور البلاد العربية وخاصة سورية.

عندها فاجأني بقوله: لا، ليس الآن. لِمَ؟ قال: عندما يرحل الروس عن بلادكم. قلت ولكن الروس لا تأثير لهم على الإطلاق على الحياة العامة والخاصة في البلد. قال أعرف من هم، ولا أريد أن أواجههم من جديد. أكدت له مراراً بأن الروس مجرد فنيين لا أثر لهم على حياتنا، وأننا أحرار مستقلون نعمل بوحي من مصلحتنا القومية. ظل مصراً بلطف على موقفه..

دامت المقابلة ساعة، تواعدنا على التراسل. عند باب بيته، قبّلني وهو يقول ممسكاً يدي بكلتا يديه، بحرارة وبالحرف الواحد: "أنتم على حق. العالم كله يخونكم. ولكن اصمدوا. وليبارككم الرب وليحفظكم".

إذن أعود للقول بأن الفراغ فيما يتعلق بالحوار مع الكنيسة الغربية، فراغ كبير. لا شك أن هناك محاولات قامت، ولكنها لا تزال محدودة جداً. واسمحوا لي أن أعلن بأننا أضعنا فرصة العمر، أو كما أسميتها يوماً في مقال نشر في صوت فلسطين بعنوان "واخجلتاه من الكبوجي"، "فرصة القرن". لم نعرف أن نستغل اعتقال المطران كبوجي. ما إن دخل السجن حتى طبّلنا وزمرنا ودبجنا القصائد. ما إن دخل السجن حتى طالبنا بإطلاق سراحه. ولم نفعل ما كانت فعلت إسرائيل، لو كان اعتقل لها أصغر حاخام في أصغر بلد عربي. لم نقم الدنيا ونقعدها. وكان يجب أن

نفعل. طالبت يومها بتشكيل لجنة كنسية فلسطينية عربية مشتركة، تكلف بالقيام بالاتصال بالمسؤولين في كنائس العالم كلها، لكي تحاورهم، من خلال اعتقال مطران القدس بالذات، حول القضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي. كنت أتمنى أن يحدث هذا. لكن شيئاً من هذا لم يحدث. اكتفينا بالكلمات، لا أكثر ولا أقل. هذا في ما يتعلق بالحوار مع المثقفين في الغرب، ومع الكنيسة الغربية.

إذن، هل فعلنا كل ما كان بوسعنا؟ لا، قطعاً. وتلك إجابتي على هذا السؤال. أنتقل الآن إلى السؤال الثاني:

ماذا عسانا نفعل اليوم في نطاق الحوار مع المثقفين ومع الكنيسة الغربية؟ هناك مؤلفات كثيرة حول الصهيونية، أعتقد أنه لا بد من أن تترجم إلى العربية. من هذه الكتب كتاب لمدرس الكيمياء الحيوية في الجامعة العبرية بالقدس، هو الدكتور إسرائيل شحاق: "عنصرية دولة إسرائيل". الكتاب رهيب. لم يترجم إلى العربية. لماذا؟ يجب أن يطلع عليه كل عربي.. لماذا لم يترجم؟ لست أدري. وإني لأتمنى بالنسبة إلى هذه المؤلفات أن تترجم. كما وأن تنشر باللغات الأوروبية. وترسل من قبل المراجع العربية للمثقفين الغربيين، لكي يقرؤوها قبل أن تختفي من كل الأسواق. سألت أحد الأصدقاء، في إحدى السفارات العربية، حال صدور كتاب إسرائيل شحاق، أن يسارع إلى شراء أكبر عدد من نسخه، ويرسلها إلى البعثات الدبلوماسية الأجنبية. وجاءني الجواب بعد مدة: قمنا بحملة في باريس فلم نستطع إلا اقتناء ٦٠ نسخة. ماذا يفعلون؟ كتاب

كهذا يدين إسرائيل من داخل إسرائيل، يهمل إلى هذا الحد؟ صحيح أن الكاتب لا يزال يهودياً ويقيم في إسرائيل. ولكنه يدين الدولة كدولة عنصرية، يسميها نازية جديدة، يصف بعض المسؤولين فيها بأنهم جلادون ومجرمو حرب وإرهابيون. فَلِمَ لا يجمع أكبر عدد من نسخ هذا الكتاب وغيره من الكتب التي تدين إسرائيل وتكشف جذور القضية، لترسل إلى المثقفين في الغرب، لكي يقرؤوها، قبل أن تجمعها المراجع الصهيونية وتحرقها؟

ثم لِمَ لا توجه دعوات للمثقفين بالذات؟ أعرف أن الدعوات توجه للسياسيين. ولكنني أعتقد أننا قصرنا بعض الشيء، بل لنقل كثيراً، في التوجه إلى المثقفين. لماذا نترك إسرائيل تسبقنا في هذا المجال، تشتريهم بالمال، تشتريهم بالتملق، وبإشباع رغبتهم في الشهرة؟.

وهناك الحاجة إلى دراسات يضعها بلغات أجنبية كتّاب عرب، يعرفون لغة العلم، ويعرفون أن يخاطبوا الإنسان الغربي بموضوعية وهدوء. أذكر يوماً حديثاً دار بيني وبين كاهن فرنسي ضمن مجموعة واسعة. وكان حديثاً هادئاً جداً، ولكنه قاس. وفي اليوم التالي، فاجأني على الفطور بقوله: تعرف، انتابني الأرق طوال الليل. قلت لماذا؟ قال لأني اكتشفت أنك تحدثني عن موضوع مصيري بالنسبة إليك وإلى شعبك، وأنت تتمزق، ولكن بمنتهى الهدوء. ونحن في الغرب، على الرغم من عنفنا، لا نفهم إلا لغة الحوار الهادئ.

وهل ترانا نعجز عن وضع الدراسات العلمية الهادئة والموضوعية، التي تشحن العقول الغربية بعكس ما يشحنها به المثقفون الإسرائيليون؟

وفي نطاق الحوار مع الكنيسة، لكم أتمنى أن ندخل في حوار جماعي جدي مع الكنيسة الغربية، فلا نترك لإسرائيل الأسبقية الدائمة في هذا الميدان الهام، كما لا نترك للمبادرات الفردية أن تقوم بهذه المهمة العسيرة. فالمبادرة الفردية، في واقع عالمنا، عقيمة. قد تغير قليلاً، وقد تغير إنساناً لفترة ما، ولكنها لا تستطيع أن تفعل الفعل الذي يمكن أن تفعله ممارسة دائمة، تقوم بها مراجع مسؤولة وثابتة، تعرف كيف تخاطب، وكيف تلتقي الآخر. وإني لأتمنى أيضاً أن يقوم حوار بين الكنيسة العربية في الشرق والكنيسة في الغرب. ولكن. لا حوار ديني صرف، بل حوار مشترك يسهم فيه كل من الكنيسة العربية والثورة الفلسطينية والحكومات العربية من جهة، والكنيسة الغربية من جهة ثانية. فقد أضعنا فرصة العمر، وكان اعتقال المطران كبوجي. ولكننا لم نُضع كل الفرص. فما زالت أمامنا فرص أخرى، لا بد لنا من أن نبادر ونستغلها.

كما وأني أتمنى أن نقوم بدراسات يكلف بها بعض رجال الدين المسيحيين العرب، الذين يعرفون كيف يخاطبون الغرب والكنيسة الغربية بالذات، بمنطقها، بعلمها، بأسلوبها، لكي نجند كل ما لدينا في سبيل قضية العمر والمصير.

قبل أن ألتقيكم بثوان، كنت في مكتب الأخت سلمى. نتحدث مع سيادة اللواء البديري والأصدقاء الجالسين. فطلب إلي أن أكتب مقالاً في مجلة المقاومة حول وضع العرب المسيحيين في الأرض المحتلة. هذا الطلب يأتي تماماً في خط ما أريد أن أختم به حديثي.

هناك كتاب ليس كمثله كتاب، وضعته مدرسة سابقة في جامعة السوربون بباريس، تدعى الآنسة غواشون، أود لو نبدأ به، حملتنا التثقيفية للغرب، فنعمد إلى توزيعه على أوسع نطاق. وقد صدر منذ سنة ونيف، فخصتني بنسخة منه، وهو بعنوان "القدس، نهاية المدينة الكونية؟". وهو ليس سوى إدانة موثقة وعلمية للكيان الصهيوني، بمخططاته الحالية والمستقبلية. وفيه إشارات عديدة إلى وضع العرب من مسيحيين ومسلمين، والمسيحيين بصورة خاصة، المقيمين في القدس، الذين تعمل إسرائيل، جادة وجاهدة، على ترحيلهم عن المدينة. وإن الكاتبة لتستصرخ الضمير العالمي عامة، والمؤسسات المسيحية بخاصة، حيال ما يحدث وسيحدث هناك.

لا أريد أن أنهي حديثي الطويل هذا بكلمات معسولة.

أريد أن أكون مجدياً. فأتمنى أن يباشر المسؤولون بشراء عدد كبير من نسخ هذا الكتاب، ويعملوا جادين على إرساله إلى العدد الأوسع من المثقفين ورجالات الكنيسة في العالم، لكي يطلعوا بأنفسهم على حقيقة وضع مدينة القدس بالذات، التي ترمز، بنتيجة الأمر، إلى وضع كل إنسان

في هذه المنطقة، كل إنسان عربي يعرف أنه يعيش اليوم ما يمكن أن يكون سنوات تحديد المصير.

إما أن نكون، وإما أن لا نكون.

أتمنى أن نكون كلنا ممن يريدون أن يكونوا، وشكراً.

لقاء برسم بعضهم[1]

منذ أشهر قليلة، في مدينة فايمر، بألمانيا الديمقراطية.

لقاءاتنا حتى ذلك الحين، كانت عادية، رسمية.

لقاؤنا به كان مفاجأة.

انتظرناه في مطعم الفندق. و لم يكن في انتظارنا تشوق كبير.

أطل صديقنا الطالب السوري سامي... من باب المطعم برفقته: قامة طويلة ممشوقة، خطى ثابتة، ولكن لا تصنع فيها.

تقدم نحونا بابتسامة عريضة، في وجه علته حمرة الحيوية. وصافح بيد قوية، وهو يحيينا بقول عربي لا يخلو من لكنة محببة:

"مرحبا".

في عينيه صفاء سماء الشرق.

لم نشعر لحظة، على تحفظنا السابق، بأننا حيال إنسان غريب.

---

(١)- نشر في "صوت فلسطين"، كانون أول/ ديسمبر ١٩٧٩.

عرفنا بعد ذلك أنه أحبنا قبل أن نعرفه ونحبه، لأنه عرف بلادنا معرفة شخصية وأحبها، واطلع على قضايانا وكتب عنها... طوال يومين كــاملين، كان لنا أكثر من ضيف ورفيق: كان صديقاً وأخاً. اسمه: وولفغانغ هيلد.

سألته حديثاً سريعاً، اعتبرناه محطة عابرة في تجوالنا في مدينة غوتــه وشيلر وضواحيها الرائعة...

من أنت؟

كاتب روايات وقصص للأطفال. امتهنت الكتابة دون سواها مـــن الأعمال، وأعيش من قلمي. كتبت أيضاً سيناريوهات للسينما والتلفــزة. وأستمد موضوعاتي مما يسمى بالعالم الثالث وحركات التحرر فيه.

موضوعاتك هذه: تستمدها بصورة مباشرة أم بطريق الوثائق؟

قلما سافرت. ولكني أستمد موضوعاتي من الأصــدقاء والطــلاب القادمين من بلدان العالم الثالث والمقيمين في ألمانيا الديمقراطيــة: إفريقيــا عموماً، جنوب إفريقيا، الجزائر، وبلاد عربية أخرى. الناس هنا لا يعرفون بدقة جميع جوانب الواقع الذي تعيشه هذه البلــدان، أو بــالأحرى هـــم يعرفون كثيراً من هذا الواقع ولكن لا يشعرون به.. مـــن هنـــا كانـــت مسؤولية الكاتب في مدهم بهذا الشعور، عبر الكلمة.

ما هي البلدان التي زرتها؟

سورية، مصر والعراق.. هذه البلدان زرتها في رحلة دراسية طويلة. أحببتها حقاً، وتكشّفت لي عندها قضاياها الحقيقية، فشعرت من يومها بضرورة الكتابة في هذا الاتجاه الإنساني التحرري..

ماذا كتبت إلى الآن؟

عشر روايات وخمسة عشر كتاباً للأطفال.

أهمها؟

كلها غالية علي. وكتبي عموماً تنفد من الأسواق بعد أسبوعين أو ثلاثة من صدورها.. في حين أن بعضها بلغ ثلاثمائة ألف نسخة، مثل رواية "نور الشمعة السوداء".. أهمها؟ بل من أهمها "نور الشمعة السوداء" عام ١٩٧٠، وقد لاقت نجاحاً كبيراً، وأخرجت تلفزيونياً. موضوعها: مقاومة الاحتلال النازي.. ورواية "تأشيرة إلى أوكانتروس" عام ١٩٧٧، وهي تتحدث عن محاولة سيطرة المخابرات الأميركية على بلد أسميته رمزاً -أوكانتروس-، اكتشفت فيه كميات كبيرة من اليورانيوم.. وفي ما يتعلق بكم مباشرة، كنت ألفت رواية للأطفال بعنوان "يجب أن تعيش يا مصطفى"، وهي تتحدث عن ثورة الجزائر ضد الاحتلال الفرنسي، وقد صدرت عام ١٩٦٥.

هل علمت الحكومة الجزائرية بهذه الرواية؟

نعم.

هل دعتك لزيارة الجزائر؟

كلا.

هل ترجم هذا الكتاب إلى العربية؟

إلى العربية؟ بل إلى اليوغوسلافية.

بمن تشبه أسلوبك؟

أنا.. أنا.. ولكن بعض النقاد يرون شبهاً بيني وبين جاك لندن وغراهام غرين..

هل تُرجِمت بعض مؤلفاتك إلى اللغة الغربية؟

ترجمت إلى الفرنسية فقط رواية "نور الشمعة السوداء".

قبل انفتاحك على العالم العربي وزيارتك لبعض أقطاره ، ما كان موقفك من الصراع العربي الإسرائيلي؟

شأني في ذلك شأن معظم الألمان. المسلّم به أن فلسطين أرض إسرائيل منذ القديم، وأن العرب أقلية فيها لا شأن يذكر لها. ولكن العنف الذي أنتجه الفلسطينيون العرب من خطف للطائرات إلى احتلال للسفارات واحتجاز للرهائن، إلى عمليات فدائية داخل "إسرائيل" وخارجها، ولاسيما عملية ميونخ الشهيرة، كل ذلك أرغم الألمان على التساؤل: ماذا يريد هؤلاء

"الإرهابيون"؟ ما بال هذه المجموعة الصغيرة من "الإرهابيين" تفتعل هذه الأحداث وتواجه الموت مراراً وتكراراً دون ملل؟

الحقيقة أن هذه الأعمال الفدائية كانت صرخة عنيفة أيقظتنا، كما أيقظت غيرنا. كانت مؤشراً أرغمنا على التحديق في اتجاه جديد..

وبدوري توجهت اهتماماتي نحو الصراع العربي الإسرائيلي، ولكن بنفسية جديدة. فقرأت الكثير. ولكني شعرت بأن القراءة لا تكفي. فاتصلت بالمسؤولين في اتحاد الكتاب الألمان، وأبديت لهم رغبتي في زيارة البلدان العربية، وبصورة خاصة سورية ومصر والعراق، مستنداً بذلك إلى موقف حكومة ألمانيا الديمقراطية من جهة، وإلى معاهدة التبادل الثقافي المبرمة بين بلدنا وبعض البلدان العربية من جهة ثانية. فكان لي، بعد فترة قصيرة، ما أردت.

والآن بإيجاز؟

الآن: أعرف يقيناً أن فلسطين بلد احتوى غالبية عربية منذ القديم، وأن اليهود دخلوها قديماً كغزاة. وطُردوا منها نهائياً منذ عهد الرومان.. وأعرف أن الفلسطينيين شعب يريد أن يعود إلى أرضه ليعيش فيها بسلام، وليس مجموعة من الإرهابيين الدمويين الذين لا يعيشون إلا للقتل والتدمير، كما دأبت على تصويرهم بعض وسائل الإعلام.. فالجريمة الحقيقية هي ما فعلته وتفعله الصهيونية..

هل من كتّاب ألمان غيرك زاروا بلادنا العربية وتأثروا مثلما حدث لك، أم تراهم ظلوا على مواقفهم المسبقة السابقة؟

أذكر على سبيل المثال، لا الحصر، الكاتب المسرحي "راينر كيرنـــدل" الذي عاد من زيارته للشرق العربي بمسرحية: "جرش ذات يوم في أيلول".

وجميع من عرفت ممن زاروكم عادوا مؤيدين لكم. والحقيقة أنه يجب أن يكون الإنسان أعمى وفاقداً لكل إحساس وتفكير، كي يظل على رفضه لعدالـــة قضيتكم. وإني لذاهب إلى أبعد من ذلك: أنا واثق من أن يهوداً كثيرين، لو تسنى لهم أن يزوروا المخيمات ويطلعوا على هذا الصراع عـــبر لقـــاءات وكتابـــات موضوعية، لكانوا غيروا الكثير من مواقفهم.

ككاتب: هل ترجمت قناعاتك الجديدة إلى رواية جديدة؟

السؤال يفرحني: نعم. وأنا على وشك وضع اللمســـات الأخـــيرة لرواية تتناول القضية الفلسطينية.

عنوانها؟

لم أضعه بعد.

هل لنا بفكرة موجزة عنها؟

إنسان دانماركي يعيش وحيداً بعد أن فقد زوجتـــه، فيمـــا ابنتـــه الوحيدة تعمل مضيفة طيران. هذه المضيفة تمضي عطلـــة لهـــا في نهاريـــا بفلسطين المحتلة. وتقوم ليلاً بنزهة في باص المدينة. فينفجر لغم تحت الباص وتقتل الفتاة. فيقرر الوالد الانتقام لها من الفدائيين اللذين تحدثت وســـائل الإعلام الإسرائيلية عن مسؤوليتهما في الحادث. فينتقل الأب بـــين بلـــد وآخر، ويطول به الأمر، فيكتشف شيئاً فشيئاً واقع الفلسطينيين وحقيقـــة

قضيتهم. وفي ذات يوم يواجه في بحثه، أحد الشابين المتهمين، ولكنه لم يجد في نفسه القدرة على إطلاق النار عليه.

بل وجد نفسه يدمدم: لو كنت فلسطينياً لكنت وضعت أنا بنفسي هذه المتفجرات..

هل وراء هذه الرواية دعوة إيديولوجية ما؟

بل دعوة إلى الوحدة العربية.. لأن العرب لا يمكن أن ينتصـــروا إذا ظلوا كالرمال لا يجمع بينهم شيء، على الرغم من كثرتهم الهائلة.

هل تتوقع ردود أفعال سلبية أو عدائية تجاهك؟

الذين عرفوا الحرب سيغضبون بلا شك.. ولكن مؤيدي الحق العـــربي يكثرون، ولا بد للحق من الظهور. الحرب مضت وتركت آثاراً ما. المهم ما يجري اليوم.. وما قد يجري غداً، بسبب هذا الذي يجري اليوم.

هل تفكر في ترجمة هذه الرواية إلى العربية؟

أتمنى ذلك ولكن أين المترجم؟

ما رأيك بصديقنا سامي؟

فردّ عليّ كلاهما بابتسامة رضى.

أيها الصديق هيلد،

ألف تحية محبة وشكر لك.

كلمات أخيرة

من له عينان للقراءة، فليقرأ
مسرحية بخمسة فصول مكتملة سابقاً ولاحقاً..[1]

قراءة في كتاب "حديث المبادرة" لمحمد حسنين هيكل...

يقول حسنين هيكل:

الفصل الأول: في البدء

لوحة أولى: (صفحة: ١٥ – ٢٢)

"منذ بدء هذا الذي اصطلحوا على تسميته بـ "مبادرة السلام"، فإني تكلمت، ولكني هذه اللحظة فقط أكتب..

"تكلمت لأول مرة يوم الاثنين ١٤ نوفمبر، وكان ذلك بعد خمسة أيام بالضبط بعد إعلان المبادرة. وكان كلامي أمام عدسات التلفزيون لمحطة – إي.بي.سي–، وهي أكبر محطات التلفزيون الأمريكية..

(١)– نشر في "صوت فلسطين" – العدد ١٣٤ – شهر آذار ١٩٧٩.

"سؤال: إذاً ما هو رأيك فيما يجري الآن؟

"جواب: أعترف أني لا أفهم هذا الذي يجري الآن.. وكل ما أرجوه أن يكون صادراً عن مخطط واضح ومدروس، يستهدف استعادة السلام القائم على العدل. وإذا كان الأمر كذلك، فإني أرجو له النجاح. ومع ذلك فلا بد أن أعترف أنني لا أستطيع أن أرى كيف يمكن لهذا النجاح أن يتحقق..

"دعني أعترف أنني شعرت بالقلق عندما سمعت الرئيس السادات يقول إنه لم يستشر في مبادرته أحداً، وإن جميع مستشاريه لم يعرفوا بها إلا عندما قام بإعلانها..

"إن السلام لا تصنعه إرادة رجل واحد مهما كانت الثقة به..

"ثم إن صنع السلام يحتاج إلى اقتناع كل الناس، وبالدرجة الأولى اقتناع كل الدول العربية: فالقضية هي قضية الأمة العربية كلها.

"لهذا فإني لا أفهم ما يجري، ولا أستطيع أن أتحمس له..

"سؤال: ما هو الدافع للذهاب إلى القدس؟

"جواب: إنني حتى لا أعرف ما هو الدافع إلى هذه الزيارة المقترحة للقدس.. أتصور أي شيء إلا الذهاب إلى القدس..

"الحقيقة أني لا أعرف.. هناك بالتأكيد دافع جعل هذا التغيير في الموقف ممكناً.. عندما كان الرئيس السادات في الولايات المتحدة في الربيع

الماضي، تحدثوا معه عن تطبيع العلاقات مع إسرائيل، وكان رده أن ذلك لن نراه في جيلنا، وربما تحقق في أجيال لاحقة، وكان في ذلك على حق.

"كان أقصى ما أبدى الاستعداد له، هو إنهاء حالة الحرب في مقابل الانسحاب وقيام الدولة الفلسطينية، وذلك فيما أظن كان منطقياً..

"كذلك تحدثوا مع الرئيس السادات في الربيع الماضي، عندما كان في أمريكا عن المفاوضات المباشرة، وكان رأيه أنه لا يرى إمكانية لذلك طالما الأرض محتلة، وكان في ذلك على حق.

"كيف تغيرت المواقف؟ ولماذا؟ لا أعرف.

"هناك شيء ما حدث، وأنا أعترف بجهلي به..

"سؤال: هل تتوقع مقاومة من الشعب المصري ضد الزيارة المرتقبة؟

"جواب: إنني لا أستطيع التحدث عن الشعب المصري، ثم إنه لم يمضِ وقت كاف على المبادرة بحيث يمكن إجراء رصد دقيق لاتجاهات الشعب.

"ولكن عندما أتحدث عن نفسي، فإني أتحدث في الواقع عن مواطن مصري، وبطبيعة الحال فلا بد أن ما أشعر به قريب على نحو أو آخر، مما يشعر به الآخرون من أفراد الشعب.. وأكثر ما أحس به أنا شخصياً هو الشعور بالحيرة.. دعني أقول إنني لم أفهم أيضاً سر الذهاب إلى القدس..

"كل هذه الأشياء لا أفهمها، وأتصور قياساً على شعوري أن هناك غيري لا يفهمونها.

"إنني أرى من حولي ما يشبه مهرجان الفرح، ومـــن العيـــب أن يتحدث الإنسان بالشؤم في ليلة الزفاف، ولكني مع الأسف لا أعتبرها ليلة زفاف"..

لوحة ثانية: (**صفحة ٢٢ – ٢٤**)

"وفي يوم الخميس ١٧ نوفمبر، وجدت نفســـي أمـــام عدســـات تلفزيون هيئة الإذاعة البريطانية..

"سؤال: ما هو رأيك في النتائج التي يمكن أن تسفر عنـــها الزيـــارة القادمة التي يزمع الرئيس السادات أن يقوم بها إلى القدس؟

"جواب: لا بد أن أقول لك بكل موضوعية إنني حتى الآن ما زلت مذهولاً لهذه الزيارة.

"إنها في رأيي تجيء على عكس كل شيء من أسس سياساتنا قبلها، حتى في عهد الرئيس السادات نفسه..

"كيف يمكن عبور الخطوط إلى الناحية الأخـــرى؟ ذلـــك يفـــوق مقدرتي على التصور.. هناك حالة حرب ما زالت قائمة.. وهناك أجـــزاء من وطننا محتلة.. وهناك أجزاء من عالمنا العربي محتلة.. والخصم الذي نعبر إليه يقول لنا صراحة إنه لن يقبل تحت أي ظرف من الظروف أن ينسحب إلى ما وراء خطوط عام ١٩٦٧، ولن يقبل تحت أي ظرف من الظـــروف بقيام دولة فلسطينية..

"إنني لا أعرف للرحلة المنتظرة سابقة أخرى في التاريخ..

"ومن سوء الحظ أنني قرأت في إحدى الصحف المصرية استشهاداً تاريخياً برحلات السلام التي يمكن مقارنتها برحلة القدس.. ومبعث سوء الحظ أن الباحثين في التاريخ من كتاب الصحف المصرية لم يجدوا ما يقارنون به هذه الرحلة إلا سابقتين عليها ؛ هما رحلة "نيفيل تشمبرلين" رئيس وزراء بريطانيا إلى ميونخ لمقابلة هتلر سنة ١٩٣٨، ثم طيران "رودولف هيس" نائب هتلر إلى اسكوتلندا، في سنة ١٩٤١، لمقابلة "تشرشل".

"وأظن أن المقارنة مزعجة..

"سؤال: غير معقول.. هل قالوا ذلك فعلاً؟ هل أجروا هذه المقارنة؟

"جواب: إن الصحيفة التي نشرت هذا الكلام على مكتبي في الغرفة المجاورة، وتستطيع أن تأخذها إذا أردت..

"سؤال: إذن لماذا هذه الرحلة ؟

"جواب: أنا شخصياً، لا أعرف... ولكني أدعو الله أن يكون هناك من يعرف أكثر مني. وإلا فنحن في مشكلة خطيرة".

الفصل الثاني: رحلة العبور.. (صفحة ٢٥ – ٢٦)

"رأيت أن أمتنع حتى عن الكلمة المنطوقة مع قرب إتمام الزيارة. بل إنني غادرت القاهرة إلى الإسكندرية لأبتعد عن مركز الحوادث، منتهزاً فرصة إجازة العيد. لكن ما يجري كان له تأثير المغناطيس في قوة جذبه، مهما حاولت الابتعاد. وهكذا وجدتني على شاطئ البحر في الإسكندرية، وأمامي طوال الوقت، جهاز راديو أتنقل بمؤشره بين إذاعات العالم.

"وأعترف على استحياء أنني لم أتمالك نفسي ذات مرة حين سمعت إذاعة القاهرة تتحدث عن ترتيبات وصول الرئيس السادات إلى القدس، مساء يوم ١٩نوفمبر، وتقول بين ما تقول إن "سرباً من مقاتلات سلاح الجو الإسرائيلي سوف يخرج للقاء طائرة الرئيس السادات"..

" لم أتمالك نفسي، ولا أعرف لماذا لحظتها. فإذا أنا أغطي عيني بكفي، وأجهش في بكاء لم أعرفه منذ تلك اللحظة الرهيبة التي وقفت فيها بجوار فراش عبد الناصر وهو يجود بالنفس الأخير.وأنا لم أستطع ضبط مشاعري إلا عندما أحسست بيد تلمس كتفي في رفق، والتفت لأجد طفلي الصغير يرقبني بعينين تملؤهما الدموع والدهشة، شاعراً أن شيئاً خطيراً ألم بي، ولكن مداركه لا تسعفه بتفسير لهذا الذي لم يعهده فيّ من قبل.

"وواصلت متابعة الأحداث، كما فعل الملايين غيري في العالم العربي وخارجه. ولكني أسلمت نفسي لصمت حزين أطبق عليّ أياماً طويلة، حتى بعد أن عدت إلى القاهرة وانقضى ذلك المهرجان الغريب وانفض سامره، وإن بقيت أصداؤه ملء الآفاق.."

فاصل:

١- "لدينا قول الرئيس السادات في أول حديث صحفي أدلى به بعد إعلان مبادرته حين قال:

"لقد بدأت أفكر في الموضوع بطريقة جدية، عندما أقلعت بي الطائرة من مطار بوخارست في الطريق إلى طهران.. عندما كانت الطائرة قرب الحدود التركية البلغارية، كان رأيي قد استقر على الذهاب إلى القدس" (ص٤٤).

٢- "وفي طهران يقول المتصلون بالقصر الإمبراطوري إن الشاه محمد رضا بهلوي لم يفاجأ عندما أعلن الرئيس السادات استعداده للذهاب إلى القدس المحتلة.

"ومن الحق أن يقال أن الشاه كان له دائماً رأي في انتماء مصر العربي، وفي دورها في الصراع العربي الإسرائيلي.

"كان رأي الشاه أن مصر ليست عربية، وأنها مثل إيران مجرد جار للعرب ومجرد صديق في الإسلام.

"وكان رأي الشاه أن الصراع العربي الإسرائيلي كلف مصر أكثر مما تطيق، وأنه قد حان الوقت لكي تلتفت لنفسها وتنصرف إلى شؤونها الخاصة...(ص٤٥).

٣- "قمت أخيراً بجولة عربية قصرتها على منطقة الخليج.. وكان السؤال الذي سمعته أكثر من غيره حيث ذهبت، هو: أين مصر؟ وماذا

حدث للشعب المصري؟ وكيف قبل الناس هناك بهذا كله؟ وما الذي جرى؟ وكيف جرى؟ ولماذا جرى؟

"وكان ردي في كل الأحوال:

- مصر بخير.. وشعبها كما عهدتموه دائماً..

"أريدكم قبل كل شيء -وكمقدمة لأي كلام- أن تطمئنوا على عروبة مصر. وثقوا بأني لا أقول لكم ذلك فرط حماسة لقناعة أؤمن بها، وبالتالي فإنني أعمم خالطاً بين الواقع والتمني.. بل أقوله لأن الأقدار التاريخية للشعوب ليست تقلبات مزاج يرضى ويغضب بالهوى، وإنما الأقدار التاريخية للشعوب هي نتائج مباشرة للجغرافيا والتاريخ، وما يصنعه الاثنان بمنطقة معينة من العالم، من صلات وتفاعلات وضرورات أمن ومقتضيات مصلحة. وهكذا فإن الاختيار العربي لمصر لم يكن قراراً اتخذه جمال عبد الناصر، وبالتالي فهو قرار يمكن العدول عنه.

"القول بمثل ذلك خلط. فحتى القيادات العظيمة للتاريخ لا تملك اختيار أقدار بإصدار قرار. وإنما ميزة القائد التاريخي هي مقدرته على الاتصال بالحقائق التاريخية، وقابليته للتعبير عنها فكرة وحركة.

"وهكذا فإن تصور خروج مصر عن عروبتها يوازي تصور خروج مصر عن جغرافية موقعها وعن تاريخها، وعن خلاصة تراثها الإنساني والحضاري، وعن ضرورات أمنها ومقتضيات مصلحتها.. (ص٥٥-٥٧).

٤- "لعلي حين أستعير أسلوب السينما -العرض البطيء- لا أقحم على السياسة عنصراً غريباً على طبيعتها. فالحقيقة أن بعضاً مما رأينا في التطورات الأخيرة كان في كثير منه عدسات وميكرفونات وأضواء وألوان. ولم تكن السيدة غولدامائير بعيدة عن الواقع حين قالت: "لا أعرف إذا كان ما يحدث يستحق جائزة نوبل التي تمنح لجهود السلام العظيمة... ولكني أعرف يقيناً أنه يستحق جائزة الأوسكار التي تمنح لأفلام السينما الناجحة". (ص٦٩).

الفصل الثالث:

<u>لوحة أولى:</u> في الجانب الإسرائيلي:(ص١٨٥-١٨٦)

"قال بيغن في جلسة ٢١يونيو ١٩٧٧، أمام الكنيست:

١- "إني أعلن أن حكومة إسرائيل لن تطلب من أي أمة، قريبة أو بعيدة، صغيرة أو كبيرة، أن تعترف بحقنا في الوجود.

"الحق في الوجود؟ هل يخطر على بال أي بريطاني أو فرنسي، بلجيكي أو هولندي، روسي أو أمريكي، أن يطلب الاعتراف بحق شعبه في الوجود؟ إن وجودهم هو حقهم. وينطبق الشيء نفسه على إسرائيل. أنا لا انتظر من أحد أن يطلب من أجلنا الاعتراف بحق وجودنا، وإنما المطلوب اعتراف آخر: اعتراف بسيادتنا على أرض إسرائيل"

٢- "إن أرض إسرائيل غير قابلة للمناقشة. وأريد أن أذكر الكنيست بما قاله "جابوتنسكي":

"قبل قدومنا إلى أرض إسرائيل، لم نكن شعباً و لم نكن موجودين. على تراب أرض إسرائيل، نشأ الشعب العبري. على تراب أرض إسرائيل ترعرعنا، وعليها أصبحنا مواطنين، وحصنّا عقيدة الرب، وتنشقنا أريج البلاد في أعماقنا، وفي نضالنا من أجل الاستقلال والحكم أحاط بنا جوها، وغذّت أجسادنا الحيوية التي نمت على أرضها.. في ارض إسرائيل، تطورت أفكار أمنياتنا. وفيها نردد أول مرة نشيد الأنشاد.. إن كل ما هو عبري فينا منحتنا إياه أرض إسرائيل، وكل ما عدا ذلك لدينا فهو غير عبري، وإن إسرائيل وأرض إسرائيل هما شيء واحد."

٣- "إننا نسعى لتعميق الصداقة بيننا وبين الولايات المتحدة. إن ما يوحد بين إسرائيل والولايات المتحدة ليس فقط المشاعر العميقة والإيمان بالقيم الأخلاقية والديموقراطية المشتركة، بل أيضاً، بحسب إدراكنا، المصالح المشتركة الحقيقية والعميقة. إن المشاعر والمصالح أبقى من أي نظام، وأقوى من أي ظروف سياسية مؤقتة. وأنا واثق من أن الشعب والإدارة في أمريكا لن يقبلوا لنا إلا ما نقبله لأنفسنا. ففي علاقات المشاعر والمصالح، ليس هناك ضغط يمارسه طرف إزاء طرف، وإن هذا النوع من العلاقات يقوم أساساً على الاحترام المتبادل".

لوحة ثانية: في الجانب المصري: (ص٢٣٢-٢٤٠)

يقول هيكل:

١- "لا أعرف ما الذي كان يدعونا إلى تلك الحملة المركزة "لغسل مخ" الشعب المصري تجاه الصراع العربي الإسرائيلي.

"رحنا نصور له أن السلام قريب.. وكان في متناول اليد طوال الوقت، ولكننا نحن الذين رفضنا أن نمد يدنا بالمكابرة والجهل..

"جرت محاولة لوضع الشعب المصري في أقل من مكانته الطبيعية، وذلك شيء لا يغتفر.

"والمحزن أنها ليست المرة الأولى التي تحدث فيها مثل هذه المحاولة. لقد كانت هناك سابقة سنة ١٩٧٤، عندما عبئت الجماهير المصرية "بغسل المخ"، لكي تستقبل "ريتشارد نيكسون" كما يستقبل الأبطال..

"والشعب المصري في صميم الأمر غير ملوم.. فلقد كان هناك من تولوا "غسل مخه" ولو لأيام..

٢- "لا أعرف ما هو السبب الذي جعلنا نفتح أبواب مصر لكل هذه الأعداد من الإسرائيليين..

"في وقت من الأوقات، كان في مصر قرابة خمسمائة صحفي ومصور ومذيع من إسرائيل، أو من ادعوا هذه الصفة.وكانت مصر كلها مباحة أمامهم.. مدنها وريفها.

"ولقد وصل الأمر إلى حدّ ترتيب مظاهرات ودية تستقبل "إليـــاهو بن اليسار"، رئيس الوفد الإسرائيلي في مؤتمر القاهرة الفاشل، حينما ذهب لزيارة معبد يهودي في وسط القاهرة، وحينما ذهب لزيارة قرية "ميت أبو الكوم". وعاد "بن اليسار" من زيارته إلى فندق "مينـــا هـــاوس"، يقـــول للدكتور عصمت عبد المجيد رئيس الوفد المصري، على مسمع من عشرات الصحفيين المصريين والأجانب:

"إنني سمعت اليوم هتافاً بحياة "بيغن".. إنني لم أسمع مثل هذا الهتاف في حياتي..لا أظن أن هذا الهتاف يردد أبداً في إسرائيل".

٣- "لا أعرف أي منطق دعانا إلى هذه الحملة التي شنتها وسائل الإعلام عندنا ضد انتمائنا العربي..

"ما الذي أردنا إثباته لأنفسنا أو لغيرنا بهذه الحملة؟

"تصورنا أننا بذلك نبرز إرادتنا المستقلة، ونسينا أننا بذلك نتنـــازل طواعية عن أعظم أسباب القوة الاستراتيجية التي تجعل لإرادتنـــا -مهمـــا بلغت درجة استقلالها- وزناً مؤثراً في مصير الشرق الأوسط.. بل حتى في مصير مصر ذاتها.

٤- "لست أعرف ما الذي يفرض علينا أن نقول ما قلنا أخيراً من أن خيار الحرب مستبعد من الاستراتيجية المصرية، وأنه لـــيس أمامنـــا إلا المفاوضات ومزيد من المفاوضات. فإذا لم تنجح محاولة، رحنا بعدها نحاول ثانية وثالثة.. وهكذا إلى الأبد..

"هل يمكن أن تكون هذه استراتيجية تستخلص حقاً أو ترد عدواناً"؟...

لوحة ثالثة: في الساحة الدولية: (ص٢٧٠-٢٧١)

يقول هيكل:

"هناك سؤال يلح عليّ الآن، وأتصوره ملحاً على غيري:

"إذا كانت إسرائيل قد أخذت ذلك كله مفصلاً ومسجلاً وموثقاً، في مقابل بضعة كيلومترات من سيناء، فما الذي أخذه العرب في مقابل كل ما أعطوه للولايات المتحدة أو لإسرائيل، وهو هائل هائل.. هائل إلى غير حدود؟..

"بعضه -وليس كله- يتضمن ما يلي:

١- "إخراج الاتحاد السوفيتي من العالم العربي -أو محاولة ذلك- ابتداءً من طرد الخبراء إلى إلغاء المعاهدات.

٢- "مطاردة الاتحاد السوفيتي في إفريقيا -أو محاولة ذلك- خصوصاً في القرن الإفريقي، بصرف النظر عن النتائج الفعلية.

٣- "فتح الأبواب على مصراعيها للولايات المتحدة، ابتداءً من تركيز أوراق الحل بيدها إلى تأييد وتوسيع دائرة مصالحها.

٤- "رفع حظر البترول قبل أن تتحقق الأهداف التي فرض لأجلها.

٥- "تسهيل وجود عسكري أمريكي في المنطقة تصعب السيطرة على نشاطه.

٦- "الاعتراف بوجود إسرائيل، والتفاوض المباشر معها.

٧- "تجميد أسعار البترول وقبول الدفع عنه بالدولار رغم تدهور أسعاره يوماً بعد يوم.

٨- "المبادرة بكل ما تعنيه..

"ذلك بعض ما أعطيناه، وليس كله، ولست أعرف ماذا أخذنا في مقابله.. لم نأخذ أكثر من وعود غامضة مبهمة تحتمل كل معنى وكل تأويل.. ولكننا اكتفينا بها حامدين شاكرين.. ولم ننتبه إلى أن الحوار قد ضاع لاختلاف -بل لتصادم- منطقين.. ثم أسعدنا أن نقول لأنفسنا:

"هم مرابون يهود.. ونحن لسنا كذلك.. نحن فرسان وشعراء وفنانون.."

الفصل الرابع:

كمب ديفد سابقاً...

الفصل الخامس:

كمب ديفد لاحقاً...

لا تغفر لهم يا أبتاه لأنهم يدرون ما يعملون[1]

"خنجر إسرائيل"... كتيب صغير، حمل نبوءة كارثة حزيران ١٩٦٧ إلى القارئ العربي، قبل حدوثها بعشر سنوات... ولم يقرأ إلا بعدها...

"المجابهة" بالإنكليزية، أو "حرب الغفران الحقيقية" بالفرنسية، كتاب كبير حمل نبوءة كارثة آذار ١٩٧٩ إلى المثقف العربي، قبل حدوثها بخمس سنوات.. فهل من قرأه؟...

"المجابهة": مؤلفه: والتير لاكور، مدير مركز دراسات التاريخ الحديث بلندن، وهو يهودي صهيوني. وقد نشر كتابه في لندن عام ١٩٧٣. وطبع في ترجمته الفرنسية عام ١٩٧٤ في باريس تحت عنوان "حرب الغفران الحقيقية".

ماذا يقول الكتاب؟

لندع جانباً القسم الأكبر منه، وهو يستعرض فيه مقدمات الحرب وأحداثها ومضاعفاتها السياسية والاقتصادية، محلياً وعالمياً. وقد خصصنا

---

(١)- نشر في "صوت فلسطين"، في العدد ١٣٧، في شهر حزيران (يونيو) عام ١٩٧٩.

هذا الجانب في حينه بدراسة موجزة، نشرت في "صوت فلسطين بالـذات بتاريخ ١ آذار ١٩٧٥".

يهمنا منه اليوم... ما يجري الآن تحت سمعنا وبصرنا.

يحمل الفصل الأخير من الكتاب عنواناً لـه دلالتـه: "احتمـالات المستقبل"... ففيه "تنبأ" الكاتب بوضوح كلي بما يجري تحت سمع الجميع.. وأنفهم منذ سنتين ونيف...

لنوجز، معتمدين نصوص الكتاب بالذات في ترجمة شخصية..

يؤكد الكاتب أن أمام إسرائيل احتمالين لا ثالث لهمـا، فيعـرض لهما، دون أن يفوته أن يوضح العقبات الناجمـة عـن الاحتمـال الأول، وكذلك التبرير الأساسي الذي يبني عليه تبني إسرائيل لكل مـن هـذين الاحتمالين:

الاحتمال الأول:

احتفاظ إسرائيل بالأراضي العربية التي احتلتها بعد حزيران ١٩٦٧، لتضمن لنفسها حدوداً آمنة.. يقول الكاتب:

"إن خطوط الهدنة الجديدة كانت، من وجهـة نظـر عسـكرية، نموذجية، بحيث صار بوسع الجيش الإسرائيلي أن ينتـهج، لأول مـرة في تاريخه، استراتيجية العمق. فقد كانت حدود ما قبل ١٩٦٧ مـع الأردن تبلغ ٣١١ كلم طولاً، بينما هي أصبحت بعد وقف إطلاق النار ٧٨ كلم.

وكان الأردنيون، قبل الحرب، يقفون على بعد ٣٠ كلم من تل أبيب، والمصريون على بعد ٨٠ كلم. ومنذ ذلك الحين، أصبح المصريون يبعدون مئات الكيلومترات، والأردنيون في الضفة الأخرى من الأردن. كما أصبح بمقدور الطائرات الإسرائيلية أن تبلغ القاهرة في دقائق، بينما تحتاج الطائرات المصرية إلى مدة أطول بكثير لتبلغ تل أبيب. وبات بمقدور إسرائيل أن ترفض التخلي عن هذا الخط، دون أن ترتكز، كما يفعل دعاة الضم، إلى سفر الخروج (فصل ١٥، الآية ١٨: "لنسلك أعطي هذه الأرض...")، أو إلى أوامر إلهية أخرى أو نبوءات كتابية".

وأما العقبات القائمة في وجه هذا الاحتمال، فثلاث: القانون الدولي، والرأي العام العالمي، ونشوب حرب جديدة.

القانون الدولي أولاً:

يقول الكاتب.

"إن القوانين المتعارف عليها تبيح للقوى الكبرى أن تبتلع بلداناً بكاملها، ولكنها لا تجيز لبلد صغير مثل إسرائيل حدوداً يمكن الدفاع عنها... إن قوى أعظم حجماً قد حلت مشاكل من هذا النوع بصورة جذرية: فإن طرد الألمان من أوروبا الشرقية هو أقرب مثال يوفره التاريخ الحديث، ولكن هذه الحلول لا تجوز للبلدان الصغيرة. ههنا تكمن المشكلة.. ويراد لإسرائيل أن تحترم هذه القواعد غير المكتوبة، وتمتثل لرغبات الدول العظمى، وتتصرف كأوروبا الغربية، لتصل ربما إلى النتائج نفسها..".

الرأي العام العالمي ثانياً:

يقول لاكور:

"ماذا عساه أن يحدث لو أن إسرائيل تصرفت بصورة غير معقولة.. كما يفعل منتجو النفط والإرهابيون والعرب؟

"فقد يثير هذا استنكار العالم، ويلوح الروس بالتهديد، ثم تقطع بعض الدول علاقاتها مع إسرائيل، وتمارس واشنطن بعض الضغوط.. ولكن من المحتمل أنه لن يحدث ما هو أسوأ من ذلك..."

نشوب حرب جديدة ثالثا:

"من المؤكد أن هذه السياسة ستشعل حرباً جديدة، ولسوف يكون الصراع طويلاً ومضنيا".

هذه عقبات لا يستهان بها تقف في وجه الاحتمال الأول. وهي تنطوي على مضاعفات خطيرة، لا يفوت الكاتب أن يذكر منها تلك الناجمة عن اعتماد إسرائيل المفرط على الولايات المتحدة من جهة، وعن انتقاصها من أهمية الدعم السوفييتي للعرب.

ولكن ثمة أجوبة أو حلول لهذه العقبات يبسطها الكاتب بصراحة إن لم نقل بوقاحة، تنطوي على تبرير أساسي لجميع المواقف الإسرائيلية، الراهنة والقادمة، وهو يستمدها:

أولاً– من واقع إسرائيل النهائي، حيث يقول:

"إن إسرائيل تقاتل من أجل وجودها بالذات، وتلك ليس حال العرب.. فهي في النتيجة تتمتع بحظ أوفر في الانتصار".

ثانياً– من واقع تطور السياسة العالمية:

"إن السنوات القادمة ستحمل دون شك تبدلات سياسية واسعة في العالم. وقد تسبب انهيار أوروبا الكامل، أو على العكس من ذلك – وهذا أقل احتمالاً– بعث قوتها. وقد تنشب الحرب بين الصين والاتحاد السوفييتي...

"وستخضع العلاقات الدولية بصورة عميقة لشريعة الغاب..

"فإن لم تساير إسرائيل هذا التطور، قضي عليها بصورة شبه مؤكدة. فلا بد لها إذن من أن تتصرف بقسوة، وعلى نحو مفاجئ، وإلى حد ما، غير معقول.."

ثالثاً– مما يعتبره واقع تسلط العرب نفطياً على الاقتصاد العالمي، أي الغربي، يقول:

"إن الاقتصاد الغربي يخضع لحفنة من مشايخ النفط، وهو مهدد بسببهم بالانهيار والإفلاس، وقد ذاق المستهلك الغربي طعم هذا التسلط إبان حرب تشرين وبعدها...

"والحال أن الحكمة الشعبية تؤكد أن العرب لا يحترمون إلا القوة... وليس ثمة من قوة تطالهم في عقر دارهم سوى قوة إسرائيل..."

هذا عن الاحتمال الأول..

وأما عن الاحتمال الثاني:

فالدخول في مفاوضات تنتهي إلى معاهدة سلام...

والسؤال الكبير المطروح هو التالي:

من هو المفاوض العربي؟

منذ السطور الأولى من هذا الفصل الخطير، يتضح "أن المفاوض مصر، ولا أحد سوى مصر".

المعنيون الرئيسيون بالصراع العربي الإسرائيلي هم من الجانب العربي:

الفلسطينيون،

والأردن،

وسورية،

ومصر،

وما بين اللمسات الخفيفة السريعة، والتصريحات الفاضحة، تتكشف أبعاد الخطة. يقول الكاتب بصدد الحديث عن الفلسطينيين:

"ينص الدستور الوطني الفلسطيني، الذي يعود إلى تمــوز ١٩٦٨، على أن إنشاء دولة إسرائيل - باطل ومرفوض".

"وقد تبين أن المنظمات الإرهابية لم يكن ليستبد بها سوى خــوف واحد:

"أن تنتهج إسرائيل سياسة على جانب أكبر من المرونة تنتزع منــها مبرر وجودها".

ويرى بشأن الدول العربية الثلاث: الأردن وسورية ومصر:

"إنه من الممكن التوصل إلى اتفاق مع الأردن..

"وإن احتمالات الصلح مع سورية منعدمة. ولكن سورية منعزلة لا تشكل خطراً كبيراً".

"أما مصر - وكانت يومها تجلس إلى مائدة المفاوضات في جنيف - فقد يكون مؤتمر السلام جاء متأخراً بالنسبة إليها أكثر من اللازم.. مع أن عقده قد يكون أمراً مبتكراً، إذ إن سائر العرب ليسوا مستعدين نفسياً لأن يتقبلوا حتى وجود إسرائيل، أية كانت حدودها".

مثل هذا التصريح ينطوي على "معميات" مذهلة.. ولكن الكاتــب لم يدع هذه "المعميات" طيّ الكتمان أو العقول المخططة، بل إنه لم يتورع

عن كشف النقاب عما يمكن أن يبدو، بعد مرور خمس سنوات على صدور كتابه، خطة دقيقة بقدر ما هي بعيدة المدى.

لماذا مصر بالذات؟

يقول والتير لاكور مفتتحاً الملاحظات التي يشرح بها قابلية مصر للمفاوضات:

"قد لا يكون مؤتمر جنيف سوى البداية لعملية طويلة – وربما المؤتمر الأول في سلسلة مؤتمرات، يتخللها أزمات وضغوطات وتهديدات وقطع للحوار وعودة إلى القتال، تعقبها مفاوضات جديدة.

"وإن البحث في احتمالات السلام بين إسرائيل والبلدان العربية، يعني كتابة تاريخ الشرق الأوسط منذ حرب حزيران ١٩٦٧. ولقد كانت محاولات التسوية السلمية طويلة، بالغة التعقيد، وبالنتيجة غير مجدية. فليس اليوم لمشروع روجرز ومشروع يارينغ وغيرهما من المشاريع الكثيرة سوى أهمية أكاديمية، ما لم يحدث ما يدعو لبعثها من جديد. وهذا الأمر ليس بمستبعد.

"إن تاريخ هذه المفاوضات، المشحون باليأس، يترك العديد من الأسئلة دونما جواب، وبالدرجة الأولى ما إذا كانت إسرائيل فوتت عليها فرص تحقيق السلام مع جيرانها. وغني عن البيان أن إسرائيل لم تجهل أي انفتاح سلمي من قبل العرب: فإن أياً منهم لم يمد لها يده. ولم يعدها بالسلام، حتى لو كانت قد سحبت قواها.

"وأما إن كان يستحيل، بصورة مطلقة، التوصل إلى اتفاق مع مصر، حول نزع السلاح في سيناء مثلاً، وإن كان اتفاق من هذا النوع لا يلغي الصراع بعض الشيء، ويخفف من احتمال نشوب القتال مجدداً، أما هــذا فإن اكتشافه ليشكل مسألة تختلف كل الاختلاف.."

إذن مصر هي المخرج...

وقد تكون الحليف..

لندع الكاتب يتكلم فقرة تلو الأخرى، ولنكتف بإبراز عنوان خاص لكل فقرة، حتى تكتمل لدينا الصورة التشريحية لمصر، كما يقوم بها:

يقول في القادة المصريين عموماً:

"في أعقاب هجوم عام ١٩٦٧، كثر التأكيد بأن حرباً تنشب مــن خطوط ما قبل ١٩٦٧، كانت تهدد وجود إسرائيل بالــذات. لا شــك. ولكن هذه الحجة تقوم على فرضية لا يمكن قبولها دونما تمحيص عميــق، نعني بها أنها كانت البديل الوحيد لخط بارليف.

"وقد أكد بعضهم أن سيناء، بعد نزع السلاح منها، يمكن أن تكون منطقة إنذار أعظم جدوى من قنال السويس.

"ثم إنه يستحيل التسليم بصورة مسبقة، بحتمية هجوم مصري. فإن القادة المصريين يواجهون العديد من المشاكل في الداخل والخــارج علــى السواء. ربما لم تكن حرب جديدة لتنشب عام ١٩٧٣، إلا في حال قيــام

وضع مسدود. وقد نكون سمعنا خطباً قتالية وتهديدات، وقد يكون القادة المصريون وعدوا مرة أخرى بتدمير دولة إسرائيل يوما ما. ولكن ذاك الشعور بالواجب الملح في استعادة الأراضي المفقودة، لم يكن ليشتد في مصر. وكان الصراع بمرور الزمن قد فقد بعض حدته...".

ويقول في السادات خصوصاً في قمة الجزائر:

"في قمة الجزائر اعتبر القادة العرب النضال ضد الغزو الصهيوني مسؤولية تاريخية بعيدة المدى، تنطوي على الكثير من المحن والتضحيات... ومع ذلك بدا أن السادات قد حقق على العموم انتصاراً في هذه القمة، إذ إنها لم تعلن الحظر على المفاوضات مع إسرائيل، الأمر الذي كانت قمة الخرطوم قد رفضته بصورة قاطعة عام ١٩٦٧".

ويطرح السؤال الأكبر: صلح منفرد؟

"هل قيام سلام منفصل – أو تسوية – بين مصر وإسرائيل أمر ممكن ودائم؟

"ليس من قبيل الصدفة أن القسم الأول من مؤتمر جنيف خصص لمصر وإسرائيل دون سواهما: لم يكن ذلك بالتأكيد بداعي فصل القوات. ولا تبدو الصعوبات للوهلة الأولى، بمستحيلة.

"فإن أقر لمصر بسيادتها على سيناء، وإن وافقت مصر على مشروع فعال لنزع السلاح، فعندها لم تعد تقوم إلا مسألة شكلية بشأن منطقة

إسرائيلية منزوعة السلاح، ومسألة قطاع غزة ومسألة شرم الشيخ. فليس بين الخصمين من يرغب كثيراً في تحمل قطاع غزة - وإن كان كل منهما لا يصرح بذلك-. وإذا فرضنا أن إسرائيل ستنسحب شيئاً فشيئاً من سيناء، وأن المصريين أقروا بمبدأ نزع السلاح، فإن اتفاقاً بين البلدين يصبح ممكناً، بعد مساومات قاسية".

وماذا عن عروبة مصر؟... يقول:

"أكدت مصر لحلفائها العرب أنها لن تبرم الصلح مع إسرائيل بأي حال، ما لم تنسحب إسرائيل من الأراضي المحتلة كلها، ويستعد الفلسطينيون حقوقهم الوطنية..

"ولكن يجوز الشك بصورة مشروعة في ولاء مصر الحقيقي لقضية حلفائها. فمصر تكاد تتحمل وحدها منذ ٢٥ سنة، أعباء القتال ضد إسرائيل، في حين أن مشاعرها العروبية لا تبلغ في القاهرة العمق الذي تبلغه في سائر العالم العربي. ولقد حصل عبد الناصر والسادات في صراعهما ضد إسرائيل، على تأكيدات كلامية لا حصر لها لتقديم الدعم، وعلى نصائح لم يكونا ليطلباها. ولكن مصر لم تتلق في اللحظة الحرجة إلا مساعدة لا تكاد تكون أكثر من رمزية".

ثمة خلفيات لهذا "الواقع المصري" يوضحها بقوله:

"لسورية والعراق مآخذ عميقة وقديمة على مصر. وهما تعتبران أن قيادة العالم العربي تعود إليهما شرعاً.

"كما صرح القذافي من جهته مرات متوالية بأن مصر منحطة وفاسدة.

"وأما الوداد بين مصر والجزائر، فليس على أشده.

"ويعتبر المصريون من ناحيتهم أن السوريين والعراقيين أنصاف برابرة. وهم لا يكنون للفلسطينيين سوى الاحتقار..".

إذن تلك هي الثغرة: مصر كلها، وليس "الدفرسوار" فقط:

ذلك صحيح على أصعدة رئيسية ثلاثة: الرأي العام فيها، والقادة العسكريين، والسادات بالذات.

يقول الكاتب في الرأي العام المصري:

"مع أن مصر تمتلك بعض السمات المشتركة مع البلدان العربية، فهي تتمتع بطبيعة خاصة كثيرة التباين. وقد ظهر فيها تيار قوي على صعيد الرأي العام يدعو إلى وضع المصالح المصرية في المرتبة الأولى. وقد كانت حرب الأيام الستة صدمة خطيرة، فأجمع الناس في مصر على القول بضرورة غسل عار ١٩٦٧ في ساحة القتال واسترداد سيناء.

"ولكن إذا تسنى لمصر أن تحقق هذه الأهداف، فلن تعود تشعر بنفسها ملزمة لأن تكون البطل الأول في الصراع ضد إسرائيل. وكانت الجيوش المصرية تتحرق لقتال من أجل الإسماعيلية، ولكنها أقل تحرقاً للقتال، بل للموت، من أجل نابلس وطول كرم".

ويقول في العسكريين المصريين:

"أما العسكريون المصريون فلن يُقرّوا بذلك علناً. وسيواصلون التأكيد في أحاديثهم إلى أشقائهم العرب، بأن الهدف الأبعد يظل تحرير فلسطين برمتها. ولكنهم يوضحون بأن ذلك يبقى مهمة جيل أو جيلين أو ثلاثة. وقد صرح الرئيس السادات في خطاب ألقاه في ٢ حزيران ١٩٧١، مستوحياً الفكرة نفسها، "أن الصليبية العربية سوف لن تنتهي باستعادة الأراضي المحتلة. ولكنها ستدوم أجيالاً وأجيالاً". كما وأنه أعلن في أول أيار ١٩٧٢ في الإسكندرية أنه لن يكون هناك سلام ولا حرب، ما لم تُمحَ دولة إسرائيل بالكلية - ولكن حتى ذلك الحين، ستحدث تطورات كثيرة على ضفتي النيل والأردن".

ويقول أخيراً في السادات:

"بعد عام ١٩٦٧ - وخصوصاً بعد موت عبد الناصر - كان على السياسة الإسرائيلية أن تهدف إلى قيام معاهدة منفصلة مع مصر. وتقتضي هذه السياسة الموافقة على المطالب المصرية الرئيسية: انسحاب تدريجي من

قسم كبير من سيناء، والإقرار بمبدأ السيادة المصرية على القسم الأكبر من سيناء.. تلك هي السياسة التي يجب اتباعها اليوم.

"ولكن الصعاب هائلة. فمصر تعاني من فقر رهيب، وهي مرتبطة بقسط كبير بالمساعدة المالية التي تقدمها لها العربية السعودية ودول الخليج الفارسي. وإن المصلحة الكبرى لهذه البلدان تقوم لأسباب مختلفة، على استمرار الحرب ضد إسرائيل، إذ هي تشكل بالنسبة إليهم ضمانة ضد التطرف في العالم العربي، الذي يتهدد وجودهم.

"صحيح أن وضع السادات اليوم أقوى منه بقليل قبل الحرب، ولكن هذا قليل. فإن معاهدة مصرية - إسرائيلية لن تضع حداً للصراع العربي الإسرائيلي: فقد تنشأ مجابهات أخرى. والخطر ماثل في جر مصر إلى حملة جديدة ضد إسرائيل، إذا ما خلق السوريون والفلسطينيون من جديد مناخاً حربياً، واستنجدوا بالتضامن العربي.

"وإذا فرضنا أن مصر قررت آنذاك التزام الحياد، فسيُشهَّر بقادتها في العالم العربي كخونة، ويتهمون بالجبن، أو بما هو أسوأ من ذلك. وسيكون عندها صعباً على الحكومة المصرية في هذه الأحوال، ألا تبدي من جديد تمسكها بالقضية العربية.

"إن كان الاتفاق مع مصر ينطوي على مخاطر جسيمة، فإن الاحتمالين الآخرين ينطويان على خطورة أدهى. فأحدهما يقوم على الاحتفاظ بكل شيء، والآخر على مواجهة المشكلة في صلبها، بالموافقة

على تسوية يرضى بها العرب الفلسطينيون. وإن المقارنة بين هذه الحلول ونتائجها المتوقعة، تجعل توجه إسرائيل نحو مصر ينطوي على قدر أكبر من التعقل.

"وسينطوي هذا التوجه على انقلاب نفسي جذري. فمصر عدوة إسرائيل منذ عام ١٩٤٨. ولكن طالما أن مصالح البلدين لا تتنافى بالضرورة، فإن احتمال قيام علاقات طبيعية، إن لم نقل صديقة، أمر لا يجوز استبعاده.

"ولسوف يكون العالم العربي، في السنوات القادمة، مسرحاً لتبدلات سياسية كثيرة، مهما بدا ذلك، اليوم، بعيد الاحتمال.

"وليس بمستحيل قطعاً، مثلاً أن يأتي يوم تكسر فيه إسرائيل طوق العزلة الحالية، لتشارك في اللعبة السياسية في الشرق الأوسط، وتتحالف مع أي بلد عربي أو أكثر، ضد بلدان عربية أخرى"..

كتب ذلك عام ١٩٧٤...

نحن اليوم في منتصف أيار من عام ١٩٧٩.....!

	صفحة
١- مقدمة:	١
٢- القسم الأول: - نداءات:	٣٩
١- إلى علياء الصلح.	٤١
٢- رسالة إلى الكردينال فرنسوا مارتي.	٤٦
٣- رسالة إلى المطران هلدر كاميرا.	٥٢
٤- رسالة مفتوحة إلى الرئيس جيمي كارتر.	٥٩
٥- رسالة مفتوحة إلى الرئيس رونالد ريغن.	٦٧
٦- رسالة شخصية إلى الكردينال لوستيجه.	٧٣
٧- رسالة مفتوحة إلى قداسة البابا يوحنا بولس الثاني.	٧٦
٨- رسالة إلى القسيس بيير مارتان في جنيف.	٨٢
٩- رسالة مفتوحة إلى قداسة البابا.	٨٥
١٠- رسالة مفتوحة إلى الكردينال لوستيجه.	٩٤
١١- رسالة شخصية إلى قداسة البابا.	٩٩
١٢- جواب قداسة البابا.	١٠١
١٣- رسالة شخصية إلى الكردينال لوستيجه.	١٠٢
١٤- جواب الكردينال لوستيجه.	١٠٥
١٥- رسالة مفتوحة إلى جورج بوش.	١٠٦
١٦- رسالة شخصية إلى الرئيس شيراك.	١١٣
١٧- جواب الرئيس شيراك.	١١٥
١٨- رسالة مفتوحة إلى أصدقاء في الغرب.	١١٧
١٩- رسالة مفتوحة إلى جورج بوش.	١٣٥
٢٠- رسالة مفتوحة إلى السيد وزير الخارجية دومينيك	١٤١

دوفيلبان	
٣- القسم الثاني: - أبحاث:	١٤٧
١- الغرب وإسرائيل:	١٤٩
١- الغرب يسبح في بحر من عقدة الذنب.	١٥١
٢- وجهاً لوجه مع الغرب المريض بعقدة الذنب.	١٦٦
٢- اليهودية والصهيونية وإسرائيل:	١٨٣
١- دولة إسرائيل هل هي أرض الميعاد؟	١٨٥
٢- جوانب من مواقف الشتات الصهيوني.	٢٠٢
٣- عنصرية دولة إسرائيل.	٢١٧
٣- إسرائيل والمقدسات المسيحية والإسلامية:	٢٤٣
١- الأماكن المقدسة المسيحية.	٢٤٥
٢- تدمير القدس الحالي.	٢٦٧
٣- القدس، نهاية المدينة الكونية؟	٢٩٢
٤- إسرائيل والحرب والسلام:	٣١١
١- إسرائيل والسلام: استراتيجية المماطلة.	٣١٣
٢- حرب الغفران الحقيقية:	٣٥٢
أ- لو كنت قارئاً غربياً.	٣٥٣
ب- نظرة إلى الماضي أم نبوءة؟	٣٦٧
٤- القسم الثالث: - مواقف:	٣٩٣
١- مع مكسيموس الخامس في القارة الأمريكية.	٣٩٥
٢- مع المطران إيلاريون كبوجي.	٤١٢
٣- مع المطران يوسف طويل.	٤٢٤
٤- مع أسرة الرعية الجامعية خلال حرب تشرين، القداس والحرب	٤٥١
٥- يقينان وسؤالان.	٤٦٦
٦- لقاء برسم بعضهم.	٤٩٧
٤- كلمات أخيرة:	٥٠٥

١- من له عينان للقراءة، فليقرأ.	٥٠٧
٢- لا تغفر لهم يا أبتاه، لأنهم يدرون ما يعملون.	٥٢١

ظهر للمؤلف

١- باللغة العربية:

١- عرب مسيحيون أو مولد إيمان	مطبعة الأديب (دمشق)	١٩٦٩
٢- حول الإنجيل وإنجيل برنابا	المطبعة البولسية (لبنان)	١٩٧١
٣- المدينة المصلوبة (مسرحية)	منشورات وزارة الثقافة	١٩٧٣
٤- الطريق إلى كوجو (مسرحية)	منشورات اتحاد الكتّاب العرب	١٩٧٦
٥- المجتمع والعنف (مترجم)	منشورات وزارة الثقافة	١٩٧٦
٦- مجد الله هو الإنسان الحيّ	بالتعاون مع أفراد أسرة الرعيّة الجامعيّة (دمشق)	١٩٧٧
٧- يقينان وسؤال	منشورات جيش التحرير الفلسطيني	١٩٧٩
٨- تاريخ المسرح في خمسة أجزاء (مترجم)	منشورات وزارة الثقافة	١٩٧٩-١٩٨٩
٩- فكر هيجل السياسي (مترجم)	منشورات وزارة الثقافة	١٩٨١
١٠- وجبة الأباطرة (مسرحية)	منشورات اتّحاد الكتّاب العرب	١٩٨٥
١١- شهود يهوه: من أين وإلى أين؟	مطبعة دار العلم (دمشق)	١٩٩١
١٢- الصوفانية (١٩٨٢-١٩٩٠)	مطبعة الحرية (لبنان)	١٩٩١
١٣- اذكروا الله (ترجمه عن الفرنسية أديب مصلح)	المطبعة البولسية	١٩٩٥
١٤- سيّدة الصوفانيّة	القاهرة	١٩٩٧
١٥- ومن الكلمات بعضها	المطبعة البولسية	١٩٩٧

٢- باللغة الفرنسية

١- Soufanieh

Chronique des apparitions et manifestations de Jésus et de Marie, á Damas (١٩٨٢-١٩٩٠) Edition François – Xavier de Guibert, ١٩٩١, Paris.

٢- Souvenez – vous de Dieu

Messages de Jésus et de Marie á Soufanieh, Damas (١٩٨٢-١٩٩٠) Edition François – Xavier de Guibert, ١٩٩١, Paris.